

قطوف الرحمان

مِنْ زَهْرِ الْأَفْنَانِ

بِرِجِّ حَدِيقَةِ ابْنِ الْوَنَانِ

اختصار زهر الأفنان من حديقة ابن الونان

تأليف

أحمد بن محمد الفهري بن أحمد المختار الحلبي

المدرس بالمسجد الحرام

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين

نشر وتوزيع

أحمد بن أحمد بن محمد الفهري بن أحمد المختار الحلبي

مقوق الطبع محفوظة للناس

الطبعة الثانية

١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م

② احمد محمد الامين احمد الجكني ، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجكني ، احمد محمد الامين احمد

قطوف الريحان من زهر الافنان : شرح حديقة ابن الوثان . - مكة المكرمة

... ص ، ... سم

ردمك : ٧- ٣٣٩- ٣٩- ٩٩٩٠

١ - الشعر العربي - نقد - المغرب - عصر الدولة السعدية

٢٠ / ٢٣٠٧

٨١١,٧١٠٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله حمدا يوافي مزيد نعمه وفائض إحسانه وكرمه ،
والصلاة والسلام على سيدنا محمد ينبوع الحكمة الناطق بجوامع
الكلم في المعاني الجمّة ، وعلى آله الطاهرين وعلى صحابته الغر
الميامين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ، فإن علم
الأدب لما كان الجامع لأشتات العلوم والمتكفل بفهم أسرارها ، وكان
عنوانا لشرف الإنسان وكماله ، وقديما قيل : الأدب أشرف من
النسب ، حملني الحرص على التطفل على ذويه ان أدلي فيه بدلوي
، وقد كانت بضاعتي فرجة ، فانتهزت الفرصة لذلك باختصار شرح
زهر الأفنان من حديقة ابن الونان ، فكان باكورة أعمالي ، وقد
أستاذنتني أحد أخواني ممن كان يعز عليّ في طبع بعض مؤلفاتي
ليستفيد منها ويفيدني فقام بطبع بعض هذه واستفاد هو فقط ولا
بأس فقد تكون استفادته عزيزة عليّ ، وكان مما قام بطبعه قطوف
الريحان هذا إلا أن الغريب ان الكتاب ظهر يحمل عبارة ان حقوق
الطبع محفوظة للناشر على الرغم من أنني لم أعط هذا الأخ
الكريم أي أذن مكتوب ، وسبحان الله ، فقد يخفى على الفطن
الصواب .

هذا ، ولا يخفى على القاريء الكريم نفاسة هذا السفر في فنه
فهو يعنى بمفردات اللغة العربية ، وأمثالها ، وأيام العرب
وتاريخها مما يجعل من يقتنيه ملما برصيد لا بأس به من ذلك
باختصار غير مُخلٍ وبإسهاب تارة غير مُملٍ ، إلا أن طبعته الأولى
لا تخلو من بعض الأخطاء المطبعية ، وسنحافظ بإذن الله على
سلامة هذه الطبعة من ذلك ، وعلى الله تعالى الاتكال ولا حول ولا
قوة إلا بالله العلي العظيم ، هو حسبنا ونعم الوكيل ونعم المولى
ونعم النصير صلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه ومن اهتدى بهديه .

المؤلف

أحمد محمد الأمين بن أحمد المختار

١٤٢٠ / ٤ / ٢٠ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

اللهم صلّ على أشرف المرسلين وعلى آله الطاهرين وأصحابه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

الحمد لله الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم ، وشرفه على سائر الحيوان ، بأن حباه القلب واللسان والبيان ، وأمدّه بضروب الإحسان ، حتى كان من أهل العرفان .

نحمده تعالى ونشكره ، ونستعينه ونستقبله ونستغفره ، فهو أهل الإعانة والإقالة والغفران .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله — ﷺ — ، وعلى آله وأصحابه ، والتابعين بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد .. ، فيقول — الفقير إلى رحمة ربه الكريم الرحمن الرحيم — ، أحمد ابن محمد الأمين بن أحمد بن المختار الجكني — غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وجمعه بهم في مستقر رحمته لأنه السميع المجيب : إن من أهم ما يحق لطلبة العلم التنافس فيه ، تحصيل علم الأدب ، وتدوينه لأنه الجامع لأشتات العلوم ، والمتكفل بفهم سرها المكتوم ، وإنه لكمال وشرف للإنسان ، وعنوان فضل يترجم به اللسان ، يكرّم صاحبه عند الامتحان ، ويعز به فلا يهان ، وقد قال بعض الحكماء : « الأدب أشرف من النسب » .

كُنْ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَاكْتَسَبْ أَدَباً يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ هَذَا أَنَا ذَا لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي

وإنه لمن أحسن ما ألف فيه أَرْجُوزَةٌ نابغة وقته وسَخْبَانُ أَهْلِ زمانه ؛ الشيخ
أبى العباس أحمد بن محمد الوَثَّانُ — رحمه الله — ، الشهيرة بحديقة ابن الوثان ،
وقد أجاد الأديب العلامة المغربي أحمد بن خالد الناصري السَّلاوِي ؛ صاحب
« الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى » ، حيث وضع عليها شرحاً لم يُر مثله ،
أسماء « زهر الأفنان من حديقة ابن الوثان » ؛ فكان حرياً بما أنشد العلامة أحمد
ابن عبد المولى العلمي من الأوصاف على لسان حاله حيث يقول :

وَالشَّمْسُ مِنْ وَجَنَتِي تَتَوَبُّ وَالْقَمَرُ	شَكْلِي جَمِيلٌ وَأَهْلُ الْحَسَنِ تَعْشِقُنِي
وَمَبْسِمِي نَضُّ فِيهِ الدَّرُّ وَالنُّضْرُ	وَمِنْطَقِي الْعَذَبُ لِلْأَلْبَابِ مُسْتَلَبٌ
وَالسَّعْدُ مَطْلَعُهَا وَالْفَتْحُ وَالظَّفَرُ	وَبِهَجَتِي زَهْرَةُ الدُّنْيَا وَزَيْتُهَا
نَدٌّ وَأَكْمَلُ حُسْنِي الْغُنْجُ وَالْحَوَرُ	عَرَفِي يَفُوحُ مَدَى الْأَيَّامِ أَعْبَقُ مِنْ
وَمِنْ مَزَايَا فِدَائِي السَّمْعُ وَالْبَصَرُ	لِلَّهِ مَا حُزْتُ مِنْ ظُرْفٍ وَمِنْ طُرْفٍ
أَوْهَمْتَ بِي ، زَالَ عَنْكَ الْهَمُّ وَالْكَدَرُ	مَا شِئْتَ مِنْ فُكَيْهِ أَوْ شِئْتَ مِنْ مُلْجٍ
شَجَوُا وَلَوْ أَجْهَدَاهُ السَّقْمُ وَالْحَوَرُ	أَلَيْتُ دَهْرِي لَا أُبْقِي لَدَى تَرْجٍ
وَمِنْ غَدَا عَاشَقِي عَنَّتْ لَهُ الْعَبْرُ	الْأَلْفُ الصَّبِّ رَفَقًا كَنِي أَوْدَبُهُ
وَمِنْ يَمِينِي يُنَالُ الْبَذْلُ وَالْوَطَرُ	غَزَلِي رَفِيقٌ وَتَقَشُّ الْيُمْنُ فِي خَتَمِي
مِنْ مَعْضَلَاتِ أَتَيْتُ جَهْلَهَا خَطَرُ	كَمْ مِنْ صَدُورٍ شَرَحْتُ لِلصَّدُورِ وَكَمْ
وَأَسْمَعُ مُكَالَمَتِي يُفْشَوُ لَكَ الْخَبَرُ	لَا زِمَ مُنَادِمَتِي وَافْهَمَ مَنَاطِرَتِي

الخ ...

ولما كان ذلك كذلك ، وكان هذا الشرح غُرَّةً في جبين الأدب ، وكانت
الهمم قد تقاصرت عن التفرغ لمطالعة أمثاله من المطوَّلات ، علماً بأن وجود هذا
الشرح اليوم ، أصبح أعزَّ من بيض الأنوق ، وإنه اتفق أنى استجلبت منه في

حديث مع فضيلة الشيخ « محمد بن عبد الله السبيل » ، نائب^(١) الرئيس العام للإشراف الديني بالمسجد الحرام ، فاشتاق — حفظه الله — إلى رؤية هذا الشرح ، ولما وقف عليه أشار عليّ : أن أختصر هذا الشرح لضعف الهمم اليوم عن تتبع المطولات ، فقد حوى الكتاب نفائس في فنه يحتاج طالب العلم إليها ، ثم إن شيخنا العلامة فضيلة الشيخ « عبد العزيز بن عبد الله السبيل » ، المدرس بالمسجد الحرام ، أيّد ما أشار إليه فضيلة أخيه الشيخ « محمد » ، فأشار عليّ بالشروع في اختصار الكتاب ، وحيث إن إشارته ، « حفظه الله »^(٢) ، تعتبر بالنسبة إليّ أمراً ، لما له عليّ من حقّ الشيخ على تلميذه ، بل وحق الوالد على ولده ، لم يسعني إلا الشروع في تنفيذ ذلك ، مستعيناً بالله — تعالى — راجياً المولى « جلت قدرته » أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به كلّ من قرأه أو طالعه ، إنه سميع مجيب .

وقد جاء « بحمد الله — تعالى — » مختصراً جيداً آتياً بلباب الكتاب ، وإن كان الكتاب كله لباباً ، وسميته « قُطُوفُ الرِّيحَانِ من زهر الأفتان شرح حديقة ابن الوثان » .

هذا ، وليس لي منه إلا مجرد الجمع والاختصار ، فلم آت فيه بشيء من قبل نفسي ، فالعهدة في كل ما أتيت به فيه على الشيخ « أحمد بن خالد الناصري السلاوي » ، إلا ما استجلبته بعد قبولى « قلت » ، فإنّي أتحمّل مسؤوليته ؛ لأنّي أعتمد فيه على بعض المعلومات التي استفدتها من خارج زهر الأفتان ، فأنسبها إلى المصدر الذي استفدتها منه في الغالب ، وربما أهملت نسبة ذلك ، لأنّي وقت تقييدى له لا يحضرني مرجعه ، لطول العهد بيني وبين وقت الاستفادة به ، إلا أنه لا يزال عالقاً بالحافظة ، والله حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم القيامة ..

وهذا أوّان الشروع في الموضوع . قال الناظم :

(١) فضيلة الشيخ محمد بن عبد الله السبيل ، هو اليوم الرئيس العام لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوي .

(٢) انتقل فضيلة شيخنا الشيخ عبد العزيز السبيل إلى رحمة الله في شهر صفر عام ١٤١٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم

[مَهْلًا عَلَى رِسْلِكَ .. حَادِي الْأَيْتُقْ وَلَا تَكْلِفْهَا بِمَا لَمْ تَطُقْ]

قوله : [مَهْلًا] المهل بسكون الهاء ويحرك ، اسم مصدر من أمهل الرباعي بمعنى الإمهال وهو السكينة والرفق في الأمر ، ويقال بهلاً بالباء الموحدة بدلاً من الميم ، ولا تلحقه علامة الفرعية إذا استعمل في الطلب كما هنا ، فتقول : مهلاً يا زيد ومهلاً يا هند بلفظ واحد وكذلك الثنية والجمع ، ويقال في جوابه : لا مهل بدون تنوين مع لا ، التي لنفي الجنس وإذا نفيت بـ « ما » قلت : ما مهل بالتنوين ، قال الكميت :

أَقُولُ لَهُ إِذَا مَا جَاءَ : مَهْلًا وَمَا مَهْلٌ بِوَاعِظَةِ الْجَهُولِ

وقوله [عَلَى رِسْلِكَ] : الرُّسْلُ والرُّسْلَةُ بالكسر فيهما ، والترسل : الرفق والتؤدة ، وَتَرَسَّلَ فِي قِرَاءَتِهِ تَمَهَّلَ : وقوله [حَادِي الْأَيْتُقْ] الحادي اسم فاعل من حدا الإبل يحدها حَدَوًا ، وَحَدَاءُ بضم الحاء وكسر ها وبالبدال المهملة إذا زجرها وساقها ، وقال الجوهري : الْحَدْوُ سَوْقُ الْإِبِلِ وَالْغَنَاءُ لَهَا ، ويقال لِلشَّامِلِ : حَدَوَاءَ لِأَنَّهُا تَحْدُو السَّحَابَ أَيُّ تَسْوِقُهُ ، قال العجاج :

حَدَوَاءُ جَاءَتْ مِنْ بِلَادِ الطُّورِ

والأيتق جمع ناقة : وهى الأنثى من الإبل . قال أبو عبيدة : ولا تسمى ناقة حتى تجذع وذلك فى السنة الخامسة ، وقد تجمع الناقة على نياق مثل ثمرة وثمار ، وبغير منوق أي مُذَلَّلٌ مُرَوِّضٌ ، وناقة منوقة ؛ وقوله [بِمَا لَمْ تَطُقْ] : الإطاقة القدرة ، يقال : أَطَقْتَهُ إِطَاقَةً فَأَنَا مُطِيقُ وَالاسْمُ : الطَّاقَةُ مِثْلُ الْجَابَةِ مِنْ أَجَابَ ، وَفِي الْمَثَلِ : [أَسَاءَ سَمِعًا فَأَسَاءَ جَابَةً] .

فمعنى البيت إذا : أمهل يا حادي الإبل وارفق بنفسك وتأن في سيرك ولا تكلف هذه الإبل ما ليس في طوقها من السير .

[ذِكْرُ الْحِدَاءِ وَمَا قِيلَ فِيهِ]

الحداء كما قدمنا هو سَوْقُ الإبل بضرب من الغناء ، قال الراجز :
فَعَنُّهَا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ إِنَّ غِنَاءَ الْإِبِلِ الْحِدَاءُ
ويكون غالباً بالرَّجَزِ ، ويقال : إن أول من حدا الإبل عبد لمضر بن نزار بن
معد بن عدنان .

كان في إبل لسيدته ، فقصر فضربه مضر على يده فأوجعه فقال : يا يداه
يا يداه . وكان حسن الصوت فأسرعت الإبل في السير ، لما سمعته ؛ فاستعملت
العرب الحداء من ذلك الوقت .

نسبه في زهر الأفنان لابن سعد والبيزار .

قال الغزالي في كتاب السَّماع من الإحياء : « الله تعالى سِرٌّ في مناسبة
النعيمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً ، فمن الأصوات
ما يفرحُ ، ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ومنها ما يضحكُ ، ويطرب ومنها
ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها ، باليد والرجل والرأس ، ولا ينبغي
أن يظن أن ذلك بالفهم لمعانى الشعر بل هذا جار في الأوتار .

وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده يسكته الصوت الطيب عن بكائه ،
وتنصرف نفسه عما يكيه إلى الإصغاء إليه ، والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء
تأثراً يستخف معه الأحمال الثقيلة ، ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات
الطويلة ، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولفه فترى الإبل إذا طالت عليها
البوادي واعتراها الإعياء والكلال تحت الأحمال إذا سمعت منادى الحداء تمد
أعناقها وتصغي إلى الحادي ناصبة آذانها ، وتسرع في سيرها حتى تنزعزع عليها
أحمالها ، وربما تلف نفسها من شدة السير وثقل الحمل وهي لا تشعر به
لنشاطها .

هذا وقد حكى في الأصل حكايات عجيبة عن الحداء والحدائين .

[فَطَالَ مَا كَلَّفَتْهَا وَسَقَتْهَا سَوَّقَ فَتَى مِنْ حَالِهَا لَمْ يُشْفَقْ]

الطُّول بالضم : خلاف العَرَض ، وطال طويلاً امتد كاستطال ، فهو طَوِيل وطُوال كغُرَاب ، وهى طويلة وطُواله كذلك ، والجمع : طِوال وطِيال بالكسر فيهما ، والطِوال كرمَّان المفرط فى الطول ، وأطالت المرأة ولدت أولاداً طِوالاً ، وفى المَثَل : « إِنَّ القَصِيرَةَ قَدْ تُطِيلُ » وقولهم فى المثل : « قَصِيرَةٌ مِنْ طَوِيلَةٍ » يريدون ثمرة من نخلة ، يضرب لاختصار الكلام .

والسَّوَّقُ : خلاف القُود : ساق الدابة سَوْقاً وسياقةً ، ومساقاً واستاقها ، فهو سائق وسَوَّاق ، قال الراجز :

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَّاقٍ حُطِّمَ لَيْسَ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ

ويقال تساوقت الإبل إذا تتابعت

والفتى : الشاب الحَدَث ، والأنثى فتاة ، وقد يستعار للعبد ، ولو كان شيخاً تسمية له بما كان عليه ، والفتى أيضاً الكريم يقال : فلاح فتى بَيْنُ الفتوة أى الكرم .

ويثنى بالياء ، قال تعالى « وَدَخَلَ مَعَهُ السُّجْنُ فُتْيَانٌ »^(١) وتجاوز ثنيتيه بالواو : فتوان ، ويجمع فى القِلَّة على فِثية ، وفى الكثرة على فتیان ، وبهما قُرِئ القرآن . ويجمع أيضاً على فُتْي بضم الفاء وكسرهما على لغة الياء كعصي ، وعلى فُتُو بضم الفاء على لغة الواو كعُلُو .

وحال الشيء : صفته ، التى هو عليها يذكر ، ويؤنث فيقال : حالٌ حسنة وحالٌ حسن . ومن التأنيث قول الشاعر :

إِذَا أُعْجِبَتْكَ الدَّهْرُ حَالٌ مِنْ أَمْرِئِ فَدَعُهُ وَوَائِلُ أَمْرُهُ وَاللَّيَالِيا

(١) يوسف آية (٣٦) .

قلت : ومن لطيف تذكير الحال وتأنيتها ما أنشده العلامة الشيخ محمد العاقب ابن الشيخ سيدى عبد الله بن مايا با الجكنى الشنقيطي لملك المغرب الأقصى السلطان مولاي عبد الحفيظ بن مولاي الحسن مهناً له بمناسبة بيعته وشاكياً له حالته التي هو عليها ، فقال :

لما تولى على الإسلام رايته مولاي عبد الحفيظ الفاطمي الحسن
جئنا إليه بحال غير لائقة كيما نثوب بحال لائق حسن
وقد بعث بالبيتين إليه فلما قرأ ما كتبه الشيخ قال الملك : ايتوني بِمَذَكِّرِ الحال
ومؤثته .

فكانت فاتحة خير على الجماعة التي هي بِرِفْقَتِهِ .

ثم الحال قد تؤثت بالهاء فيقال حالة ، وتجمع على أحوال وأحولة وتصغر :
حويلة ، وحالات الدهر وأحواله صروفه وتقلباته .

وقوله [لم يشفق] : قال في المصباح : أشفقت من كذا بالالف حذرت
منه ، وأشفقتُ على الصغير : حنوت وعطففت والاسم : الشفقة .

ومعنى البيت : إنما أنكرت عليك لأنك طالما أوردتها المشاق العظيمة وحملتها
المتاعب الجسيمة ، وسقتها سوق من ليست عنده شفقة عليها ، لما عراها من
الكلال ولم تأخذ رأفة لما كساها من سوء الحال

[وَلَمْ تَزَلْ تَرْمِي بِهَا يَدَ النَّوَى بِكُلِّ فَجٍّ وَفَلَاةٍ سَمَلَقَ]

قوله [ولم تزال] قال في المصباح : مازال يفعل كذا ولا أزال أفعله ، لا يتكلم به
إلا بحرف النفي والمراد به : ملازمة الشيء والحال الدائمة مثل ما برح وزناً
ومعنى ؛ قال في زهر الأفنان : ومثل النفي النهي والدعاء ، فالنفي كما في النظم
وكفوله تعالى ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ ^(١) الآية . والنهي كما في قول الشاعر :

صَاحَ شَمْرٌ وَلَا تَزَلْ ذَاكِرًا آلَ مَوْتٍ فَنَسِيَانِهِ ضَلَالٌ مُبِينٌ
والدعاء كما في قول الشاعر :

(١) هود آية (١١٨) .

أَلَا يَا اسْلَمَى يَادَارْمَى عَلَى الْبَلَا وَلَا زَالَ مُنْهَلًا بِجَرَعَاتِكَ الْقَطْرُ
 وقوله [ترمي بها] رمى بالشئ ورماه ألقاه فارتضى هو ، وراميته مرامة
 ورماء وترماء ورميًا بالكسر والقصر مع شد الميم والياء ، ورمى الله في يده وأنفه
 دعاء عليه .

وقوله [يد النوى] اليد الكف أو من المنكب إلى أطراف الأصابع وهى
 مؤنثة ولامها محذوفة وفيها لغات اليد : كما فى النظم ، واليدى كالفتى ، واليدة
 كالسنة واليدُ مشددة البدال ، وتثنية الأولى يدان وجمعها فى القلة أيد ، وفى الكثرة
 يُدَى كعصبي ، وجمع الجمع أيادٍ منقوصاً ، وفى المثل [ذهبوا أيادى سبا]
 بسكون الياء ، وسُقِطَ فى يده : ندم ، ولايدان لك بهذا الأمر أى لا قوة لك به .

والنوى : البعد والوجه الذى يذهب فيه كالبين فيهما قاله فى القاموس ، وقال
 الجوهري : النوى : الوجه الذى ينويه المسافر من قرب أو بعد وهى مؤنثة لا
 غير .

قوله [بكل فج] : الفج الطريق الواسع بين جبلين كالْفَجَاج بالضم ، فأما
 الْفِجَاج بالكسر ، فهو جمع فَجٍ قَالَ اللهُ تَعَالَى « لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » (١)
 وَأَفْجَّ الْقَوْمُ سَلَكُوا الْفَجَّ اهـ . قوله

[وفلاة] الفلاة : القفر وقيل المفازة لا ماء فيها وقيل الصحراء الواسعة ،
 والجمع فَلَا وفَلَوَاتٌ وفُلِيٌّ بضم الفاء وكسرهما كعصي ، وجمع الجمع : أَفلاء ،
 وَأَفْلَى الْقَوْمِ دَخَلُوا الْفَلَاةَ .

وقوله [سَمَلَق] السَّمَلَق : كجعفر : القاع الصيفصف أى المستوي والجمع
 سَمَالِق : قال جميل :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبَّعَ الْقَوَاءَ فَيَنْطِقَ وَهَلْ تُخْبِرُنَا الْيَوْمَ بِيَدَاءِ سَمَلَقِ
 [وَمَا ابْتَلَتْ تَذَرَعُ كُلَّ فَذَفِدٍ أَذْرُعَهَا وَكُلَّ قَاعٍ قَرَقِ]
 [وَكُلَّ أَبْطَحَ وَأَجْرَعَ وَجِزْ وَصَرِيْمَةٍ وَكُلَّ أَبْرِقِ]

(١) نوح آية (٢٠)

قوله [وما اتلت] : الألو والاثلاء : للتقصير والإبطاء يقال ألا ألوأ وألوأ
كعلو وألي كعصى ، وألى تألية وائلئى اثلاء قصر وأبطأ

وائلئى أيضاً أقسم وحلف كألئى وتألئى ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أُولُو
الْفَضْلِ مِنْكُمْ ﴾ ^(١) الآية فسر بالمعنيين ، والظاهر فيه الثانى ، وقولهم فى المثل « إن
لا حظئئة فلا ألية » هو من المعنى الأول أى : إن لم أحظ فلا أزال أطلب ذلك
وأجهد نفسي فيه ، يضرب فى الأمر بمرادة الناس والتودد إليهم لإدراك الحاجات
منهم .

قوله [تذرع كل فدغد] أي : تقيسه بأذرعها : يقال ذرعت الثوب ونحوه
ذرعاً من باب نفع إذا قسته بالذراع ؛ والفدغد — كجعفر : الفلاة والمكان
الصلب الغليظ والمرتفع أيضاً ، والأرض المستوية ، والجمع فدغد .

[أذرعها] جمع ذراع وهى كما فى المصباح : اليد من كل حيوان لكنها من
الإنسان من المرفق إلى أطراف الأصابع والذراع مؤنثة فى الأكثر وأنشدوا على
تأنيثها .

أرمى عليها وهى فرع أجمع وهى ثلاث أذرع (واصبغ
وتجمع الذراع : على أذرع وقيل : وذرعان وفى المثل « لا تطعم العبد الكراع
فيقطع فى الذراع » والقاع : أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال
والآكام ، والجمع : قيع وقية وقيعان بكسرهم ، وأقواع وأقوع .

وفى التنزيل ﴿ فَيَنْتَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ ^(٢) ، وفيه أيضاً : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعةٍ ﴾ ^(٣) .

والفرق : كجمل والقرق ككتف ، والأول أفصح : المكان المستوى ، قاع
فرق أى مستو ، وفى المثل [تجاوز الروض إلى القاع القرق] يضرب لمن عدل
بحاجته عن الكريم إلى اللئيم .

(١) النور آية (٢٢) .

(٢) طة آية (١٠٦) .

(٣) النور آية (٣٩) .

والأبطح والبطحاء والبطيحة مسيل واسع فيه دقاق الحصى ، والجمع أباطح وبطاح وهذا غير قياس ، وتبطّح السيل اتسع في البطحاء ، والأبطح بمكة المشرفة : المحصب . وقريش البطاح الذين ينزلون بين أخشبي مكة ، والظواهر هم الذين ينزلون بظهرها ، والأجرع والجرعاء والجرعة بسكون الراء ويحرك : الرملة الطيبة المنبت لا وعوثة فيه ، وقيل هي الكثيب جانبه رمل وجانبه حجارة ، وقيل غير ذلك وجمعه أجارع .

والجزع بالكسر وقيل بالفتح : منعطف الوادى ووسطه ، وقيل منحناه ، وقيل لا يكون جزءاً حتى تكون له سعة تنبت الشجر ، والجمع : أجزاء ، قال طرفه :

لخولة بالأجزاء من إضم طلل وبالسفح من في مقام ومزحل والصريمة : بفتح الصاد وكسر الراء المهملتين : القطعة من الرمل تنصرم أى تنقطع عن معظمه وفي المثل [به لا بظبي بالصريمة] وهو يقال عند الشماتة بالمصاب دعاءً عليه بأن لا تتجاوزته نصيبته إلى غيره ، قال الفرزدق لما مات زياد :

أقول له لما أتاني نعيه به لا بظبي بالصريمة أعفرا والأبرق : والبرقاء : غلظ في الأرض تخالطه حجارة ورمل ، وطين ، قال المبرد : من قال أبرق : فإنما أراد المكان ومن قال برقاء فإنما أراد البقعة ، وجمع الأبرق أبارق ، وجمع برقاء : برقاوات ، والأبرق أيضاً الجبل الذى فيه لوان [مجاهل تحار فيهن القطا لادمنة لارسم دار قد بقي] المجاهل : جمع مجهل كمقعد وهى المغازة التى لا أعلام فيها يهتدى بها ، قال العقيلي :

غدت من عليه بعد ماتم ظمئها تصل وعن قبض بيضاء مجهل وزعم صاحب القاموس أن مجهلاً لا يثنى ولا يجمع ، غير أن الواقع خلاف ما ذهب إليه ، هذا أبو محجن الثقفى — رضى الله عنه — يقول :

آلَى تَسَدَّتْ نَحُونَا أُمَ يَوْسُفَ وَمِنْ دُونِ مَسْرَاهَا فَيَافٍ مَجَاهِلٌ
وَفِي الْأَصْلِ هُنَا أَنَّ أَبَا عَمِيدٍ الْحَرِيرِي نَطَقَ بِهِ مَجْمُوعاً فِي الْمَقَامَاتِ ، وَأَنَّ
أَبَا الْبَرَكَاتِ عِيَاضَ نَطَقَ بِهِ كَذَلِكَ فِي صَدْرِ الشِّفَاءِ .

والحيرةُ : ضد الهداية يقال : حَارَ فِي أَمْرِهِ مِنْ فَرَحٍ يَحَارُ حَيْرًا وَحِيرَةً وَحَيْرَانًا
بِالتَّحْرِيكِ فِيهِمَا وَتَحِيرَ وَاسْتَحَارَ إِذَا لَمْ يَذَرِ وَجْهَ الصُّوَابِ فَهُوَ حَيْرَانٌ ، وَالْمَرْأَةُ
حَيْرَى وَالْجَمْعُ حَيَارَى بِالْفَتْحِ وَيَضُمُ ، قِيلَ أَصْلُهُ أَنَّ يَنْظُرَ الْإِنْسَانُ إِلَى شَيْءٍ فَيَغْشَاهُ
ضَوْءٌ فَيَصْرِفُ بَصَرَهُ عَنْهُ .

والقطا : اسم جنس جمعي يُفَرَّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَفْرَدِهِ بِسُقُوطِ التَّاءِ ، يُقَالُ فِي
الْوَحْدَةِ قَطَاةٌ ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى ، وَفِي الْجَمْعِ قَطَاً وَيَجْمَعُ عَلَى قَطَوَاتٍ بِالْوَاوِ وَرَبَّمَا
قَالُوا قَطِيَّاتٍ ، وَفِي الْمَثَلِ [لَيْسَ قَطَاً مِثْلَ قُطَيٍّ] أَيِ لَيْسَ الْأَكْبَرُ كَالْأَصَاغِرِ
وَالْقَطَا : ضَرْبٌ مِنَ الْحَمَامِ ، وَالْحَمَامُ عِنْدَ الْعَرَبِ : كُلُّ ذِي طَوْقٍ مِنَ الْقَطَا
وَالْفَوَاحِشِ وَالْقَمَارِ وَالِدَوَاجِنِ ، وَالْوَرَّاشِينَ ، وَسَاقٍ حَرٍّ وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ
هَذَا النُّوعُ بِالْقَطَا مِشَاكَلَةً لَصَوْتِهِ ، وَقِيلَ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ، لِأَنَّهَا تَقْطُو أَيِ تَقَارِبُ
خَطْوَهَا فِي مَشْيِهَا ، وَلِذَا وَصَفَهَا الْعَرَبُ بِحَسَنِ الْمَشْيِ ، وَشَبَّهَتْ بِهَا مَشْيَ النِّسَاءِ
الْحَفَرَاتِ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَنْشَدَتْهُ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ يَوْمَ أَحَدٍ :

نَحْنُ بَنَاتُ الطَّارِقِ .. نَمْشِي عَلَى التَّمَارِقِ .. مَشْيَ الْقَطَا النَّوَائِقِ ..

والقطا نوعان : كدريه وجونية وهى أكبر ووصفها كما قال الشاعر :

أَمَّا الْقَطَاةُ فَإِنِّي سَوْفَ أَنْعَتَهَا نَعْتًا يُوَافِقُ عِنْدِي بَعْضُ مَا فِيهَا
سَكَاةٌ مَخْضُوبَةٌ فِي رِيشِهَا طَرَقَ سَوْدٌ قَوَادِمَهَا صُهْبٌ خَوَافِهَا

وَالدَّمْنَةُ : مَوْضِعُ الدَّمَنِ أَيِ الْبَعْرِ ، وَالِدَّمْنَةُ أَيْضًا آثَارُ النَّاسِ وَمَا سَوَّدُوا
وَالْمَوْضِعَ الْقَرِيبَ مِنَ الدَّارِ ، وَجَمَعَ الْكُلَّ دِمْنًا .

والرسم : الأثر ، وَقِيلَ بِقِيَّتِهِ وَقِيلَ مَا لَا شَخْصَ لَهُ وَالْجَمْعُ أَرْسَمَ وَرَسَمَ ،
وَرَسَمَ الْغَيْثَ الدِّيَارَ مِنْ بَابِ نَصَرَ عَفَاها وَأَبْقَى أَثَرَهَا لَاصِقًا بِالْأَرْضِ ، وَتَرَسَمَتْ

الدار تأملت رسمها قال ذو الرمة :

إن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم ؟
والدار : المحل يجمع البناء والعروة مؤنثة ، وأما تذكيرها في قوله تعالى :
﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ ^(١) فعلى معنى المثوى والموضع .

وتجمع الدار في القلة على أذُور وأذُور بالهمزة مكان الواو ، وآدر على القلب
وأدوار ، وفي الكثرة تجمع على ديار وديارة وديارات ، والله أعلم .

قليل مما قيل في هداية القطا

يقال إن القطا لا تسكن إلا بالعراء ولا تأوى إلى شجرة ولا جبل ،
وأفحوصها الذي تبيض فيه إنما هو موضع تحفره بصدرها في أرض رخوة حتى إذا
حفرته يسيراً باضت فيه ، ولا تضع بيضها إلا أفراداً ، وإذا احتاجت إلى الماء
بكرت إليه قبل سائر الطير ، وربما ذهبت ليلاً فإذا ذهبت ارتفعت من أفاحيصها
أسراباً غير متفرقة فتقطع ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس من العشر
مراحل ، إلى عشرين ، فترد الماء فتشرب نهلاً ثم تقيم حول الماء متشاغلة قدر
ساعتين أو ثلاث ساعات ، ثم تعود إلى الماء لتشرب عللاً ، ثم تأخذ في حواصلها
شيئاً من الماء لأفراخها ، فتشني راجعة إليها فلا تخطئ موضعها .

والجونية من القطا أشد تبكيراً من الكدرية . يقول ابن الدمينه في تبكير
الجونية مخاطباً محبوبته :

وَأَنْتِ الَّتِي قَطَعْتَ قَلْبِي حَرَارَةً وَمَزَّقْتَ قُرْحَ الْقَلْبِ فَهَوَ كَلِيمٌ
وَأَنْتِ الَّتِي كَلَّفْتِنِي دَلَجَ السُّرَى وَجَوْنُ الْقَطَا بِالْجَلْهَتَيْنِ جُثُومٌ
وَأَنْتِ الَّتِي أَحْفَظْتَ قَوْمِي فَكُلَّهُم بَعِيدُ الرِّضَى دَانِي الصَّدُودِ كَظِيمٌ

ولشدة هداية القطا صارت العرب تضرب المثل بها ، وتذكرها الأدباء في
شعرها ونثرها

فمن ذلك ما ذكره القاضي عياض في صدر الشفاء حيث قال : [وها هنا

(١) النحل آية (٣٠) .

مهامه فيح تحار فيها القطا وتقصر فيها الخطا [. وقال الحريري في المقامة الشعرية :
[وَجُبْتُ فِي سِيرِي وَغُوراً لَمْ تَدْمِثْهَا الْخَطَا وَلَا اهْتَدَتْ إِلَيْهَا الْقَطَا] . وقال
الشاعر :

والناسُ أهدى في القبيح من القطا وأضلُّ في الحسنى من الغربان
[لَيْسَ بِهَا غَيْرُ السَّوْافِي وَالْحَوَا صَبَّ الْحَرَا جِيجَ وَكُلُّ زَحْلِقِ]

السَّوْافِي : جمع سافياء بالمد كقاصعاء ، وراهطاء ، وهى الريح التى تسفي
التراب أى تحمله وتذروه ، وقيل : السافياء : الغبار ، قال ذو الرمة :

لمية أطلالٌ بحزوى دوائر عَفَّتْهَا السَّوْافِي بعدنا والمواطُرُ

والحَوَاصِبُ : جمع حاصب بكسر الصاد المهملة ؛ وهى الريح التى ترمي
بالحصباء ، وقيل الحاصب ما تنثر من دقاق الثلج والبرد ، وبالمعنى الأول فسر
قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ ^(١) .

قوله الحراجيج : جمع : حُرْجُوج ، كعُصْفُور ، وهى الريح الباردة
الشديدة ، وليس من هذا المعنى قول ذى الرمة :

حراجيج ما تنفك إلا مناخة على الحسف أو نرمي بها بلداً قفراً
بل المراد به النوق السمان الطوال .

والزحلق : هى الريح الشديدة .

[وَالْمَرْخُ وَالْعَفَارُ وَالْعَضَاهُ وَالْجَشَامُ وَالْأَثَلُ وَتَبَّتِ الْخَرْبِقُ]
[وَالرُّمْتُ وَالْخُلَّةُ وَالسَّغْدَانِ وَالثَّغِيرُ وَشَرِي وَسَنَا وَسَمْسِقُ]
[وَعُشْرٌ وَتَشْمٌ وَإِسْحَاحٌ مَعَ ثَمَامٍ وَبَهَارٍ مُونِقُ]

المرخ والعفار : ضربان من الشجر كلاهما سريع الوري وليس فى الشجر
كله أورى زناداً من المرخ ؛ ويقال إنه ربما يكون المرخ ملتفاً وتهب الريح فيحك

(١) العنكبوت آية (٤٠)

بعضه بعضاً ، فأورى فيحترق الوادى .

ومن المرخ والعفار كانت العرب تتخذ زنادها : تقطع منهما غصنين مثل السواكين أخضرين يقطران ماء فيسحق أحدهما على الآخر ، فتندح النار .

وكيفية ذلك أن يؤخذ عود مقدار شبر من المرخ ، وهو الأنثى فيثقب في وسطه ثقباً غير نافذ ويجعل من أسفل ثم يؤخذ من العفار عود بقدر الذراع ، وهو الذكر ، فيحدّد طرفه ويدخل في ذلك الثقب من أعلى ، وقد وضع بين رجلي أحد ، ثم يفتل فتلاً فتندح النار بإذن الله تعالى .

ذلك قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (١) .

عن ابن عباس أن المراد بالشجر في الآية المرخ والعفار وهما زناد العرب ، وقد غلطوا الزمخشري ، حيث جعل في « كشّافه » المرخ هو الذكر والعفار هو الأنثى والصواب العكس وقد استجلب في الأصل شواهد من كلام العرب على ذلك .

والعضاه : بكسر العين المهملة هو كل ماله شوك من الشجر ، ومن مشهوره الطلح والعوسج والسلم والشبّال والعرفط والسمر بضم الميم وهو شجرة أم غيلان والقتاد والسدر وبعضهم يستثنى هاتين الشجرتين من العضاه فلا يجعلهما منه ؛ وقيل العضاه كل ما عظم من الشجر وطال ، واستدل أهل هذا القول ببيت حميد ابن ثور الهلالي :

أبى الله إلا أن سرّخة مالك على كلّ أفتان العضاه تروق
كنى بالسرّخة عن المرأة ، ومن المعلوم أن السرح لا شوك له .

والبشام : هو بوزن سحاب : شجر طيب الريح يُستاك بأغصانه ، قال في الأصل . وورقه يسود الشعر ، قال جرير — وهو شاهد على الاستيائك به :

(١) يس آية (٨١)

أَتَذْكُرُ يَوْمَ تَصْقَلُ عَارِضَتُهَا بفرع بَشَامَةٍ سُقِيَ البَشَامُ

والأثل : هو شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منه وأجود عوداً ، إذا حركته الريح ترنح وسمع له حنين ، وفي التنزيل ﴿ ذَوَاتِى أَكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سَلْدٍ قَلِيلٍ ﴾ (١) واحدة الأثل أثلة وجمعها أثلات ، ومن كلام يهس : « لكن بالأثلات لحم لا يظلل » يعنى لحم إخوته ، وسيأتى إن شاء الله ذكر ذلك عند قول الناظم : وانتهر الفرصة مثل يهس ... البيت .

ومن هذا المثل قيل للأصل أثلة ، يقال فلان ينحت أثلتنا إذا قال فى حسبه قبيحاً ، قال الأعشى :

أَلَسْتُ مَتِيئاً عَنْ نَحْتِ أَثَلْتَنَا وَلَسْتُ ضَائِرَهَا مَا أُطَّتِ الْإِبِلُ
وكان منبره « صلى الله عليه وسلم » من أثل الغابة وفى رواية أنه كان من طرفائها .

والخَرْبِيُّ : هو كجعفر وزناً : نبت ورقه كالنبات المسمى بلسان الحمل وهو صنفان أبيض وأسود وكلاهما دواء نافع ، كذا فى الأصل .

والرَّمْثُ : بكسر الراء المهملة والشاء المثناة من مراعي الإبل ، ومعدود فى الحمض ، ورَمِثَتِ الْإِبِلُ إذا اشتكت من أكله ، وأرض مَرْمَثَةٌ : كثيرة الرمث .
والخُلَّةُ : بضم الخاء المعجمة : هى كل ما فيه حلاوة من النبات ، فهى ضد الحمض إذ هو كل ما فيه ملوحة فيه ، والعرب تقول الخلّة خبز الإبل والحمض فأكهتها .

والسَّعْدَانُ : نبت هو أخثر العشب لبناً وإذا خثر لبن الراعية كان أفضل ما يكون وأطيب وأدسم ، ومنابت السعدان السُّهول ، وهو من أنجع المراعي فى المال ، ولا تحسن على نبت حسنها عليه ، قال النابغة :

الواهب المائة المعكاء زَيْنُهَا سعدانُ تُوضِحُ فى أوبارها اللَّبْدُ

(١) سبأ اية (١٦)

وفي المثل : « ثَبْتُ ولا كسعدان » يضرب للشيء يفضل على أقرانه ،
وللسعدان شوك تشبه به العرب حلمة ثدى المرأة ، ومن ذلك تسمية العرب
الحلمة سعدانة الشدوة ، وفي الحديث النبوى الشريف فى وصف جهنم أعادنا الله
والمسلمين منها « وفيها كالليب مثل شواك السعدان هل رأيتم السعدان قالوا : نعم
يا رسول الله قال إنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله
— تعالى — . »

والثَّغْرُ : بفتح الثاء المثناة وسكون الغين المعجمة وقد تفتح : نبت جيد
الرعى من أفضل العشب .

والشَّرْئِيّ : بالتسكين : هو الحنظل ، ومن كلام العرب : لفلان طعمان أَرِيّ
وشَرِيّ أي عسل وحنظل ، قال الشاعر :

وله طعمان أَرِيّ وشَرِيّ وكلا الطعمين قد ذاق كل
والشرى أيضاً شجر الحنظل الواحدة شربة ، وهو من الأدوية النافعة ، كذا
قال فى الأصل .

والسَّنَا : مقصور ويمد : نبت مسهل للصفراء ، والسوداء والبلغم ، وهو
معروف موجود بحرم مكة المكرمة ، وقد ألحقه المالكية بالإذخر فى جواز أخذه
والانتفاع به من بين سائر نبات الحرم .

السَّمْسَقُ : فيه لغات قيل كجعفر وكزبرج وقيل كقنفذ وهو الياسمين .

والعُشْرُ : بوزن صُرْدٍ هو شجر فيه حراق تحشى به الخد ، ويقال إن أول
ما ظهر العشر ومراثى الشجر بأرض العرب عام الفيل ، والله أعلم .

وفي المثل [أَجْبُنُ مِنَ الْمَنْزُوفِ ضَرْطاً] وأصله : أن رجلين من العرب خرجا
فى فلاة فلاحتا لهما عُشْرَةٌ ، فقال أحدهما : أرى قوماً قد رصدونا ، فقال
الآخر : إنما هى عُشْرَةٌ يعنى شجرة من العُشَرِ ، فظنه يقول عُشْرَةٌ بفتح العين
فجعل يقول وما غَنَاءُ اثنين عن عشرة وظلَّ يَضْرِبُ حتى مات ، وقيل فيه غير

هذا ، والله أعلم .

وَالنَّشْمُ : بفتح النون والشين ، شجر تُتَّخَذُ منه القسي .

الإِسْجَلُ : بكسر الهمزة وسكون السين وكسر الحاء المهملتين ، شجر له أغصانٌ ناعمة يستاك بها ، قال امرؤ القيس :

وَتَعْطُو بِرَحْصِي غَيْرِ شَثْنٍ كَأَنَّهُ أَسَارِيْعُ ظَنِّي أَوْ مَسَاوِيكِ إِسْجَلٍ
وَالْأَسَارِيْعُ : دود بيض حمر الرعوس تشبه الشعراء بها البنان المخضوب .

وَالثَّمَامُ : بوزن غُرَاب ، نبتٌ ضعيف له خوص ربما حُشِي به أخصاص البيوت ، الواحدة ثَمَامَةٌ ، وبه سمى ثَمَامَةُ بن أثال الحنفي — رضي الله عنه — .

وَالْبَهَارُ : نبت طيب الريح ، قيل وهو العرار ، وهو أصفر اللون شاحبه ، ومن أحسن ما قيل فيه للمؤلدين قول بعضهم :

حَكَانِي بِهَارِ الرُّوضِ حِينَ أَلْفَتْهُ وَكُلَّ مَشُوقٍ لِلْمَشُوقِ مَنَاسِبُ
فَقُلْتُ لَهُ مَا بَالُ لَوْنِكَ شَاحِبًا فَقَالَ لِأَنِّي حِينَ أَقْلَبُ رَاهِبُ
وَالشَّعْرَاءُ تشبه بالبهار صفرة الخد كما تشبه بالورد حمرة .

مُؤْنِقٌ : أيّ معجبٌ من أُنِيقَ الشيء أُنِيقًا من باب فَرِحَ فَرَحًا إذا راع حسنه وأعجب والأُنِيقُ محرّكة الفرح والسرور ، وتأُنِيقُ فلان في عمله أُنِيقَهُ وأَحْكَمَهُ .

[وَالسَّمْعُ وَالْيَعْقُوبُ وَالْقِشَّةُ وَالسَّيْدُ السَّبْتِيُّ وَالْقَطَا وَجَوْرَقِ]
[وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالرَّئَالُ وَالْهَيْثِمُ مَعَ عِكْرَمَةٍ وَخَرْنَقِ]

السَّمْعُ : هو بكسر السين المهملة وولد الذئب من الضبع والأنثى سِمْعَةٌ ، يضرب المثل به في الخفة والسمع ، ويزعمون أنه لا يعرف العلل والأسقام وأنه لا يموت حتف أنفه كالحية ، وسيأتي للناظم التمثيل بوثوبه .

وَالْيَعْقُوبُ : هو ذكر الحجل وجمعه يعاقيب ويضرب به المثل عند العرب في شدة الركض ، قال الشاعر :

أَوْدَى الشَّبَابُ الذِي مَجَّدَ عَوَاقِبُهُ فِيهِ نَلَذُّ وَلَا لَذَّاتٍ لِلشَّيْبِ
وَلَّى حَثِيثًا وَهَذَا الشَّيْبُ يَطْلُبُهُ لَوْ كَانَ يُدْرِكُهُ رَكْضُ الْيَعَاقِبِ
وَالْقِشَّةُ : بكسر القاف وتشديد الشين المعجمة قال الجوهري : هي القردة ،
وقال الأصمعي : هي الأنثى من أولادها .

وَالسَّيْدُ : هو بكسر السين الذئب يقال : سيد رمل والجمع السيدان والأنثى
سيدة — قالوا : وربما سمي الأسدية ، قال الشاعر :

كالسيد ذى اللبوة المستأسد الضاري

وَالسَّبْتِيُّ : ويقال السَّبْنْدَى الجريء المقدم من كُلِّ شَيْءٍ ، والياء فيه للإلحاق
لِلتَّأْنِيثِ أَلَا تَرَى أَنَّ الْهَاءَ تَلْحَقُهُ يُقَالُ سَبْتَاهُ وَسَبْنَدَاهُ ، والسبتى والسبندى
أَيْضاً التمر ويشبه أن يَكُونَ سَمِي بِهِ لَجَرَاءَتِهِ .
وَالْقَطَا : طائر معروف تقدم ذكره .

وَجَوْرَقُ : كجورب : ذكر النعام ويقال له الظِّلِيمُ ، ومن خرافات العرب :
أَنَّ النعام ذهب تطلب قرنين ، فقطعوا أذنيها ولم يعطوها شيئاً ، فكأنهم
ظلموها ، فاشتقوا لها اسم الظليم .

وَاللَّيْلُ : هو فَرَخُ الْكَرْوَانِ وقيل فيه غير ذلك .

وَالنَّهَارُ : هو فرخ الحُبَارَى ، وقولهم في المثل [أَجْبُنُ مِنْ لَيْلٍ وَأَحْمَقُ مِنْ
نَهَارٍ] يعنون هذين الطائرين ، وقد اختلف جعفر بن سليمان العباسي مع الخليفة
المهدى في قول الفرزدق :

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي السَّوَادِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِيهِ نَهَارُ

قال المهدى : هما الطائران المعروفان ، وقال جعفر : هما الليل والنهار
المعروفان ، وقد رفع ذلك جعفر إلى يونس بن حبيب بعدما رجع إلى البصرة فقال
يونس إنهما كما قال جعفر .

وقال أبو عبيدة : إن قول الخليفة معروف في غريب اللغة .
وقد أُلغز الحريري في المقامة الطيبية فقال : [فإن عمد — يعني الصائم —
لأن أكل ليلاً ؟ قال ليشمر للقضاء ذيلاً ؛ ونحو قول الآخر :

فتى كان في وطء الحلال مساتراً وأعلن في وطء الحرام جهاراً
ولا كان يأتي في الصلاة جماعة ويأكل في شهر الصيام نهراً

فالوطء : وطء القدم والحلال ، والحرام : المكانان والصلاة : المكان أيضاً
ومنه قوله تعالى ﴿ وَيَبِغْ وَصَلَّاتٍ ﴾^(١) والنهار : الطائر المعروف .

والرئال : هو ككتاب جمع رأل بفتح الراء وسكون الهمزة ويجوز إبدالها ألفاً
كرأس وبأس ، وهو فرخ النعام والأنثى رائلة والجمع رئال قال الفرزدق :

يتامى على آثار بؤس كأنها رئال دعاها للمبيت نعامها
وقال حسان — رضى الله عنه — :

وأشهد أن إلك من قريش كإل السقب من رأل النعام
والإل : القرابة والرحم والسقب : ولد الناقة .

والهَيْئَمُ : بالثاء المثلثة قيل هو أيضاً فرخ الحباري وقال الجوهري : و مرخ
العقاب ، وقيل : هو فرخ النسر ، وبه سمى الهيم بن عدي ، وعكرمة ، هو بكسر
العين والراء المهملتين الأنثى من الحمام ، وقيل أنثى ساق حر خاصة ، ويقال :
عكرمة بدون لام ، فيكون علم جنس ، وإذا أدخلنا عليه الألف واللام وقلنا
العكرمة كان اسم جنس ، وبه سمى عكرمة مولى ابن عباس وغيره .

وخرنق : هو كزبرج الفتى من الأرانب وقيل ولده يكون أولاً خرنقاً ثم
نحلة ، ثم أرنباً وبه سميت خرنق الشاعرة أنحت طرفه بن العبد الآتي ذكرها ،
ويضرب بها المثل في اللين يقال [ألين من خرنق] قال الراجز :

إذا العجوز غضبت فطلق ولا ترضاها ولا تملق

(١) الحج آية (٤٠)

واعمد لأخرى ذات دَلَّ مَوْنَق لينة المس كسَّ خرْنَق
وكان للنبي صلى الله عليه وسلم درع تسمى الخرْنَق للينها ، والله أعلم .

[وَلَمْ تَزَلْ تَقْطَعْ جِلْبَابَ الدُّجَا بِجَلَمِ الْيَدِ وَسَيْفِ الْعُنُقِ]

الْجِلْبَابُ : كسِرْدَاب : ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء وقال ابن كثير
في تفسيره : والجلباب هو الرداء فوق الخمار ، قاله ابن مسعود وعبيدة وقتادة
والحسن البصرى وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني وإبراهيم النخعي وغير واحد ،
وقيل الجلباب المِلْحَفَة ، والجمع الجلابيب . قالت امرأة من هذيل ترثي ميتاً لها :
تمشي النُور إليه وهي لاهية مشي العذارى عليهن الجلابيبُ

وَالدُّجَا : جمع دُجِيَّة كظلمة وزناً ومعنى ، قال أبو الطمَّحان الفيني :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دُجَا الليل حتى نَظَمَ الْجَزَعُ ثاقِبُهُ

وَالْجَلَمُ : مُحَرَكاً : المقرض أي المقص ، ويقال : له الجلمان بلفظ التثنية ،
وجملت الصوف والوبر قطعتهما بالجلمين ، واستعماله مفرداً كما نطق به الناظم
قليل ، ومنه قول سالم بن وابصة :

دَاوَيْتُ صَدْرًا طَوِيلًا غِمْرُهُ حَقْدًا مِنْهُ وَقَلَّمْتُ أَظْفَارًا بِلا جَلَمٍ

والأكثر استعماله بلفظ التثنية ، قال عنتره :

ظَعَنَ الَّذِينَ فَرَّاقَهُمْ أَتَوَّقَعُ وَجَرَى بَيْنَهُمُ الْغَرَابُ الْأَبْقَعُ
خَرَقَ الْجَنَاحُ كَأَنَّ لِحْيَةَ رَأْسِهِ جَلَمَانِ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مُوَلَّعُ

ومن الطرائف ما ألغز به صالح بن شريف الرُّنْدِي في الجلمين حيث قال :

ومصطحبين ما أَتَّهِمَا بعشق وإنَّ وَصِيفًا بِضَمٍّ واعتناقٍ
لِعَمْرٍ أَيْبِكُ ما اجتمعنا لمعنى سوى معنى القطيعة والفِرَاقِ

وَالسَّيْفُ : معروف : قالوا وأسماءه تزيد على الألف ، والتحقيق أنَّ اسمه
واحد هو السيف والباقي صفات له ، يحكى أنَّ الشيخ « أبا علي الفارسي » كان

بمجلس سيف الدولة بحلب وفيه ابن خالويه فقال « ابن خالويه » : أحفظ للسيف
خمسين اسماً فتبسم الشيخ أبو علي الفارسي ، وقال : ما أحفظ له إلا اسماً واحداً ،
وهو السيف ، فقال ابن خالويه : فأين المهند ، والصارم ، وكذا وكذا ؟ فقال
أبو علي : هذه صفات .

ويجمع السيف على : أَسْيَافٍ وَأَسْيُفٍ ، وَسُيُوفٍ ، وَمَسَيِّفَةٍ ، وسافه ضربه
بالسيف .

وَالْعُنُقُ : بضمين مؤنثاً عند الحجازيين ومذكراً عند غيرهم ، وقولهم هم
عُنُقُ إِيْلِكَ يعنى هم مائلون إليك ، ومنه قول الشاعر :
إِنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ عُنُقُ إِيْلِكَ فَهَبْتَ هَيْتاً

وجمع العنق أعناق ، والأعُنُقُ الطويل العنق والأنثى عنقاء والله أعلم .

[فَمَا اسْتَرَاخَتْ مِنْ عَبُورِ جَعْفَرٍ وَمِنْ صُعُودِ بِصَعِيدٍ زَلَقَ]
[إِلَّا وَفِي تَحْضُّخَاضٍ دَمْعٍ عَيْنَهَا خَاضَتْ وَغَابَتْ بِسَرَّابٍ مُطْبِقِ]
الرَّاحَةُ : ضد التعب ، وأراحه الله فاستراح ، وأراح هو رجعت إليه نفسه
بعد الإعياء ، وأراح أيضاً تنفس ، قال امرؤ القيس يصف فرساً أنثى :

لَهَا مِنْخَرٌ كَوْجَارِ الضَّبَاعِ فَمِنْهَا تُرِيحُ إِذَا تَنْبَهَرُ
وَالْعُبُورُ : قطع النهر ومجاوزته إلى الجانب الآخر عبرته عَبْرًا من باب قَتَلَ
وعبوراً قطعته مِنْ عَبْرٍ إِلَى عَبْرٍ بكسر أوله وَيُضْمُ ، وَالْمَعْبَرُ بفتح الميم الجانب
وَالْمَعْبَرُ بكسرها مَا يُعْبَرُ عَلَيْهِ مِنْ قَنْطَرَةٍ أَوْ سَفِينَةٍ .

وَالْجَعْفَرُ : هنا النهر الكبير الواسع كما في الكفاية وقال المجد الجعفر النهر
الصغير ، كذا في الأصل ، وحكى المبرد في الكامل أَنَّ هَارُونَ الرَّشِيدَ مَارَحَ
أُمَّ جَعْفَرٍ زَبِيدَةً ؛ فقال لها : كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا أُمَّ نَهْرٍ ؟ فَاغْتَمَتَ ذَلِكَ وَأَرْسَلَتْ
إِلَى الْأَصْمَعِيِّ ، فَسَأَلَتْهُ عَنْ مَعْنَى ذَلِكَ فَقَالَ لَهَا الْجَعْفَرُ النَّهْرُ الصَّغِيرُ ، فَطَابَتْ
نَفْسُهَا .

والصُّعُودُ : من صَعِدَ في السلم والدرج ونحو ذلك يَصْعَدُ من باب تَعَبَ
صُعُوداً وصعدت السطح وإليه كذلك ، وصعدت في الجبل بالثقل إذا علوته
وصعدت في الجبل من باب تعب لغة قليلة ، وعليها مشى الناظم قال في الأصل :
وأنكرها الجوهري والفيروزآبادي ، وأثبتها الشهاب الفيومي في المصباح ، ومن
حفظ حجة على من لم يحفظ : وإنما قلنا إنَّ الناظم مشى عليها ، لأنه أراد بالصعيد
خصوص المرتفع من جبل ونحوه كما سيأتي .

والصَّعِيدُ : وجه الأرض مطلقاً تراباً كان أو غيره ، قال الزجاج : ولا أعلم
خلفاً بين أهل اللغة في ذلك ، وقال ثعلب : الصعيد وجه الأرض وكل ما عليها
كالتراب والرمل والسبخ ، والملح ، وبه قال مالك وأبو حنيفة « رحمهما الله »
فأجازوا التيمم بذلك كله ، وقال الشافعي « رحمه الله » لا يجوز التيمم إلا
بالتراب الذي لا يخالطه رمل وهو عنده الصعيد ، كذا في الأصل .

قلت : جواز التيمم بالمعدن كالملاح ونحوه عند مالك ما لم ينقل من محله فإذا
نقل لا يجوز التيمم به ، وامتناع الشافعي ومن وافقه عن التيمم بغير التراب الذي
يخالطه غبار لا يلزم منه أنه يخالف في أن الصعيد وجه الأرض ، وكل ما عليها إلا
أنهم لا يجوز عندهم التيمم بكل الصعيد وإنما بالصعيد الطيب الذي يتحلل منه
شيء في اليد ، وذلك أخذاً من منطوق قوله تعالى : ﴿ فَيَتِيمُوا صَعِيداً طَيِّباً
فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾^(١) ، ومن المسلم به أن أشهر معاني
[مِنْ] التبعض ، ولذلك قال الشافعي وأحمد — عليهما رحمة الله —

لا يجوز التيمم إلا بصعيد له غبار يعلق باليد ، وأما الباقيون فقد جعلوا [مِنْ] هنا
بمعنى : الباء أي فامسحوا وجوهكم وأيديكم به ، ولذلك فقد أجازوا التيمم بكل
الأرض وما اتصل بها ، والكل على هدى من ربهم « عليهم سوابغ رحمة الله » .

وقوله : زَلَقَ : مصدر زلق يَزْلُقُ من باب فَرَحَ يَفْرَحُ إذا زَلَّتْ قدمه فلم
تثبت .

(١) النساء آية (٤٣)

وَالْحَضْحَضُ : هنا الطين المختلط بالماء ، كما يذكر الفقهاء في الأحكام ،
والخضخاض أيضاً ضرب من القطران تنهأ به الإبل ، وكان خضخض كثير الماء
والشجر .

وَالدَّمْعُ : ماء العين ، وهو في الأصل مصدر غلبت عليه الاسمية ، يقال
دمعت العين تدمع من باب نفع دمعاً ، ودمعت دمعاً من باب تعب لغة فيه ،
ويكون من حزن وسرور غير أنه إذا كان من حزن كان حاراً وإذا كان من سرور
كان بارداً ، ولذا قالوا في الدعاء على الإنسان : أسخن الله عينه ، وفي الدعاء له :
أقر الله عينه ، وجمع الدمع دموع ، والقطرة الواحدة منه دمة .

وقوله : نَحَاضَتْ : يقال خاض الرجل يخوضه خوضاً وخياطاً مشى فيه
والموضع مخاضة بفتح الميم وهو ما جاز الناس فيه مشاة وركباناً والجمع مخايض
ومخاوض ، وَخَضَّتِ الغمرات اقتحمتها ، وخاض القوم في الحديث : أفاضوا فيه .

وَالسَّرَابُ : ما يترأى للعين وقت الضحى الأكبر في الغلوات شبيهاً بالماء
الجاري ، وليس بماء ولكن الذي ينظر إليه من بعيد يظنه ماءً جارياً ، قال الله
تعالى : ﴿ كَسْرَابٍ بِقِيَعٍ يَخْسِبُهُ الظُّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ (١)
يقال سَرَبَ الماء يسرب من باب قتل سروباً إذا جرى فهو سَارِبٌ ، ومنه سمي
السراب .

وَالْمُطَبَّقُ : المجمل ، يريد أنه مجمل للأرض وسائر لها ، مأخوذ من الطبق ،
الذي هو أحد أمتعة البيت ، وأصله الشيء الذي يكون على مقدار الشيء محيطاً
بجميع جوانبه ، كالغطاء ، ومنه أيضاً قولهم أطبقوا على الأمر إذا أجمعوا عليه ،
ومطر طَبَّقَ بفتححتين دائم متواتر ، وطَبَّقَ الغيم الأرض تطبيقاً أصاب بمطره جميعها ،
وسحابة مطبقة كذلك ، قال امرؤ القيس :

دَيْمَةً هَطَلَاءُ فِيهَا وَطَفٌ طَبَّقَ الْأَرْضَ تَحْرَى وَتَسْدِرُ

(١) النور الآية (٣٩)

وَالْوُطْفُ : السحابُ المسترخى الجوانب لكثرة مائه وقوله طبق الأرض يعم الأرض تحري تنوحى وتقصد ، وتذر أي تغزر وتكثر ، ومن لطيف المناسبة هنا ذكر ما كان يكتب به ابن المعتز إلى مؤدبه أحمد بن يحيى المعروف بشعلب اشتياقاً إلى لقائه :

مَا وَجَدُ صَادٍ فِي الْجِبَالِ مُوثِقٍ بِمَاءٍ مُزِنٍ بَارِدٍ مُصَفَّقٍ
بِالرَّيْحِ لَمْ يُطْرَقْ وَلَمْ يُرْتَقِ جَادَتْ بِهِ أَخْلَافُ دَجْنٍ مُطْبِقِ
صَرِيحٌ غَيْبٌ خَالِصٌ لَمْ يُنْزَقِ إِلَّا كَوَجْدِي بِكَ لَكِنْ أَتَقِي
يَا فَاتِحًا لِكُلِّ بَابٍ مُغْلَقِ وَصَيْرُفًا نَاقِدًا لِلْمَنْطِقِ
إِنَّا عَلَى الْبِعَادِ وَالتَّفَرُّقِ لَنَلْتَقِيَ بِالذِّكْرِ إِنْ لَمْ نَلْتَقِ

[كَأَنَّمَا رَفَاقُهُ بَحْرٌ طَمًا وَالتُّوقُ أَمْوَاجٌ عَلَيْهِ تَرْتَقِي]
[وَكُلُّ هَوْدَجٍ عَلَى أَقْتَابِهَا مِثْلُ سَفِينٍ مَاجِرٍ أَوْ زَوْرَقٍ]

رَفَاقُ السَّرَابِ : ماتلاً منه أي : جاء ، وذهب ، وكل شيء تلاً فهو رفاق ، ومن أمثالهم [أرق من رفاق السراب] ، والرقاقة من النساء التي كان الماء يجري في وجهها صفاء وحسناً .

وَالْبَحْرُ : معروف وجمعه أَبْحُرٌّ وبحار ، وكل نهر عظيم فهو بحر ، وفرس بَحْرٌ إذا كان واسع الجري ، ومنه قوله — صلى الله عليه وسلم — : [فوجدته بحراً] يعني بذلك مندوب فرس أي طلحة — رضى الله عنه — .

وَأَبْحَرَ الرَّجُلُ إِذَا رَكِبَ الْبَحْرَ ، وَأَبْحَرَ عَلَى وَزْنِ أَفْعَلَ : بلدة بقرب جدة ؛ وَطَمًا الْبَحْرُ يَطْمِي طُمِيًّا كَعَصَى امْتَلَأَ ، وَطَمًا الْمَاءُ : علا حتى ملأ النهر ، والنبْتُ طَالَ ، وَطَمَتْ هِمَّتُهُ ارْتَفَعَتْ وَعَظُمَتْ ، وَطَمَتْ الْمَرْأَةُ بِزَوْجِهَا إِذَا ارْتَفَعَتْ بِهِ ، وَيُقَالُ بِالْوَاوِ فِي الْجَمِيعِ .

وَالتُّوقُ : جمع ناقة كَبْدُنٍ جمع بَدَنَةٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ .

وَالْأَمْوَاجُ : جمع موج والواحدة موجة أصله المصدر ثم غلبت عليه الاسمية كما

مَرَّ في الدمع ، يقال ماج البحر مَوْجاً اضطرب ، وتموج اشتد اضطرابه وهيجانه ، وماج الناس إذا اضطربوا واختلفت أمورهم .

والارتقاء : الصعود كالرقي ورقيت في السلم بالكسر رَقِيّاً ورُقِيّاً صعدت وارتقيت مثله ، والمرقاة بفتح الميم الدرجة ، وهذا على أنها محل للرقي ، فإن اعتبرت على أنها آلة له كسرت .

والهَوْدَجُ : هو مَرَكَبٌ للنساء معروف يكون مقبباً وغير مقبب والجمع هودج .

والأَقْتَابُ : جمع قَتَبٍ محركاً وهو رَحْلٌ صغيرٌ يكون على قَدْرِ سَنَامِ البعير والسَّفِينُ : هو في الأشهر جمع سفينة ، ويُجمع أيضاً على سفائن ويجمع السفين على سَفْنٍ بضمين قاله في المصباح .

وهو غير متعين إذ يجوز أن يكون جمع سفينة كصُحُفٍ جمع صحيفة ، واعلم أن الجمع الذي بينه وبين مفردة هاء التانيث بابه المخلوقات ، مثل ثمرة وتمر ونخلة ونخل وأما في المصنوعات فمسموع في ألفاظ قليلة منها السفن والسفينة ، ومنهم من يقول إن السفين لغة في الواحدة ، وهو الذي مشى عليه الناظم كما سيأتي .

وسميت سفينة لأنها تسفن الماء أي تقشره فهي فعيلة بمعنى فاعل وصاحبها سَفَانٌ وصنعتة السَّفَانَةُ بالكسر . وَمَخَرَّتْ السفينة الماء كمنع مَخَرّاً وَمُخَوِراً جرت وَمَخَرَّ السابح الماء شقه بيدنه ، ويقال للسحب بنات مخر لأنها تمخر الهواء أي تشقه ، والفُلُكُ المواخر التي يسمعُ صوت جريها ، أو تشق الماء بِجَئِجائها ، وقيل غير ذلك .

وَالزُّورَقُ : هو السفينة الصغيرة والجمع زوارق ، — والله تعالى أعلم — .

[مَرَّتْ بِهَا هُوجُ الرِّيَّاحِ فَهِيَ فِي تَفْرِيقٍ حِيناً وَحِيناً تَلْتَقِي]

المُرُورُ : هُنَا الذَّهَابُ ، والمرور أيضاً الاجتياز ، يقال مَرَّ زَيْدٌ مَرّاً ومروراً ذهب

ومررت به ذهبت به ومررت به وعليه اجتزت به .

وَالْهَوَجُ : بالتحريك طولٌ في حُمقٍ ، وطَيْشٍ وتَسْرُجٍ ، والناقَةُ الهوجاء المسرعة السير حتى كأنَّ بها هَوَجاً ، والريج الهوجاء التي تقلع البيوت ، والجمع هَوَجٌ بضم الهاء ، كذا في الصَّحاح والقاموس ، وقال أبو البقاء في شرح ديوان المتنبي : الرياح الهوج التي لا تستقيم فتارة تأتي من هنا وتارة من هنا ، وهذا يناسب تعقيب الناظم لها بالتفرق تارة والالتقاء أخرى .

وَالْحَيْنُ : الزمان قلُّ أو كثر والجمع أحيان وجمع الجمع أحيانين ، واختلفوا في قوله تعالى : ﴿ تَوَتَّى أَكُلْهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ ^(١) فقيل ستة أشهر لأن بين حمل النخلة إلى صرامها ستة أشهر ، وقيل سنة وقيل شهران وقال الزَّجَّاج : جميع من شاهدنا من أهل اللغة يذهبون إلى أنَّ الحين كالوقت يصلح لجميع الأزمان كُلِّها طالت أم قصرت ، كذا بالأصل .

قلت : قال الراغب الأصفهاني في المفردات : الحين وقت بلوغ الشيء وحصوله وهو مبهم المعنى ويتخصص بالمضاف إليه نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحِينَ مَنَاصِرَ ﴾ ^(٢) ومن قال «حين» يأتي على أوجه : للأجل ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ ^(٣) وللجنة نحو قوله تعالى : ﴿ تَوَتَّى أَكُلْهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ ^(٤) وللساعة نحو قوله تعالى : ﴿ حِينَ تُنْسَوْنَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ^(٥) وللزمان المطلق نحو ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ ^(٦) وإنما فسر بذلك بِحَسَبِ مَا وَجَدَ قَدْ عُلِّقَ بِهِ ، وَيُقَالُ عَامَلْتَهُ حَيْنًا وَحَيْنًا وَأَحِينْتُ بِالْمَكَانِ أَقَمْتُ بِهِ حَيْنًا ، وَحَانَ حِينٌ كَذَا أَى قَرَبَ وَقْتِهِ ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

[وَكَمْ بِسَوِّطِ الْبَغْيِ سَقَتْ سَوْقَهَا سَوَّقَ الْمُعْتَفِ الَّذِي لَمْ يَتَّقِ]
[حَتَّى غَدَتْ نُحُوصاً عِجَافاً ضُمَّراً أَعْتَقَهَا تَشَكُّو طَوِيلَ الْعَنْقِ]

(٤) إبراهيم الآية (٢٥)
(٥) الروم الآية (١٧)
(٦) الإنسان الآية (١)

(١) إبراهيم الآية (٢٥)
(٢) صر الآية (٣)
(٣) الصافات (١٤٨)

[مَرْثُومَةُ الْأَيْدِي شَكَّتْ فَرَطَ التَّوَجَّى لَكِنَّهَا تَشْكُو لَغَيْرِ مُشْفِقٍ]

السُّوطُ : الخلط وأصله أن تخلط بين شيئين في إنائك ثم تضربهما بيدك حتى يختلطا ومنه للمقرعة السوط لأنها تخلط اللحم بالدم والجمع أسواط وسياط وضربه سوطاً أي مرة واحدة بالسوط .

وَالْبَغْيُ : التعدي ، وَبَغَى الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ اسْتَطَالَ ، وَبَغَتْ السَّمَاءُ اشْتَدَّ مَطَرُهَا ، وَبَغَى الْجَرْحُ وَرِمَ وَتَرَامَى إِلَى فُسَادٍ ، وَبَغَى الْوَالِي ظَلَمَ ، وَكُلُّ مَجَاوِزَةٍ عَنِ الْحَدِّ وَإِفْرَاطٍ فِي الْمَقْدَارِ ، الَّذِي هُوَ حَدُّ الشَّيْءِ فَهُوَ بَغْيٌ .

سُوقَهَا : جمع ساق ، وهى ما بين الكعب إلى الركبة مؤنثة تصغيرها سويقة وجمعها سوق كما نطق به الناظم وأسوق بالهمزة ، وسيقان ، ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾^(١) عن شدة ﴿ وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾^(٢) آخر شدة الدنيا بأول شدة الآخرة .

وكانوا إذا أرادوا الإخبار عن شدة ذكروا الساق ، ومن ذلك قولهم : قامت الحرب على ساق ، كذا في الأصل ، قُلْتُ : قال الأصفهاني في المفردات : ﴿ وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾^(٢) قيل عن التفاف الساقين عند خروج الروح وقيل التفافهما عندما يلفان في الكفن ، وقيل هو أن يموت فلا تحملانه بعد أن كانا تفلانه ، وقيل أراد التفاف البلية بالبلية ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾^(١) من قولهم كشفت الحرب عن ساقها . انتهى منه بلفظه .

الْعُنْفُ : مثلث العين ضد الرفق يقال عُنِفَ به وعليه ككرم وأعنفته إعناً وأعنفته تعنيفاً ، والعنيف من لا رفق له بركوب الخيل ، والشديد من السير والقول ونحو ذلك .

الانْتِقَاءُ : أصله الحذر والاسم التقوى : وأصلها وقياً لأنها مأخوذة من الوقاية

(١) القلم الآية (٤٢)

(٢) القيامة الآية (٢٩)

فأبدلت لام الكلمة التي هي الياء واواً على القاعدة في فعَلَى إذا كانت اسماً ، ثم أُبدِلَتْ فاؤها التي هي الواو تاءً ففَعِلَتْ تقوى .

قلت : وقد تبع في الأصل في تعريف التقوى الشرعي عبارات الصوفية وقد عَدَلْتُ عن عباراته عن قصد ، أما التقوى لغة فهو جعل المرء وقاية بينه وبين ما يحذره ، ومن ذلك الاستعمال قول نابغة ذبيان :

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرَدْ إِسْقَاطُهُ فَتَنَّاوَلْتُهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ
والتقوى في تعريف الشرع حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحذور ، ويتم ذلك بترك بعض المباحات لما روي « الحلال بَيْنَ والحرام بَيْنَ ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه » .

وقال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(١) ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ ^(٢) ﴿ وَسَيَقْدِرُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ ^(٣) والله أعلم .

وقوله غدت خوصاً : أي غائرات العيون ، قال في المصباح : الخَوْصُ بالتحريك مصدر من باب تعب وهو ضيق العين وغثورها ، والذكر أخوص والأنثى خوصاء والجمع خوص بالضم .

وَالْعَجْفُ : بالتحريك الهزال وقد عَجَفَ يَعْجَفُ كفرح يَفْرَحُ ، والذكر أَعْجَفُ والأنثى عَجْفاء والجمع عِجَاف على غير قياس لأن أفعل فعلاء لا يجمع على فعال ولكنهم حملوه على نقيضه وهو سمان ، والعرب قد تبني الشيء على نقيضه كما تبنيه على نظيره .

ضُمُّراً : جمع ضامر والأنثى ضامرة وهي المهزولة اللاصقة البطن من الإبل

(١) الأعراف الآية (٣٥) .

(٢) النحل (١٢٨)

(٣) الزمر الآية (٧٣)

والخيل ، يقال ضَمَرَ البعير والفرس ضموراً من باب قَعَد وضمَرَ ضمراً كَقَرَّبَ قُرْباً : دَقَّ وقلَّ لحمه ، وضمَّرتُ الفرس وأضمَّرتُه أعددتُه للسباق وهو أن تعلقه قوتاً بعد السَّمنِ فهو ضامر ، وخيل ضامرة ، وفي التنزيل ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾^(١) أي على كل بعير مهزول أتعبه بُعد الشُّقَّةِ ، والله أعلم .

والعَنَقُ : بفتحتين ضرب من السير فسيح سريع وهو اسم من أعنق إعناقاً قال أبو النجم :

ياناق سيري عَنَقاً فسيحاً إلى سليمان فنستريحاً

وقوله [مَرثُومَةَ الأيدي] : أي مُشَقَّقَتُها تسيل دماً ، وأصل الرِّثْم كسر الأَئِف ونحوه حتى يخرج منه الدم يقال رَثِمَ أنفه أوفاه يرثمه فهو مرثوم ، وَخُفَّ مرثومٌ ورثيم إذا أصابته حِجَارَةٌ فَدَمِيَ ، وكل ما كسر ولطخ بالدم فهو رثيم ، ورثمت المرأة أنفها بالطيب لطخته به ، قال ذو الرمة :

تنشئ النَّقَابَ على عِرْنَيْنِ أَرْبِيَّةٍ شَمَاءُ مَارُئِهَا بالْمَسْكِ مرثومٌ

والرَّثْمُ أيضاً بياضٌ في جحفة الفرس العليا .

نادرة : يحكى أن أعرابياً هَوِيَ أعرابية فأهدى إليها ثلاثين شاةً وزقاً من خمر مع عبد له أسود ، فأخذ العبد شاةً في الطريق فذبحها وأكل منها وشرب بعض الزُّق ، فلما جاءها بالباقي عرفت أنه خانها في الهدية فلما عزم على الانصراف سألتها هل لك من حاجة إلى سيدي ؟ فقالت له نعم اقرأ عليه السلام وقل له إن الشهر كان عندنا مُحَاقاً وإنَّ سُحيماً راعِي غنمنا جاءنا مرثوماً ، فلم يدر العبد ما أرادت بهذه الكناية ، فلما عاد إلى مولاه أخبره برسالتها ففطن لما أرادت فذبحها بالهراوة وقال لتصدقني ولأَشْدَحْتُ بها رأسك فأقر بما فعل فعفا عنه ، وهذا من ألطف الكنايات وأحلى الإشارات .

(١) الحج (٢٧)

وَالْوَجَى : هو وجع . يكون في الرجل ، وَجَى كَرَضِيَّ فهو وَجَجَ وَوَجَى كَغَنَى وهي وَجِيَاءُ .

وقيل : الوجى الحفا ، وقيل الوجى وجع يجده الفرس في حافره أو البعير في خفه من غير أن يكون به وهى من صدع ولا غيره .

والإشفاق : الحذر والحنو والعطف والاسم : الشفقة وقد تقدم الكلام عليه

[قَدْ ذَهَبَتْ مِنْهَا الْمَحَاسِنُ بِإِذْنِ الْمَنِ السُّرَى وَقِلَّةِ التَّرْفُقِ]

الْمَحَاسِنُ : جمع حُسْنٍ على غير قياس كأنه جمع مَحْسَنٍ وهو جمع لا واحد له من لفظه مثل ملاح جمع لمحّة وقولهم : سَدَّ اللَّهُ مَفَاقرَهُ أَيْ وجوه فقره ، وقطع الله مذاكره يريدون ذَكَرَهُ أَيْ فَرَجَهُ ، وهي جموع يسيرة جاءت على هذا النحو ، ومعنى الحسن الجمال يقال حَسُنَ الشَّيْءُ بالضم حُسْنًا فهو حسن والجمع حَسَنَاتٌ .

وَالْإِذْمَانُ : الملازمة يقال أَدَمَنَ فلان كذا إِذْمَانًا : وَاظَبَ عليه ولازمه ، ورجل مَدَمَنَ خمر أَيْ مداوم على شربها .

وَالسُّرَى : بالضم اسم مصدر وهو سير الليل ولغة أهل الحجاز أُسْرَى إِسْرَاءً قال حسان رضى الله عنه :

حَتَّى النُّصِيرَةِ رَبَّةَ الْخِذْرِ أُسْرَتْ إِلَيْكَ وَلَمْ تَكُنْ تُسْرَى وَالتَّرْفُقُ : تَفَعَّلَ من الرفق ضد العنف ، والله أعلم .

[كَانَتْ لَمْ تَكْ قَبْلُ التَّخَبُّتِ مِنْ كُلِّ قَرَوَاءِ رَقُوبٍ فُتِقِ]

[دَوْسَرَةٍ هَوَجَاءَ وَجَنَى مَايَهَا مِنْ نَقَبٍ وَمِنْ وَجَى وَسَلَقِ]

الْإِتِّخَابُ : أصله الانتزاع ثم شاع في انتزاع خاص وهو ما كان على سبيل الاختيار والتَّخَبُّتُ بالضم كهُمَزَةٍ : المختار والجمع نُخَبٌ كُرُطَبٌ وجاء فلان في نُخَبِ أَصْحَابِهِ أَيْ في خيارهم .

وَقَرَوَاءُ : يقال ناقةٌ قَرَوَاءٌ أَيْ طويلة السنام ويقال شديدة الظهر بينة القرا ،

ولا يوصف به الذَّكَرُ فلا يقال جمل أقرى .

والرُّقُوبُ : الناقة التي لا تدنو من الحوض عند الزحام وذلك لكرمها
والْفُتُقُ : الناقة الفتية السمينه ، وجارية فتق أى مُنْعَمَة
والدُّوسَرَةُ : الناقة الضخمة العظيمة
والهُوَجَاءُ : التي تُجَدُّ في السير فتركب رأسها كأن بها هوجا ، قال الراجز :
لله درُّ العملات الهوج

ولا يقال بعير أهوج والله أعلم .

والوَجْنَاءُ : الناقة الشديدة ، وقيل العظيمة الوجنتين ، ولا يقال في الذكر
أوجن .

ونَقَبَ : البعير إذا رَقَّتْ أخفافه ، ينقبُ كفرح يفرح ، ويقع من خشونة
الأرض ، وأنْقَبَ الرجل إذا نقب بعيره ، ونقب الحُفُّ الملبوس إذا تَخَرَّقَ .

يحكى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد ضرب الغزو على قوم من
المسلمين فجاءه أعرأى فقال ياأمير المؤمنين إن ناقتى عجفاء نُقْبَاءُ دَبْرَاءُ فاحملني ،
فظنه كاذباً فحلف أن ما بها من نقب ولا دبر وأعطاه شيئا من الدقيق ولم يحمله ،
فولى الأعرأى يسوق ناقتة ويرتجز قائلا

أقسم بالله أبو حفص عُمرُ مامسها من نَقَبٍ ومن دَبْرٍ
فاغفر له اللهم إن كان فَجْرُ

أى حنث ، فسمعه عمر رضى الله عنه فجعل يقول اللهم صدق اللهم صدق
ثم دعاه فقال له ضع عن راحلتك فوضع عنها فإذا هى كما قال فحمله على بعير
وزوده وكساه .

والسَّلَقُ : السلق بسكون اللام أثر دبرة البعير إذا برئت وابيض موضعها
كالسلق محرقة وأثر النسع في جنب البعير ، والاسم السليقة .
وعن قطرب أن قوماً من تميم يقال لهم « بلعنبر » يقلبون السين صاداً عند

أربعة أحرف : عند الطاء والقاف والغين والحاء قيل والحاء ، ومن المناسب هنا ذكر لطيفة : وهى أن النضر بن شميل المازني مرض فدخل عليه قوم يعودونه فقال له رجل منهم يكنى أبا صالح : مسح الله مابك — بالسين — فقال النضر : لا تقل مسح ولكن قل مسح الله مابك بالصاد أى أذهبه وَفَرَّقَهُ ، أما سمعت قول الأعشى :

وَإِذَا مَا الْحُمْرُ فِيهَا أَزْبَدَتْ أَفَلْ الْإِزْبَادِ فِيهَا وَمَصَحَ
فقال له الرجل : إن السين قد تُبدلُ من الصاد كما يقال للصراط السراط وصفر وسفر ، فقال له النضر : إذا أنت أبو صالح ؟

وتشبه هذه الحكاية أن بعض الأدباء جوز بحضرة الوزير أوى الحسن بن الفرات أن تُقام السينُ مقام الصاد فى كل موضع فقال له الوزير : أتقرأ :

﴿ جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ ﴾^(١) أو ومن سلح ؟
فخجل الرجل وانقطع .

[مِنْ بَعْدِ مَا كَانَتْ هُنَيْدَةً غَدَتْ أَكْثَرَ مِنْ ذَوْدٍ وَدُونَ شَنْقِ]

هُنَيْدَةُ : هند اسم للمائة من الإبل كهنيذة أو لما فوقها ودونها أو للمائتين ، وفى الصحاح إن الهنيذة اسم للمائة من الإبل وغيرها ، ولما مَدَحَ جرير عبد الملك ابن مروان وأعطاه مائة من الإبل أنشد فيه قصيدته التى يقول فيها .
أَعْطَوْا هُنَيْدَةً تَحْدُوها ثَمَانِيَّةٌ مَا فِي عَطَائِهِمْ مَنٌّْ وَلَا سَرْفٌ

وقال ابن خلكان : هنيذة بضم الهاء على صورة التصغير علم على المائة ؛ وأكثر علماء الأدب لا يجيزون إدخال الألف واللام عليها ، وبعضهم يجيز ذلك واستدل بقول سلمة بن الحرث :

وَنَصَرَ بِنَ دُهْمَانَ الْهَنِيذَةَ عَاشَهَا وَتَسْعِينَ عَامًا ثُمَّ قَوَّمَ فَاَنْصَاتَا
الدَّوْدُ : هو ما بين الثلاث إلى العشر من الإبل ، هذا هو المشهور وفيها أقوال

أخرى .

(١) الرعد اية (٢٣)

وهي مؤنثة ففي الحديث « ليس في أقل من خمس ذود صدقة » ولا واحد لها من لفظها وجمعها أذواد كثوب وأثواب ؛ وفي المثل : « الذود إلى الذود إبل » أى إذا جمعت القليل مع القليل صار كثيراً ، —

والشَّنُقُ : بالتحريك ما بين الفريضتين والجمع أشناق مثل سبب وأسباب وبعضهم يقول هو الوقص ، وبعض الفقهاء يخص الشنق بالإبل والوقص بالبقر ، والشنق أيضاً مادون الدية الكاملة فإذا كان معها دية جراحات فهي الأشناق كأنها معلقة بالدية العظمى ، والشنق أيضاً أن يزيد الإبل في الحماله ستاً أو سبعة ليوصف بالوفاء « والله أعلم » .

[وَإِنْ تَمَادَيْتَ عَلَى إِيْعَابِهَا وَلَمْ تَكُنْ مُتَنَبِّهًا عَنْ رَهَقٍ]
[فسوف تعروك على إتلافها ندامة الكُسْعِيِّ والْفَرَزْدَقِ]

مُتَنَبِّهًا : أي كافاً يقال نهته عن كذا فانهى عنه ، وتناهى أى كف ، وتناهوا عن المنكر نهى بعضهم بعضاً ، وسمى العقل نُهْيَةً بالضم لأنه ينهى صاحبه عن الوقوع فيما لا ينبغي ، والجمع : النُّهى كَالْعُلَا ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ (١) .

وَالرَّهَقُ : هنا اسم من الإرهاق وهو أن تحمل الإنسان أو غيره على مالا يطيق ، والرهق أيضاً السَّفَهُ والنُّوك والخِفَّة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم والكذب ، والفعل في الكل كفرح

وَعَرَاهُ الأمر يعرفه عُرُواً من باب قَتَلَ إِذَا غَشِيَهُ وَأَصَابَهُ :

وَالْكُسْعِيُّ : بضم الكاف وبفتح السين إلا أن الناظم سكنه للضرورة ، نسبة إلى كُسْعٍ كَصُرْدٍ حَيٍّ من اليمن وقيل غير ذلك ، والمراد به هنا رجل معروف يأتي خبره قريباً إن شاء الله تعالى .

وَالْفَرَزْدَقُ : أصله الرغيف الضخم الذى يحففه النساء للفتوت ، وقيل بل هو القطعة من العجين التى تبسط فيخبز منها الرغيف ، والمقصود به هنا الشاعر

(١) طه آية (١٢٨)

المعروف ويأتى خبره قريباً إن شاء الله .

وسُمِّيَ فرزدقاً لأنهم شبهوا وجهه به لأنه كان غليظاً جَهْمًا ، وهذا اللفظ فارسي مُعَرَّبٌ ونذكر بالمناسبة أن جريراً أصله الحبل ، وقد أُلْغِزَ بعضهم فقال :
رَأَيْتُ جَرِيرًا وَالْفَرَزْدُقُ فَوْقَهُ بِخَيْفٍ مِنِّي لَمْ يَعْشَ عَارًا وَلَا إِثْمًا
فَأَلْقَيْتُ فِي النَّارِ الْفَرَزْدُقَ بَعْدَمَا لَطَمْتُ حَيَاهُ وَلَمْ أَقْتَرِفْ ظُلْمًا
وَلَوْلَا جَرِيرٌ مَازَكْتُ نَارَ ضَالَةٍ فَلَمَّا ذَكَتْ أَضْحَى جَرِيرٌ لَهَا فَحَمًا
يقول : رأيت حبلاً عليه عجين فطبخت العجين بعدما ضربت عليه يدي حتى صار رغيفاً .

ذكر الكسعي وندامته

والكسعي الذي يضرب المثل بندامته رجل من كسع كصُرد حى من اليمن واسمه محارب بن قيس .

وفى القاموس أن كسع من بنى ثعلبة بن قيس عيلان ومنه غامد بن الحرث وكان من حديثه أنه كان يرعى إبلاً له بواد كثير العشب والحمط فبصر بِنَبْعَةٍ فِي صَخْرَةٍ فَأَعْجَبَتْهُ وَقَالَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَذِهِ قَوْسًا وَجَعَلَ يَتَعَهَّدُهَا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَتْ قَطَعَهَا وَجَفَّفَهَا وَاتَّخَذَ مِنْهَا قَوْسًا وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

يَا رَبِّ وَفَقْنِي لِنَحْتِ قَوْسٍ فَإِنِّي مِنْ لَدُنِّي لِنَفْسِي
وَانْفَعْ بِقَوْسِي وَلَدِي وَغَرَسِي أَنْحَتَهَا صَفَرَاءُ مِثْلَ الْوَرَسِ
صلداء ليست كالفسي النكسي

ثم عمد إلى ما كان من بُرَايَتِهَا فَاتَّخَذَ مِنْهُ خَمْسَةَ أَسْهُمٍ وَجَعَلَ يُقَلِّبُهَا فِي كَفِّهِ وَيَقُولُ

مِنْ وَرَى أَسْهُمٍ جِسَانُ تَلَدُّ لِلرَّامِي بِهَا الْبِنَانُ
كَأَنَّمَا قِوَامُهَا مِيزَانُ فَأَبْشُرُوا بِالْخَصْبِ يَا صَبِيَّانُ
إِنْ لَمْ يُعْقِنِي الشُّؤْمُ وَالْحَرَمَانُ

ثم خرج حتى أتى قُتْرَةً على موارد حُمِرٍ فكمن فيها، فمر به قطيع منها فرمى
غيراً بسهم فأخطه السَّهْمُ أى نفذ فيه وجازه فأصاب الجبل فأورى نارا فظن أنه
أخطاه وأنشأ يقول :

أعوذ بالله العزيز الرحمن من نكد الجدِّ معا والحِرمان
مالى رأيت السهم بين الصَّوان يُورِى شراراً مثل لون العقيان
فأخلف اليوم رجاء الصبيان

ثم مكث على حاله فجاء قطيع آخر فرمى غيراً منها فأخطه السهم وصنع
صنيع الأول فأنشأ يقول

لا بارك الرحمن فى رَمِي القُتْرِ أعوذ بالخالق من سوء القَدْرِ
أأخط السَّهْمَ لإرهاق الضرر أم ذاك من سوء احتيالٍ ونظر
أم ليس يغنى حذر عند قدر

ثم مكث على حاله فجاء قطيع آخر فرمى غيراً فأخطه السهم وصنع صنيع
الثانى فأنشأ يقول :

ما بال سهمى يوقد الحبايبا ولم يزل عن الرمايا ناكبا
قد كنت أرجو أن يكون صائبا فأخطأ العير ووَلَّى جانباً
فصار رأى فيه رأيا خائبا

ثم مكث مكانه فجاء قطيع آخر فرمى غيراً منه فأخطه السهم وصنع صنيع
الثالث فأنشأ يقول :

ياأسفى للشؤم والجدِّ النكد فى قوس صدق لم تزين بأوْد
أخلف ما أرجو لأهل وولد فيها ولم يُغنِ الحذار والجلْد
فخاب ظن الأهل طراً والوَلْد

ثم مر به قطيع آخر فرمى منه غيراً بسهم فأخطه السهم وصنع صنيع الرابع

فأنشأ يقول :

أبعد خمس قد حفظت عدها أحمل قوسي وأريد ردها
أخزي الإله لينها وشدها والله لا تسلم مني بعدها
ولا أرجى ما حيث رَفدها .

ثم عمد إلى قوسه فضرب بها حَجراً ثم بات فلما أصبح نظر فإذا الحمر حوله
مصرعة وأسهمه بالدم مُضَرَّجة فندم على كسر القوس فعض على إبهامه فقطعها
أسفاً وحسرة ثم أنشأ يقول :

بَدِمْتُ نَدَامَةً لَوْ أَنَّ نَفْسِي تُطَاوَعُنِي إِذَا لَقِطَعْتُ خَمْسِي
تَبِينُ لِي سَفَاهُ الرَّأْيِ مِنِّي لَعَمْرُ أَبِيكَ حِينَ كَسَرْتُ قَوْسِي

ذِكْرُ الْفَرَزْدَقِ وَنَدَامَتِهِ

والفرزدق هو هَمَامٌ أو هَمِيمٌ بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن
محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم التميمي الشاعر المشهور صاحب جرير وكنيته
أبو فراس وكان أبوه غالب من أشرف قومه .

وكان من خبر ندامته أن ابنة عمه النوار بنت أعين بن ضبيعة خطبها رجل
فَرَضِيَّتَهُ وكانت يومئذ بالبصرة والفرزدق أقرب أوليائها الحاضرين هناك فأرسلت
إليه أَنْ زَوِّجْنِي مِنْ هَذَا الرَّجُلِ ، فقال إِنَّ بِالشَّامِ مَنْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنِّي وَلَايَةٌ وَأَنَا
أَحْذَرُ أَنْ يَقْدَمَ مِنْهُمْ قَادِمٌ فَيَنْكَرُ ذَلِكَ عَلَيَّ فَاشْهَدِي أَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ أَمْرَكَ إِلَيَّ
فَفَعَلْتُ ، فلما توثق منها قال أرسلني إلى القوم فليأتوا ، فجاءت بنو عبد الله بن
دارم فشحنوا مسجد بني مجاشع مع صاحبهم وجاء الفرزدق فحمد الله وأثنى عليه
ثم قال : علمتم أن النوار قد ولتني أمرها وأنا أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُهَا مِنْ نَفْسِي
عَلَى مَائَةِ نَاقَةٍ حُمْرَاءَ سَوْدِ الْحَدِيقِ ، فنفرت النوار من ذلك وناكرته وترددت إلى
حُكَّامِ الْبَصْرَةِ فتوقفوا في أمرها وأبوا أَنْ يُطْلِقُوهَا مِنْهُ حَتَّى يَشْهَدَ لَهَا الشُّهُودُ .
وأعيانها أمر ذلك ، وكان ابن الزبير يومئذ أمير الحجاز والعراق يُدْعَى لَهُ

بالخلافة فيهما ويخطب له على منابرهما فهت النوار برفع أمرها إليه ولم تجد مَنْ يحملها إليه فأتت قومًا من بنى عدي بن عبد مناة بن أد يقال لهم بنو التَّسِيرِ وكانت بينها وبينهم قرابة فسألتهم بالرَّحِم فحملوها فبلغ ذلك الفرزدق فتبعها وقال في الفتية قصيدة لامية منها قوله :

وإنَّ امرءًا أُمسى يَحْبُبُ زوجتي كساعٍ إلى أُسدٍ الشرى يستبيلها
ومن دون أبوال الأسود بسالةً وأيدٍ طوال يمنع الضَّيِّمَ طولها

ثم إن الفرزدق لم يدرك النوار حتى قدمت مكة فاستجارت بزوجة ابن الزبير رضي الله عنهما واسمها خولة وقيل تماضر بنت منظور بن زبَّان بن سيار الفزاري ولما قدم الفرزدق مكة نزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير ومدحه بقوله :

أُمسيت قد نزلت بحمزة حاجتي إنَّ المنوّه باسمه الموثوق
بأبي عُمارة خير من وَطِيءٍ الحمصا وجرت له في الصالحين عروق
بين الحوارئى الأغر وهاشم ثم الخليفة بعدُ والصديق

وقد مدحه بأبيات أخرى ، فكان كل ما أصلح حمزة من شأن الفرزدق بالنهار مع أبيه تفسده أمه بالليل فقال الفرزدق

رُدُّ البنون فلم تقبل شفاعتهم وشَفَعْتُ بنت منظور بن زبَّانا
ليس الشَّفِيعُ الذى يَأْتِيكَ مُتَزَرًّا مِثْلَ الشَّفِيعِ الذى يَأْتِيكَ عُريانا

فبلغ ذلك ابن الزبير فأحفظه ودعا النوار وقال إن شئت فرقت بينكما وقتلته وأرحتُ المسلمين من شر لسانه وإن شئت سيرته إلى بلاد العدو ، قالت ما أريدُ واحدة منهما ، قال إنه ابنُ عمك وهو فيك راغب فأزوجه إياك قالت نعم فزوجه إياها على عشرة آلاف درهم فقبل الفرزدق وسأل بمكة هل أحدٌ يعينه فدلَّ على سلم بن زياد بن أبيه وكان ابن الزبير قد حبسه ، فقال الفرزدق :

دعي مغلقى الأبواب دون نواهم ومرى وسيرى بي هُبِلَتْ إلى سَلَمٍ
إلى من يرى المعروف سَهْلًا سبيلُهُ ويفعل أفعال الكرام التى تُنمي

فلما دخل على سلم وأنشده الشعر قال : هي لك ومثلها معها لنفقتك ، ثم إن الفرزدق أخذ زوجته وعاد إلى البصرة .

ولما كانت النوار امرأةً صالحةً الدين كانت تقع بينها دائماً وبين زوجها مشادة لأنه كان من المسرفين على أنفسهم فتزوج عليها حدراء بنت زيق بن بسطام بن قيس الشيباني فقالت له النوار ويلك تزوجت أعرابية دقيقة الساقين بواله على عقبها على مائة بعير ؟ فقال الفرزدق يعيرها بأنها كانت تُربّيها أمةً ويفضل حدراء عليها :

لجارية بين السليل عروقتها وبين أبي الصهباء من آل خالده
أحق بإغلاء المهور من التي تربت وهي تنزو في حجور الولائد
فلم تزل النوار تستعطفه حتى أجابها إلى طلاقها وأخذ عليها أن لاتفارقه ولا تبرح من منزله ولا تتزوج رجلاً بعده ولا تمنعه من مالها ماكانت تبذله ، وأخذت عليه أن يشهد الحسن البصري على طلاقها ففعل .

يُحكى أنه لما عزم على طلاق النوار استصحب معه محمد بن روح العدوي وقد استصحبت النوار رجالاً كثيرين يلوذون بالسواري خوفاً من الفرزدق فأتيا الحسن البصري « رحمه الله » في حلقة فقال له الفرزدق ياأبا سعيد ، قال له ماتشاء ؟ قال أشهدك أن النوار طالق ثلاثاً ، فقال الحسن قد شهدنا . فلما انصرف ندم على ما فعل فقال له رفيقه والله إني أرى أن ندمك سيقترق أتدري من أشهدت ؟ والله لئن رجعت لترجمن بأحجارك ، فمضى وهو يقول :

نَدِمْتُ نَدَامَةً كَسَعَى	لما	غدت مِنِّي مَطْلَقَةً نَوَارُ
وكانت جَنَّتِي فَخَرَجْتُ	منها	كَأَدَمٍ حِينَ أَخْرَجَهُ الضَّرَارُ
فكنت كَفَاقٍ عَيْنِيهِ عَمْدًا		فأصبح ما يضيءُ له النهار
ولو أني ملكت يدي وقلي		لكان لنا على القدر الخيار
وما فازقتها عن قلي ولكن		رأيت الدهر يأخذ ما يعار

والله أعلم

[وَكُنْتُ قَدْ عَوَّضْتُ مِنْ أَخْفَافِهَا خُفِّي خُنَيْنٍ ظَافِرًا بِالْأُنْقِ]

التَّعْوِضُ : إعطاء العَوَض بِكسر العين وفتح الواو ، يقال عاضني زيد عَوْضًا من باب قَالَ وَأَعاضَنِي بِالْأَلْفِ إِعَاضَةً وَعَوْضَنِي بِالتَّشْدِيدِ تَعْوِضًا : أعطاني العَوَض وهو البذل ، واعتاض هو ، أخذه كتعوض ، وأما استعاض فمعناه سأل العَوَض .

والأخْفَافُ : جمع خُفٍّ وهو مجمع فرسن البعير ، وقد يكون للنَّعَام ، وقيل لا يكون الخف إلا لهما ، وفي المصباح والقاموس والصحاح أن خُفًّا جمعه أخفاف إذا كان للبعير ، وأن الخف الملبوس جمعه خِفاف ، قال في الأصل : وعليه فإن قول المتنبي :

أُتْسِئُهَا مَمْعُوطَةً وَخِفَافُهَا مَنكُوحَةٌ وَطَرِيقُهَا عِذْرَاءُ
لَخُنٍّ مَعِ أَنَّ الْقِيَاسَ جَوَازُ الْأَمْرَيْنِ « وَاللَّهُ أَعْلَمُ »

وَالظُّفْرُ : الفوز بالمطلوب ؛ وَالْأُنْقُ : بالتحريك الفرع والسرور ، وقد أنق كفرح يأنق أنقا ، وشيء أنيق أي حسن مُعْجِب ، وآنقني الشيء أعجبني فهو مؤنق والله أعلم .

ذِكْرُ خُنَيْنٍ وَخَفِيهِ

اختلفت الرواة في خُنَيْنٍ المذكور في هذا المثل اختلافًا كثيرًا ، وأقربها إلى مامشي عليه الناظم ماذهب إليه أبو عبيد : كان حنين إسكافًا من أهل الحيرة فساومه أعرابي بخفين وماكسه فيهما حتى أخرجهم ولم يشتر منه فأغضبه ورصد حنين الأعرابي حتى إذا ارتحل تقدمه بالخفين فعلق أحدهما على شجرة على طريق الأعرابي ثم تقدم قليلاً وطرح الآخر على قارعة الطريق ثم كمن حيث لا يراه أحد ، فجاء الأعرابي حتى إذا حاذى الخف المعلق بَصُرَ به فقال ما أشبه هذا الخف بخف حنين ، فلو كان معه صاحبه لأخذته

ثم سار قليلاً فعثر على الآخر مطروحاً فندم على تفريطه في الأول فنزل عن راحلته فعلقها وأخذ الخف المطروح ثم رجع ليأخذ الخف الأول فخرج حنين فأخذ الراحلة وما عليها وذهب ورجع الأعرابي إلى حَيِّهِ بالخفين فكان قومه يقولون له بم جئت من سفرك؟ فيقول جئتكم بخُفِّي حنين، فذهب قوله مثلاً يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة

وقيل فيه غير ذلك وهي روايات كثيرة وحكايات تركتها لما يظهر عليها من التلفيق « والله تعالى أعلم » .

[لَأَنْتَ أَظْلَمُ مِنْ ابْنِ ظَالِمٍ إِنْ كُنْتَ مِنْ بَعْدُ بِهَا لَمْ تَرْفُقْ]

الظُّلْمُ : وضع الشيء في غير محله والمصدر الظُّلْمُ بفتح الظاء كضربه ضرباً يقال ظلمه يظلمه ظلماً فهو ظالم ومظلوم وظلمه حقه ، والظُّلَامَةُ كُثَامَةٌ والمظْلَمَةُ بفتح اللام على القياس والكسر أفصح : ماتطلبه عند الظالم وهو اسم لما أخذ منك ، وفي المثل [من استرعى الذئب الغنم فقد استَظَلَّمَ] وفيه أيضاً [من أشبه أباه فما ظلم] .

ذكر ابن ظالم وظلمه

هو الحرث بن ظالم بن جذيمة بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد ابن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان .

قلت : ومعلوم عند علماء التاريخ أن بني غيظ بن عوف الذين ينسب إليهم الحرث بن ظالم نسبهم مذبذب بين بني لؤى بن غالب وبين بني سعد بن ذبيان ، قال في عمود النسب للعلامة النسابة الشيخ أحمد البدوي المجلسي الشنقيطي :

سعدُ أبو عوف أبو الحَيِّ بنى غيظ بن مُرَّة بن عوف المبتنى
بِهَـرْمِـرٍ والحرثين سؤددا أو للؤى عوفهم وأنشدا
فيه ابن سعد إذا رآه أبطأ جملة والركب عنه قد نأى

احبس عليّ ابن لؤي جملك تركك القوم ولا مثرك لك
فهو إذا مذبذب بين لؤي وبين سعد مثل ماكان لُحي

وقوله : « بهرم » يعنى هَرمَ بن سنان وقوله و « الحارثين » يعنى الحارث بن
ظالم صاحب الترجمة والآخر الحارث بن عوف بن ألى حارثة بن مرة وكانا سيدين
شريفين .

وكان من خبر الحارث بن ظالم وفتكه الذى عبر عنه الناظم بالظلم أن زهير
ابن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحرث بن قطيفة بن عبس بن بغيض ،
كان سيد غطفان وكانت له إتابة على هوازن كل سنة بعكاظ ، وزهير هذا هو
والد قيس بن زهير العبسي صاحب داحس والغبراء الآتى ذكره إن شاء الله ،
فحضر زهير بعكاظ سنة من السنين فأتته غجوز من هوازن بسمن فى نحي
واعذرت إليه وشكت السنين التى تابعت على الناس ، فذاق زهير السمن فلم
يرض طعمه فدفع فى صدرها بقوس كانت فى يده فاستلقت على قفاها فبدت
عورتها فغضبت هوازن وحميت أنوفها من ذلك مع ماكان زهير يسومهم به من
الحسف قبل ذلك واتفقت كلمتهم مع رئيسهم خالد بن جعفر بن كلاب العامرى
علي قتل زهير ، فتطلب خالد زهيراً مدة حتى أخبر أنه فى إبل له مع بعض عشيرته
قريباً من حي بنى عامر فخرج خالد فى فوارس من قومه حتى كبسوا زهيراً على
حين غفلة وصمد إليه خالد فاقتتلا ملياً على ظهور فرسيهما ثم اعتنقا وسقطا على
الأرض وحمل حندج بن البكاء وهو ابن امرأة خالد على زهير فضره بالسيف على
رأسه حتى خلص إلى دماغه فقتله وثار خالد وعادت هوازن إلى منازلها ، ثم علم
خالد ابن جعفر أن غطفان سوف تطلبه بسيدها فسار إلى النعمان بن امرئ
القيس ملك الحيرة فاستجار به ، وقيل استجار بغيره والله أعلم بالصواب .

وكان خالد قبل مقتل زهير قد أغار على بنى يربوع بن غيظ بن مرة رهط
الحارث بن ظالم فى وادٍ لهم يقال له حُراض كغراب فقتل الرجال وبقيت نساء بنى
يربوع أيامى فنشأ الحارث على البغض له والحد ، ثم جاء الحارث إلى بنى زهير بن
جذيمة وهم يُجمعون لغزو بنى عامر ، فقال لهم اكفوني حرب هوازن وأنا

أَكْفِيكُمْ خَالِدَ بْنِ جَعْفَرٍ فَقَالَ لَهُ قَيْسُ بْنُ زَهِيرٍ : وَكَيْفَ تَصِلُ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي جَوَارِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ ؟ فَقَالَ لِأَقْتُلْنَهُ وَلَوْ كَانَ فِي حِجْرِهِ . ثُمَّ أَخَذَ فَرَسًا مِنْ عَتَاقِ خَيْلِ بَنِي مِرَّةٍ فَأَهْدَاهُ لِلنُّعْمَانِ فَأَعْجَبَهُ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَرَفَعَ مَنْزِلَتَهُ ، ثُمَّ إِنَّ النُّعْمَانِ دَعَا يَوْمًا خَالِدَ بْنَ جَعْفَرٍ فِي رَهْطٍ مِنْ عَشِيرَتِهِ وَالْحَارِثُ بْنُ ظَالِمٍ وَقَدَّمَ لَهُمْ تَمْرًا فَطَفِقَ خَالِدٌ يَأْكُلُ وَيُلْقِي النَّوْىَ بَيْنَ يَدَيْ الْحَارِثِ فَلَمَّا فَرَّغَ الْقَوْمُ قَالَ خَالِدٌ أَيْتَ اللَّعْنِ انْظُرْ مَا بَيْنَ يَدَيْ الْحَارِثِ مِنَ النَّوْىِ فَمَا تَرَكَ لَنَا تَمْرًا إِلَّا أَكَلَهُ فَقَالَ الْحَارِثُ أَمَا أَنَا فَأُكَلِّتُ التَّمْرَ . وَأَلْقَيْتُ النَّوْىَ وَأَمَّا أَنْتَ يَا خَالِدُ فَأُكَلِّتُهُ بَنَوَاهُ فَغَضِبَ خَالِدٌ وَكَانَ لَا يُتَارَعُ فَقَالَ أَتُنَازِعُنِي يَا حَارِثُ وَقَدْ قَتَلْتُ حَاضِرَكَ وَتَرَكْتُكَ يَتِيمًا فِي حُجُورِ النِّسَاءِ ؟ فَقَالَ الْحَارِثُ ذَلِكَ يَوْمٌ لَمْ أَشْهَدْهُ وَأَنَا مَغْنُ الْيَوْمِ بِمَكَانِي .

قَالَ خَالِدٌ فَهَلَا تَشْكُرُنِي إِذْ قَتَلْتُ زَهِيرَ بْنَ جَذِيمَةَ وَتَرَكْتُكَ سَيِّدَ غَطَفَانَ ؟ قَالَ بَلْ أَشْكُرُكَ وَأَخَذَهُ الْغَضَبُ ، وَافْتَرَقَ الْقَوْمُ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أُشْرِجَ خَالِدٌ قَبْتَهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَخِيهِ وَنَامَا فَلَمَّا هَدَّاتِ الْعَيُونَ خَرَجَ الْحَارِثُ شَاهِرًا سَيْفَهُ فَهَتَكَ شُرَجَ قَبَةِ خَالِدٍ بِالسَّيْفِ وَقَتْلَهُ وَهُوَ يَقُولُ : يَا خَالِدُ أَظُنَنْتَ أَنَّ دَمَ زَهِيرٍ كَانَ سَائِعًا لَكَ ؟

وَانْتَبَهَ أَخُوهُ عُتْبَةُ فَقَالَ لَهُ الْحَارِثُ لَنْ نَبْسْتَ لِأُلْحِقَنَّكَ بِهِ . وَانْصَرَفَ فَرَكِبَ فَرَسَهُ وَشَرَّدَ ، وَخَرَجَ عُتْبَةُ صَارِحًا وَاسِئًا جَارَاهُ وَاخْفَرْتَاهُ فَأَجِيبَ لَارُوعَ عَلَيْكَ فَقَالَ قَتَلَ الْحَارِثُ خَالِدًا وَأَخْفَرَ الْمَلِكَ فِيهِ ، فَوَجَّهَ النُّعْمَانُ فِي أَثَرِهِ جَمَاعَةً فَلَحَقُوا بِهِ فَقَتَلَ مِنْهُمْ أَفْرَادًا وَرَجَعَ عَنْهُ الْبَاقُونَ ثُمَّ لَحِقَ بِأَهْلِهِ .

وَكَانَتْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ بَيْنَ شِيعَةِ النُّعْمَانِ وَشِيعَةِ الْحَارِثِ بْنِ ظَالِمٍ ، وَطَافَ الْحَارِثُ فِي قِبَائِلِ الْعَرَبِ فَلَمَّا أَعْيَا النُّعْمَانُ أَمْرَهُ قِيلَ لَهُ إِنَّكَ لَنْ تَصِيْبَهُ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ أَخَذِ جَارَاتٍ لَهُ مِنْ بَلَىٍّ — وَبَلَىٌّ حَيٌّ مِنْ قِضَاعَةٍ — فَاسْتَأْذَنَ النُّعْمَانُ هَذِهِ الْجَارَاتِ وَأَمْوَاهُنَّ .

وَلَمَّا بَلَغَ الْحَارِثُ الْخَبَرَ كَرَّرَ رَاجِعًا وَسَأَلَ عَنْ مَرْعَى إِبْلَهْنَ فُذِّلَ عَلَيْهِ فَلَمَّا قَرَّبَ مِنْهُنَّ إِذَا نَاقَةٌ لَهْنٌ يَقَالُ لَهَا اللَّفَّاعُ غَزِيرَةُ اللَّبَنِ فَجَاءَ الْحَارِثُ وَحَالِبَانِ يَحْلِبَانِهَا فَصَاحَ بِهِمَا وَرَجَزَ وَقَالَ :

إذا سمعت حنة اللفّاع فادعى أبا ليلى ولا تراعي

فعرف البائن كلامه وهو الذى يحلب من الجانب الأيسر وحبى فقال المغلي وهو الذى يعلى الإناء ويكون فى الجانب الأيمن والله ما هي لك ، فقال الحارث

[إست البائن أعلم] فصارت مثلاً ثم ساق الإبل واستنقذ جاراته وأمواله .

ثم لحق الحارث بن ظالم ببلاد قومه مختفياً وكانت أخته سلمى بنت ظالم تحت سنان بن أبى حارثة المرى وهو والد هرم بن سنان ممدوح زهير بن أبى سلمى ، فاستعار الحارث سرج سنان من إحدى نسائه من غير أن تعلم أخته بذلك وأتاها به وكان عندها ولد الملك قد تبنته وربته فقال لها الحارث يقول لك زوجك سنان ابعتى معى بابن الملك حتى استأمن به وأتحفر به وهذا سرجه أمانة لك على ذلك ، فزيتته ثم دفعته إليه فأتى الحارث بالغلام ناحية من الشربة منزل بنى مرة وقتله ورأى أنه بذلك يكون قد أخذ بثأره من آل النعمان حيث أغاروا على جاراته ، وقال فى ذلك أبيات منها قوله :

حسبت أبا قابوس أنك مخفري ولما تذق ثكلاً وأنفك راغم

وكان عمرو بن الأطناب الخزرجى ملك الحجاز قد غضب لقتل خالد بن جعفر وكان مصافياً له فقال لما بلغه مقتله : والله لولقيه يقظان لما نظر إليه ولكنه قتله وهو نائم ولو أتانى لعرف قدره ، وبلغ الحارث قوله فقال والله لآتينه فى عقر داره ، فبلغ ذلك ابن الأطناب فدعا بشرابه ووضع التاج على رأسه ودعا بالمغنيات فغنين له قوله :

أبلغا الحارث بن ظالم المو عد والناذر النذور عليا
إنما تقتل النيام ولا تقـ تل يقظان ذا سلاح كحياً

ثم إن الحارث بن ظالم سار حتى بلغ ديار الخزرج ودنا من قبة عمرو بن الأطناب فنادى أيها الملك أغثنى وخذ سلاحك فإنى جار مكثور ، فأجابه وخرج إليه حتى إذا برز عطف عليه الحارث وقال أنا أبو ليلى فاعتركا ملياً من الليل

وأحس عمرو بالضعف عنه فقال يا جار أنا شيخ كبير وإنه تعتريني سنة فهل لك في تأخير هذا الأمر إلى غد، فقال الحارث هيهات ومن لي به في غد فتجاوزا ساعة ثم ألقى عمرو الرمح من يده وقال يا جار ألم أخبرك أن النعاس يغلبني قد سقط رمحي فاكفف عني، فكف فقال أنظرنى إلى غد فامتنع قال فدعنى آخذ رمحي قال خذ قال أخشى أن تعجلنى عنه أو تفتك بى إذا ناولته ، قال وذمة ظالم لا أعجلتك ولا فتكت بك حتى تأخذه ، قال وذمة الأطناب لا آخذه ولا أقاتلك ، فانصرف الحارث عنه وهو ينشد شعراً يفتخر به .

وأخبار الحارث بن ظالم ومغامراته كثيرة وقد ذكرتها العرب إلا أنها لها فيها مغالاة كبيرة .

[رَفَقًا بِهَا قَدْ بَلَغَ السَّيْلَ الزُّبَى وَأَتَّسَعَ الْخَرْقُ عَلَى الْمُرْتَقِ]

الزُّبَى : جمع زُبْيَة بالزاي وهى حفرة تتخذ للأسد فى الموضع العالى وتغطى بشيء ويجعل عليها لحم فإذا جاء الأسد وتناوله سقط فيها ، وفى الصحاح : ما يفيد أن أصلها الموضع العالى ، والسيل لا يصل الموضع العالى إلا إذا كان جارفاً مجحفاً ولذلك صارت مثلاً يضرب للأمر الذى بلغ غايته فى الهول .

وقوله « اتسع الخرق على المرتق » : هذا أيضاً مثل يضرب لبلوغ الأمر نهاية لا يمكن تداركها ، والاتساع ضد الضيق ، واتسع : صار فيه سعة بفتح السين وقد تُكْسِرُ ، والخرق بفتح الخاء الثقب فى الثوب والحائط ونحوهما ، والجمع خروق مثل : فلس وفلوس ، وهو فى الأصل مصدر قولك خَرَقْتُهُ خَرْقًا من باب ضرب إذا قطعته .

والمُرْتَقُ : اسم فاعل من الترتيق وهو اسم المبالغة فى الرتق ضد الفتق يقال رَتَقْتُ الْفَتْقَ رَتَقًا من باب قتل إذا سَدَدْتُهُ وَأَصْلَحْتُهُ فارتق أى انسَدَّ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كَانَتَا رَتَقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ .

[وَهَبْ لَأَيْدِيهِنَّ أَيْدَاءَ وَلَهَبًا مَتْنًا مَتِينًا بَمَا خَلَا عَنْ مَصْدَقِ]

(١) الأنبياء الآية (٣٠)

[فَمَا لَظُنَّ حَمَلَتْ مِنْ مِرَّةٍ يَظُنُّ أَوْدَى بِهَا فِي النَّسَبِ]

هَبْ : بمعنى احتسب يتعدى إلى مفعولين ولا يستعمل منه ماضٍ ولا مستقبل في هذا المعنى ، تقول : هَبْ زيدا منطلقاً .

الأيْدُ : بفتح الهمزة وسكون الياء : القوة ، قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ (٢) أى بقوة .

وقال حسان رضي الله عنه :

حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَةَ وَارْتَجَوْا قَتَلَ الرَّسُولَ وَمَغْنَمَ الْأَسْلَابِ
وَعَدَوْا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِهِمْ رُدُّوا بَغِيظِهِمْ عَلَى الْأَغْقَابِ
وتقول آد الرجل يئد أيداً وآدا قوى واشتد فهو آيْدٌ ، وآيْدُكَ الله تأييداً قواك
ونصرك .

والمَثْنُ : الظهر ، وقيل المتنان مكتنفا الصلب من العصب واللحم ، زاد
الجوهري عن يمين وشمال ويذكر ويؤنث ، والمَثْنُ أيضاً ماصِلاً من الأرض
وارتفع والجمع مِثَانٌ كَسَهْمٍ وَسِيَهَامٍ ، وَمَثْنُ الشَّيْءِ بالضم متانةٌ اشتدَّ وقوي فهو
متين .

والمَصْدَقُ : مفعول من الصدق بالكسر وهو الشدة والصلابة ، والصَّدْقُ
بالفتح من الرماح ماصِلٌ منها ويقال ما استوى منها ، وتقول للرجل الشجاع
والفرس الجواد : إنه لذو مَصْدَقٍ .

والظُّعْنُ : بضمين وتسكن العين تخفيفاً كما هنا جمع ظعينة وهي في الأصل
اسم للهودج كانت فيه امرأة أم لا ويجمع أيضاً على ظعائن وأظعان ثم قيل للمرأة
ظعينة لأن زوجها يظعن بها فهو في الأصل وصف لها مادامت في هودجها لكن
توسَّع فيه أيضاً حتى أُطلق عليها وإن كانت في بيتها لأنها قد يقول أمرها إلى ذلك .

(٢) الذاريات الآية (٤٧)

المِرَّةُ : بكسر الميم وتشديد الراء قوة الخلقِ وشدته مأخوذ من إمرار الجبل وهو قتلُهُ فتلاً مُحْكَمًا ، وفي التنزيل ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ ﴾ يعنى جبريل عليه السلام ، والمريرة العزيمة ، قال الشاعر :

ولا أنشي من طيرة عن مريرة إذا الأخطب الداعي على الدَّوَج صرَّصراً
والظَّعنُ : بفتحتيْن وقد تسكن العين : السير ، ومنه قوله تعالى ﴿ يَوْمَ ظَنَنَّاكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ (٢) .

وأودى : هلك فهو مُودٍ ، وأودى به الموتُ ذهب به ، وهو هنا كناية عن شدة النَّصبِ .

والْعَسَقُ : هو بالتحريك ظُلْمَةٌ أوَّل الليل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ومن شرِّ غاسقٍ إذا وَقَب ﴾ (٣) قال الحسن أى الليل إذا دخل ، وأصل الْعَسَقُ : الامتلاء يقال غسقت عينه إذا امتلأت دمعاً « والله أعلم » .

[أَسَاءَتْ لِلْغَيْدِ وَلِلنُّوقِ وَلِي إِسَاءَةٌ بِتَوْبَةٍ لَمْ تُنْحَقِ]
الإِسَاءَةُ : ضد الإحسان .

وَالْغَيْدُ : بكسر الغين المعجمة جمع غيداء وهى المتثنية لِينَا ، والمصدر الغَيْدُ بالتحريك وهو النُّعومة ، وَغَيْدٌ كَفَرِح مالت عنقه ولانت أعطافه ، والغادة المرأة الناعمة اللَّيْنَةُ ، والشجرة الغَضَّةُ المورقة .

مَحَقٌ : مَحَقًّا من باب منع فأنمحق وتمحق وامتحق و ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرُّبَا ﴾ (٤) أى يذهب ببركته ويهلك المال الذى يدخل فيه ، والمحَقُّ أيضاً النقصان حالاً بعد حال ومنه المحاق فى الهلال و« الله تعالى أعلم » .

[لَوْ لَمْ يَكُنْ بِحُبِّ حِلْمٍ أَحْنَفِ وَالْمِنْقَرَى قَلْبِي ذَا تَعْلُقِ]
[حَمَلْتُ رَأْسَكَ عَلَى شَبَا الْقَنَا مُرْوَعاً بِهِ حُدَاةَ الْأَيْثِقِ]

(٣) الفلق آية (٣)
(٤) البقرة آية (٢٧٦)

(١) النجم الآية (٦)
(٢) النحل آية (٨٠)

الحُبُّ والمحَبَّةُ : ميل النفس بفطرتها إلى ما تدرك حسنه أو إحسانه ، وضده الكراهة ، تقول أحببت فلانا فهو محبوب على غير قياس ، وقد يقال مُحَبٌّ بضم أوله وفتح ثانيه على القياس ، قال عنترة :

وَلَقَدْ نَزَلْتُ فَلَا تَظُنِّي غَيْرَهُ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ الْمُحَبِّ الْمُكَرَّمِ

والحِلْمُ : بالكسر : الأناة والصفح تقول منه حَلِمَ الرجل بالضم إذا صار حليما وتحلَّم : تكلف الحلم ، قال الشاعر :

تَحَلَّمْ عَنِ الْأَذْنِينَ وَاسْتَبِقْ وَدَّهِيمَ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحَلَّمَا
وَتَحَالَّمَ الرَّجُلُ أَرَى مِنْ نَفْسِهِ الْحِلْمَ وَلَيْسَ بِهِ

شِبَاةٌ : شبابة كل شيء حدُّه وطرفه ومنه شبابة العقرب لإبرتها والجمع الشبَا ، الشبوة عَلِمَ للعقرب .

وَالْقَنَا : جمع قناة وهي الرُّمَحُ وتُجْمَعُ أيضاً على قنوات وقِنِي كعَصِيٍّ على وزن فُعُولٍ .

والتَّرْوِيعُ : الإفزاع يقال : رَوَّعْتُهُ فارتاع أي أَفْرَعْتُهُ فَفَزِعَ .

ذكر الأحنف والمنقرى وحلمهما

أَمَّا المنقرى : فهو قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد بن مقاعس واسمه الجدث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي ثم السعدي .

كان فارساً شجاعاً مغواراً مُظَفَّراً في غزواته ، أدرك الجاهلية والإسلام فساد فيهما .

وفد على النبي « صلى الله عليه وسلم » وصحبه وعُمِّرَ بعده زمانا وروى عنه عدة أحاديث ، وروى ابن عبد البر أَنَّ النبي « صلى الله عليه وسلم » قال فيه : « هذا سيد أهل الوبر » .

وكان عاقلاً حليماً مشهوراً بالحلم ، قيل للأحنف بن قيس ، ممن تعلمت
الحلم ؟ قال من قيس بن عاصم المنقري . وكان خاله .

قال رأيته يوماً قاعداً محتبياً بحمائل سيفه يحدث قومه حتى أوتي برجل
مكتوف وآخر مقتول فقيل له هذا ابن أخيك قتل ابنك ، قال والله ما حل حبوته
ولا قطع كلامه فلما أتمه التفت إلى ابن أخيه فقال له : يا ابن أخي بئس ما فعلت ،
عصيت ربك وقطعت رَحِمَكَ وقتلت ابن عمك ورميت نفسك بسهمك ، ثم
قال لابن له آخر : قُمْ يا بني فوار أخاك وحُلِّ كِتَافَ ابن عمك وسق إلى أمك مائة
ناقة دية ابنها فإنها غريبة .

نزل البصرة رضي الله عنه ومات بها ولم أر من أرَّخ لموته .

وأما الأحنف بن قيس : فهو أبو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين
ابن عبادة بن النزال بن مرة بن عبيد بن مقاعس إلى آخر نسب قيس بن عاصم ،
وهو الذي يضرب به المثل في الحلم وإنما قيل له الأحنف لأنه كان أحنف الرجلين
وهو أن تقبل إحدى الرجلين بإبهاهما على الأخرى .

كان الأحنف بن قيس من سادة التابعين رضي الله عنهم ، أدرك النبي ﷺ
ولم يجتمع به واستوطن البصرة بعد أن شهد فتوح المسلمين ووفد على عُمر
« رضي الله عنه » بالمدينة فرفع منزلته ، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب بسنده
إلى الأحنف بن قيس قال : بينما أطوف بالبيت في زمان عثمان رضي الله عنه إذ جاء
رجل من ليث فأخذ بيدي فقال ألا أبشرك ؟ فقلت : بلى . فقال هل تذكر إذ
بعثنى رسول الله « صلى الله عليه وسلم » إلى قومك بني سعد فجعلت أعرضُ
عليهم الإسلام وأدعوهم إليه فقلت أنت : إنه ليدعوهم إلى خير وما حسن إلا
حسنًا ، فبلغت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ : « اللهم اغفر للأحنف »
فقال الأحنف وهذا أرجى عمل عندي .

وكان الأحنف سيد قومه موصوفاً بالعقل والدهاء والعلم والجلم .

روى عن عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وروى عنه الحسن البصري وأهل البصرة ، وشهد صفين مع علي رضي الله عنه ولم يشهد وقعه الجمل .

قيل : وكان مُطاعاً في قومه بحيث إنه كان إذا غَضِبَ سَلَّتْ بنو تميم سيوفها قبل أن تعلم فيم — غضب ، توفي رضي الله عنه بالكوفة سنة تسع وستين من الهجرة وخرج مصعب بن الزبير في جنازته . رحمه الله .

[فَسُقْ فَلَا نَعِمَ عَوْفُكَ وَلَا أَمِنَ خَوْفُكَ وَلَا تُذَرِّفُفِي]

لا نعيم عوفك : هو دعاء على الخادى وأصله المثل السائر وهو قولهم في الدعاء للبانى بأهله في تهنته : نعيم عوفك فالعوف : البال والشأن وقيل العوف ذكر الرجل ، قال الراجز :

جارية ذات هني كالنوف مُلَمَلَمٌ تَشْتَرُهُ بِحَنُوفٍ
يشفى غليل العزب الهلُوف ياليتنى أُولجْتُ فيه عَوْفِي

والنوف : السنام ، والخوف : شيء يشبه الإزار ، والهلُوف : الجافى وفى المقامة التبريزية أن القاضي قال لأبى زيد : تَبَّأَ لك أَتَبَذَ في السَّبَّاحِ وتفرخ حيث لا أفراخ ! اعزب عني لا نعيم عوفك ولا أمن خوفك .

أذَرَّفَقَ : الرجل إذا تقدم وأسرع أو هملج فهو مُذَرِّفَقٌ ، يقال مرَّ در نفقاً كسَفَرَجَلٍ أى سريعاً .

[وَدَغٌ يَسُوقُ بَعْضُهَا بَعْضاً فَقَدْ دَا وَلُوجُهَا يَوْغِرُ ضَبِّقِ]

دَغٌ : معناه أترك . قال فى المصباح : وَدَعْتُهُ أَدَعُهُ وَدَعَا تَرَكْتُهُ ، وَأَصْلُ الْمُضَارِعِ الْكُسْرُ وَمِنْ ثَمَّ كُسِرَتِ الْوَاوُ ثُمَّ فُتِحَ لِمَكَانِ حَرْفِ الْخَلْقِ ، قَالَ بَعْضُ الْمُتَقَدِّمِينَ : وَزَعَمَتِ النُّحَاةُ أَنَّ الْعَرَبَ أَمَاتَتْ مَاضِي يَدْعُ وَمَصْدَرُهُ وَاسْمُ الْفَاعِلِ ، وَقَدْ قَرَأَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ ^(١) بفتح الدال المخففة ،

(١) الضحى الآية (٣)

وفي الحديث الصحيح [لِيَنْتَهِيَنَّ قَوْمٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجَمْعَاتِ] الحديث ، فكيف يقال إذا بإماتة الماضي والمصدر منها ؟؟ فلولا قيل : قليل ورودها بدل القول بالإماتة ١٩ .

وبالبعض : شيء من شيء على التحقيق وهو يتناول ما فوق النصف .

وعن الكسائي وهشام أن بعض الشيء يطلق إلا على ما دون النصف .
والْبَعْضُ أيضاً عَضُّ البعوض ، يقال بَعْضَتُهُ البعوضة بَعْضاً إذا عَضَّتُهُ ، وأصل
البعض القطع ومنه اشتق اسم البعوض الذي هو الجزء .

وَالْوُلُوجُ : الدُّخُولُ ، ولج الشيء في غيره يلج من باب وَعَدَ وَلُوجاً دخل فيه
وَالْوَعْرُ الصَّعْبُ وزناً ومعنى . يقال ضاق الأمر ضيقاً كباع يبعأ والاسم الضيق
بالكسر وقرئ ﴿ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ ^(١) بالوجهين ، وضاق صدر فهو
ضيق إذا أريد به الثبوت ، وضائق إذا أريد به الحدوث وفي التنزيل ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ
صَدْرُكَ ﴾ ^(٢) .

[وَلَتَتَّخِذَنِي رَائِداً فَإِنِّي ذُو خُبْرَةٍ بِمُبْهَمَاتِ الطَّرِيقِ]
[إِن غَرِثْتَ عَلَفْتُهَا وَلَوْ بِمَا جَمَعْتُهُ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ]
[أَوْ صَدَيْتَ أَوْ رَدَيْتَهَا مِنْ أَدْمَعِي نَهَرَ الْأَبْلَةُ وَنَهَرَ جِلْقٍ]

الانْتِخَاذُ : التناول والاقتناء ونحوهما وقد يرد للتصيير ، فمن الأول قوله
تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً ﴾ ^(٣) أي تبناه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ،
ومن الثاني قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ ^(٤) أي صيره خليلاً ،
ومنه ما هنا ، وما تصرف منه فاؤه تاء أصله افتعال من تَخَذَ يَتَخَذُ كَعَلِمَ يَعْلَمُ
بمعنى أَخَذَ وقرئ قوله تعالى : ﴿ لَتَتَخَذَنَّ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ ^(٥) بالوجهين أعني
ثلاثياً ومزيداً على الافتعال ثم أذغمت إحدى التائين في الأخرى ؛ قال ابن الأثير :
وليس الانتخاذ من الأخذ في شيء فإن الافتعال من الأخذ انتخذ لأن فاءه همزة

(٣) البقرة (١١٦)

(٤) النساء (١٢٥)

(٥) الكهف (٧٧)

(١) النحل الآية (١٢٧)

(٢) هود الآية (١٢)

والهمزة لا تدغم في التاء خلافاً لقول الجوهري : الاتخاذ افتعال من الأخذ إلا أنه أدغم بعد تليين الهمزة وإبدال الفاء تاء ثم لما كثر استعماله بلفظ الإفتعال توهّموا أصاله التاء فبنوا منه فَعِلَ يَفْعَلُ وأهل العربية على خلافه .

والرائد : المرسل في طلب الكلاء يقال راد فلان الكلاء يُرودُه روداً ورياداً وإرتاده ارتياداً طلبه ، وفي الحديث : « لا يكذب الرائد أهله » أصل الحديث « إن الرائد لا يكذب أهله » أي أنه وإن كان كاذباً فينبغي له أن لا يكذبهم فإنه ربما أهلكهم .

يحكي أن أحمد بن عمار بن شاذي البصري كان وزيراً للمعتصم فورد على المعتصم كتاب فيه لفظ الكلاء فقال المعتصم للوزير ما الكلاء ؟ قال لا أعلمه وكان قليل المعرفة بالأدب فقال المعتصم : خليفة أُمي ووزير عامي ثم قال : انظروا من الباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فأدخلوه عليه فقال له ما الكلاء ؟ قال العُشْبُ على الإطلاق فإن كان رطباً فهو الكلاء فإذا يس فهو الحشيش، وشرع في تقسيم أول النبات فعلم المعتصم فضله فاستوزره .

والخُبْرُ والخِبرَةُ العلم وأصله الامتحان ثم أُطلق على العلم لكونه ناشئاً عنه يقال خبرت الشيء أخبره خبراً إذا بلوته كاختبرته ، والاسم الخبرة بالكسر ومبهمات الطرق مغلقاتها ، من قولك : أبهمتُ الباب إذا أغلقته ، والخبر إذا كتمته واستبهم الأمر اشتبه ، والكلام استعجم فلم يفهم .

والطرق جمع طريق وهي معروفة وتذكر في لغة نجد وتؤنث في لغة الحجاز ومن التذكير قوله تعالى : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً ﴾^(١) .

والغَرْتُ بالتحريك : الجوع وقد غرث بالكسر يَغْرُثُ فهو غَرَّثان وامرأة غَرَّثِي قال حسان — رضى الله عنه — :

وتصبح غَرَّثِي من لحوم الغوافل

(١) طه الآية (٧٧)

وامرأة غرثى الوشاح : دقيقة الخصر لا يملأ وشاحها فكأنه غرثان ، والورق بكسر الراء وتسكن تخفيفاً الفضة النقرة المضروبة .

والصدى : بفتح الصاد مقصوراً العطش وقد صدى يصدى صدئ من باب فرح فهو صاد وامرأة صديا وقوم صداء مثل عطاش وزناً ومعنى ، والإيراد : ضد الإصدار وهو إدناء الإبل من الماء .

والورد : ضد الصدر وهو مشاركة الماء والوصول إليه ، دخلوا ولم يدخله وجلق والأبله : موضعان .

— ذكر جلق —

أما جلق فهي دِمَشْقُ . (قلت) وقد ذكر العلامة المؤرخ الشيخ أحمد البدوى المجلسي ثم الشنقيطي في عمود النسب أن دمشق بن عمرو بناها لنبي الله إبراهيم الخليل واشتق اسمها من اسمه ، وقال :

بدينه الخليل فر بعدما من نار عمرو نجا وأشأما
ومعه خرج لوط ابن أخيه وابنة عمرو وصينوها النبية
باني دمشق للخليل وبه دمشق تعرف لدى المنتبه

وفي بعض الروايات : جلق تُعرف لدى المنتبه :

وجلق بكسرتين هي دمشق وهي من أجل مدن الشام وأحسنها مكاناً
وأعدلها مناخاً وأغزرها مياهاً وأكثرها فواكه ، ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة
وطولها مرحلتان في عرض مرحلة ، ونهر دمشق الأعظم يسمى بردى ، وقد قال
فيها بعضهم :

تزيّد على مرّ الزمان طلاوة دِمَشْقُ التي راقى بطيب المشارب
ها في أقاليم البلاد مشارق منزلة أقمارها عن مغارب

وَأَمَّا الْأُبْلَةُ : فهي بضم الهمزة والباء وتشديد اللام وهي بلدة قديمة على أربعة فراسخ من البصرة وهي اليوم في عِدَادِهَا وهي من جَنَانِ الدُّنْيَا وإحدى المنتزهات الأربع .

يحكى أن بكر بن النظام مدح أبا دلف العجلي بيتين وهما :

ياطالباً للكيماء وعِلْمِهَا مدحُ ابن عيسى الكيمياء الأعظمُ
لو لم يكن في الأرض إلا درهم ومدحتُهُ لأتاك ذاك الدرهم
فأعطاه بهما عشرة آلاف درهم فأغفله قليلاً ثم دخل عليه وقد اشترى بتلك الدراهم قرية في نهر الأُبْلَةِ فأنشده :

بك ابتعتُ في نهر الأُبْلَةِ قَرْيَةً عليها بناء بالرخام مَشِيدُ
إلى جنبها أختٌ لها يعرضونها وعندك مال للهبات عتيدُ
فقال له أبو دلف : كم ثمنها ؟ قال عشرة آلاف درهم ، فدفعها إليه وقال له
تعلم أن نهر الأُبْلَةِ عظيم وفيه قرى كثيرة وكل أخت إلى جانبها أختها وإن فتحت
هذا الباب اتسع عليّ الخرقُ فاقنع بهذه ونصطلح . فدعا له وانصرف .

وفي نهر الأُبْلَةِ يقول ابن أبي عيينة :

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْأُبْلَةِ خِلْتَهَا مِنْ جَنَةِ الْفِرْدَوْسِ حِينَ تَجَمَّلُ
كَمْ مَنْزِلٌ فِي نَهْرِهَا إِلَى السَّرْوِ رُبَّ بَأْسٍ فِي غَيْرِهَا لَا يَنْزِلُ
وَكَأَنَّمَا تِلْكَ الْقُصُورُ عَرَائِسُ وَالرُّوضُ حُلِيٌّ فِيهِ تَرْقُلُ
غَنَّتْ قِيَانُ الْوُزْقِ فِي أَرْجَائِهَا هَزَجًا يَخِفُّ لَهُ الثَّقِيلُ الْأَوَّلُ
وَتَعَانَقَتْ تِلْكَ الْغُصُونُ فَأَذْكَرَتْ يَوْمَ الْوَدَاعِ وَغَيْرُهُمْ تَتَرَحَّلُ
رَبَعَ الرَّيْعُ بِهَا فَحَاكَتْ كَفَّهُ حُلَلًا بِهَا عَقْدُ الْهَمُومِ تُحَلِّلُ
فَمُدْبِجٌ وَمَوْشَعٌ وَمُسْتَسْطٌ وَمُطَرَّرٌ وَمُخَبَّرٌ وَمُهْلَهْلٌ
فَخَالَ ذَا عَيْنًا وَذَا ثَغْرًا وَذَا خَدًّا يُعَضُّضُ مَرَّةً وَيُقَبِّلُ

[رَفَقاً بِهَا شَفِيعُهَا هَوَادِجُ غَدَتْ سَمَاءَ كُلِّ بَذْرِ مُشْرِقٍ]
 [مِنْ كُلِّ غَيْدَاءٍ عَرُوبٍ بَضَّةٍ رَعْبُوبَةٍ عَيْطَاءَ ذَاتِ رَوْنِقٍ]
 [خَرِيدَةٍ مَمْسُودَةٍ رَقْرَاقَةٍ وَهَنَاءَةٍ بَهَنَاءَةٍ الْمُعْتَنَقِ]

والغيداء : المتشينة لينا وقد تقدم الكلام عليها .

والعُروبُ من النساءِ المتحبة إلى زوجها الحسنة التُّبُّلُ والجمع عُربٌ بضمين
 وقد تُسَكَّنُ الراء تخفيفاً ، وقد قرئ قوله تعالى : ﴿ عَرُباً أُنْرَاباً ﴾ بالوجهين .

والْبَضَّةُ من النساء : الرَّخِصَةُ البدن الرقيقة الجلد المثلثة والذَّكَرُ بَضٌّ ، قال
 الأصمعي البَضُّ : الرَّخِصُ الجَسَدُ وليس من البياض خاصة ولكن من الرخوصة
 أي النعومة : والرعبوبة : هي البيضاء الناعمة ؛ والعيطاء : طويلة العُنُقِ والعَيْطُ
 بالتحريك طول العُنُقِ والذكر أعيط .

والرَّوْنُقُ : الحُسْنُ ، وروْنُقُ السيف : ماؤه وحسنه ، ومنه رُونُقُ الضحى
 وغيره .

والخريدة : البكر التي لم تُمَسَّ وكل عذراء خريدة ، وقيل الخريدة الخفرة
 الطويلة السكوتِ الخافضة الصوتِ والمسترة ، والجمع : خرائد وخُرْد .

ذكر المبرد في الكامل أن أعرابياً جافياً عَلِقَ قَيْنَةً حضرته فكلمها يوماً على
 ظهر الطريق فلم تكلمه فظن ذلك حياءً منها ، فقال لها يا خريدة كنت أحسبك
 عروباً ما بالنا نِمْقُوكِ وَتَشْنُشِينَا ، فقالت يا ابن الخبيثة تُجَمِّسُنِي بالهمز ؟!

والتجميش هو المغازلة والملاعبة .

والمَمْسُودَةُ : المجدولة القَدِّ الممشوقته .

والرَّقْرَاقَةُ : التي كأن الماء يجري في وجهها حُسناً ، ورَقْرَاقُ السَّرَابِ :
 ماثللاً منه ؛ والوهناة : التي فيها فتورٌ عند القيام وأناة .

والبهانة : الطيبة النفس والريح واللينة في عملها ومنطقها .

والمُعْتَنَى : موضع الاعتناق وهو الصدر والتَّخَر .

[وَقُلْ لِرَبِّاتِ الْهَوَاجِ انْجَلِي نَ آمَنَاتِ فَرَجٍ وَفَرَقٍ]
[فَإِنِّي أَشْجَعُ مِنْ رِبِيعَةٍ حَامِي الظُّعِينَةِ لَدِي وَقْتُ اللَّقَى]

الرَّبُّ : بالألف واللام لا يجوز إطلاقه إلا على الله تعالى ، وإذا أُضِيفَ جاز إطلاقه على غيره . وربُّ كُلِّ شَيْءٍ مالِكُهُ أَوْ مُسْتَحَقُّهُ أَوْ صَاحِبُهُ ، فربات الهواج صواحباتها ، قال حسان — رضي الله عنه — :

حَيَّ النَّصِيرَةَ رَبَّةَ الْخِذْرِ أَسْرَتْ إِلَيْكَ وَلَمْ تَكُنْ تَسْرَى
والانْجِلَاءُ والتَّجَلَّى : الانكشاف والظهور . يقال جلوته فانجلي وجلَّيته فتجلَّى ،
والثاني فيه معنى المبالغة ، وتجالينا : انكشف حال كل منا لصاحبه .

والأَمْنُ : ضِدُّ الخوف والأصل فيه أن يُسْتَعْمَلَ في سكون القلب فيتعدَّى بنفسه كما هنا وفي التنزيل ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ^(١) فإذا عُدِّي بالحرف كقولهم أَمِنَ زَيْدٌ مِنَ الْأَسَدِ فمعناه سلم منه .
والفَرْعُ والْفَرَقُ : كلاهما بمعنى الخوف .

والشَّجَاعَةُ : شِدَّةُ القلب عند البأس ، وقد شَجُعَ الرجل بالضم فهو شجاع وقوم شِجَعَةٌ وشِجَعَانٌ ونظيره غَلَامٌ وَغِلْمَةٌ وَغِلْمَانٌ ورجل شَجِيعٌ وقوم شِجَعَانٌ مثل جريب وجِرْبَانٌ ، وشُجَعَاءٌ مثل فقيه وفقهاء وامرأة شُجَاعَةٌ .

وربيعة رجل يَأْتِي ذِكْرُهُ بإذن الله ، وحامي الظعينة لقب له ، وفي المثل [أَحْمَى مِنْ مُجِيرِ الظُّعْنِ] يراد به هذا الرجل .

— ذكر ربيعة بن مَكْدَمٍ حامي الظعينة —

هو ربيعة بن مَكْدَمٍ بن عامر بن حرثان بن خزيمة بن علقمة وهو جزل الطعان بن فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة الكناني ثم الفراسي .

(١) الأعراف (٩٩)

كان أحد فرسان مُضَرَّ المعدودين وشجعانهم المشهورين ، مات يوم الكديد
قتله نبيشة أو كان السبب في موته .

وكان من خبره في حماية الظعن ما ذكره المسعودي والأصبهاني قالا :

وفد عمرو بن مَعْدِيكَرِبَ الزبيدي على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب
— رضي الله عنه — ففاوضه في قبائل اليمن وغنائها في الشدة ومآثرها في الرخاء ،
وكان مما جرى في حديثهما أن سأله أمير المؤمنين : هل كععت يا أبا ثور عن
فارس لقيته قط ؟ قال نعم ! والله ما كنت لأستحل الكذب في الجاهلية فكيف
أستحله في الإسلام ؟ لقد قلت يوماً لخيلى خيل زبيد هل لكم في الغارة ؟ قالوا
على مَنْ ؟ قلت على بني البكاء ، قالوا : مغار بعيد على شدة كَلْبٍ وقلة سَلَب ،
فقلت على هذا الحي من كنانة فقد بلغنا أن رجالهم خلوف . قال فسرنا على قوم
سراة ، فقال عمرو وما علمك ؟ قال : رأيت مزود خيل وقدوراً مبتناة وقبائلاً حمراً
من آدم ونَعَمًا كثيراً وشاءَ فعلمتُ أن القوم سراة ، قال فأهويت إلى أعظمها قبة
بعد ما حوينا السبي والمال وكان متبذراً عن البيوت ، فلما انتهيت إلى القبة كشفتها
فإذا جارية مثل المهابة فلما نظرت إليّ وإلى الخيل تجول في المُرَاح أهوت إلى دِرْعها
فشقته وقالت واثكليه فقلت ومالك ؟ فقالت والله ما على نفسي أبكى وإنما أبكى
على أتراب لي ألفتني وألفنني أُسْبَى من بينهن وهاهن بالوادي ، وأشارت إلى وادٍ
هناك — وكان ذلك مكيدة منها — فقلت هذه غنيمة من وراء غنيمة وركضت
فرسي حتى أوفيتُ على النقا فإذا رجل جلد أصهبُ أهلبُ يخصف نعله وإلى جانبه
فرسه وسلاحه ، فلما رأيته علمت أن الجارية كادتني بذلك ، ولما نظر إليّ رمى
بالنعل من يده ثم استوى على فرسه وأخذ رمحاً ومضى نحو الحي لا يحفل بشيء
فتقدمت إليه وطفقتُ أشجره بالرمح خفقاً وأقول : يا هذا استأسر ، فمضى غير
مُكْتَرِثٍ حتى أشرف على الحي فإذا الخيل جائلة في أكنافه فعطف عليّ وهو
يقول :

قَدْ عَلِمْتُ إِذْ أَلْتَمَنْتَنِي فَاهَا وَالْبَسْتَنِي بُكْرَةً رِداها

أني سأخوي اليوم من حواها ياليت شعري ما الذي دهاها
قال فتلقته وأنا أقول :

عمرو علي بعد المدي دهاها جاب المفاوز وقد فلاها
بالخيل يزجها على وجاها حتى إذا حل بها احتواها

ثم حملت عليه وحمل علي فاشتبكنا فكنت أضربه أحذر من غراب ويضربني
أثقف من سنور فوق سيفه في قربوس سرجي فقطعه وما تحته حتى هجم علي
مسح الفرس ثم ثني بضربة أخرى فأخطأني وقد رغت لها راجلاً ، فقلت ويحك
من أنت ؟ فو الله ما ظننت رجلاً من العرب يجترئ علي قط إلا ثلاثة الحارث بن
ظالم للسن والتجربة ، وعامر بن الطفيل للعجب والخيلاء وربيعه بن مكدم للحدائث
والبأس فمن أنت ثكلتك أمك ؟ قال وأنت من ثكلتك أمك ؟ قلت أنا عمرو بن
معديكرب فقال وأنا ربيعة بن مكدم ، فقلت يا هذا إني قد صرت راجلاً فاختر
مني إحدى ثلاث : إن شئت اجتلدنا بسيفينا حتى يموت الأعجل منا وإن شئت
اصطرعنا فأى منا صرع صاحبه حكم فيه ، وإن شئت فالسلم وأنت يا ابن أخي
حدث وبقومك إليك حاجة ، قال ذلك إليك فاختر لنفسك ، فاخترت السلم
وأخذت بيده حتى أتيت به أصحابي وقد حازوا النعم والسبي ، فقلت هل
تعلمون أني كعنت عن فارس قط ؟ قالوا نعيذك بالله من ذلك ، فقلت فانظروا
هذا النعم الذي حزتموه فخذوه مني غداً في زبيد فإنه لهذا الفتى والله لا يوصل إليه
بمكروه وأناحي ، فقالوا لحاك الله من فارس قوم : أنسأتنا حتى إذا هجمنا على
الغنيمة الباردة دافعتنا عنها فقلت لا بد أن تهبوا ربيعة بن مكدم وما أسميه إلا
ليعرفه القوم ، فقالوا وإنه هو ؟ قلت : نعم ، فردوا جميع ما بأيديهم وسالته فأمن
حربي وأمنت حربه حتى هلك .

وفي المسعودي رواية تخالف هذه « والله أعلم » .

وأما خبر حمايته لظيعيته فكان أن دريد بن الصمة الجشمي كان في فوارس
من قومه بنى جشم بن بكر بن معاوية حتى إذا كانوا بواد لكنانة يقال له الأخرم ،

وهو يريد الغارة على كنانة رفع له من ناحية الوادي رجل معه ظعينة فقال لفارس
من قومه دونكه فصاح الرجل به أن خل عن الظعينة وانج بنفسك ، فألقى زمام
الراحلة إلى صاحبها وقال لها :

سيري على رِسْلِكَ سَيْرَ الآمِنِ سَيْرَ رَدَاجِ ذاتِ جَاشِي ساكنِ
إِنَّ اثْنائِي دون قِرْنِي شائِي وَأَبْلِي بلائِي واخبري وعائني
ثم حمل على الفارس فطعنه فصرعه وأخذ فرسه فأعطاه الظعينة .

فبعث دريد ثانياً لينظر ما صنع صاحبه فرآه صريعاً فصاح به فتصام عنه
فظن أنه لم يسمعه فغشيه فألقى الزمام إلى الظعينة ثم حمل على الفارس فصرعه وهو
يقول :

خَلَّ سَبِيلَ الحرةِ المنيعةِ إِنَّكَ لَاقِيٌ دونها ربيعةَ
بِيدهِ خَطِيئةٌ منيعةٌ أو لا فخذها طعنة سريعة
والطعن مني في الوغى شريعة

فلما أبطأ الأمر على دريد أرسل ثالثاً لينظر ما صنعا فانتبه إليهما فرآهما
صريعين ونظر إليه يقود ظعينته ويجر رمحه فقال له خل الظعينة وانج بنفسك فقال
لها ربيعة اقصدي قصد البيوت ثم أقبل على الفارس وهو يقول :

ماذا تريد من شيم عابسٍ أَلَمْ تر الفارس بعد الفارسِ
أرداهما عامِلٌ رَمحِ يابسٍ مَن يَدُنْ مني للحياة يائسُ

ثم طعنه فصرعه وانكسر رمحه ، ثم إن دريداً ارتاب في أمر الفوارس وظن
أنهم قتلوا الفارس وأخذوا الظعينة فلحق بهم بنفسه فوجد أن قومه قتلوا ووجد
ربيعة لا رمح معه وقد دنا من حيه فقال له أيها الفارس إن مثلك لا يقتل وقد
تركت الخيل جائلةً بأهلها ولا أرى معك رمحاً وأراك حديث السن فدونك هذا
الرمح فإني راجع إلى أصحابي فمبسطهم عنك فأقى دريد قومه وقال إن فارس
الظعينة قد حماها وقتل فوارسكم وانتزع رمحي ولا مطمع لكم فيه ، فانصرف

القوم وقال دريد في ذلك :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله حامى الطعينة فارساً لم يُقتل
أردى فوارس لم يكونوا نهزه ثم استمر كأنه لم يفعل
متهللاً تبدو أسيرة وجهه مثل الحسام جلته كف الصيقل
يُزجي ظعنته ويسحب رُمحه متوجّهاً بمناه نحو المنزل
وترى الفوارس من مخافة رحه مثل البغاث تحشين وقع الأجدل
ياليث شغرى من أبوه وأمه يا صاح من يك مثله لم يجهل

ويحكى أن بنى مالك بن كنانة غزوا بنى جشم فقتلوا وأسروا وغنموا وكان دريد بن الصمّة من بين الأسرى وذلك بعد موت ربيعة بن مكدّم ، فأخفى دريد نفسه فيبنا هو عندهم إذ جاء نسوة منهم يتهادين نحوه فصرخت امرأة من بينهن وألقت عليه ثوبها وقالت هذا والله الذى أعطى ربيعة رحه يوم الطعينة وقالت يا آل فراس إني له جارة وهذا والله صاحبنا يوم الوادي ، فسألوه من هو ؟ قال أنا دريد بن الصمّة من صاحبي ؟ قالوا ربيعة بن مكدّم قال وماذا فعل ؟ قالوا قتلته سليم ، قال فما فعلت الطعينة قالت المرأة أنا هي امرأته ربيعة بنت جزل الطعان ، فقال بعض القوم والله لا يخرج من أيدينا إلا برضى المخارق الذى أسره ، فلما أمنت المرأة رفعت صوتها قائلة :

سنجزى دُرَيْداً عن ربيعة نعمة وكل امرئٍ يُجزى بما كان قدّما
سنجزيه نعمى لم تكن بصغيرة بإعطائه الرمح الطويل المقوماً
فذا أدركت كفاه فينا جزاءه وأهل لأن يجزى الذى كان أنعما
فلا تكفروه حق نعماه فيكم ولا تركبوا تلك التى تملا الفما
فلو كان حيا لم يضق بثوابه ذراعاً غنياً كان أو كان مُعديما
ففكروا دُرَيْداً من إसार مخارق ولا تجعلوا البؤسى إلى الشر سُلما

فأطلقوه عند ذلك وكسته ربيعة وجهزته فلاحق بقومه ولم يزل كافاً عن حرب بنى فراس حتى هلك .

[فَرَّبَمَا يَيْدُو إِذَا بَرَزْنَ لِي رِيْمٌ إِلَيْهِ طَارَ بِي تَشْوَقِي]
[لُبْنَى وَمَا أَدْرَاكَ مَا لُبْنَى بِهَا عُرِفْتُ صَبًا مُعْرَمًا ذَا قَلَقٍ]

الرئمُ : الطَّبِيُّ والجمع أَرَامَ وآرَام ، قال الأصمعي الآرام الأطباء الخالصة
البياض وهى تسكن الرمل .

وَلُبْنَى : علم امرأة ، واللبنى فى الأصل شجرة تنضج لبناً طيب الرائحة
فيسيل منها كالعسل فينعقد على أعوادها فيؤخذ فيتبخر به ، فنقلته العرب إلى علم
تسمى به بعض نسائها كسائر الأعلام المنقولة .

وَالصَّبَابَةُ : رقة الشوق وحرارته ، يقال رجل صب أي عاشق مشتاق .
وَالْمُعْرَمُ : أَسِيرُ الْحُبِّ الْمُوَلَّعُ به من أغرم بالشئ إذا أُولِعَ به ، والغرام :
الْوُلُوع والغرام الشرُّ الدائم والعذاب .

وَالْقَلَقُ : المضطرب المتزعج وذلك شأن الحب وديده .

[تَسْبِي بِثَغْرِ أَشْنَبٍ وَمَرْشِفٍ قَدْ ارْتَوَى مِنْ قَرْقِفٍ مُعْتَقٍ]
[وَنَاعِمٍ مُهْنِكِلٍ وَفَاحِمٍ مُرْجِلٍ وَحَاجِبٍ مُرْقِقٍ]
[وَعَقِبٍ مُحَجِّلٍ وَمِعْصَمٍ مُسَوِّرٍ وَعُنُقٍ مُطَوِّقٍ]
[وَمُقَلَّةٍ تَرْمِي بِقَوْسٍ حَاجِبٍ لَاحِظَهَا بِسَهْمِهَا الْمُفَوِّقِ]

السَّبْيُ والسَّبَاءُ : الأسر ، وقد سَبَيْتُ العدو سَبِيًّا وَسَبَاءٌ إذا أسرته ، والمرأة
تَسْبِي قلب الرجل أي تأسره وتأخذه بمجامعه .

وَالثَّغَرُ : الْمَبْسَمُ ، ثم أطلق على الشاىا ، قاله فى المصباح .

الْأَشْنَبُ مِنَ الشَّنْبِ بالتحريك وهو ماء ودَقَّةٌ وَبَرْدٌ وَعُدُوْبَةٌ فى الأسنان ،
وَالْأَنْشَى شَبَاءٌ قال الراجز :

وَابْأَيِ أَنْتِ وَفَوْكَ الْأَشْنَبُ كَأَنَّمَا ذُرٌّ عَلَيْهِ الزَّرْنَبُ
أو زنجبيل وهو عندي أطيب

وقيل الشنبُ حِدَّةُ الأسنان حين تطلع فيراد بذلك حداتها وطرأؤها لأنها إذا أتت عليها السنون احتكت ، ولكن الأصمعي أرى عن ذلك وقال ما هو إلا بردها ، وأنشدوا على ذلك قول غيلان :

لمياء في شفتيها حُوَّةٌ لَعَسَ وفي اللثاتِ وفي أنيابها شَنَبُ
قالوا لأن اللثة لا تكون فيها حدة .

ومَرْشِفٌ : بكسر الشين وبالفتح : الفمُ لأنه موضع الرشف وهو المصُّ وقد رشفه يرشفه كنصره وضربه ، وقيل الرشف هو أخذ الماء بالشفَتَيْنِ فهو لذلك فوق المص ، والرشوف المرأة الطيبة الفم واليابسة الفرج .

والقَرْقَفُ كجعفر : الخمر سميت بذلك لأن الخمر ترعد صاحبها والقرقفة الرعدة خلافاً لأبي عبيدة قال وإنما هو اسم لها ، والأكثر فيها التأنيث .

ومُعْتَقٌ أي قديم والتعتيق ضد التجديد وعُتِقَ الشيء كُرم ونصر ، عتاقة قَدَمُ فهو عتيق وعاتق ، والمعتقة الخمر التي تُركت زماناً حتى عُتِقَتْ أي قدمت .
والناعم صفة لمخدوف ، أي كفل أو بدن ناعم ، ونعومة البدن رخوصته ولينه ، ونعم البدن نعومة لأن ملمسه .

والهَيْكَلُ : أي الضخم العَبل ، وفي القاموس : الهيكل الضخم من كل شيء والفرس الطويل والنبات الطويل البالغ العبل والبناء المشرف والهيكل : المرأة العظيمة .

والسَّوَارُ ككتاب هو الدمليج والجمع أسورة كأرغفة وجمع الجمع أساور ،
وقريء قوله تعالى : ﴿ قُلُوبًا أَلْقَى عَلَيْهِ أُسُورَةً مِنْ ذَهَبٍ ﴾ ^(١) بالوجهين .

والطوق : الحلّي الذي يتخذ للعنق من قلادة ونحوها ، وكل ما استدار بشيء فهو طوق له ، « وشبَّ عمرو عن الطوق » مثل يضرب لمن لا بس ما هو دون قدره ، وسيأتي بإذن الله وباقى ألفاظ الأبيات معروفة لا إشكال فيها .

(١) الزخرف الآية (٥٣) .

[تَمْنَعُ مَسَّ ثَوْبِهَا لِجِسْمِهَا ثَلَاثَةٌ مِثْلُ الْأَثَافِي فِي الرَّقِي]
[حُقَّانٍ مِنْ عَاجٍ وَقَعْبُ فِضَّةٍ مِنْ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ كَالشَّفَقِ]

الأثافي جمع أثفية كأوقية وهي الحجر الذي يوضع عليه القدر وجمعه أثافي بالتشديد وأثاف بالتخفيف ، وقولهم رماه الله بثلاثة الأثافي يعنون الجبل ثم هو كناية عن الداهية وذلك أنهم كانوا إذا لم يجدوا أثفية ثلاثة أسندوا القدر إلى الجبل وعدلوها بالأثفتين الحاضرتين .

والحُقُّ بضم الحاء وعاء معروف يصنع من الخشب تتخذه النساء للطيب ونحوه وقد جرت عادة العرب على تشبيه الثدي به ، قال ابن كلثوم :
وثدياً مِثْلَ حُقِّ الْعَاجِ رِخْصاً حَصَاناً مِنْ أَكْفِ اللَّامِسِينَا
والعاج قال في المصباح : أنياب الفيل ولا يسمى غير الناب عاجاً . والعاج أيضاً ظهر السلحفاة البحرية .

وَالْقَعْبُ الْقَدْحُ الضَّخْمُ يَكُونُ مِنَ الْخَشَبِ وَجَمْعُهُ أَقْعَبُ وَقَعَابٌ .
[وَزَادَ مِسْكُ الْخَالِ وَرَدَ نَحْدَهَا حُسْنًا وَقَدْ عَمَّ بِطِيبٍ عَبِيقٌ]
[وَقَبَلْتُ أَقْدَامَهَا ذَوَائِبُ سُودٌ كَقَلْبِ الْعَاشِقِ الْمُحْتَرِقِ]
وَالْخَالُ : شامة في البدن تخالف سائر لونه والجمع خيلان وأخيلة كأرغفة ورجل أخيل كثير الخيلان وامرأة خيلاء كذلك .

وَالْوَرْدُ : بِالْفَتْحِ مَشْمُومٌ مَعْرُوفٌ وَاحِدَتُهُ وَرْدَةٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدَّهَانِ ﴾ (١) .

وَالْخَدُّ : جَمْعُهُ خُدُودٌ مَعْرُوفٌ ، وَالْخُدَّةُ بِكسر الميم لأنها توضع تحت الخد .
وَعَبَاقَةُ الطِّيبِ تَضْوَعُهُ وَسَطْوَعُ رِيحِهِ ، يُقَالُ عَبِقَ بِهِ الطِّيبُ عَبْقاً كَفَرَحٍ فَرَحاً : ظَهَرَتْ رِيحُهُ بِثَوْبِهِ أَوْ بَدَنِهِ فَهُوَ عَبِيقٌ ، قَالُوا : وَلَا يَكُونُ الْعَبِيقُ إِلَّا لِلرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ الذَّكِيَّةِ .

(١) الرَّحْمَنُ الْآيَةُ (٣٧) .

وَقَبَّلَتْ : التَّقْبِيلُ اللَّثْمُ وَالْقُبْلَةُ اسْمٌ مِنْهُ .

وَالْأَقْدَامُ : جمع قدم وهى من الإنسان معروفة وصغروها على قَدِيمَةٍ ، يقولون : له فى العلم قَدَمٌ أَي : سَبَقَ وأصل القدم ما قدمته أمامك قَدَّامَكَ .

وَالذَّوَائِبُ : جمع ذَوَابَةٍ وهى الضفيرة من الشعر إذا كانت مرسلة فإن كانت ملوية فهى عقيصة ، والذوائب من العز ، والشرف وكل شئ : أعلامه .

وَالعشَقُ إفراط الحب ، وقيل إعجاب المُحِبِّ . بمحبوبته وقد يكون فى عفاف وقد يكون فى دعاره ، وقيل العشق عبارة عن عمى الحبيب عن إدراك عيوب المحبوب ، يقال عَشِقَهُ عَشْقًا كعلمه علماً بالكسر وعَشْقًا بالتحريك فهو عاشق وهى عاشقٌ وعاشقةٌ ، وتَعَشَّقَ تكلفه وكَسِكَيتَ كثيرة .

[كَمْ أَوْدَعَتْ فِى مُقْلَتِي مِنْ سَهَرٍ وَأَضْرَمْتَ فِى مُهْجَتِي مِنْ حَرِّ]
[وَلَا يَزَالُ فِى رِيَاضِ حُسْنِهَا يَسْرُحُ فِكْرِي وَيَجُولُ رَمَقِي]

وَالْإِيْدَاعُ : أصله الترك ثم استعمل فى الاستحفاظ على وجه مخصوص ، يقال أودعت زيدا مالا دفعتة إليه ليكون محفوظاً عنده كاستودعته إياه ، وذلك المال وديعة وجمعه ودائع ، واشتقاقه من الدَّعَا التى هى الراحة .

وَالسَّهَرُ الأرق وهو عدم النوم بالليل كله أو بعضه وقد سهر يسهر من باب فرح ورجل سُهْرَةٌ : كثير السهر وليل ساهر : ذو سهر .

وَالْإِضْرَامُ الإيقاد يقال ضرمت النار تضرم من باب فرح وتضرمت واضطرمت التهيت ، وأضرمتها أوقدتها وضرمْتُها بالتشديد للمبالغة ، والضَّرَامُ ككتاب اشتعال النار فى الحُلَفَاءِ ونحوها ، والضرام أيضاً قافُ الحطَب الذى يسرع اشتعال النار فيه ، وضرَم الرجل اشتد جوعه

وَالْمُهْجَةُ ، دَمُ الْقَلْبِ ، وَالرَّوْحُ ، يقال خرجت مهجته أى روحه
وَالرَّوْضَةُ : جمعه رياض ، الموضع المعجب بالزهور ومستنقع الماء ، وقيل

سميت بذلك لاستراضة السائلة إليها أي لسكونها بها ، واستراض اتسع وانبسط
ومنه قولهم : النفوس مستريضة .

وَالْجَوْلَانُ : قطع الأجوال جمع جول بالضم : الناحية فالأجوال إذا النواحي
وجال في البلاد طاف فيها غير مستقر فهو جَوَّال ، وأجال سيفه إذا لعب به وأداره
على جوانبه .

وَالرَّمَقُ : بقية الروح وقد يطلق على القوة ومن ذلك الاستعمال قولهم :
ويأكل المضطر من الميتة ما يسد به رمقه أي ما يمسك به قوته ويحفظها به « والله
أعلم » .

[وَلَا تَسَلْ عَمَّا أَبَتْ مِنْ جَوَى وَمَا تُرِيقُ مِنْ دُمُوعٍ حَدَقِي]
[يَوْمَ اشْتَكَيْ كُلِّ بِمَا فِي قَلْبِهِ لِحَبِّهِ بِطَرْفِهِ بِمَا لَقِي]
[مَا عُذِرَ مَنْ يَشْكُو الْجَوَى لِمَنْ جَفَا وَهُوَ لِدَمْعِ جَفْنِهِ لَمْ يُرِقْ]

بَتْ الرجل الحديث إذا أذاعه ، والسرّ أفشاه ، وبث السلطان الجند في
النواحي فرقمهم فيها ، وبثثك سري أظهرته لك وأطلعتك عليه ؛

وَالْجَوَى : الحرقه وشدة الوجد من عِشق أو حزن ، تقول جَوَى الرجل
بالكسر فهو جَوٍ مثل دَوٍ ، ومنه قيل للماء المتغير المتن جَوٍ ، قال عدى بن زيد
ثم كان اليزاح ماء سَحَاب لَا جَوٍ آجِنٌ وَلَا مَطْرُوقٌ

وَالْحَبُّ : بالكسر المحبوب كالذَّفْنِ للمدفون والذَّبْحِ للمذبوح ، فَالْحَبُّ
والحبيب كالخدن والخدين وزنا ومعنى والجمع أحباب كأخدان

وَالطَّرْفُ اسمٌ جامع للبصر لا يثنى ولا يجمع لأنه في الأصل بصر

والجفاء بالمد ضد الصلة ، وهو إعراضك عن الشخص ، مأخوذ من جفاء
السيل وهو ما ينفيه السيل ، وقد يكون مع بُغْض .

وَجَفْنُ العين غطاؤها من أعلاها وأسفلها ، وجمعه أجفان ، وهو مذكر ،
وجفن السيف غلافه .

[آهِ عَلَى ذِكْرِ لَيَالٍ سَلَفَتْ لِي مَعَهَا كَالْبَارِقِ الْمُؤْتَلِقِ]
[فِي مَعْهَدٍ كُنَّا بِهِ كَنُحَلَّتِي حُلُوانَ فِي وَصْلِ بِلَاتْفَرُقٍ]

آهِ : بالمد وكسر الهاء لالتقاء الساكنين ، كلمة تقال عند التوجع وقد تقال عند الإشفاق ، وتأوّه الرجل تأوّهاً إذا قال آهِ ، والاسم الآهة كالعاهة .

قال المثقب العبدى :

إِذَا قُمْتُ أُرْجِلُهَا بَلِيلَ تَأَوَّهَ آهَةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ
وَالْبَارِقِ الْمُؤْتَلِقِ : سحاب ذو بروق تلمع ، يقال ائتلق البرق يأتلق ائتلاقاً
وتألّق تألقاً : لمع فهو مؤتلق ومُتألّق .

والمعهد : المنزل الذى لا يزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه ، وعهده
بمكان كذا ألفيته به ، وعهدى به قريب أى لقائى به قريب ، ومته قول أى خراش
الهذلى رضى الله عنه .

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
أى ليس الأمر كما عهدت ولكن جاء الإسلام فهدم ذلك .

وأما حُلُوانٌ : فهى مدينة من مدن العراق من سَوَادِهِ وهى على نحو خمس
مراحل من بغداد على جهة الشروق ، قيل بآنيها حلوان بن عمر القضاعى والد
خندف أم القبائل من مضر ، فسموها باسم بانيها المذكور .

ذِكْرُ نَحَلَّتِي حُلُوانَ

هما نخلتان كانتا بعقبة حُلُوان يضرب المثل بهما فى طول الصحبة ، ويقال
إنهما من غرس الأكاسرة ، وقد أكثر الشعراء من ذكرهما ، فقد قال فيهما مطيع
ابن إياس .

أَسْعَدَانِي يَانُحَلَّتِي حُلُوانِ وَارِثَا لِي مِنْ رَيْبِ هَذَا الزَّمَانِ

ولعمري لو ذقنا أَلَمَ الْفَرْقَةِ أَبْكَاكَ الَّذِي أَبْكَانِي
أُسْعِدَانِي وَأَيُّقِنَا أَنْ نُحْسَأَ سَوْفَ يَلْقَاكَ فَتَفْتَرِقَانِ

ويحكى أنه لما خرج المهدي : إلى الرىّ أميراً عليها من قبل أبيه المنصور وصار
بعقبة حلوان استطاب الموضع فتغدى ودعا بجاريته حسنة فقال غَنَّنِي أَمَا تَرِينَ
طيب هذا الموضع فأخذت محكة كانت في يده وضربت بها على مِخْدَةٍ وغنته :

أَيَا نَخْلَتِي وَادِي بَوَانَةَ حَبْذَا إِذَا نَامَ حِرَاسُ النَخِيلِ جَنَّاكُمَا
فَطَيْبِكُمَا أَرْبَى عَلَى النَخْلِ بِهِجَةً وَزَادَ عَلَى طَوْلِ الْفَتَاءِ فَتَاكَ

فقال أحسنت ، ولقد هممت بقطع هاتين النخلتين يعنى نخلتي حلوان
فمنعني منهما هذا الصوت ، فقالت له حُسْنَةٌ : أُعِيدُكَ بِاللَّهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنْ تَكُونَ
النَّحْسُ الْمَفْرُقُ بَيْنَهُمَا ، فقال لها وماذا ؟ فَأَنْشَدَتْهُ أُبَيَاتَ مَطِيعِ الْمُتَقَدِّمَةِ حَتَّى
انتهت إلى قوله .

أُسْعِدَانِي وَأَيُّقِنَا أَنْ نُحْسَأَ سَوْفَ يَلْقَاكَ فَتَفْتَرِقَانِ
فقال : أحسنت والله فيما قلت إذ نهيتني على هذا ، والله لا أقطعهما أبداً
وَلَا وَكِلْتَانِ بِهِمَا مَنْ يَحْفَظُهُمَا وَيَسْقِيهِمَا مَبَاحِيثَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَنْ يَفْعَلَ فَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ فِي
حَيَاتِهِ عَلَى مَارِسِهِ إِلَى أَنْ مَاتَ .

ولما كانت خلافة الرشيد وخرج خروجه الأول إلى طوس هاج به الدم
بحلوان فأشار عليه الطبيب بأكل الجَمَّارِ فَأَحْضَرَ دَهْقَانَ حُلْوَانَ وَطَلَبَ مِنْهُ جَمَّارًا
فأعلمه أن بلده ليس بها نخل ولكن على العقبة نخلتان فأمر الرشيد بقطع إحداها
وأوتي بجمارها فأكل منها وراح فلما انتهى إلى العقبة نظر إلى إحدى النخلتين
مقطوعة والأخرى قائمة وإذا القائمة مكتوب عليها

أُسْعِدَانِي يَا نَخْلَتِي حُلْوَان ... إِلَى آخِرِ الْأُبَيَاتِ

فاغتم الرشيد وقال يعز على أن أكون قد نحستكما ولو كنت سمعت بهذا
الشعر ما قطعت هذه النخلة ولو قتلني الدم .

والشعر في أخبارهما كثير و« الله أعلم » بصحة خبرهما لا يخفى عليه شيء
سبحانه .

[نَلْنَا بِهِ مَا نَشْتَهِي مِنْ لَذَّةٍ وَدَعَا فِي ظِلِّ عَيْشٍ دَغَفَقِ]
[أَرْمَانَ كَانَ السَّعْدُ لِي مُسَاعِدًا وَمُقْلَةً الرَّقِيبِ ذَاتُ بَخَقِ]
[وَالْيَوْمَ قَدْ صَارَ سَلَامٌ عَزَّةٍ يُقْنِعُ مِنْ لُبْنَى إِذَا لَمْ تَلْتَقِ]
النَّيْلُ : بُلُوغُ المقصود ، يقال نال فلان ما أراد ونال خيراً يناله نَيْلاً من باب
فَرَحَ أصابه ويتعدى بالهمزة إلى اثنين ، يقال أنلته مطلوبه فناله .

والشَّهْوَةُ : اشتياق النفس إلى الشيء والجمع شهوات وقد شَهِيهَ كَرَضِيَّةٍ
وشَهِاهَ كدعاه ونَشْهَاهُ واشتَهاهَ أَحَبَّهُ ورغب فيه ، وشيء شَهِِيٍّ مثل لذيد وزنا
ومعنى واللَّذَّةُ : نقيض الألم معروفة

والدَّعَاةُ : بفتح الدال الراحة والسَّعَّةُ في العيش ، وقد ودع زيد ككُرُم ونَصَرَ
ودَاعَا بالفتح تَهْنَأُ وسكن فهو وَادَعٌ وَوَدِيعٌ ، ونال فلان المكارم وادعاً أى من غير
كَلَفَةٍ .

والظل : يكون غدوة وعشية بخلاف الفیء فإنه لا يكون إلا بعد الزوال .

وإنما سمي بعد الزوال فيئاً لأنه ظل فاء أى رجع من جانب المغرب إلى جانب
المشرق وقيل فيه غير ذلك ، والظل أيضاً العز والمنعة على الاستعارة ، وأنا في ظل
فلان أى في كَنَفِهِ وأظل الأمر دنا ، وقولهم « تركهم ترك الظبي ظله » هو مثل
يضرب للرجل النفور لأن الظبي إذا نفر عن شيء لا يعود إليه أبداً .

وعَيْشٌ دَغَفَقَ أى : واسع وهو كجعفر ، وعام دَغَفَقَ أى مخصب

والسَّعْدُ بمعنى السعادة ضد الشقاء ، وقد سعد كعلم وعُني سَعْدًا وسعادةً
فهو سعيد ومسعود وأسعده الله فهو مسعود ، ولا يقال مُسَعَّدٌ ، وأسعده أعانه
كساعده ، ولبيك وسعديك أى إسعاداً لك بعد إسعاد

والرَّقِيبُ : الحارس والحافظ ، يقال رَقِيبُهُ أَرْقَبُهُ من باب نصر فأنا رقيب

وَالْبَحَقُّ بفتححتين من بَحَقَّ كفرح ونصر فهو باحق العين وبخيقها والعين البخقاء العوراء ، والبحق أقبح العور بحيث لا يلتقى شعر عينيه على حدقته ويكون ذلك بفقئها وانخسافها .

قُلْتُ : لم يتعرض في الأصل لسلام عزة ، ولعله أراد به قول كثير يخاطب جملة :

حَيْثُكَ عَزَّةُ يَوْمَ الْبَيْنِ وانصرفت فَحَيُّ ويحك من حَيَّاكَ يا جملُ
لَيْتَ التَّحِيَّةَ كَانَتْ لِي فَأَرْجِعَهَا مَكَانَ يَاجْمَلُ حُيَّيتَ يَارْجُلُ
والله أعلم بنسبتهما إلى كثير .

وعلى فرض صحه ذلك ، يكون معنى البيت : وبعد أن كنا في وصال دائم وعدم تفرق في دعة صرث يقنعني من وصالها ماقتنع به كثير من وصل عزة حتى أنه رأى تحتها لجملة شيئا كثيراً بحيث أنه تمنى لو كان المقصود مشافهة بالتحية .
[وَاللَّهُ لَوَحَلَّتْ دِيَارَ قَوْمِهَا وَاحْتَجَبَتْ عَنِّي بِيَابَ مُغْلِقِ]
[لَزُرْتُهَا وَالْيَلُ جَوْنٌ خَالِكٌ وَجَفْنُهَا لَمْ يَكْتَحِجْ بِأَرْقِ]
[مَعِيَ ثَلَاثَةٌ تَقِي صَاحِبَهَا مَا لَمْ تَكُنْ تُؤْنُ الْوَقَايَةَ تَقِي]

حَلَلْتُ الْبَلَدَ وَبِهِ حُلُولاً مِنْ بَابِ قَعَدَ : نزلت به والحل بفتح الحاء موضع الحلول وفيه لغة بالكسر ، وأما قوله تعالى ﴿ حَتَّى يَلِغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ (١) فليس من هذا الباب وإنما معناه حتى يبلغ الهدى المحل الذي يحل ذبحه فيه .

والقوم : جماعة الرجال ولا يطلق على النساء بدليل قوله تعالى ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ ﴾ (٢) الآية وقال الشاعر الجاهلي :

وَمَا أَذْرِي وَسَوْفَ إِخَالَ أَذْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

(١) البقرة الآية (١٩٦) .

(٢) الحجرات الآية (١١) .

وإنما خص القوم بالذكر لأنهم هم القائمون بالأمر فيكون اشتقاقه كأنه من قام بالشئ إذا دَبَّرَهُ واعتنى بأمره ، وفي الآية ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾^(١) .

قلت : وقد يطلق القوم على جميع الأمة الشامل للرجال والنساء وهي لغة القرآن في قَصَصِهِ ، والله وليُّ التوفيق .

والاحتجاب هو الاستتار ؛ وبابٌ مُغْلَقٌ مجعول عليه العَلَقُ بالتحريك وهو ما يُسَدُّ به ، والباب مُغْلَقٌ كُكْرَم ، وَغُلِقَتِ الأبوابُ شُدَّ للكثرة ، وَغَلَقَتْهُ غَلَقاً من باب ضرب لغة رديئة متروكة حكاها ابن دريد عن أبي زيد ، قال أبو الأسود الدؤلي في ردها :

ولا أقول لقدر القوم قد غَلِيتَ ولا أقول لباب الدار مغْلُوق

والجَوْنُ : من الأضداد يطلق على الأسود والأبيض والمراد في البيت الأول وجمعه جُؤْنٌ بالضم : وحالك شديد السواد ، وقد حلك كفرح واحلوك اشتد سواده ويقال في الألوان : أسود حالك ، وأحمر قاني ، وأصفر فاقع ، وأخضر ناضر ، وأبيض ناصع .

[سَيْفٌ كَصِمَصَامَةٍ عَمَرُو بَاتِرٌ لَا يَتَّقِي بَيْلِبٍ وَدَرَقٍ]

الصمصامة في اللغة السيف الصارم الذي لا ينثنى والمراد به هنا سيف معروف يأتي ذكره والبتُّ : القطع أو مع استئصال ، وسيف باتروبُّتار « قاطع ، لا يتقى لا يتحفظ منه وَالْيَلْبُ : بالتحريك : الدروع اليمانية تتخذ من الجلود يخرز بعضها إلى بعض والواحدة يلبة . قال ابن كلثوم :

علينا البَيْضُ وَالْيَلْبُ اليماني وَأَسْيَافٌ يَقْمَنَ وَيُثْنِنَا

ويقال اليلب : كل ما كان من جُثْنِ الجلود ولم يكن من الحديد ومنه قيل للدرق يَلْبٌ ، قال الشاعر :

(١) النساء الآية (٣٤) .

عَلَيْهِمْ كُلُّ سَابِغَةٍ دَلَّاصٍ وَفِي أَيْدِيهِمُ الْيَلْبُ الْمَدَارُ

ذِكْرُ عَمْرٍو وَصِنَصَامَتُهُ

أما عمرو فهو أبو ثور عمرو بن معديكرب بن عبد الله بن عمرو بن عُصَمَ ابن عمرو بن زبيد الأصغر وهو منبه بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن زبيد الأكبر وهو الفارس المشهور والبطل المذكور صاحب الغارات والوقائع في الجاهلية والإسلام .

قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني زبيد فأسلم وذلك في سنة تسع وقيل سنة عشر وعُمِّرَ عُمراً طويلاً وشهدا عامة الفتوح في العراق مع أبي عبيد بن مسعود ثم مع سعد بن أبي وقاص زمن عمر رضي الله عنه ، وشهد القادسية مع سعد وهو ابن مائة وعشر سنين وكان له في ذلك اليوم اليد البيضاء والبلاء الحسن والذكر المشهور .

حمل على فيل الأعاجم وعليه رستم كبير جيش الفرس فجذم عرقوبيه وسقط الفيل إلى الأرض وقتل رستم وتمت الهزيمة وكان الفتح ، .

ويحكى أن سعد بن أبي وقاص كتب إلى عمر بن الخطاب يطلب مددا فكتب إليه أما بعد فقد أمددتك بألفي رجل عمرو بن معديكرب وطليحة بن خويلد الأسدي فشاورهما في الحرب ولا تؤلّهما شيئاً .

ويحكى عنه أنه قال رضي الله عنه : لو سرت بظعينة وحدي على مياه معد كلها ماخفت عليها ما لم يلقيني حُرّاها أو عبداها ، فأما الحران : فعامر بن الطفيل وعُتَيْبَةُ بن الحرث بن شهاب وأما العبدان فأسود بنى عبس يعني عنترة بن شداد وسُليمان بن السُلُكَة وكلهم قد لقيت ، فأما عامر بن الطفيل فسرّيع الطعن على الصوت وأما عتيبة بن الحرث فأول الخيل إذا أغارت وآخرها إذا ولّت وأما عنترة فقليل النبوة شديد الكلب وأما سليك فبعيد الغارة كالليث الضاري .

والصحيح أنه رضى الله عنه مات في آخر خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ودفن برودة بين قم والرى من عراق العجم على قارعة الطريق فقالت امرأته ترثيه .

لقد غادر الركب الذين تحمّلوا برودة شخصاً لا ضعيفاً ولا غمراً
فقل لزبيد بل لمذحج كلها فقدثم أبا ثور سنانكم غمراً
فإن تجزعوا لا يغن ذلك عنكم ولكن سلوا الرحمن يعقبكم أجراً

وأما صمصامة عمرو بن معديكرب فهي أشهر سيوف العرب وبها مضرب
المثل في كرم الجوهر وحسن المنظر والخبر والمضاء والتصميم ، وكان عمرو رضى
الله عنه حسن الاستعمال له في الجاهلية وفي الإسلام بل كان كثير الغناء به في
الإسلام وفيه يقول من شعر له رضى الله عنه :

سناني أزرق لا غيب فيه وصمصامي يصم في العظام
وقد تمثل به نهشل بن جرى الدارمي يرثي أخاه مالكا وكان استشهد يوم
صفين مع علي بن أبي طالب رضى الله عنه :

أخ ماجد لم يخزني يوم مشهد كما سيف عمرو لم نخنه مضارئة
أغر كمصباح الدجنة يتقي قرى الزاد حتى تستفاد أطايه

وكان عمرو قد وهب الصمصامة لخالد بن سعيد بن العاص لما بعثه رسول
الله « صلى الله عليه وسلم » عاملاً على اليمن وقال عمرو في ذلك :

خليل لم أخنه ولم يخني إذا ما صاب أوساط العظام
خبوث به كريماً من قريش فسر به وصين عن اللئام
وودعت الصفي صفي نفسي على الصمصام . أضعاف السلام

ثم صار بعد خالد إلى أخيه سعيد بن العاص ثم تداولته الأملاك بعده .

ويحكى أنه وصل إلى هارون الرشيد ، واتفق أن بعض ملوك الهند أهدي إليه
هدايا وكان من بينها سيوف قلعية من أجود سيوفهم ، فلما حضرت الهدية بين

يديه دعا بالصمصامة وصف تلك السيوف وجعل يقطعها به كما يقطع الحديد الخشب والرسل ينظرون ويتعجبون من ذلك .

وآخر خبر عن الصمصامة أنه وصل إلى الخليفة المتوكل فدفعه إلى غلامه باغز التركي فكان من قدر الله أن قتله به ، وعند باغز انقطع خبره ، نقله في الأصل عن الزيدونية والله أعلم .

[وَبَيْنَ جَنْبَيْ فُوَادُ ابْنِ أَبِي صُفْرَةَ قَاطِعِ قَرَا ابْنِ الْأَزْرَقِ]

الجَنْبُ : شق الإنسان وغيره ولكل شخص جنبان وهو ماتحت الإبط إلى الكشح والجمع جُنُوبٌ مثل فلُس وفلوس ، وقوله تعالى ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ﴾ ^(١) الصاحب في السفر وقيل أعم منه ، وقوله تعالى ﴿ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ ^(١) جارك من غير قومك والْقَرَأَ : بالقصر الظهر : كالمطا وزنا ومعنى . والله أعلم .

ذكر ابن أبي صفرة وابن الأزرق

أما ابن أبي صفرة فهو أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة واسمه ظالم بن سراق ابن صبح بن كندی بن عمرو بن عدي بن وائل بن الحرث بن العتيك بن الأزد الأصغر الأزدي ثم العتكى البصرى :

أمير مشهور الذكر شجاع ، نشأ بالبصرة في دولة آل أبي سفيان ثم استعمله مصعب بن الزبير على البصرة نيابة عنه في خلافة أخيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ثم ولأه عبد الله خراسان وقاتل الخوارج على ماسيأتى ، وهو أول من اتخذ الركب من الحديد وكانت قبل ذلك من الخشب . ومما كان شائعا بين الناس أن الأحنف ساد بحلمه ومالك بن مسمع بمحبة العشيرة وقتيبة بدهائه ، وساد المهلب بهذه الخلال كلها .

(١) النساء الآية (٣٦) .

وقال ابن عبد البر : المهلب بن أبي صفرة من التابعين روى عن سَمُرَةَ بن جُنْدُب وعبد الله بن عمر وروى عنه أبو إسحاق الشعبي وَسِمَاكُ بن حرب وغيرهما وله رواية عن النبي ﷺ مرسله وهو ثقة ليس به بأس ، ومن عابه بالكذب فلا وجه له لأن صاحب الحرب يحتاج إلى المعاريض والحيلة ومن لم يعرفها عدها كذبًا .

كان شجاعا ذا رأي في الحروب خطيبًا ، وهو الذي حمى البصرة من الأزارقة بعد أن جلا عنها أكثر أهلها إلا من لم تكن له قوة على النهوض حتى قيل بصره المهلب .

وأما ابن الأزرق فهو نافع بن عبد الله الأزرق بن قيس الحنفى رأس الخوارج وإليه تنسب الأزارقة منهم لقولهم بمذهبه .

قال المبرد : كان نافع هذا شجاعاً مُقَدِّمًا في فقه الخوارج وله مع ابن عباس رضى الله عنه مسائل كثيرة يأتى ذكر جملة منها إن شاء الله .

وكان رأي نافع المذكور البراءة من سائر المسلمين وتكفيرهم وقتل الأطفاتل واستحلال الأمانة لأنه يراهم كفاراً .

وفرقه الخوارج الثانية هم النجدات ويقال لهم النجدية نسبة إلى نجدة بن عامر الحنفى والفرقة الثالثة : الإباضية وهو أتباع عبد الله بن إباض التميمي .

وهم يرون أن المسلمين كلهم يحكم لهم بحكم المنافقين ولا يحرمون مناكرة المسلمين ولا موارثتهم ومنهم البيهسية أصحاب بيهس هيصم بن جابر الضبعي .

والفرقة الرابعة الصفرية نسبة إلى عبد الله بن صفار التميمي وقيل إلى زيادة بن الأصفر وقيل نسبوا إلى صفرة ألوانهم لما أنهكهم من العبادة .

وكان من خبر ابن الأزرق المذكور وقتاله مع المسلمين أنه رجع من عند ابن الزبير بكفة ولم يجد عنده مَرَّاده ، ووقع الخلاف بينه وبين قومه ، أقام بشق

الأهواز وأعمالها لا يتعرض الناس وقد كان متشككاً في أمر التعرض للناس فقالت له امرأته يوماً إن كنت قد كفرت بعد إيمانك وشككت فيه فدع نخلتك ودعوتك وإن كنت قد خرجت من الكفر إلى الإيمان فاقتل الكفار حيث لقيتهم تعني المسلمين المخالفين له وأثخن في النساء والصبيان كما قال نوح عليه السلام ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيْباً ﴾^(١) فقبل قولها واستعرض الناس وبسط سيفه فقتل الرجال والنساء والولدان وجعل يقول إن هؤلاء إذا كبروا كانوا مثل آبائهم ، وجعل يحتل البلدان بلداً بلداً ويجعل الخراج ويجبي الجباية حتى عظم أمره واشتدت شوكته فارتاع لذلك أهل البصرة وشكوا أمرهم إلى الأحنف بن قيس فأشار إليهم أن خذوا في جهاد عدوكم ، فجمعوا عشرة آلاف مقاتل في السلاح وأمروا عليهم مسلم بن عُبَيْس — بالعين المهملة والباء الموحدة بصيغة التصغير — وكان فارساً شجاعاً ديناً فخرج إليه ولقيه بموضع يقال له دولاب فخرج إليه نافع بن الأزرق وكان في نحو الستائة فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسرت الرماح وعُقرت الخيل وكثر القتل وتقاتلوا بالسيوف والعُمُد حتى قتل ابن الأزرق وابن عُبَيْس معاً ، فعجب الناس من صبر الفريقين على القتال حتى مات أميراهما .

وكانت هذه الواقعة في جمادى الأخيرة سنة خمس وستين من الهجرة .

ثم إن كل فرقة أمرت على نفسها أميراً بعد ما قُتل أميرها وعاد القتال فانهزم أهل البصرة وتبعهم الخوارج فألقوا بأنفسهم في دُجَيْل فغرق منهم خلق كثير جُلُهم من الأزد ، وفي ذلك يقول الخارجي :

ترى من جاء ينظر في دُجَيْل شيوخ الأزد ظافية لِحَاهَا

وقلت أهل البصرة لذلك وداخلهم الرعب والفرع ، فبينما هم كذلك إذ ورد المهلب بن أبي صفرة متوجّهاً إلى خُراسان والياً عليها من قِبَل ابن الزبير ، فلما علم الأحنف بن قيس بقدومه البصرة قال لوجوه الناس : والله ما لقتال الخوارج غير

(١) نوح الآية (٢٦) .

المهلب وحين كلموه في ذلك أعلمهم بأن عهده إلى خراسان بيده وما كان ليدع أمر أمير المؤمنين ، فتآمر أهل البصرة على افتعال كتاب من ابن الزبير يأمره بقتال الخوارج بموجبه فلما قرأه اشترط أن يُقْتَطَعَ له من بيت المال ما يقوى به على القتال وأن ينتخب من فرسانهم من يشاء فأجابوه إلى طلبه وسار إلى الخوارج فكان أشد عليهم من كل من قاتلهم .

وبلغ ابن الزبير افتعال الكتاب فلم يقل شيئاً وأقره على ذلك ، فصابر المهلب الأزارقة يياكرهم بالقتال ويرواوحهم به حتى قتل ابن الزبير رضي الله عنهما واستولى عبد الملك بن مروان على العراق واجتمع أمر المسلمين عليه .

ثم إن عبد الملك بعث بالحجاج إلى العراق فشدَّ عَضُدَ المهلب بما احتاج إليه من مال ورجال حتى بلغ من إبادة الأزارقة وتشريدهم مراده بعد إقامته في قتالهم نحواً من عشرين سنة .

وللمهلب خبر محفوظ وحكم مشهورة في الحرب .

يحكى أنه لما حضرته الوفاة وهو أمير خراسان جمع بنيه وعشيرته وكانوا كلهم أبطالاً أنجاداً كراماً ودعا بسهام فحزمت وقال أترونكم كاسريها مجتمعة ؟ قالوا : لا ، قال أفترونكم كاسريها مفترقة ؟ قالوا : نعم ، قال : هكذا الجماعة ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم .

وكانت وفاته « رحمه الله » سنة اثنتين وثمانين .

وقد عَلِمَ مما تقدم أن قول الناظم : قاطع قرا ابن الأزرق ، فيه تجوز لأن المهلب لم يكن قاتل نافع بن الأزرق لأن موته كان في وقعة دولاب وتلك كانت بقيادة مسلم بن عبيس وهي متقدمة على ولاية المهلب ، وإنما قاتل المهلب أتباعه وأهل شيعته ؛ ولما توفي المهلب رثاه نهار بن توسعة بقوله :

ألا ذَهَبَ الْعَزُّوُ الْمُقَرَّبُ لِلْغَنَى ومات التَّدَى والجودُ بعد المهلبِ
أقاما بمرو الروذ لايرحانها وقد فُقِدا من كل شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ

قلت : وقد اتفق أهل التاريخ على كرم آل المهلب وشجاعتهم ، وسئل المهلب عن ولديه يزيد وحبيب أيهما أشجع ؟ فقال إن الوالد ربما سبق رأييه في أسند ولديه فيتهم ولكن سلوا أبا نعامة قطري بن الفجاءة فإنه قد مارسهما ، فلما اصطف الناس للقتال من الغد ، قالوا : يا أبا نعامة ! قال : أفرجوا له : يا هذا قد أنصتناك فقل ما شئت ، قالوا إنا سألنا الأمير عن ابنه يزيد وحبيب أيهما أشجع فأحالنا إليك وقد مارستهما ؟ فقال على الخبير سقطتم : أما صاحب الكر والفر والإقدام والإحجام ومبارزة الكمي المدجج فالخرون يزيد ، وأما إذا اشتبكت ظلمات الليل وعلت أصوات الرجال وقرع الحديد بالحديد فالخيار حبيب ، فقالوا : قد زدنا إشكالاً .

يحكى في كرم يزيد بن المهلب أنه في فراره من بنى أمية بعد هزيمته أمام مسلمة بن عبد الملك ، استضاف أعرابية فأحسن ضيافته فقال لابن معه وكان أودعه صرة فيها عشرة آلاف درهم حملها معه للزاد ، فقال لابنه ادفع لها الصرة التي معك ، فقال إنها لاتعرفنا وقد ترضى منا بأقل من هذا ، فقال يزيد : إن كانت لاتعرفنا فنحن نعرف من نحن وإن كانت ترضى منا بالقليل فنحن لانرضى به من أنفسنا .

ويحكى أيضاً : أن الحجاج أعطاه الوليد السلطة على محاسبة يزيد بن المهلب وإلى خراسان فحكم عليه بالسجن مدة يعذب كل يوم منها حتى يفتدى بعشرة آلاف عن عذاب اليوم الواحد ، فلما نفذ ماعنده صار الناس يتسابقون لدفع فدائه ، فاتفق أن الأخطل استأذن السجنان في زيارة يزيد فامتنع وقال : أن يعطيك فداء يومه فذاك مالا أرجوه أو يدخل عليه شاعر وليس عنده ما يُهديه إليه فهو من أسباب تضايقه ، فلم يزل الأخطل يُقْتَل في الغارب للسجان حتى أدخله عليه فأنشده :

أبا خالد بادث خراسانُ بعدكم وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ
فما سَقِيَ المروان بعدك قطرة ولا اخضرَّ بالمروين بعدك عُودُ

ومالسريير بعد مُلْكِكَ بَهْجَةً ولا لجواد بعد جُودِكَ جُودُ
فَاعْطَاهُ فِدَاءَ يَوْمِهِ وَقَالَ : اللَّهُ حَسْبُنَا مِنْ عَذَابِ الْحِجَاكِ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ
وَلَمْ يَوْجَدْ عِنْدَهُ فِدَاءً وَقُدِّمَ لِلْعَذَابِ ، ذَكَرَ السَّجَانَ مَا كَانَ مِنْ خَبَرِ الْفِدَاءِ فَقَالَ
الْحِجَاكِ : وَمَا زِلْتَ جَوَادًا حَتَّى فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ؟ فَقَدْ وَهَبْتُكَ عَذَابَ الْيَوْمِ وَبَعْدَهُ
انتهى .

ويحكى أن : عبد الملك بن مروان قال يوماً لجلسائه : ويلكم مالكم في
مدحنا تارة تشبهوننا بالأسد الضاري وتارة بالنهر الجاري ، فهلا قلتم فينا ما قال في
آل المهلب شاعرهم :—

إن المكارم أرواح تُخْلَقْنَ ، لها آل المهلب دُونَ النَّاسِ أَجْسَادًا
ومن أراد أن يتزید من أخبار آل المهلب فليراجع شروح مقامات الحريري
ومقصورة حازم .

[وَفَرَسٌ كَلَّاحِقٌ وَدَاحِصٌ يَوْمَ الرَّهَانِ شَأُوهُ لَمْ يُلْحَقْ]

والفرس معروف يطلق على الذكر والأنثى وراكبه فارس ويجمع على فوارس
شدوذا لا يقاس عليه ، فإن مُذَكَّرٌ مَا يَعْقِلُ لَا يُجْمَعُ مِنْهُ عَلَى فَوَاعِلٍ إِلَّا فَوَارِسُ
وهوالك ونواكس ، والفراصة بالفتح والفروسة بالضم والفروسية بزيادة الياء
الحذق بركوب الخيل والحذق بأمرها . وفَرَسَ الرجل يَفْرُسُ ، قالوا : وليس كل
من ركب الخيل له حكم الفروسية عند العرب ولكن الفارس عندهم من أحسن
الجلاد واشتهر بالشجاعة كعمرو بن معد يكرب وربيعة بن مكدّم وعنترة بن
شداد وملاعب الأسنة وأضرابهم .

الرَّهَانُ : بكسر الراء مصدرٌ من قولهم راهن يراهن رهاناً ومُراهنة إذا خاطر
ويكون في المسابقات على الخيل غالباً ، وقد يكون في غيرها .

والشَّأُو : الغاية والأمد ، وعدا الفرس شأوا أى طَلَقاً ؛ والشَّأُو أيضاً :
السَّبْقُ تقول شأوتُ القوم شأوا إذا سَبَقْتَهُمْ ، قال امرؤ القيس :
فَالْقَيْتُ فِي فِيهِ اللَّجَامَ فَبَدَّنِي وَقَالَ صِيْحَابِي قَدْ شَأَوْنَاكَ فَاطْلُبْ
وَتَشَاءُ مَا بَيْنَهُمَا تَبَاعَدُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

ذكر لاحق وداحس ومايتعلق بهما

لاحق فرس لبنى غني بن أعصر وهو الذي يعنيه النابغة بقوله
فيهم بنات العسجدي ولاحق وُرْقاً مراكِلُها من المضمار
يتحلب اليعضيد من أشداقها صُغراً مناخرها من الجرجار
وأما داحس فهو فرس كان لقيس بن زهير بن جذيمة العبسي يضرب به المثل
في الشؤم لما جرى بسببه من الفتن والحروب بين العرب

وكان من خبره أن أمه كانت لقرواش بن عوف بن عاصم بن عبيد بن ثعلبة
ابن يربوع ويقال لأمه جلوى وكان أبوه فرسا لحوط بن أبي جابر من بني يربوع
يقال له ذو العُقَال بضم العين وتشديد القاف ، وسمى داحساً لأن بني يربوع
احتملوا يوماً منتجعين وكان ذو العقال مع ابنتي حوط بن أبي جابر يجنبانه فمَرَّتَا
به على جلوى فرس قرواش وهي يومئذ وديق ، والفرس الوديق هي المشتبه
للفحل فانتشأها فصهل فأرسلته فنزا عليها فأعقَّت ، ثم أخذه لهما بعض رجال
الحي فلاحق بهما حوطٌ وكان رجلاً سيئ الخُلُق فلما نظر إلى عيني فرسه قال والله
لقد نزا فرسي فأخبراني ماشأته ، فأخبرته الخبر فنادى يا رياح والله لا أرضى أبداً
حتى آخذ ماء فرسي فقال له بنو ثعلبة والله ما استكرهنا فرسك وما كان إلا مُتَفَلِّتاً
فلم يزل الشر بينهم حتى عظم فلما رأى ذلك بنو ثعلبة قالوا : دونكم ماء فرسكم
فسطا عليها حوط وجعل يده في ماء وتراب ثم أدخلها في رحمها ودَحَسَ بها حتى
ظن أنه قد فتح الرحم وأخرج الماء . وقد اشتملت الرَّجْمُ على ما فيها فولدت
الفرس بعد ذلك مُهْراً فسمى داحساً لذلك .

والدَّحَسُ إدخال اليد بين جلد الشاة ولحمها للسلخ ، وخرج كأنه أبوه ذو
العُقَال ، فلما تحرك المهر وسام مع أمه في المرعى قال حوط هذا ابن فرسي وأخذه
فقالت بنو ثعلبة يا بني رياح ألم تفعلوا كذا وكذا في شأنه ثم هذا أيضاً ؟ فقالوا هو
فرسنا وأصروا على القتال دونه ، فقال بنو ثعلبة : لأنتم أعز علينا من أن يقاتلكم
من أجله هو فداؤكم ودفعوه إليهم فلما رأى ذلك بنو رياح قالوا والله لقد ظلمنا

إخواننا مرتين ولقد حَلَمُوا وَكُرُمُوا فَأَرْسَلُوا بِهِ إِلَيْهِمْ مَعَ لَقُوحِينَ فَمَكَثَ عِنْدَ قُرَاشٍ مَا شَاءَ اللَّهُ فَكَانَ أَجُودَ خِيُولِ الْعَرَبِ .

ثُمَّ إِنَّ قَيْسَ بْنَ زَهِيرٍ بَنَ خَدِيمَةَ أَغَارَ عَلَى بَنِي يَرْبُوعَ فَلَمْ يَصِبْ أَحَدًا غَيْرَ ابْنَتَيْنِ لِقُرَاشٍ وَمِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَهُ وَصَادَفَ الْحَيَّ خَلُوفًا فَلَمْ يَشْهَدْ مِنْ رَجَالِهِمْ غَيْرَ غَلَامَيْنِ مِنْ إِزْنَمَ بْنِ عُبَيْدٍ بَنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ يَرْبُوعَ فَرَكِبَا الْفَرَسَ وَهُوَ مُقِيدٌ بِقَيْدِ حَدِيدٍ فَأَعْجَلَهُمَا الْقَوْمُ عَنْ حُلِّ الْقَيْدِ فَطَفَرَ الْفَرَسَ بِهِمَا طَفُورًا حَتَّى أَنْجَاهُمَا ، فَلَمَّا رَأَى قَيْسٌ ذَلِكَ رَغِبَ فِي الْفَرَسِ فَقَالَ لَهُمَا لَكُمَا حُكْمُكُمَا إِنْ أَنْتُمَا دَفَعْتُمَا لِي الْفَرَسَ فَاسْتَوْثَقَا مِنْهُ عَلَى أَنْ يَرِدَ الْجَارِيَتَيْنِ وَالْإِبِلَ وَمَا أَخَذَ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ وَيَأْخُذَ الْفَرَسَ فَيَقْتُلُ .

فَلَمَّا جَاءَ قُرَاشٌ قَالَ أَيْنَ فَرَسِي ؟ فَأَخْبَرَاهُ فَأَبَى إِلَّا فَرَسَهُ فَعَظِمَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ حَتَّى تَحَاكَمُوا فِيهِ فَحَكِمَ بَيْنَهُمْ أَنْ تَرِدَ الْجَارِيَتَانِ وَالْإِبِلُ إِلَى قَيْسَ بْنِ زَهِيرٍ وَيَرِدَ عَلَيْهِ الْفَرَسَ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قُرَاشٌ رَضِيَ بَعْدَ كُلِّ جَهْدٍ وَانْصَرَفَ قَيْسٌ وَقَدْ صَفَّى لَهُ دَاحِسَ .

حَرْبُ دَاحِسٍ وَالْغُبَرَاءِ

كَانَ قَيْسُ بْنُ زَهِيرٍ حِينَ صَفَّى لَهُ دَاحِسٌ نَازِلًا عَلَى بَنِي بَدْرِ مِنْ فِزَارَةَ بْنِ ذُبْيَانَ بْنِ بَغِيضَ بْنِ رَيْثَ بْنِ غَطَفَانَ بْنِ سَعْدَ بْنِ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مِضَرَ ، وَكَانَتْ لِبَنِي بَدْرِ خَيْلٌ كَرِيمَةٌ إِلَّا أَنَّ خَيْلَ قَيْسَ بْنِ زَهِيرٍ كَانَتْ أَكْرَمَ مِنْهَا وَكَانَ حَذِيفَةُ بْنُ بَدْرِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ وَقَعَتِ الْمِرَاهِنَةُ بَيْنَ آلِ قَيْسَ بْنِ زَهِيرٍ وَآلِ بَدْرِ ، فَوَاهِنَ قَيْسَ عَلَى دَاحِسٍ وَوَاهِنَ حَذِيفَةَ عَلَى الْغُبَرَاءِ — فَرَسَ لَهُ — وَكَانَ الرِّهَانُ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ ، وَالْغَايَةُ مِائَةُ غَلْوَةٍ وَالْمِضْمَارُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ أُرْسِلَاهُمَا فِي رَأْسِ الْمِيدَانِ فَأَكَمَنَ حَمَلُ بْنُ بَدْرِ أَخُو حَذِيفَةَ فَتَيَانًا مِنْ فِزَارَةَ فِي بَعْضِ الشُّعَابِ الَّتِي كَانَتْ فِي طَرِيقِ الْفَرَاسِينِ وَقَالَ إِنْ جَاءَ دَاحِسٌ سَابِقًا فَرُدُّهُ عَنِ الْغَايَةِ وَإِنْ جَاءَتْ الْغُبَرَاءُ فَلَا تَخْرُجُوا مِنْ مَكْمَلِكُمْ ، فَلَمَّا نَهَضَا بَرَزَتِ الْأُنْثَى عَلَى الْفَحْلِ أَوَّلًا فَقَالَ

حَمَل بن بدر سبقتك يا قيس ، فقال قيس : رويدا يعدوان الجَدَدَ وترشح أعطاف
الفحل ، فَأُرْسِلَتْ مثلاً .

فلما بلغا الجَدَدَ وخرجا منه إلى الوعث بَرَزَ داحس على الغبراء فقال قيس
جري المذكيات غلابٌ فَأُرْسِلَتْ مثلاً ، فلما شارف داحس الغاية ودنا منه الفتية
وثبوا في وجهه وردوه حتى برزت عليه الغبراء فَشَرِي الشَّرْبَيْنِ قيس بن زهير وبني
بدر بسبب ذلك وفيه يقول قيس بن زهير من قصيدة له :

وما لاقيت من حَمَل بن بدر وإخوته على ذات الإصا
هم فخرُوا على بغير فخر وردُوا دون غايته جوادي

ثم إن حذيفة بن بدر أرسل ولده مالكا إلى قيس بن زهير يطلب منه السَّبَقَ
لزعمه أنه استحقه فغضب قيس وقتل مالك بن حذيفة بن بدر ورجعت فرسه
عائرة إلى حذيفة ، فاجتمع الناس وحملوا ديتة إلى حذيفة مائة ناقة عُشراء وزعموا
أن الربيع بن زياد هو الذي تحملها من ماله ، ثم إن حذيفة بعد أخذه دية ابنه بلغه
أن مالك بن زهير نازل بموضع يعرف بالشَّرْبَةِ وهو زوج أخت حذيفة أم قرفة
التي يضرب بها المثل في العز والمنعة فيقال أُمْنَعُ من أم قرفة . فكان يُعَلِّقُ في بيتها
خمسون سيفاً لخمسين رجلاً كلهم محرم لها « والله أعلم » .

وقيل إن أم قرفة هذه كانت زوجاً لمالك بن حذيفة ، فلما علم حذيفة بمكان
مالك بن قيس دس عليه من قتله ، وفي ذلك يقول عنتره :

فلله عينا من رأى مثل مالك عَقِيرَةَ قوم أن جَرَى فَرَسَانِ
فليتهما لم يجريا نِصْفَ غَلْوَةٍ وَلَيْتَهُمَا لم يُرْسِلَا لِرِهَانِ

فأتت بنو خزيمة حذيفة وقالوا ردوا علينا مالنا إذ قتلتم مالكا بمالك
فأبى حذيفة أن يرد عليهم ما لهم ، وكان الربيع بن زياد العبسي نازلاً فيهم فقال لهم بعس
والله ما فعلتم قبلتم الدية ثم غَدَرْتُمْ ، قالوا لولا أنك جار لقتلناك — وكانت خفرة
الجار ثلاثاً — فقالوا انْخُرْجْ عَنَّا ولك ثلاثة أيام ، فخرج الربيع وهو أحد الكملة

الثلاثة وأمهم فاطمة بنت الخرشب الأتمارية من أثمار بغيض لا من أثمار بجيلة ،
وهي التي سئلت عن أولادها أيهم أفضل ؟ فقالت عمارة لابل الربيع لابل أنس ثم
قالت ثكلتهم إن كنت أدري أيهم أفضل هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين
طرفاها .

وكان بين الربيع بن زياد وقيس بن زهير عداوة على درع غصبها الأول من
الثاني ، فاصطلحا وقال الربيع :

فإن تَكْ حَرْبُكُمْ أُمَسْتُ عَوَاناً فإني لم أَكُنْ مِمَّنْ جَنَاهَا
ولكن وُلِدُ سَوْدَةً أَوْرَثُوهَا وَحَشُوا نَارَهَا لِمَنْ اصْطَلَاهَا
فإني غير نَحَازِلِكُمْ ولكن سَأَسْعَى الْآنَ إِذْ بَلَغَتْ مَدَاهَا

فكان أول الأيام بين عبس وذيان يوم المريقب فكانت الدائرة لعبس على
ذيان ، وظهرت في ذلك اليوم بسالة عنترة بن شداد فقال فيه :

ولقد علمتُ إِذِ التقتُ فُرسَانَنَا بِلَوِي المريقب أن ظَنَّنَا أَحمقُ

ثم التقوا ثانية يوم ذى حُسى فكانت الدائرة لذيان على عبس وانهمزت عبس
فاتبعوهم فأدركوهم فقالت ذيان : إما التفاني وإما أن تقيدونا من قتلى يوم
المريقب ، فأشار قيس بن زهير على الربيع بن زياد وهو سيد عبس في هذه
الحروب ألا يُناجزوهم وأن يعطوهم رهائن حتى ينظروا في أمرهم ، فتراضوا أن
تكون الرهائن عند سبيع بن عمرو أحد بنى ثعلبة بن سعد بن ذيان فَدَفَعَتْ إِلَيْهِمْ
عبس ثمانية من الصبيان وانصرفوا وتكافأ الناس . وبقيت رهائهم عند سبيع حتى
حضره الموت فقال لابنه مالك بن سبيع : إنَّ عندك مكرمة لا تبديد إن أنت
احتفظت بهؤلاء الأَغِيلِمَةَ وكأني بك إذا أنا متُّ أَتَاكَ خَالِكَ حَذِيفَةُ وَعَصَرَ لَكَ
عَيْنِيَه يقول هلك سيدنا وخدعك عن هؤلاء حتى يقتلهم ثم لا تشرف بعدها أبداً
فلما مات سبيع كان الأمر كما وصف ، فأخذ حذيفة الصبيان فَأَتَى بِهِمْ مَوْضِعاً
يسمى اليعمرية وجعلهم هدفاً للرماح وهو يقول لكل غلام منهم ناد أباك ،
فلا يزال يرميه والصبي ينادى أباه حتى تمزقه الرماح .

ولم تزل الحرب بينهم والدماء تسيل حتى التقوا يوم جفر الهباءة فاقتلوا من بكرة النهار حتى انتصف وحجز الحر بينهم وكان حذيفة بن بدر يحرق الركض فَخِذِيهِ فقال قيس : يا بني عبس إن حذيفة رجل محروق الخيل وإنه مُسْتَنْقَعُ الْآنَ فِي جَفْرِ الْهَبَاءَةِ فعليكم به فخرجوا وقصوا أثره وكان حذيفة على فرسه الخنفاء فعرفوا أثره حتى وافوهم مع الظهيرة فبصرهم حمل بن بدر وهو في النهر فقال : من أبغض الناس إليكم أن يقف على رعوسكم الآن ؟ قالوا قيس بن زهير والربيع بن زياد قال هذا قيس والربيع فلم ينقض كلامه حتى وقف القوم على شفر الجفر وقيس يقول : لبيكم لبيكم يعني الصبية الذين مزقهم حذيفة بالنبل ، فحال شداد ابن معاوية والد عنترة بين القوم وبين الخيل ، وقال أحد ابني بدر والأصح أنه حذيفة ناشدناكم الرحم ، فقال له أخوه : اتق مأثور القول ، فصارت مثلاً يضرب لمن يقول قولاً لا ينتفع به وتبقى عليه مسبته ، فقتلوا جميع من كان في النهر وكان فيه حذيفة بن بدر وأخوه حمل بن بدر وأخوه مالك بن بدر وورقاء بن بلال وحنش بن عمرو ، وأثخنوا فيهم القتل وسالت الدماء .

كانت الدائرة في ذلك اليوم على ذبيان ، وقال قيس بن زهير يرثي حمل بن

بدر :

تَعَلَّمُ أَنْ خَيْرَ النَّاسِ مَيِّتٌ عَلَى جَفْرِ الْهَبَاءَةِ لَا يَرِيْمُ
وَلَوْلَا ظَلَمَهُ مَازَلْتُ أَبْكِي عَلَيْهِ الدَّهْرُ مَا طَلَعَ النُّجُومُ
وَلَكِنِ الْفَتَى حَمَلَ بِنَ بَدْرٍ بَغَى وَالْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخَيْمُ

ومثلوا بحذيفة بن بدر كما مثل هو بالصبيان فقطعوا مذاكيره وجعلوها في فمه وقطعوا لسانه وجعلوه في إسته .

فلما أصيب أهل الهباءة أعظمت عطفان قتل حذيفة فاجتمعوا على ابنه حصن ابن بدر وقيل على ابنه عيينة بن حصن فعرفت عبس حينئذ أن ليس لهم مقام بأرض عطفان فخرجوا إلى اليمامة فترلوا على أخوالهم من بني حنيفة مدة ثم على بني سعد ابن زيد مناة بن تميم فغدروا بهم ، وكان بينهم يوم الفروق لأن عبساً فطنوا

لما كان يَبِيْتُهُ بنو سعد من الغدر ، وأبلى عنترة بلاء حسناً وفي ذلك اليوم ظهرت فيه بسالته ، وقد سئل بعد ذلك كم كنتم يوم الفروق قال حول المائة لم نقل فنضعف ولا نكثر فنتكل ، وسار بنو عبس ثلاث ليال بأيامها ، ثم إن حرب داحس والغبراء دامت بين عبس وذبيان أربعين سنة فيما يقال حتى أصلح بينهم الحرث بن عوف بن أبي حارثة وهرم بن سنان بن أبي حارثة المُرَيان في خبر يطول ذِكره عن هذا المحل وفي ذلك يقول زهير في معلقته :

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذُبْيَانًا بَعْدَمَا تَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمَا عِطْرَ مَنْشِيمٍ

ويقال إن قيس بن زهير بعد الصلح انتقل إلى عُمان وقال لا أنظر إلى وجه من قتل أباه وأخاه أبداً ثم إنه أصابته الفاقة حتى مات جوعاً . « والله تعالى أعلم .

[تَقْدَحُ نِيرَانُ الْحُبَابِ حَوَا فِرُهُ عِنْدَ حَبِّ وَطَلَقِ]

قَدَحُ النار : استخراجها من حجر الزناد وفي المثل : أَضِيْتُ لِي أَقْدَحُ لَكَ أَي بين لي حاجتك حتى أسعى فيها .

وَالْحَبُّ ضَرْبٌ مِنَ الْعَدُوِّ وَهُوَ أَنْ يَنْقُلَ الْفَرَسُ أَيَامَهُ جَمِيعاً وَأَيَاسِرَهُ جَمِيعاً وَقِيلَ هُوَ أَنْ يَرَاوِحَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَرَجْلَيْهِ .

وَالطَّلَقُ بِالتَّحْرِيكِ هُوَ جَرِي الْفَرَسِ لَا يَحْتَبِسُ إِلَى غَايَةِ قَالَ الشَّاعِرُ :

عَدَا طَلَقًا حَتَّى إِذَا قِيلَ سَابِقُ تَدَارَكَهُ عِرْقُ اللَّثَامِ فَبَلَدَا « وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ » .

ذِكْرُ نَارِ الْحُبَابِ

نَارُ الْحُبَابِ تُضْرَبُ مِثْلًا لِلشَّيْءِ الَّذِي لَا طَائِلَ تَحْتَهُ وَلَا نَفْعَ وَرَاءَهُ ، يُقَالُ أَخْلَفْتُ مِنْ نَارِ الْحُبَابِ ، وَأُكْذِبُ مِنْ نَارِ الْحُبَابِ ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُؤَلِّدِينَ :

صَدِيقٌ لَنَا مُذْ ذُقْتُ طَعْمَ إِخَائِهِ شَهِدْتُ لَقَدْ أَرَى عَلَى الصَّابِ شَهْدَهُ
وَأَضْعَفُ مِنْ نَسِجِ الْعَنَاكِبِ عَقْدَهُ وَأَضْيَعُ مِنْ نَارِ الْحُبَابِ وَدُّهُ

وَاخْتَلَفَ فِي نَارِ الْحُبَابِ هَذِهِ الَّتِي يَضْرِبُ لَهَا الْمَثَلُ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، وَالْقَوْلُ
الْأَقْرَبُ لِلصَّوَابِ أَنَّهَا النَّارُ الَّتِي تَوْرِيهَا الْحَبِيلُ بِسَنَابِكِهَا مِنَ الْحَجَارَةِ ، وَدَلِيلُ هَذَا
الْقَوْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ ^(١) . وَانْتَصَرَهُ صَاحِبُ
« الْكَشَافِ » ، وَقِيلَ الْحُبَابُ طَائِرٌ صَغِيرٌ يَطِيرُ لَيْلًا فِي الظَّلَامِ وَهُوَ قَدَرُ الذَّبَابَةِ ،
وَلَهُ جَنَاحٌ يَحْمَرُ إِذَا طَارَ بِهِ فَيَتَرَاءَى مِنَ الْبَعْدِ كَأَنَّهُ شَرَارَةٌ مِنْ نَارٍ ، وَقِيلَ غَيْرُ
ذَلِكَ .

[كَالرَّيْحِ فِي هُبُوبِهِ وَالسَّمْعِ فِي وَثُوبِهِ وَكَالْمَهَا فِي فَشَقِ]
[بِهِ أَجْوَسُ فِي خِلَالِ دُورِهَا وَأَتَشْنِي كَالْبَارِقِ الْمُؤَلِّقِ]

السَّمْعُ : وَلَدُ الذَّنْبِ مِنَ الضَّبْعِ كَمَا تَقْدُمُ وَلَيْسَ فِي الْحَيَوَانَ شَيْءٌ عَدُوٌّ كَعَدُوِّ
السَّمْعِ لِأَنَّهُ أَسْرَعُ مِنَ الطَّيْرِ ، وَوَثْبَتُهُ تَزِيدُ عَلَى ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا وَيَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي
السَّمْعِ وَقُوَّتِهِ وَكَذَلِكَ اشْتَقَّ اسْمُهُ مِنْهُ .

وَالْفَشَقُ : بِالتَّحْرِيكِ الْعَدُوُّ وَالنَّشَاطُ .

وَالْجَوْسُ : وَالْاجْتِيَاسُ بِالْجِمِّ وَبِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ بَدَلُهُ طَلَبُ الشَّيْءِ بِالِاسْتَقْصَاءِ
وَالْتَرَدُّ خِلَالَ الدُّورِ وَالْبَيُوتِ وَقْتَ الْغَارَاتِ وَالنَّهَبِ .

[فَإِنْ تَكُ الزَّيْبَا دَخَلْتُ قَصْرَهَا وَكَقْصِيرٍ سَقَتْهَا لِلنَّفَقِ]

الزَّيْبَا : امْرَأَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَالْأَزْبُ كَثِيرُ الشَّعْرِ وَكَذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ .

وَقْصِيرٌ : بِكُسْرِ الصَّادِ اسْمُ رَجُلٍ يَأْتِي خَبْرَهُ .

وَالنَّفَقُ بِالتَّحْرِيكِ سَرَبٌ فِي الْأَرْضِ لَهُ مَخْلَصٌ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ ، وَفِي الْمَثَلِ :
« ضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَهُ » يَضْرِبُ لِمَنْ يُعْنَى بِأَمْرِ نَفْسِهِ وَيُعَدُّ حُجَّةَ لِحَصْمِهِ فَيَنْسَاهَا عِنْدَ

(١) الْعَادِيَاتُ الْآيَةُ (٢) .

الحاجة ، والدريص كزبير ولد الأرنب واليربوع ، والنافقاء إحدى حِجَرَةِ اليربوع يكتمها ويُظهر غيرها ، وهو محل يرفقه فإذا أوتي من قبل القاعصاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق أي خرج منها ، ونافق إذا أخذ في نفاقائه ، ومنه اشتق المنافق في الدين « والله تعالى أعلم » .

ذكر قصة قصير والزّباء

الزّباء هذه امرأة من بقية عمالقة الشام من أهل بيت عاملة منهم ، وهي الزباء بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة من ولد السّميدع بن هوبر العملاقي الذي قتله يوشع بن نون صاحب موسى عليهما السلام .

وكان سلف الزباء يملكون جزيرة الموصل ومشارق الشّام وما والاها دهرًا طويلًا إلى أن أمضى المُلْكُ إلى عمرو بن الظرب فغزاه جذيمة الأبرش صاحب الحيرة وأعمالها .

قال أبو عبيدة : وهو أول ملك كان بالعراق من العرب وأول من نصب المجانيق وأوقد الشموع ، وكان بعد عيسى « عليه السلام » بثلاثين سنة « والله أعلم » ، وكان به برصٌ فكنت العربُ عنه بالوضّاح والأبرش إعظاماً له ، فغزا جذيمة عمرو بن الظرب فقتله وانهمزت جيوشه وعاد جذيمة سالمًا ، وملك بعد عمرو ابنته الزباء واسمها نائلة وقيل ميسور وقيل الفارعة ، فلما استحكم ملكها أجمعت على غزو جذيمة فأشارت عليها أختها زُنية بعدم غزوه وإعمال الحيلة فكتبت إلى جذيمة تدعوه إلى نفسها لتزوجها ويضم ملكها إلى ملكه وتقول : إنها لم تجد لنفسها ولا لملكها كفوًا غيره ، فلما وصله كتابها طمع فيما دعت إليه ، فجمع أهل مشورته فعرض عليهم ما دعت إليه فأجمع أمرهم على أن لا يُسِيرَ إليها إلا « قصيرًا » وكان أريبًا حازمًا أثيرًا عند جذيمة فقال الرأي أن ترسل إليها إن كانت صادقة أن تقبل إليك ولا تمكّنها من نفسك وقد وترتها وقتلت أباه ، فلم يأخذ جذيمة برأيه ثم دعا ابن اخته عمرو بن عدي اللخمي فاستشاره فشجعه فاستخلف

جذيمة عمرو بن عدي على ملكه وجعل عمرو بن عبد الجن معه على جنوده وسار جذيمة في وجوه أصحابه واستقبلته رسل الزباء بالهدايا ، فقال ما ترى يا قصير ؟ فقال : « بَيِّقَةٌ تركت الرأي » فأرسلها مثلاً ثم قال ستأتيك الخيل فإن سارت أمامك فالمرأة صادقة وإن أخذت جنبتيك وأحاطت بك من خلفك فالقوم غادرون بك ، فأركب العصا فإنها لا يشقُّ غبارها — وكانت العصا فرساً لجذيمة — فإني راكبها ومسايرك عليها .

فلقيته الكتائب والخيول فحالت بينه وبين العصا ، وقيل إن قصيراً عرضها له فأنف من ركوبها بمحضر ذلك الجمع فركبها قصير وولى فنظر إليه جذيمة مولياً فقال :

« ويل أمه حزماً على متن العصا » فأرسلها مثلاً .

وسار جذيمة وقد أحاطت به الخيول حتى أدخلوه على الزباء فلما رآته تكشفت له فإذا هي مضمفورة الإسب — بالموحدة — وهو شعر العانة والفرج وقالت يا جذيمة « أدأب عروس ترى » ؟ فسارت مثلاً ، فقال جذيمة قد بلغ المدى وجف الثرى وأمر غدر أرى ، وفي بعض الروايات أنها قالت له : أشوار عروس ترى ؟ فقال جذيمة : بل متاع فاجرة بظراء ، فقالت والله ماذا من عدم مَواسٍ ولا من قلة أَواسٍ ولكنها شيمة من أناس ، والأواسي جمع آسي وهو الطبيب ، ثم قالت لجواربها خذن بَعْضُدي سَيِّدُكن ففعلن ثم دعت بنطع فأجلسته عليه ودعت بطست من ذهب فأعدته لديه تفاؤلاً بأن يذهب دمه هدرأ ، وسقته الخمر حتى أخذت منه مأخذها ، وكانت الملوك لا تقتل بضرب الأعناق إلا في مجال الحرب تكرمه لمنصب الملك ، ثم أمرت برواهشه فقطعت ثم عرضت الطست لدمه خشية أن يقطر في الأرض دمه لأنه قيل لها إن قطر من دمه في الأرض طلب بثأره ، ولما ضعفت يدها سقطتا فقطر دمه على رخام القصر فقالت لا تضيعوا دم الملك فقال جذيمة دعوا دماً ضيعه أهله فذهب مثلاً . ولما هلك جذيمة جعلت الزباء دمه في ربعة لها .

وخرج قصير من الحي الذين هلكت العصا بين أظهرهم حتى قدم على عمرو ابن عدى بالحيرة فوجده قد اختلف مع عمرو بن عبد الجن التوخى فسار قصير إلى ابن عبد الجن وقال له اطلب بدم ابن عمك والاسبتك العرب به فلم يعبأ به ولما يئس قصير من ابن عبد الجن مشى إلى عمرو بن عدى فقال له هل لك في أن أصرف إليك الجنود على أن تطلب بثأر خالك فأنعم له بذلك فأتى قصير قادة الجند واستهواهم بالمال فانصرف إليه منهم خلق كثير ثم اصطلح الفريقان على تمليك عمرو بن عدي ، فقال له قصير : انظر ما وعدتني به في شأن الزباء فقال وكيف لي بها وهي أعز من عقاب الجو ؟ فذهبت مثلاً .

وكانت الزباء قد سألت كاهنة لها فقالت هلاكك على يد رجل مهين اسمه عمرو بن عدى ولكن بيدك يكون لا بيده وهو السبب ، فَحَذِرْتُ عمراً واتخذت نفقاً من مجلسها الذي كانت تجلس فيه إلى حصن لها في داخل مدينتها وقالت إن فاجأني أمرٌ دخلت النفق ، وَجَعَلْتُ نفقاً آخر متصلاً بمدينة أختها ثم أجرت الماء عليه فكانت إذا خافت عدواً دخلت النفق ، ثم إنها دعت مُصَوِّراً عندها حاذقاً وكلفته بأن يعمل ما يمكنه حتى يأتيها بصورة عمرو بن عدي قائماً وجالساً وراكباً وفي أي صفة يتصف بها فامتثل فكانت الزباء بذلك لا ترى عمراً في أية حالة إلا عرفته .

ثم إن قصيراً قال لعمرو اجذع أنفي واضرب ظهري ودعني وإياها ففعل ، وخرج قصير كأنه هارب إلى الزباء فقالت العرب « لأمر ما جذع قصير أنفه » فسار حتى قدم على الزباء فقبل لها إن قصيراً بالباب فأمرت به فأدخل عليها فإذا هو مجدوع الأنف مضروب الظهر فقالت ما الذي أرى بك ؟ فقال زعم عمرو أنني غررتُ خاله وزينتُ له المسير إليك ومالأتك عليه ففعل بي ما ترين ، فأقبلت إليك وعلمت أنني لا أكون مع أحد أثقل عليه منك .

فأكرمته وأصابته عنده بعض ما أرادت من الحزم والرأي والتجربة فلما عرف أنها اطمأنت إليه ووثقت به قال إن لي بالعراق أموالاً كثيرة وثياباً وعطراً

فابعنيني لأحمل إليك من طرائف العراق وصنوف تجاراته فسرحته ودفعت إليه أموالاً طائلة فأتى الحيرة متنكراً وقال لعمرى جهّزنى بصنوف البز والأمتعة لعل الله يمكنك من الزباء فأعطاه حاجته وكان يعجبها من العراق التمر والصربان فأتاها بصنوف ما تشتهي ثم فعل ذلك ثانية ، وفى الثالثة قال لعمرى جهّز لى ثقة أصحابك وجنودك وهى الغرائر ، وحمل على كل بعير رجلين فى غرارتين وجعل مقعد رءوسهما من داخل وقال لعمرى إذا دخلنا مدينة الزباء أقمتك على باب النفق وخرج الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة فمن قاتلهم قتلوه وإن أقبلت الزباء تريد النفق جللتها بالسيف ، فصار قصير يمشى الليل ويكمن النهار وكانت الزباء قد وشي لها به على ما يقال فجعلت تتطلع أخباره ، ولما صار قصير قريباً من مدينة الزباء تقدم إليها فأعلمها كثرة ما حمل إليها من المتاع وسألها أن تخرج فتنظر وقال لها جئت بما صأى وصمت ، فأرسلها مثلاً ثم خرجت الزباء فأبصرت الإبل تكاد قوائمها تسوخ فى الأرض من ثقل أحمالها ، فقالت :

ما للجمال مَشْيُها وئيدا أجندلاً يَحْمِلْنَ أم حديدا
أم صربانا بارداً شديداً أم الرجال جُئماً قعودا

وقيل إن الشطر الثالث أجابها به قصير ، وقيل إن الشعر كله ليس لها وإنما هو مصنوع ومنسوب إليها ، فلما دخلت الإبل المدينة نخس البواب غرارة على آخرها بمنخسة كانت بيده فأصابته خاصرة رجل فضرط فصاح بالرومية الشر الشر ودل قصير عمراً على باب النفق وخرجت الرجال من الغرائر ووضعوا السلاح فى أهل المدينة وأقبلت الزباء تريد النفق فأبصرت عمراً قائماً على بابه فعرفته بالصورة فَمَصَّتْ خاتماً لها كان فيه سُمٌّ وقالت « بيدي لا بيد عمرو » فذهبت مثلاً ، ثم إن عمراً جللها بالسيف فماتت .

هذا والحكاية مضطربة غاية الاضطراب ، ثم إن عمراً عاد بالسبي إلى بلده ويقال إنه أول سبي قسم فى بلاد العرب من أرض الروم . فكان عمرو هذا من أجَلْ ملوك الحيرة من آل المنذر .

ويقال إن ثلاثة من العرب في الجاهلية قد أدركوا ثأرهم : سيف بن ذى يزن
الجميري وقصير بن سعد اللخمي ويهس الفزاري وسيأتي خبره « إن شاء الله » .

ومما يجدر التنبيه عليه أن قصيراً هذا هو ابن سعد بن لحم وكان أبوه سعد قد
تزوج أمةً لجذيمة فولدت له قصيراً واختلف في اشتقاق تسميته قصيراً .

[وَمَنْ حَمَاهَا كَكَلْبٍ فَلَهُ جَسَّاسٌ رَمَجٌ رَاصِدٌ بِالطَّرِيقِ]

الحماية : المَنَعَةُ والنُّصْرَةُ تقول حميته حمياً وحماية إذا دافعت عنه ونصرته ،
وأحميت المكان جعلته حمى لا يُقَرَّبُ . قال الشاعر :

ونرعى حمى الأقبام غير مُحَرَّمٍ علينا ولا يُرعى حمانا الذى نُحْمِي
والْحَمِيَّةُ كَقَضِيَّةٍ : الْأَثْفَةُ .

والرَّحِمُ الجَسَّاسُ الذى يبحث عن المقاتل حتى يصل إليها وجسَّ الأخبار
وتَجَسَّسَهَا تتبعها ومنه سمي الجاسوس لأنه يتبع الأخبار ويبحث عن بواطن
الأمر .

والرَّصْدُ : القعود على الطريق ونحوه للترقب والانتظار وقد رصده من باب
قتل والرَّصْدُ بالتحريك : القوم يرصدون ، يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر
والمؤنث ، والمرصد موضع الرصد ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ أي
رقيب لا يخفى عليه شيء من أفعالك .

ذكر كُليب وجَسَّاس

أما كليب فهو وائل بن ربيعة بن الحرث بن زهير بن جُشم بن بكر بن
حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل التغلبي ينتهي نسبه إلى ربيعة بن نزار .
وأما جَسَّاسٌ فهو ابن مرة بن ذهل الأصغر بن شيان الأكبر بن ثعلبة بن
عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل وفيه يجتمع نسبه بكليب .

وكان من خبرهما أن كليبا كان قد عز وساد في ربيعة حتى كان يضرب المثل بعزته يقال « أعز من حمى كليب » وقاد معدا كلها يوم خزازى وفضّ جموع اليمن فاجتمعت إليه معدّ كلها وتوجته وأطاعته فداخله عجب كبير فبغى على قومه حتى إنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، ويقول وحش أرض كذا في جوارى فلا يصاد ، ولا يورد أحد مع ورده ولا توقد نار مع نار ولا يُحتبى بمجلسه ولا يتكلّم فيه إلا بإذنه ، وفى ذلك يقول مهمل يرثيه :

نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس
وتكلموا فى أمر كل عزيمة لو كنت شاهد أمرهم لم يتبسوا
فاتفق أن كليبا مر يوما بقبرة وقد باضت فخفقت بجناحيها وصرصرت فقال لها : أمن روعك أنت فى ذمتي ، ثم أنشأ يقول :

يالك من قبرة بمغفر — خلا لك الجو فيضي واصفري
ونقرى ما شئت أن تنقرى

وكانت بنو جشم رهط كليب وبنو شيان رهط جسّاس أخلاطاً فى دار واحدة إرادة الجماعة ومخافة الفرقة وكانت جليلة بنت مرة أخت جسّاس تحت كليب ، فكان من أمر كليب أنه حمى أرضاً فكان لا يرعى فيها إلا إبله وإبل جسّاس للمصاهرة التى بينهما ، ثم إن البسوس بنت منقذ التميمية كان لها جار له ناقة يقال لها سراب كقطام ، والبسوس هذه خالة جسّاس يضرب بها المثل فى الشؤم كما يضرب بالناقة يقال أشأم من سراب وأشأم من البسوس لأنهما كانتا سبب الحرب بين الحثّين ، وذلك أن سراب ذهبت فى إبل جسّاس حتى دخلت الحمى فيقال إنها وطئت بيض القبرة فكسرتة ، ويقال إن كليبا ورد الحمى فرأى سراب فأنكرها إذ لم يكن يعهدا من قبل فسأل عنها فقيل إنها ناقة لجار جسّاس ، فقال أبلغ من أمره أن يجير دون إذنى ؟ فرماها بسهم فأنفذ ضرعها ، وقيل فى سبب رميه لها غير ذلك ، فرجعت الناقة وضرعها يشخب دما ولبنا حتى بركت بفناء صاحبها فصاح واذلاه فلما سمعته البسوس نادى هى الأخرى واذلاه ثم

أنشأت تقول :

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ لما ضيم سعد وهو جار لأبيات
ولكنني أصبحت في دار غربة متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فيا سعد لا تفرر بنفسك وارتحل فإنك في قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادي فإني عنهم لراحلة لا يفقدوني بُنياتي

فلما سمع جسّاس قولها سكنها وقال أيتها الحرة ليعقرن غداً جمل هو أعظم
عقراً من ناقة جارك — يريد بذلك كليباً — فظن أنه يريد فحل إبل كليب الذي
كان يدعى عُليان بضم العين وتشديد الياء فقال كليب : دون عليان خرط القتاد
فصارت مثلاً يضرب للشئ لا يستطيع أحد أن يصل إليه ، ثم إن الحي انتجعوا
فمرت بنو بكر على ماء يقال له شُبَيْب بالتصغير فمنعهم كليب منه فمضوا ثم مروا
على ماء يقال له الأحص فمنعهم منه أيضاً ثم ذهبوا حتى نزلوا ماء يقال له الذنائب
فنزلوا عليه وتبعهم كليب في بني تغلب حتى نزلوا عليه معهم ، فمر جسّاس على
كليب وهو واقف على الماء منفرداً فقال له طردت أهلنا عن المياه حتى كذت
تقتلهم عطشاً ؟ فقال كليب : ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون ، قال
جسّاس هذا كفعلك بناقة جاري فقال كليب أو قد ذكرتها أما والله لو وجدتني في
غير إبل مرة لاستحللت تلك الإبل بها ، فعطف عليه جسّاس فرسه وطعنه بالرمح
فأنفذ حضنيه أي جنبه ووجد كليب طعم الموت فقال يا جسّاس اسقني ماءً فقال
هيئات تجاوزت شُبَيْباً والأحص ، وكان مع جسّاس رجل من عشيرته يقال له
عمرو بن الحرث بن ذهل فقال له كليب يا عمرو أغثني بشربة ماء فنزل عمرو عن
فرسه واحتز رأسه ، فقيل :

المستجيرُ بعمرو عند كُرْبَتِهِ كالمستجير من الرَّمضاء بالنارِ

ومن ذلك اليوم سمي جسّاس بحامي الذمار ومانع الجار ، ثم إن جسّاساً رجع
مسرعاً إلى قومه فقالت أخته لأبيه إن لجسّاس لشأناً فقد جاء خارجة ركبته فقال

أبوه : والله ما خرجت إلا لأمر عظيم فلما انتهى إليه قال يا بني ما خطبك ؟ قال طعنت طعنة لتشغلنَّ عجائز وائل رقصاً . قال أقتلت كلياً ؟ قال نعم ! قال وددت أنك وإخوتك مِتُّم قبل هذا ، ثم نظر جسَّاسٌ إلى أخيه نضلة بن مرة فقال :

وإني قد جئتُ عليك حرباً تُغصُّ الشيخ بالماء القُراح
مذكرةً متى ما يصُحُّ منها فتى نشبت وآخِرُ غير صاخ
فأجابه يقول :

فإنَّ تكُ قد جئتُ عليَّ حرباً فلا وإنَّ ولا رثُ السَّلاح
سألِسُ ثوبها وأذود عني بها عار المذلة والفضاخ

حَرْبُ البَسُوسِ

ثم إنَّ مُرَّةَ بن ذُهَلٍ دعا قومه إلى نصرته فأجابوه وشحدوا السيوف وقوموا الرماح وتهبَّأوا للرحيل إلى جماعة قومهم ، وكان همام بن مرة بن ذهل مضافاً لمهلل أخى كليب فبعث جسَّاس جارية إلى همام تعلمه فسارته الخبر فسأله مهلهل عن الخبر الذى أسرته له الجارية فقال أخبرتنى أن جسَّاساً قتل كُلياً فقال مهلهل كذبت وأقبل على شرابه حتى صرعه الخمر فانسَلَّ همام ولحق بقومه ، فلما أفاق مهلهل اجتمع إليه بنو تغلب فقال لا تعجلوا على قومكم حتى تعذروا بينكم وبينهم فانطلق رهط من أشرافهم حتى أتوا مُرَّةَ بن ذُهَلٍ وهو فى نادي قومه ، فقالوا إنكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كلياً بناقة وقطعتم الرحم وإنا نُعرِضُ عليكم خلالاً أربعاً لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع : إمَّا أن تحيوا لنا كلياً ، وإمَّا أن تدفعوا إلينا جسَّاساً فنقتله به فإنه لم يضحده من قتل قاتله ، وإمَّا أن تدفعوا إلينا هماماً فنقتله به فإنه له كفؤ ، وإمَّا أن تقيدنا من نفسك يا مرة فإنَّ فيك وفاءً لدمه .

فسكت مُرَّةُ فقال له قومه تكلم غير مخذول ، فقال : أما إحياء كُليب فهذا

لا قدرة لأحد به ، وأما جساس فغلام حدث طعن طعنة وركب فرسه فلم أدر
أى قصد قصد ، وأما همام فإنه أبو العشرة وأخو العشرة وعم العشرة وهم فرسان
قومهم فلن يسلموه في جريرة غيره وأما أنا فهل إلا أن تجول الخيل جولة واحدة
فأكون أول قتيل ؟ ولكن لكم عندي خصلتان أما إحداهما فهؤلاء بني الباقون
فخذوا أيهم شئتم بنسعة في رقبتهم فاقتلوه بصاحبكم وأما الأخرى فأنا أدفع إليكم
ألف ناقة سود الحديق حمر الوبر ، فغضب القوم وتفرقوا وقامت بينهم حرب
البسوس المشهورة التي يقال إنها دامت أربعين عاماً فكانت بينهم وقائع يطول
ذكرها أعظمها خمس وهي : يوم غنيزة ويوم واردات ويوم القصيات ويوم فضة
ويسمى يوم تحلاق اللحم ويوم مقتل جساس ، وبعد أن قتل جساس تدانوا
للصلح .

واختلف في مقتل جساس ف قيل مات في ساحة القتال وقيل قتله ابن أخته
جليلة من كليب فكان آخر قتيل من حرب البسوس . قالوا وكان الحارث بن
عباد سيد بكر وفارسها وهو فارس النعامة وكان قد اعتزل الحرب وقال لا ناقة لي
بها ولا جمل فأرسلها مثلاً فقيل له إن مهلهلاً قد كاد يفنى قومك فأرسل إليه
فأرسل إليه ابنته بجيراً أو هو ابن أخته وقال له قل لمهلهل أئى أو خالى يقرئك السلام
ويقول لك قد علمت أني اعتزلت الحرب وخليتك مع قومي تفعل بهم ما تشاء
وقد أدركت وتركت وقتلت قومك أنشدك البقية فيهم ، فأنى بجير حتى وقف على
مهلهل وهو في نادي قومه فبلغه الرسالة فقال من أرسلك يا غلام ؟ وصمد إليه
بالرمح فقال له أحد رجاله الحاضرين إن قوم هذا قد اعتزلوا حربنا ووالله إن قتلته
ليقتلن به رجل لا يسأل عن حاله — روي بالحاء والحاء — فلم يلتفت مهلهل إلى
قول الناهي وقتل الغلام وقال بؤ يشسع نعل كليب ، فقال الغلام إن رضيت بهذا
بنو تغلب رضيت ، فلما بلغ الحارث بن عباد مقتل بجير قال نعم القتل قتيلاً
أصلح بين بكر وتغلب وباء بدم كليب فقيل له إن مهلهلاً لما قتله قال له بؤ يشسع
نعل كليب ، فلم يصدق وأرسل إليه يقول إن كنت قتلت ابني بكليب فقد
رضيت فقال مهلهل إنما قتلته بشسع نعله . فعندها غضب الحارث بن عباد ونادى

بالرحيل في قومه وأنشأ يقول :

قَرَّبَا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي	لَقِحَتْ حَرْبٌ وَائِلٌ عَنْ حِيَالِ
قَرَّبَا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي	إِنَّ بَيْعَ الْحُرِّ بِالشُّعْغِ غَالِي
قَرَّبَا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي	لُبُكَاءِ الشُّيُوخِ وَالْأَطْفَالِ
قَرَّبَا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي	لَحْنِ الْنِسَاءِ وَالْإِغْوَالِ
قَرَّبَا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي	شَابَ رَاسِي وَأُكْرِثُنِي رَجَالِي
قَرَّبَا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي	عَابَسَاتِ يَثْنِ وَثْبِ السَّعَالِ
قَرَّبَا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي	طَ كَلِيبِ تَزَاجَرُوا عَنْ ضَلَالِ
قَرَّبَا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي	لَا بُجِيرٌ أَغْنَى فِتْيَلًا وَلَا رَهْ
قَرَّبَا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي	لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمُ الدَّ
قَرَّبَا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي	هَ وَإِنِّي بِحَرْبِهَا الْيَوْمَ صَالِي

وهي قصيدة تشتمل على نحو مائة بيت كرر فيها « قربا مربط النعامة مني »
في نحو خمسين بيتاً منها ثم شمر لحرب تغلب فألحَّ عليهم حتى أبادهم وفر مهلهل
حتى هلك طريداً شريداً ، وكان أول يوم اشترك فيه الحارث بن عباد هو يوم
فضة يوم تَحْلَاقُ اللَّيْمِ ولم تقم لتغلب بعده راية .

[لَا بُدَّ لِي مِنْهَا وَلَوْ تَخَصَّصْتُ بِالْأَبْلَقِ الْفَرْدِ وَبِالْخَوَزْنَقِ]
[لَا بُدَّ لِي مِنْهَا وَإِنْ عَثَرْتُ فِي ذَيْلِ الْحُسَامِ وَالسِّنَانِ الْأَزْرَقِ]

أَبْدُ : العَرَضُ وقولهم لا بد أي لا فراق ولا محالة ، ولا يستعمل إلا مع أداة
النفي .

والتَّخَصُّصُ : التحرز والامتناع بالحصن وهو بالكسر كل موضع حصين
لا يقدر عليه لارتفاعه .

أصل الذَّيْلُ للشوب يقال ذال الثوب ذيلاً من باب باع طال حتى مسَّ الأرض
ثم أطلق على طرف الثوب الذي يلي الأرض وإن لم يمسه تسمية له بالمصدر ثم
توسع فيه حتى أُطْلِقَ على طرف كل شيء .

وَالْحُسَامُ : السيف-القاطع وحسمت الأمر قطعته ، وحسمت العرق قطعته

ثم كويته بالنار لئلا يسيل دمه ، ، وقوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ ^(١) لأنها حسمت كل خير وقطعت كل بركة والعياذ بالله تعالى .

وسنان الرمح : نَصْلُهُ أي حديدته التي تُرَكَّبُ في رأسه ، والأزرق وصف له أي شديد الصفاء ، ويقال للماء الصافي أزرق .

ذِكْرُ الْأَبْلَقِ وَالْخَوْرَنَقِ

أما الأبلق الفرد فهو حصن قديم بتيماء يضرب به المثل في العزة يقال : « أعز من الأبلق الفرد » ، وهناك حصن آخر يماثله بدومة الجندل يقال له مارد منيع هو الآخر وقد غزتهما الزباء فعمجزت عنهما ف قيل : تمرّد مارد وعز الأبلق ، وهو من أمثال العرب يضرب لمن حاول شيئاً فلم يظفر به ، والأصح أنه بناء عاديّا اليهودي جد السَّمَوَالِ الذي اشتهر بالوفاء وعرف بهذا الحصن وفيه يقول :

بَنِي لِي عَادِيَا حِصْنًا حَصِينًا وَمَاءٌ كُلَّمَا شِئْتُ اسْتَقَيْتُ

قال الجاحظ : قال أبو عبيدة : أَحَبَّتِ الْعَرَبُ أَنْ تَشَارَكَ الْعَجَمُ فِي الْبَنِيَانِ وَيَنْفَرِدُوا بِالشَّعْرِ فَبَنَوْا غُمُدَانَ وَكَعْبَةَ نَجْرَانَ وَمَارِدَ وَالْأَبْلَقَ الْفَرْدَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وَكَانَ مَارِدٌ مَبْنِيًّا مِنْ حِجَارَةِ سُودٍ وَالْأَبْلَقُ بِحِجَارَةِ بَعْضِهَا أَسْوَدُ وَبَعْضُهَا أَبْيَضُ وَمِنْ ذَلِكَ اسْتَقْبَلَتْ اسْمُهُ ، وَقِيلَ أَبْلَقَ لِأَنَّهُ بَنِيَ بِالْحِجَارَةِ السُّودِ وَالْجَيْرِ وَلَمَّا كَانَ يُرَى فِيهِ بَيَاضُ الْجَيْرِ وَسَوَادُ الْحِجَارَةِ قِيلَ لَهُ أَبْلَقَ .

وأما الْخَوْرَنَقُ فهو قصر قديم كان بظاهر الحيرة التي كانت دار ملك اللّخميّين من آل المنذر ، ولفظ الخورنق فارسي مُعَرَّبٌ وأصله خورنكاه .

قال ابن قتيبة : تفسيره الموضع الذي يأكل فيه الملك ويشرب ، وكان الذي بنى هذا القصر النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر اللخمي ملك الحيرة من قَبْلِ الْأَكَاسِرَةِ ، وكان الذي بناه للنعمان رجل يقال له سِنِمَارٌ وهو الذي يضرب به المثل في مجازاة السوء على الإحسان وذلك أنه قيل إنه لما بناه للنعمان في

(١) الحاقة الآية (٧) .

ظرف عشرين عاماً قال له أما والله إني لو أعلم توفوني حقي لجعلته يدور مع الشمس ، قال له النعمان وإنك لتعلم أحسن منه فلم تعمله ؟ ورمى به من فوق القصر ، وقيل إنه قال له أما والله إني لأعلم حجراً لو أُزِيلَ لتداعى القصر ، فقال أما والله لا تدل عليه أحداً ورمى به من فوق القصر « والله تعالى أعلم » .

[فَإِنْ ظَفَرْتُ بِالْمُنَى مِنْ قُرْبِهَا بِالْعُتْ فِي صِيَانَةِ الْعَرَضِ النَّقِيِّ]
[وَإِنْ بَقِيَتْ مِثْلَ مَا كُنْتُ فَلَا زِلْتُ بَغِيضَ مَضْجَعِي وَتُمَرَّقَ]

الظَّفَرُ : بِالتَّحْرِيكِ الفوز بالمطلوب وقد ظفر به كفرح وأظفره الله بِهِ وَظَفَرَهُ تظفيراً ، ورجل مُظْفِرٌ لا يحاول أمراً إلا ظَفَرَ به .

وَالْمُنَى : جمع مُنْيَةٍ بالضم وقد تُكْسَرُ وهي ما يتمناه الإنسان كالأمنية .
وَالْمُبَالِغَةُ فِي الشَّيْءِ : بذل المجهود فيه وقد بالغ مُبَالِغَةً وبلاغاً إذا اجتهد ولم يقصر .

وَالصِّيَانَةُ : الْحِفْظُ وقد صانه صوناً وصياناً وصيانةً والفاعل صائن والمفعول مصون .

وَالْعَرَضُ : بالكسر موضع المدح والذم من الإنسان وذلك النسب والحسب والدين وسائر ما يلحق الإنسان فيه نقص ، يقال فلان نقي العرض أي بريء من أن يُشتم أو يُعاب .

وَالْبَغْضُ : بالضم ضد الحب ، وَالبِغْضَةُ بالكسر والبغضاء شدته ، وَبَغْضَ الرجل بالضم بغاضَةً إذا صار بَغِيضاً .

وَالْمَضْجَعُ : كمقعد مَوْضِعُ الضُّجُوعِ وهو وضع الجنب على الأرض لنوم ونحوه ، وقد ضَجَعَ كنفَعِ ضَجْعاً وَضُجُوعاً فهو ضاجع كاضطجع ، وضجيع المرء الذي يضاجعه في لحاف واحد فهو فَعِيل بمعنى مفاعل كالنديم والجليس بمعنى المُنَادِمِ والمُجَالِسِ .

وَالْتُمَرَّقُ : وِسَادٌ صغير وهو بضم النون والراء وقد تُكْسَرُ وتُفْتَحُ .

[أَشْنُ كُلِّ غَارَةٍ شَعُوا عَلَى مَنْ يَخِمُهَا فِي مِثْقَبٍ وَفَيْلَقٍ]
[وَفِي خَمِيسٍ مِنْ خِيَارٍ يَغْرِبُ ذَوِي رِمَاحٍ وَخِيُولٍ سُبُقٍ]
[مِنْ أُسْرَتِي بَنِي مُلُوكٍ فَهُمْ أَطْوَعُ لِي مِنْ سَاعِدِي وَمِرْفَقٍ]

أَشْنُ : تقول سَنَنْتُ الماءَ على وجهي بالسَّيْنِ المَهْمَلَةِ إذا أُرسلته إرسالاً من غير
تفريق فإذا صَبَبْتَهُ مَفْرَقاً قلتُ شَنَنْتُهُ بالمعجمة ومن ذلك قولهم شَنَّ عَلَيْهِمُ الْغَارَةَ إذا
فَرَقَهَا عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ وَجْهِ .

وَالشَّعْوَاءُ : الفَاشِيَةُ التي تأتي من كلِّ جانب وكلِّ ناحية من قولهم شَجَرَةُ
شَعْوَاءٍ إذا كانت منتشرة الأغصان .

وَالْمِثْقَبُ بالكسر : الجماعة من الخيل تجتمع للغارة ، قال في الصحاح ما بين
الثلاثين إلى الأربعين .

وَالْفَيْلَقُ : الكَتِيبَةُ العَظِيمَةُ وقيل الجيش .

وَالخَمِيسُ : الجيش وسمي بذلك لأنه خَمْسُ فِرَقٍ : المَقْدَمَةُ وَالْقَلْبُ وَالْمِيمَنَةُ
وَالْمِيسِرَةُ وَالسَّاقَةُ . وَيَغْرِبُ : اسم رجل يأتي ذِكْرُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ .

وَأُسْرَةُ الرَّجُلِ : بِالضَّمِّ رَهْطُهُ مَاخُودٌ مِنَ الْأَسْرِ وَهُوَ الشَّدُّ وَالتَّوْثِيقُ لِأَنَّهُ
يَتَقَوَّى بِهِمْ وَيَشْتَدُّ ظَهْرُهُ ، وَمِنَ الْأَسِيرِ لِأَنَّهُ يَرْبُطُ بِالْإِسَارِ وَهُوَ الْقَيْدُ .

وَسَاعِدُ الرَّجُلِ : مَا بَيْنَ الْمِرْفَقِ وَالْمِثْقَبِ وَهُوَ الذِّرَاعُ ، وَأَمَّا الْمِرْفَقُ فَهُوَ
مَفْصَلُ الذِّرَاعِ مِنَ الْعِضْدِ وَهُوَ بَوْزَنٌ مَنْبَرٌ وَكَمْجَلِسٌ .

ذِكْرُ نَسَبِ الْعَرَبِ

اعلم أن العرب ثلاث طبقات : إِرَمٌ ، وَقَحْطَانٌ ، وَعَدْنَانٌ .

أما إِرَمٌ فهو ابن سام بن نوح عليه السلام وتحتَه شعوب هم جُرْهُمُ وعَادُ
وِثْمُودُ وَوِبَارُ وَأُمَيْمٌ وَعُتَيْلٌ وَطَسَمٌ وَجَدِيسٌ وَالْعَمَالِقَةُ ، فَهَؤُلَاءِ يُقَالُ لَهُمُ الْعَرَبُ

العاربة أي الذين انفتقت ألسنتهم بالعربية بادية ذي بدء ، ويقال لهم أيضا العرب البائدة لأنهم بادوا أي انقرضوا في الدهر الأول ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد .

وأما قحطان الذي انتسب إليه النازم حيث قال من خيار يَغْرُب يعني يَغْرُب ابن قحطان فهو عند أكثر المؤرخين قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح عليه السلام ، وقيل ابن عبد الله فهو أخو هود ، وقيل هو هود نفسه ، وقيل عابر هو هود لذا يقال قحطان بن هود .

والذي عليه النسابون من أهل الحديث والمفسرين أن جميع العرب الموجودة من إسماعيل عليه الصلاة والسلام .

قلت : وبهذا القول صدر في عمود النسب العلامة النسابة المحقق وجزم أن العاربة بادوا ولم يبق منهم أحد ، وذلك في نظمه عمود النسب حيث قال « رحمه الله » وهو الشيخ أحمد البدوي المجلسي ثم الشنقيطي :

العرب من أبناء سام : جُرْهُمُ	عَادٌ ثَمُودٌ وَوَبَارٌ مِنْهُمْ
كذا أميمٌ وعُبَيْلٌ طسم	جديسٌ عمليقٌ به يتموا
فهؤلاء العربُ باروا والذبيح	منهم تعربَ على القول الصحيح
وهو أبو قحطان في قول أبي	عنه فقحطان بن هود النبي

الخ

ويؤيد القول الذي صَدَّر به العلامة البدوي الشنقيطي ما ذكره أبو عبد الله القرطبي في تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » حيث يقول في الجزء الثاني صفحة ١٢٦ — عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ ذُرِّيَّتَا أُمَّةٍ مُسْلِمَةٍ لَكَ ﴾ (١) قال : وحكى الطبري أنه أراد بقوله : « وَمِنْ ذُرِّيَّتَا » العرب خاصة . قال السُّهَيْلِي : وذريتهما العرب لأنهم بنو نبت بن إسماعيل أو بنو تيمن بن إسماعيل ويقال قيدير بن

(١) البقرة الآية (١٢٨) .

نبت بن إسماعيل ، أما العدنانية فمن نبت ، وأما القحطانية فمن قيذر بن نبت بن
إسماعيل أو من تيمن على أحد قولين اهـ الغرض منه .

وقال في الرُّوض الأنف : واختلف فيه فقيل : قحطان بن عابر بن شالخ ،
وقيل هو ابن عبد الله أخو هود وقيل هو هود نفسه فهو على هذا القول ابن إرم
ابن سام .

ومن جعل العرب كلها من إسماعيل قالوا فيه : هو ابن تيمن بن قيذر بن
إسماعيل وقيل هو ابن الهميسع بن يمن ، إلى أن قال : واحتجُّوا لهذا القول أعني أن
قحطان من ولد إسماعيل « عليه السلام » بقول النبي « صلى الله عليه وسلم »
« ارموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً » قال هذا القول لقوم من أسلم بن
أفصى ، وأسلم أخو خزاعة وهم بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وهم من
سبأ بن يَشْجُب بن يعرب بن قحطان اهـ . محل الغرض منه .

قلت : والجديد في قمة الصحة لأنه أخرجه البخاري في صحيحه عن سلمة
ابن الأكوع — رضي الله عنه — قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم على نفر من
أسلم يَتَتَضَلُّون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارموا يا بني إسماعيل فإن
أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع بني فلان ، قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مالكم لا ترمون ؟ فقالوا يا رسول الله نرمي
وأنت معهم ؟ قال ارموا وأنا معكم كلكم » . قال في الفتح مجلد ٦ ص ٤١٣
الطبعة السلفية : واحتج به المصنف على أن اليمن من ولد إسماعيل كما سيأتي في
أوائل المناقب مع الكلام عليه . اهـ .

وقال البخاري أيضاً : باب نسبة اليمن إلى إسماعيل .. إلى أن ساق الحديث
المتقدم ، وقال في « الفتح » مجلد ٦ ص ٥٣٧/٥٣٨ : وزعم الزبير بن بَكَار أن
قحطان من ذرية إسماعيل وأنه قحطان بن الهميسع بن تيم بن نبت بن إسماعيل
« عليه السلام » .

وهو ظاهر قول أبي هريرة المتقدم في قصة هاجر حيث قال وهو يخاطب

الأَنْصار « فتلک أُمکم یابنی ماء السماء » .

فهذا الذي يترجح في نظري ، وذلك أن عدد الآباء بين المشهورين من الصحابة وغيرهم وبين قحطان متقارب من عدد الآباء بين المشهورين من الصحابة وغيرهم وبين عدنان ، فلو كان عدنان هو هود أو ابن أخيه أو قريباً من عصره لكان في عداد عاشر جد لعدنان على المشهور أن بين عدنان وإسماعيل أربعة آباء أو خمسة ... إلى أن قال : ومما يستدل به على أن اليمن من ولد إسماعيل قول ابن المنذر بن عمرو بن حرام جد حسان بن ثابت :

وَرِثْنَا مِنَ الْبَهْلُولِ عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ وَحَارِثَةُ الْغَطْرِيفِ مَجْدًا مُؤْتَلَا
مَآثِرَ مَنْ آلَ ابْنِ نَبْتِ بْنِ مَالِكٍ وَنَبْتُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ مَا إِنْ تَحَوَّلَا
وَأَيْضاً فَإِنْ اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخِينَ عَلَى أَنَّ عَاداً مِنَ الْعَرَبِ الْبَائِدَةِ الَّتِي انْقَرَضَتْ فِي
الزَّمَنِ الْأَوَّلِ يَتَنَافَى مَعَ جَعْلِ هَذِهِ الْأُمَمِ مِنْ قَحْطَانَ مِنْ بَقَايَاهُمْ ، فَإِنَّ أُمَّةَ تَرْجِعُ
الْقَبَائِلَ الْيَمَنِيَّةَ إِلَيْهَا نَسَباً دَعَاى بَوَارِهَا هُراء .

فالذى يؤيده العقل في نظري ويؤيده النقل الصحيح أن العرب الموجودة كلها من إسماعيل « عليه السلام » عدنانها وقحطانها « والله تعالى أعلم » .

[سَلَّ ابْنُ خَلْدُونٍ عَلَيْنَا فَلَنَا يَمِينُ مَآثِرٍ لَمْ تُنْحَقِ]
مَآثِرٌ : جَمْعُ مَآثِرَةٍ كَمَكْرَمَةٍ وَزناً وَمَعْنَى سَمِيتَ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تُؤَثِّرُ أَيُّ تُنْقَلُ
وَيُتَحَدَّثُ بِهَا ، وَحَدِيثُ مَآثُورٍ يَنْقُلُهُ خَلْفٌ عَنْ سَلَفٍ ، وَأَثَارَةٌ مِنْ عِلْمٍ بَقِيَتْ مِنْهُ
وَكَذَا الْأَثَرَةُ بِالتَّحْرِيكِ وَمَحَقَ الشَّيْءُ يَحْقُقُهُ مُحَقَّقٌ مِنْ بَابِ نَفَعٍ أَبْطَلَهُ وَشَاهَ حَتَّى لَمْ
يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ « وَاللَّهُ أَعْلَمُ » .

ذِكْرُ بُدَّةٍ عَنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ

أول من ملك اليمن يَغْرُبُ بن قحطان انتزعها من بقية قوم عاد وغيرهم من العرب العاربة الذين هم بنو إرم بن سام ثم توارث الملك بنوه من بعده .

مَلَكٌ بعده ولده يَشْجُبُ بن يعرب ثم ملك بعده ابنه عبد شمس بن يشجب وهو سبأ وسمى سبأ لأنه أول من سنَّ السبي وبني مدينة سبأ وسد مأرب وفجر إليه سبعين نهراً وساق إليه السيول من أمد بعيد ، ثم ملك بعده ابنه حمير بن سبأ وهو الذي رثى أباه بقوله :

عَجِبْتُ لِيَوْمِكَ مَاذَا فَعَلَ وَسُلْطَانِ عِزِّكَ كَيْفَ انْتَقَلَ
فَأَسَلَمْتُ مُلْكَكَ لِي طَائِعاً وَسَلَّمْتُ لِلأَمْرِ الَّذِي قَدْ نَزَلَ

ويعرف حمير هذا بالعَرَنَجَج كسَفَرَجَل ومعناه العتيق وهو أول من تتوج بالذهب من ملوك اليمن .

ثم ملك بعده ابنه وائل بن جَمِيْرٍ وتغلب أخوه مالك بن حمير على عُمان فكانت تدور بينهما حروب .

ثم ملك بعده ابنه السكسك بن وائل فحارب قضاة بن مالك صاحب عمان حتى نفاه عنها .

ثم ملك بعده ابنه يَغْفُرُ بن السَّكْسَكِ وخرجت عليه الخوارج وحاربه مالك
ابن الحاف بن قُضَاعَةَ وطالت الفتنة بينهما إلى أن هلك يَغْفُرُ وخلف زوجته حاملاً
بإبنه النعمان المعروف بالمعافر بن يعفر .

فملك بعده رجل اسمه ذو رياش وطلب زوجةً يَعْفُرُ ففرت منه إلى مغارة فولدت فيها النعمان ثم طلبها فوجدها وَهَمَّ بقتل ولدها فقيل له هذا صبي ولا تخافه فسجنه فمكث مسجوناً حتى شبَّ وَعَقَلَ أمره وعرف محله من قومه أنشأ يقول

مخاطباً نفسه .

إِذَا أَنْتَ عَافَرْتَ الْأُمُورَ بِهَيْمَةٍ بَلَغْتَ مَقَامَ الْأَكْرَمِينَ الْمَقَاوِلَ
فَإِذَا حِمَامَ الْمَوْتِ تَلْقَاهُ عَاجِلًا وَإِذَا ثَرَاثَ الْأَرْضِ عَنْ مَلِكٍ وَائِلَ

وهي قصيدة طويلة وبهذا الشعر سمي المعافر لقوله إذا أنت عافرت
الأمور ... الخ

ويحكى أنه أجابه هاتف يقول :

ألا أيها الراضي بأيسر خطة صبرت على خَسْفٍ من الدُّل نازل
قيامك في الدنيا حياةً لأهلها وصَدُّكَ عنها هبةٌ غير فائل

فأيقن النعمان بالفرج .

فلما كان المساء طرق جماعة من حمير محبس النعمان وكانوا قد سُموا ملك
ذى رياش فأخرجوا النعمان وأدخلوه على ذى رياش فقبض عليه وسَجَنَهُ واستقلَّ
بملكه وتراث أبيه وبقي ذو رياش في السجن حتى سُم الحياة فرأى يوماً حيةً في يد
شخص فمد يده إليها فلسعته فمات .

وعُمرَ المعافر عمراً طويلاً ثم مات ويقال إنه دفن في اسطوانة منحوتة مدرجاً
فيها قائماً و« الله تعالى أعلم » .

ثم ملك بعده ابنه السمع بن المعافر فاضطربت أحوال حمير وصار مُلكُهم
طوائف إلى أن استقر في الحرث الرائش وهو أول التبابعة .

وقيل بل ملك في هذه المدة شَدَّاد بن عاد العاتى وهو شَدَّاد بن عاد بن
الملطاط بن السكسك بن وائل الحميري وهو الذى تنسج العامة عليه الأساطير
المستحيلة عقلاً .

منها أنه بنى مدينة يقال لها إرم ضاهى بها الجنة التى وُعِدَ المتقون وجعل لبنها
من فضةٍ وذهب وأجرى تحتها الأنهار فى قنوات الفضة إلى غير ذلك مما هو
مستحيل عادة وجوده على وجه الأرض .

ويقولون إنه لقوته كان يلوى الحديد بيديه ، والعامة تغلط فى نسبه فيجعلونه
من عاد الذين أهلكوا بالريح العقيم وذلك باطل وإنما هو مَلِكٌ من ملوك حمير
أعطى قوة فى الجسم وفسحة فى العمر وتَمَكَّنَا فى الأرض أكثر من قبله فحصلت
له الشهرة بذلك ونسبت له الناس كل غريب « والله أعلم » .

ثم ملك بعده أخوه لقمان بن عاد وليس لقمان المذكور فى القرآن ولا لقمان

ذى النصور ، أما ذو النصور فهو من عاد إرمَ وكان فى وفد عاد الذين قدموا مكة يستسقون وأما لقمان الذى فى القرآن ذكَّره فقد كان حبشياً فى زمن داود عليه السلام » و« الله تعالى أعلم » .

ثم ملك بعده أخوه ذو سدد بن عاد ويقال إن اسمه ذو مرثد وقيل شديد بن عاد « والله أعلم » . بالصواب .

ثم ملك بعده ابنه الحرب بن ذى سدد ويقال له الرائش وهو أول التبابعة وسمى رائشاً لأنه رائش الناس بالغنائم وقيل راشههم بالعطاء .

ثم ملك بعده ابنه الصعْبُ بن الحرث وقيل إنه هو ذو القرنين المذكور فى القرآن ونقل فى الأصل عن ابن سعيد أن ابن عباس سئل عن ذى القرنين قال هو من حمير « والله تعالى أعلم » .

ثم ملك بعده ابنه أبرهة بن الصعب وهو ذو المنار لأنه هو أول من ضرب المنار على طريقه فى مغازيه ليهتدى بها إذا رجع .

ثم ملك بعده ابنه إفريقش بن أبرهة وهو الذى ساق البربر من كنعان إلى إفريقية بعدما أوقع بهم يوشع بن نون صاحب موسى « عليه السلام » وبه سميت إفريقيا ، ولما سمع كلام البربر ورطانتهم قال ما أكثر بربرتكم فسمُّوا البربر .

والبربرة فى لغة العرب هى اختلاط الأصوات ، ومنها بربرة الأسد .

ثم عمرو بن أبرهة وهو ذو الأذعار ، ثم إن حمير خلعتة وملكت عليها شرحبيل بن عمرو من ولد يعفر بن السكسك فحاربه عمرو ذو الأذعار وحارب ابنه الهدهاد بن شرحبيل وابنته بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل من بعده وهى صاحبه سليمان عليه السلام فصالحته على أن يتزوج بها ثم قتلته غيلة واحتوت على ملكه ثم غلبها نبي الله سليمان عليه السلام على اليمن إلى أن توفى ثم ابنه رَحْبَعُم بن سليمان كذلك .

ثم اجتمعت حمير بعد ذلك على مالك بن عمرو ناشر النعم قيل هو ابن

عمرو ذى الأذعار وقيل هو من ولد يعفر بن السكسك .

ثم ملك بعده ابنه شمير عرش بن ناشر النعم وقيل هو شمير بن إفريقش ،
وخرج نحو العراق ثم توجه يريد الصين فدخل مدينة الصُّعْد وراء النهر فهدمها
فقال العجم شمركند فَعَرَّبَهَا العربُ « سمرقند » .

ثم ملك بعده ابنه زيد بن شمير وهو تُبَّعُ الأقرن لشامة كانت في قرنه ثم ملك
بعده ابنه كلكيكرب بن زيد معديكرب ولم يغز قط إلى أن مات ثم ملك بعده
أبو كريب أسعد بن كلكيكرب وهو تبع الآخر ، وتُبَّعُ لَقَبٌ لِمَنْ مَلَكَ اليمن
وحضرموت ، قيل وهو الذى آمن بالنبى « صلى الله عليه وسلم » ، قبل ظهوره
وهو القائل :

شهدت على أحمد أنه رسول من الله بارى النَّسَمَ
فلو مُدُّ عُمري إلى عُمري لَكُنْتُ وزيراً له وابنَ عَمِّ

وهو أشهر التبابعة وأخباره كثيرة شهيرة

ثم ملك بعده ابنه حسان بن أبى كريب وهو الذى أوقع بجديس وقتل زرقاء
اليمامة ثم قتله أخوه عمرو بن أبى كريب لأنهم سثموا الغزو معه فدخلوا أخاه على
قتله وخالفهم ذو رعين وهو قتل من أقياهم ونهاه فأصر على قتله فكتب ذو رعين
صحيفة وأودعها إياه .

ولما قتل عمرو حسائاً ورجع بحمير إلى اليمن سلط الله عليه السهر حتى
أشرف على الهلاك فدعا العرافين وأصحاب التجربة فقالوا لم يقتل أحدٌ قريه على
الملك إلا سلط الله عليه السهر ولم ينتفع بملكه فجعل يقتل كل من أشار عليه بقتل
أخيه حتى وصل إلى ذي رعين فقال له أحضر الصحيفة التى عندك فإذا فيها :

ألا من يشتري سهراً بنوم سعيد من بيت قرير عَيْنِ
فأما حمير غدرت وخانت فمغذرة إله لذي رعين

فعرف صدقه وعذره .

ثم هلك عمرو بن أمي كريب ومَرَجُ أمرُ اليمن وتفرق ملكهم طوائف في غير بيت الملك وقامت بينهم ثورات إلى أن ارتجع الملك ذو نواس وهو صاحب الأخدود التي أهلك بها أهل نجران ففرّ منهم رجل اسمه دوس بن ثعلبان إلى قيصر الروم وأدلى إليه بالنصرانية واستنصره على ذي نواس فكتب له كتاباً إلى النجاشي بالحبشة فأرسل معه جيشاً قوامه سبعون ألفاً حتى استولى على اليمن وهلك ذو نواس غريقاً في البحر .

واستقرّ ملك الحبشة باليمن نحواً من سبعين عاماً وغزا منهم أبرهة الأشرم مكة المكرمة بالفيل أيام عبد المطلب فأهلكه الله بالطير الأبابيل ولما اشتدّ تَعَسُّفُ الحبشة وسومهم أهل اليمن الحُسُفَ خرج سيف بن ذي يزن وهو رجل من أهل بيت ملك اليمن ، خرج يستنصر ملوك الجهات عليهم فلم يجد أذنّاً صاغية إلا من كسرى أنوشروان ملك الفرس فبعث معه جيشاً من أهل فارس فقتلوا الحبشة في كل وجه وتولى سيف بن ذي يزن على اليمن ومكث في الملك أربع سنين حتى اغتاله جماعة من الحبشة كان اتخذهم خدماً .

وبعده انقرضت دولة حمير وبقي ملك اليمن بيد الفرس إلى أن صَبَّحَهُم الإسلام و« إلى الله عاقبة الأمور » .

واعلم أن الروايات في هذا مضطربة جداً والمدة طويلة وأكثرها غامض تاريخه والعلم عند الله تعالى وهو ولي التوفيق .

ذكر ابن خلدون

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون الحضرمي نسباً .

وكان بيت بني خلدون بإشبيلية وانتقلوا منها إلى تونس في أواسط المائة السابعة للهجرة فولد أبو زيد هذا بها غرة رمضان ٧٣٢ ونشأ بها ثم انتقل إلى فاس فكتب لسلطانها أبي عنان المريني ثم سعي به عنده فاعتقله نحو الستين إلى أن

مات أبو عنان فأطلق سراحه السلطان أبو سالم ثم ولاء خطة المظالم ثم رجع إلى الأندلس بعد موت أبي سالم ولم يزل برهة من الزمن متنقلاً بين الأندلس والمغرب ينتهر الفرص في تولى الخطط لدى هذا ولدى هذا إلى أن استقر به الحال في مصر بعد أن فر من تونس خوفاً من مفتي الجماعة بها وشيخها الشيخ محمد بن عرفة فركب البحر من تونس منتصف شعبان ٧٨٤ ودخل مصر فأقبل عليه سلطانها الملك الظاهر برقوق أول الملوك الجراكسة وولاه قضاء القاهرة ثم عزله بعد مدة ثم حج الفرض ورجع إلى مصر ولم يزل بها يؤلى القضاء حيناً ويُعزل أحياناً إلى أن مات قاضياً بها وكان موته فجأة في رمضان ٨٠٨ هـ .

ومن المعلوم أنه ألف تاريخه المشهور الذي ارتبط ذكره به وهو تاريخ برع في مقدمته في تحليل المجتمع وإن كان التاريخ فيه مافيه .

نرجو الله لنا وإخواننا المسلمين حسن الخاتمة ، وبالله تعالى التوفيق .

[وَسَلِّ سَلِيمَانَ الْكَلاعي كَمْ لَنَا مِنْ خَبَرٍ بِخَيْرٍ وَالْخُنْدَقِ]
[وَيَوْمَ بَذِرٍ وَحُنَيْنٍ وَثُبُو كَ وَالسُّوَيْقِ وَبَنِي الْمُصْطَلِقِ]

مقصود الناظم رحمه الله بهذا الكلام الافتخار بما كان للأنصار رضي الله عنهم من المشاهد العديدة والمقامات الحميدة مع رسول الله « صلى الله عليه وسلم » في مغازيه وفتوحاته صلى الله عليه وسلم لأنهم من الأزد والأزد من كهلان بن سبأ والناظم حميري النسب وحمير وكهلان ترجع إليهما أنساب عرب اليمن فافتخاره بهم من هذا القبيل له وجه « والله أعلم » .

وعَدَدُ مغازيه ﷺ التي خرج فيها بنفسه « بأبي وأمي هو » سبع وعشرون غزوة قاتل بنفسه في تسع منها وهي التي أعز الله بها الدين وأظهر بها الإسلام والمسلمين .

وَفَضَّلُ الأنصار لا يحصى ولا يفي به حصر ويكفي في مدحهم قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (١) وقوله تعالى

(١) الأنفال الآية (٧٢) .

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ^(١) الآية وقوله صلى الله عليه وسلم « الأنصار شِعَارُ والناسِ دِثَارُ » وقوله صلى الله عليه وسلم « حب الأنصار آية الإيمان وبغض الأنصار آية النفاق » أو كما قال « صلى الله عليه وسلم » .

وقوله « صلى الله عليه وسلم » « لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار » وقوله « صلى الله عليه وسلم » فيهم « إنكم لتكثرُونَ عند الجزع وتقلون عند الطمع » إلى غير ذلك مما يطول تتبعه ، وليس بعد ثناء الله تعالى ورسوله ثناء ولا بعد ذكر الله تعالى ورسوله ذكر ، ولقد صدق حسان رضي الله عنه حيث يقول فيهم :

وَكُنَّا مَلُوكَ النَّاسِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ فَلَمَّا أَتَى الْإِسْلَامَ كُنَّا لَنَا الْفَضْلُ
وَأَكْرَمَنَا اللَّهُ الَّذِي لَيْسَ غَيْرُهُ إِلَهًا بِأَيَّامٍ مَضَتْ مَالَهَا شَكْلُ
بَنَصْرَ إِلَهِهِ وَالرَّسُولَ وَدِينَهُ وَأَلْبَسَتْهُ اسْمًا مَضَى مَالَهُ مِثْلُ
أَوْلَئِكَ قَوْمِي خَيْرُ قَوْمٍ بِأَسْرِهِمْ فَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ فَقَوْمِي لَهُ أَهْلُ
حقيق بمن تكون له صلة قرابة ما بالأنصار أن يفتخر بهم ووالله إنا لنفتخر بهم وما تربطنا بهم إلا أخوة الإسلام . اللهم اجمعنا بهم في مُسْتَقَرٍّ رحمتك إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

ذكر أبي الربيع سليمان الكلاعي

هو أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان الكلاعي البلسي الشهير بابن سالم ، ينتمي نسبه إلى ذي الكلاع الحميري .

كان رحمه الله من أكابر العلماء بصُقع الأندلس الشرقى حافظاً للحديث مُبَرِّزاً في نقده تام المعرفة في طُرُقِهِ ضابطاً لأحكام أسانيده كاتباً وأديباً بليغاً .

كان قاضياً ببلنسية فُهِرَ فيها بالعدالة . ولد سنة ٥٦٥ خارج مُرسية ، وله

(١) الحشر الآية (٩) .

تأليف عديدة منها كتاب الاكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء وهو الذى يعنيه الناظم ، ومصباح الظلم في الحديث وله مؤلفات غيره لا تحصى .

مات رحمه الله شهيداً فى وقعة أنيعة على ثلاثة فراسخ من بلنسية ضحى يوم الخميس سنة ٦٣٤ هـ ولم يزل « رحمه الله » متقدماً أمام الصفوف زحفاً إلى الكفار والراية بيده وهو ينادى فى المنهزمين أَمِنْ الْجَنَّةِ تَقْرُونَ ؟ حتى استشهد « رحمه الله وهو أعلم » .

[بِهِمْ فَخَرْتُ ثُمَّ زِدْتُ مَفْخَرًا بِأَدَبِي الْغَضُّ وَحُسْنِ مَنْطِقِي]
[وَزَادَ عَلَيَّ أَدَبِي فَلَنْ تَرَى مِنْ شِعْرِهِ كَشِعْرِي الْمُنْمِقِ]

الفخر بالسكون ويُحرِّك ، والفخار التمدح بالخصال والمناقب من حسب ونسب وغيرهما إما فى المتكلم أو فى آبائه ، وقد فخرت بهم فخراً ومفخراً من باب نفع كافخرت ، وتفاخروا : فخر بعضهم على بعض ، وفاخرني مفاخرة وفخاراً عارضني بالفخر ففخرته من باب نصر أى غلبته .

والأدب : يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل ، والجَمْعُ آداب مثل سبب وأسباب ، والمراد به هنا علوم خاصة تتعلق بلسان العرب ومآثرها وأيامها وما يرجع إلى ذلك .

والغض : الطَّرِيءُ ؛ والتَّئِمُّقُ : التحسين وقد تَمَّقْتُ الشيء تَمِّيقاً : حَسَّنْتُهُ تحسناً قال النابغة :

كَأَنَّ مَجْرَّ الرَّمَامَاتِ ذِيوَهَا عَلَيْهِ جَصِيرٌ تَمَّقَتْهُ الصَّوَانِعُ

[فَإِنْ مَدَحْتُ فَمَدِيحِي يُشْتَفَى بِهِ كَمَثَلِ الْعَسَلِ الْمُرَوِّقِ]
[وَإِنْ هَجَوْتُ فَهَجَائِي كَالشُّجَا يَقِفُ فِي الْحَلْقِ وَمِثْلُ الشَّرِقِ]

المَدْحُ : الثناء على الشيء بما فيه من الصفات الجميلة خَلْقِيَّةٌ كانت أو اختيارية ، والمدح والمِدْحَةُ والأَمْدُوحَةُ ما يُمدَحُ به .

والعسل معروف وهو شفاء قال تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ (١) .

وقد أتى رجل رسول الله ﷺ وقال إن أخي يشتكي بطنه ، قال عليه السلام اسقه عسلاً فرجع إليه ثلاث مرات وفي كلها يقول عليه السلام اسقه عسلاً فقال الرجل لقد سقيته العسل كلما سألتك يا رسول الله ، فقال — صلى الله عليه وسلم — « صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ » ، اسقه عسلاً » فسقاه العسل فبرىء .

وقوله « المروق » : وصف للعسل أى المصفى من راق الماء يروق إذا صفا وروقتة صفته والراؤوق آلة التصفية .

والهَجْوُ والهَجَاء : ثَلْبُ الأعراضِ وذكرُ معائب الناس بالشعر .

والشَّجَا : مقصوراً ما يَنْشِبُ فى الحَلْقِ من عَظْمٍ وغيره ، وقد شجى به كَرَضِي شَجاً ، قال الشاعر :

مَنْ يَكْذِبُنِي بِشَيْءٍ كُنْتُ مِنْهُ كَالشَّجَا بَيْنَ حَلْقِهِ وَالْوَرِيدِ
وَالشَّرْقُ : بالتحريك الغُصَّةُ فى الحَلْقِ ، وقد شَرِقَ بِرِيقِهِ أى غَصَّ به .

[فَإِنْ يَكُ الشَّعْرُ عَصَى غَيْرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي فِي عَيْهَتِي وَحَنَقِ]
[وَإِنْ يَكُنْ سَيْفًا مُحَلًى فَقَدْ أَبْلَى نِجَادَهُ عِنَاقُ عُنُقِي]

العَيْهَةُ : النشاط ؛ والحَنَقُ بالتحريك الغَيْظُ أو شدته ، وقد حَنَقَ عليه حَنَقًا كَفَرِحَ وأَحْنَقَهُ غيره فهو مُحْنَقٌ كَمُكْرَمٍ ، قالت قتيلة .

ما كَانَ ضَرْكُ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّمَا مَنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيظُ الْمُحْنَقُ

والتحلية التزوين بالحلي بفتح فسكون وهو ما يُتَزَيَّنُ به من ذهب وفضة كذا فى الكشاف وقال صاحب القاموس : هو ما يتزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة ، وحلية السيف زينتته ، والحلية أيضاً الصفة وجمعها حُلَى بضم الحاء

(١) النحل الآية (٦٩) .

وكسره مع القصر ؛ وَنَجَادُ السيف حمائله ؛ والعناق بالكسر مصدر عانقه معانقة
وعِناقاً إذا ضَمَّه والتزمه وهو مأخوذ من العُنُق لأن المتعانقين يجعل كل منهما يده
خلف عُنُق الآخر ويضمه إليه ، واعتنقت الأمر أخذته بِجِدٍّ وقوة و « الله
أعلم » .

[وَإِنْ يَكُنْ بُرْدًا فَقَدْ صِرْتُ بِهِ مُعْتَجِرًا دُونَ جَمِيعِ السُّوقِ]
[وَإِنْ يَكُنْ تَاجًا فَقَدْ زَادَ سَنًا جَوْهَرُهُ مِثْلَ حُلٍّ فَوْقَ مَفْرِقِي]

البُردُ : ثوبٌ معروف يجمع في القلعة على أبُرد وأبراد وفي الكثرة على بُرود ،
والبردةُ بالتاء كساء مربع أسود تلبسه الأعراب .

والاعتجَار لف العمامة على الرأس قاله في المصباح وقال غيره الاعتجار
بالعمامة ونحوها أن يلفها على رأسه ويرد طرفيها على وجهه ولا يجعل منها شيئاً
تحت ذقنه .

والسُّوق جمع سُوقَة وهو خلاف الملك من الناس وليس المراد به ماكان من
أهل السوق خاصة بل كل من عدا المَلِك هو سوقة ، قال زهير :

يا حارِ لا أُرْمِيَنَّ مِنْكُمْ بِدَاهِيَةٍ لَمْ يَلْقَهَا سُوقَةٌ قَبْلِي وَلَا مَلِكٌ
ويستوي في لفظه المفرد والمثنى والجمع قالت بنتٌ للنعمان بن المنذر :

فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سُوقَةٌ تُنْصَفُ
أَيِ تُسْتَحْدَمُ ، ولكنه ربما سمع جمعه على سُوْقٍ كما مشى عليه الناظم .

قال زهير :

يَطْلُبُ شَأْوَامْرَأَيْنِ قَدَمَا حَسْبَا نَالَا الْمُلُوكَ وَبَدَأَ هَذِهِ السُّوقَا
والتَّاجُ ، هو للعجم كالعمامة للعرب ولذا قيل العمام تيجان العرب ، وتُؤَجَّ
فلان إذا سُوِّدَ وأُمِّرَ لأنه يَلْبَسُ التَّاجَ حينئذ كما يقال في العربى عُمِّمَ ، قال المتنبي

يمدح سيف الدولة :
وفي صورة الرومي ذي التاج ذلّة لأبلغ^(١) لا تيجان إلا عمائم

والسنا — بالقصر : ضوء البرق أو مطلقاً ، وبالمدة الرفعة والشرف والمراد به
هنا الأول والجوهر ، قال في القاموس : هو كل حجر يستخرج منه شيء ينتفع
به ، قال في الأصل : وقد غلب على الخرز الذي يتكون في جوف الأصداف
البحرية ، قالوا إن مطراً ينزل في بعض أيام السنة فتطفو الأصداف على ثبح البحر
وتفتح أفواهها تعرضاً لذلك الماء فإذا أصابها منه شيء انطبقت عليه ثم غاصت به
إلى قعر البحر فيتكون في بطونها جوهرأ فما كان منه صغيراً فهو اللؤلؤ وما كان
كبيراً فهو الدر ، وإذا أصابت الصدفة قطرة واحدة كبرت وعظمت في جوفها
حتى تكون كأعظم الدر وهي اليتيمة لأنها لا نظير لها ، وإلى هذا المعنى يشير
الشاعر بقوله :

أرى الإحسان عند الحر ديناً وعند النذل منقصةً وذمًا
كما النيسان في الأصداف دُرٌّ وفي بطن الأفاعي صار سُمًا
والمفرق كمجلس ومقعد وسط الراس حيث يفرق الشعر منه ، قال
الأحوص :

فطلّقتها فلست لها بكفؤٍ وإلا يغل مفرك الحسام

[وإن يكن حديقةً فطالما نزهت فيها خاطري وحديقي]

[وإن يكن بخرأ فقد غصت على جوهره وكنت نعم المنتقي]

الحديقة فعيلة بمعنى مفعولة وهي البستان يكون عليه حائط لأن الحائط
أحرق بها أي أحاط ثم توسع فيه في الاستعمال حتى أطلق على الروضة ذات
الشجر ولو كانت غير محاطة .

لطيفة : قال ابن الأنباري : في كلام العرب أشياء تختلف أسماؤها باختلاف

(١) الأبلغ : الأحمق .

أوصافها ، فمن ذلك البستان ، فإنهم لا يقولون له حديقة إلا إذا كان عليه حائط ،
ومأعدّ لتقديم الطعام عليه لا يسمى عندهم مائدة إلا إذا كان عليه الطعام ،
والقدح لا يسمى عندهم كأساً إلا إذا كان فيه شراب .

والبشر لا تسمى رَكِيَّة إلا إذا كان فيها ماء ؛ والدُّلْو لا تسمى سَجَلًا إلا وفيها
ماء ، ولا يقال لها ذنوب إلا إذا كانت ملأى .

والإناء لا يدعى عندهم كوزاً إلا إذا كانت له عُرْوَة

والحل لا يدعى عندهم نادياً إلا وفيه أهله

والسَّرير لا يدعى عندهم أريكة إلا إذا كانت عليه حجلة

والمرأة لا تدعى عندهم ظَعِينَةً إلا مادامت راكبة في الهَوْدَج

والسُّتْر لا يدعى عندهم خِذْرًا إلا إذا اشتمل على امرأة

والقدح لا يسمى سهماً إلا إذا كان له نصل وریش .

والطبق لا يدعى عندهم مِهْدَى بكسر الميم إلا مادامت فيه الهدية .

والشجاع لا يدعى عندهم كَمِيًّا إلا إذا كان شاكي السلاح .

والصوف لا يدعى عندهم عِهْنًا إلا إذا كان مَصْبُوغًا .

والثوب لا يدعى عندهم مِطْرَفًا إلا إذا كان في طَرَفَيْهِ عِلْمَان .

والريق لا يدعى عندهم رُضَابًا إلا مادام في الفم .

والمرأة لا تدعى عندهم عانسًا وعاتقًا إلا مادامت في بيت أبيها

والتَّنْزُهُ : أصله في اللغة التباعد عن المياه والأرياف ، ومنه قولهم فلان يتنزّه عن

الأقذار أى يتباعد عنها قال في القاموس : واستعمال التنزه في الخروج إلى البساتين

والخَضِير . والرياض غلط قبيح . .

وقال ابن قتيبة : ذهب بعض أهل العلم في قول الناس ذهبوا يتنزهون إلى

البساتين أنه غلط وهو عندى ليس بغلط لأن البساتين في كل بلد إنما تكون خارج

البلد فإذا أراد أحد أن يأتيها فقد أراد البعد عن المنازل والبيوت ثم كثر استعماله

حتى استعملت النزهة في الخَضِير والجَنَان .

وقول ابن قتيبة هذا يصحح ماذهب إليه الناظم من إطلاق التنزه في البساتين .

والخاطر : قال صاحب القاموس : الهاجس وجمعه خواطر ، والناظم أراد به الفكر والبال نفسه لأنه محل ذلك الوارد وبه يقوم .
والحدق جمع حدقة وهي العين أو سوادها .

والمنتقى من الانتقاء وهو الاختيار والتنقي التخيير والمنتقى المختار ونقاوة ونقايته بالضم فيهما خياره ، و« الله أعلم » .

[وَهَلْ أَنَا إِلَّا ابْنُ وَثَّانٍ الَّذِي قَرَّبَهُ كَمْ مِنْ أَمِيرٍ مُرْتَقِي]

هل : هنا مستعملة للنفي بمعنى ما ، وكما في قوله تعالى ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَان ﴾ ^(١) وأصل هل أن تكون للاستفهام عن النسبة .

التعريف بابن الوثان ناظم هذه الأرزجوزة

هو الفقيه الأديب أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن الوثان الحميري النسب التواتي الأصل الفاسي الدار والمولد والمنشأ ، كان سلفه بوطن توات — بلد بصحراء المغرب الأقصى — قلت : وهي الآن من أعمال الجزائر .

ويرجع سلف الناظم في نسبه إلى عرب المعقل بالصحراء ، وقد تردد كلام ابن خلدون في نسب هؤلاء هل هم من معقل قضاة وعليه فهم من حمير بناء على أن قضاة من حمير لا من معد ، أو هم من معقل مذحج وعليه فهم من كهلان . وهذا الثاني هو الراجح عنده ، على أنه ذكر أن قبائل أخرى دخلت فيهم وليست منهم ، قلت : رجح العلامة الشيخ أحمد البدوي المجلسي الشنقيطي كون قضاة من حمير حيث يقول في عمود النسب .

أو هو هوذ وجميع العرب بعد لقحطان وعدنان السب قضاة مذذب بينهما فلمعد عند قوم انتمى

(١) الرحمن الآية (٦) .

وهو وبلة ما يقول المزدري قضاة بن مالك بن حمير
وأمه عكبرة على حبل من مالك اتخذت منه بدل

وفي الروض الأنف للحافظ السهيلي فأما قضاة فأكثر النسابين يذهبون إلى
أن قضاة هو ابن معد وهو مذهب الزيريين وابن هشام وقد روى من طريق
هشام بن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه سئل عن قضاة فقال : « هو ابن
معد ، وكان بكره » ، قال أبو عمر : وليس دون هشام بن عروة في هذا الحديث
من يحتج به ، وقد عارضه حديث آخر عن عقبة بن عامر الجهني ، وجهينة هو
ابن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بضم اللام بن الحاف بن قضاة ، أنه قال :
يا رسول الله لمن نحن ؟ فقال : أنتم بنو مالك بن حمير .. إلى أن قال : ولما تعارض
القولان في قضاة وتكافأت الحجج ، نظرنا ، فإذا بعض النسابين وهو الزير بن
بكار ، قد ذكر مايدل على صدق الفريقين ، وذكر ابن الكلبي أو غيره أن امرأة
مالك بن حمير ، واسمها عكبرة ، آمت منه وهي ترضع قضاة ، فتزوجها معد
فهو ربه فتبناه وتكنى به ، ويقال بل ولدته على فراشه فنسب إليه وهو قول
الزير ، ا. هـ محل الحجة منه .

وأما عرب المعقل فإنهم توجد منهم قبائل كبيرة شهيرة في موريتانيا ، منهم
أولاد مبارك في الحوض وأولاد يحيى بن عثمان في المنطقة الشمالية ، وأولاد دليم
بالشمالية أيضاً ، ومنهم الترازة والبراكنة وأولاد بيارى بالمنطقة الغربية الشمالية
ومنهم أولاد داود بأقصى الحوض الشرقي ، إلى غير ذلك .

وقد ذكر لي غير واحد منهم أنهم ينتمون لجعفر بن أبي طالب « والله تعالى
أعلم » .

على أن بهم شيما تدل على عراقية النسب وعلو الهمم ، وإن منهم من تنتهي
إليه إمارة المنطقة التي يقطنها ، علماً بأن القاعدة الفقهية تقول :

« الناس مصدقون في أنسابهم إذا ادعوه وحازوه جوز الإملاك » .

والعلم عند الله تعالى ، ولكن يرد على ذلك افتخار الناظم بالنسب الحميري
كما علمت — .

« رجوع إلى ذكر الناظم » .

قد كان سلف الناظم « رحمه الله » بفاس يدعون أولاد الوئان لا يعرفون إلا بذلك حتى مدح والد الناظم السلطان محمد بن عبد الله بن إسماعيل فكناه بأبي الشمقمق وعلق بهم هذا الاسم واشتهروا بهذه الكنية ، فكان والد الناظم لا يعرف إلا بذلك ؛ ولما نظم هذه الأرجوزة مادحا بها نفس السلطان وتعذر عليه الوصول إليه ، تحين خروجه في بعض الأيام فاعترض موكبه وصعد محلا عاليًا ونادى بأعلى صوته

ياسيدى سبط النبي أبو الشمقمق أبي
فعره الأمير وأمر بإحضاره إليه بعد أن وصل إلى منزله فأنشده الأرجوزة
ووقعت منه موقعها اللازم فقرب منزله وأعلا مكانه وأجزل صلته ، وكان الناظم
شاعراً ماهراً وفحلاً هادراً ، ذا قريحة وقادة ، وذا وجد وإجادة . ومن شعر
الناظم في الترفع عن أخذ الزكاة .

أما الزكاة فإن النفس تأنف أن يُلَوَّثَ الكف من أوساخها قَنَصُ
كأن نسبة أموال البرية لي دون النصاب من الأموال أو وقَصُ
وأكره الدرهم الفضِّي أنظره حتى كأن بياض الفضَّة البرصُ
وقال رحمه الله عن بخل كبراء عصره وأمرائه عن أدباء زمانهم ، وهو معنى

لطيف

قد لاح لي عُذْرُ الكِرام ، فَصَدُّهُمْ عن أَوْجِهِ الشُّعراءِ ليس بَعَارٍ
لم يَسْأَمُوا بَذْلَ النِّوَالِ وإنما جَمَدَ التَّدْيَ لبرودة الأشعارِ
هذا وقد أغنى الناظم الناس عن التعريف به فقال معرفاً نفسه

[أَحَقُّ مَنْ حُلِّيَ بِالْأَسْتَاذِ وَالْشَّيْخِ الْفَقِيهِ الْعَالِمِ الْمُحَقِّقِ]
[وَبِالْمُحَدِّثِ الشَّهِيرِ وَالْأَدِيبِ سِيبِ الْمَجِيدِ وَالْبَلِيعِ الْمُفْلِحِ]
[وَأَعْلَمَ النَّاسِ بِدُونِ مِرْيَةِ سَيَّانٍ مِنْ بَعْرَبٍ وَمَشْرِيقِ]
[بِالشُّعْرِ وَالتَّارِيخِ وَالْأَمْثَالِ وَالْأَنْسَابِ سَلِّ تُصَدِّقِ]

قوله : أحق من حلى : الأحق بالشيء : الأولى به من غيره تقول هو حقيق
بكذا أي : جدير به ، وفي المصباح : قولهم هو أحق بكذا يستعمل بمعنى أحدهما
اختصاصه به من غير مشاركة نحو زيد أحق بماله أي لاحق لغيره فيه والثاني أن
يكون أفعّل تفضيل فيقتضى اشتراكه مع غيره وترجيحه عليه وهو المراد هنا « والله
أعلم » . .

والأستاذ : هو بضم الهمزة وبالذال المعجمة لفظة فارسية عربتها العرب
ومعناها عند الفرس العالم بالشيء الماهر فيه ، نسبه في الأصل للزموري في شرح
لغات الشفاء ، قالوا والسّين والذال المعجمة لا تجتمعان في كلمة عربية ، وقال في
الأصل أيضا : إن أهل الشام والجزيرة يطلقون الأستاذ على الخصي .

والأديب : هو العارف بفن الأدب ، قال ابن خلدون : هذا العلم
لاموضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها وإنما المقصود منه عند أهل اللسان
ثمرته وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب وما يتوقف عليه
ذلك من محفوظ ومفهوم ، قال وإذا أراد أحد حدّ هذا الفن قالوا : الأدب حفظ
أشعار العرب وأخبارها والأخذ في كل علم بطرف ... إلى أن قال : وسمعنا من
شيوخنا في مجالس التعليم أن أركان هذا الفن أربعة دواوين : « أدب الكاتب »
لابن قتيبة ، وكتاب « الكامل للمبرد » والبيان والتبيين للجاحظ ، « والنوادر »
لأبي علي القالي ثم رجع كتاب الأغاني عليها كلها .

قلت : وفي الأغاني من المجنون مالا تسكن له نفس طالب العلم التزيه إذ هو
عبارة عن مدرسة للخلاعة برع صاحبها في جذب القلوب إلى رواجها . ولو اطلع
ابن خلدون على زهر الأفنان من حديقة ابن الونان أو على شرح مقصورة حازم لما
رجح عليهما الأغاني بل ولا كان له وزن في نظري عنده بالنسبة إليهما لما يسلكان
من سبيل النزاهة عن الدعوة للخلاعة علما بأنه لا يسلم مؤلف في علم الأدب من
ذكر طرف وملح في المناسبات قد تصنف من ذلك الصنف وتكون للقارئ من
باب الحمض يحمض بها كالإبل في أكل المرارة و« بالله التوفيق » .

والمفلق : اسم فاعل من أفلق الشاعر إذا أتى بالفلق بكسر الفاء وسكون اللام وهو الأمر العجيب وأصله الداهية قال الجاحظ يقال للشاعر المجيد فحل ولن قوله دونه مفلق ، ثم شاعر ثم شوبع ثم شعور وزاد في القاموس متشاعر .

والمرية الشك ، وسيان بمعنى مثلان أي متساويان تشية سى كمثل وزنا ومعنى والتاريخ ، أصله فارسي معرب أصله بالفارسية ماه روز فماه هو الشهر وروز اليوم ومعناه يوم الشهر وعادتهم أن يقدموا المضاف إليه على المضاف ، ثم إن العرب نقلت لفظ ماه روز إلى مأروخ بصيغة اسم المفعول ثم شددوه وتصرفوا فيه .

والتاريخ فن جليل الفائدة ، لكنه ينبغي لمن اشتغل به أن يتحرى الصدق فيما ينقله وأن ينسب القول في ذلك إلى قائله فعهدته عليه والله ولي التوفيق .

والأمثال : جمع مَثَل وهو القول السائر المشتهر مضربه بمورده ، وهو فن في غاية الشرف لا يتم لغة اللغوى ونحو النحوي ولا أدب الأديب إلا به والجاهل به كأنه لم يتروح رائحة الأدب ولا له مساس بكلام العرب .

ولبعضهم : يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة .

والأنساب : جمع نسب بالتحريك وعلم الأنساب هو علم العرب القديم الذى انصرفت عنايتهم إليه وذلك أن حاجتهم إليه ضرورة لا يمكنهم العيش بدون معرفه أنسابهم والاحتفاء بقومهم وعشائرتهم فكان حفظ النسب عندهم من ضروريات الحياة بخلاف غيرهم من الأمم الذين كانوا يضبطهم الملك وتحميمهم الأسوار فكانوا في غنى عن حفظ النسب والاعتصام به ولذلك لما جاء الإسلام وانتقل العرب إلى القرى والأمصار وضبطتهم الملوك والحكام كغيرهم من الأمم ضاعت أنسابهم ، فقل من تجد منهم اليوم ممن تقادم عهده بالمدن يحفظ نسبه .

تنبيه : اختلف العلماء في رفع الأنساب فكره ذلك مالك بن أنس رحمه الله وكثير من علماء السلف ونقله ابن أوى زيد في الرسالة ، وقالوا من أين يعلم ذلك ؟ وذهب كثير من أئمة المحدثين والفقهاء إلى جواز ذلك محتجين بعمل السلف الصالح وأن الحاجة ماسة إليه في كثير من المسائل الشرعية مثل التعصيب في الإرث والولاية في النكاح والعاقلة في الديات والعلم بنسب رسول الله ﷺ وأنه ، « بأبى وأمى هو » ، القرشى الهاشمى الذى هاجر من مكة إلى المدينة وتوفي بها إلى غير ذلك مما يدعو إلى معرفة الأنساب .

والتحقيق إن شاء الله أن لكل من المذهبين وجهها : فأما الأنساب البعيدة العسيرة المدرك التى لاتنبني عليها ثمرة دينية ولا دنيوية فلاشتغال بها مما لا يغني وعليه يحمل قول مالك ومن وافقه .

وأما الأنساب القريبة التى هى متعلق كثير من الأحكام الشرعية فلا بد من علمها وبالله تعالى التوفيق .

تتمة : لقد مدح الناظم نفسه هنا بما لامزيد عليه ومدح الإنسان نفسه مستهجن شرعاً وطبعاً ، سئل حكيم ما الذى لا يحسن وإن كان حقاً ؟ فقال مدح الإنسان نفسه ، وسأل معاوية « رضى الله عنه » رجلاً : من سيد قومك ؟ فقال أنا سيدهم ، فقال معاوية : لو كنت كذلك لم تقلها .

غير أنه يغتفر للشاعر مالا يغتفر لغيره فيجوز في الشعر مالا يجوز في النثر وهذا من المسلّم به ؛ وقد مدح بعضهم نفسه واعتذر عن ذلك كما يحكى عن الأهوازي أنه قال : أصبحت والله أظرف الناس وأشعر الناس وأكثر الناس أدباً ، فقال أحد اسكت حتى يقولها غيرك ، فقال : أنا منذ ثلاثين عاماً أنتظر الناس أن يقولوا فلم يفعلوا .

ومدح أعرابى نفسه فعوتب فقال : أأكله إليكم ؟ إذا لاتقولوه أبداً .

قال فى الأصل : وهذا لعمرى عذر الناظم فإنه كان رحمه الله نادرة الدهر فى

الشعر والبلاغة والأدب بحيث إن الأيام لم تسمح بمثله منذ عصور ، ومع ذلك فلم يوجد من اعتنى بأخباره ولا بالتعريف به كما ينبغي حتى إننا بحثنا عن مولده ووفاته فلم نظفر بهما فضلاً عما دُونَ ذلك من جمع ديوانه وشرحه وما ذلك إلا لأفول شمس العلم وقصور الهمم وزهد أبناء الزمان في المعارف ومن ينتمي إليها ؛ فهو معذور في مدحه لنفسه على نحو ما يقول ابن الرومي :

وعزیز علی مدحي لنفسی غیر أنا جَشِئْتُهُ لِلدَّلَالَةِ
وهو عیب یکاد یسقط فيه کُلُّ حُرٍّ یريدُ یظهرُ حاله

قُلْتُ : والمصيبة التي أصابت الناظم بالهضم وغمط ما يستحقه لا يسلم منها مغترب ، قال أبو الطيب .

ما هكذا كنت في أهلي وفي وطني إِنَّ النِّفيسَ غريبٌ حيثما كانا

وقضية أهل مصر مع أبي عبد الله بن مرزوق معروفة حيث طلبوا منه أن يفسر لهم بالجامع بالأزهر آية من كتاب الله واتفقوا معه على المرجع فلما جلس على المنبر سَمِعَ القارئ آية غير التي ذكروا له هي قوله تعالى ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ الآية ، فشرع رحمه الله ينفق مما آتاه الله حتى بلغ قوله تعالى ﴿ فَمِثْلَهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ ﴾ الآية شرع يعدد فضائل الكلب وذكر أنه فيه خصلة مذمومة هي كونه ينبع الضيف تعريضا لهم ثم نزل عن المنبر .

[فَبَشِّرْ ذَاكَ الْحَسُودَ أَنَّهُ يظفر في بحر الهجا بالفرق]
[وقل له إذا اشتكى من دنس أُنْتُ الذي سلكت نهج الزلق]
[ووقفت في الجراة خاصي أسد فمت بغيظك وبالريق اشرق]

الحسود صفة مبالغة من الحسد وهو تمنى زوال النعمة عن المحسود واثتقالها إلى الحاسد أو تمنى زوالها فقط ، والحسد مذموم شرعاً وعادة ، والمأذون فيه هو الغبطة وهي أن لا يحب المرء زوال النعمة عن صاحبها ولا يكره وجودها عنده ولكنه يشتهي لنفسه مثلها ، وهذا هو المراد بقوله ﷺ « لا حسد إلا في الثنتين »

الحديث . والظفر بالتحريك تقدم الكلام عليه عند قول الناظم : فإن ظفرت بالمتى من قربها ، والعرق هو بالتحريك مصدر غرق في الماء يغرق كفرح يفرح إذا رسب فيه فهو غرق وغارق ، وحكي عن الخليل أن العرق هو الراسب في الماء من غير موت ، فإن مات غرقاً فهو غريق .

والدَّسُّ : بالتحريك الوسخ بالثوب ونحوه ، وقد دس دنساً من باب فرح فهو دَسٌّ ودَّسَهُ تدنيساً فعل به مايشينه ، ويستعمل في العرض مجازاً .

والنَّهْجُ : بفتح فسكون الطريق الواضح كالمنهج بفتح الميم والمنهاج بكسرها ، وقد نهج الطريق نهجاً وضح واستبان .

قوله : وفقت في الجرأة خاصي أسد : أى تجاوزت وتعديت في الجرأة خاصي الأسد والجرأة : الإقدام ، والخِصاء بالكسر سَلُّ خُصِيَّتِي الحيوان فهو خصي فعيل بمعنى مفعول به ، والغيط الغضب المحيط بالكبر وهو أشد الحق ، وفي التنزيل : « قل موتوا بغيظكم » وهو مصدر غاظه إذا أغضبه ، وفي المصباح : لا يكون الغيط إلا بوصول مكروه إلى المغتاض ، وقد يقام الغيط مقام الغضب فيقال : اغتاض من لا شيء كما يقال غضب من لا شيء .

ذكر خاصي الأسد وما قيل فيه

قال في « مجمع الأمثال » إن حراثاً كان يحرث فأتاه أسد فقال له ما الذى ذلَّ هذا الثور حتى يطيعك قال خصيته ؟ قال وما الخِصاء ؟ قال : ادنُ مني أريكه فدنا الأسد منه منقاداً ليعلم ذلك فشده وثاقاً وخصاه ، فقيل أجراً من خاصي الأسد ، وقال الشيخ اليوسى في « زهر الأكم » : تزعم العرب أن خاصي الأسد كان رجلاً مر به الأسد فوجده يحرث بثورين بادنين فقال له يا حراث ما أسمنَ ثوريكَ فبم أسمتهما ؟ فقال الحراث إني خصيتهما فسمنا فقال الأسد فهل لك أن تخصينى عسى أن أسمنَ سمنهما ؟ قال نعم ، فأمكنه الأسد من نفسه فسطا الحراث عليه وخصاه ، قالوا فمر الأسد ودمه يسيل حتى رقي ربوه فألقى عليها حزيناً ينظر

إلى الحراث فبينما هو كذلك إذا بثعلب مر به فقال له مالي أراك حزينًا يا أبا الحراث ؟ فذكر له ما فعل به الحراث وما دهمه من ألم الخصاص فقال له الثعلب هل لك في أن آتي الحراث وأستدبره عسى أن تمكنني منه فرصة فأخذ لك بالثأر منه ؟ فقال نعم ، فذاك أنى وأمي ، فمضى الثعلب وجعل يراوغ الحراث ويطيف به فتناول الحراث حجراً وقذفه به فدق فخذة فكسرها فأتى الأسد وهو على ثلاث قوائم فأقعى معه على الرابية يشكوان بينهما ما مُنيا به من ذلك الحراث حتى مرت بهما نكرة فقالت لهما مالكما على هذه الحالة ؟ فأخبراهما خبرهما فقالت لهما أنا آتية فأستدبره حتى أدخل في أنفه فجاءت إليه وتغافل الحراث عنها حتى إذا دنت منه قبض عليها وأخذ عوداً فدسه في إستها وأرسلها فجاءت إلى الأسد والثعلب وهي في شر من حالهما ، وقد سدَّ العود دبرها ومنعها وأثقلها عن الطيران ، فبينما هم جلوس على الربوة يتشاكون إذ جاءت امرأة الحراث بطعامه فتقدم الحراث ورفع رجلها لياشرها وهو بمرأى من تلك الحيوانات ، فقال الأسد : ما ترون هذا المشثوم يفعل بتلك المسكينة ؟ والله إني لأظنه يخصيها ، فقال الثعلب ما أظن إلا أنه يكسر فخذها ، فقالت النكرة : لا والله بل يدخل في إستها عوداً .

وقيل في خصي الأسد إنها هي الإصبع التي يفترسُ بها من برائنه « والله تعالى أعلم » .

[وَمَا الَّذِي دَعَاكَ يَا خَبُّ إِلَى ذَا الْأَفْعَوَانِ ذِي اللِّسَانِ الْفَرَقِ]
[نَطَقْتَ بِالزُّورِ أَمَا كُنْتَ تَعِي أَنَّ الْبَلَا مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ]
[وَلَمْ تَخَفْ مِنْ شَاعِرٍ مَهْمَا انْتَضَى سَيْفَ الْهَجَا فَرَى جِبَالَ الْعُنُقِ]

الْحَبُّ : بفتح الخاء المعجمة الخبيث الخداع ، وفي الحديث « المؤمن غرُّ كريمٌ والفاجرُ خُبٌّ لئيمٌ » .

وَالْأَفْعَوَانُ : هو بضم الهمزة والعين ذَكَرُ الْأَفَاعِي كالثعلبان لذكر الثعالب والعقربان لذكر العقارب ، قال الدميري : كنية الأفعوان أبو حيان وأبو يحيى لأنه

يعيش ألف عام ، وهو الشجاع الأسود يواثب الإنسان وهو شر الحيات .
والزُّورُ : الكذب وهو من الازورار الذي هو الانحراف ، وزور فلان كلامه
زخرفه .

والوَعْيُ : الحفظ كأنه مشتق من الوعاء الذي هو الظرف لأن من حفظ
مسألة في ذهنه فكأنه خزنها في وعاء ، وقالت الحكماء إن بالدماع بطناً يسمى
الحافظة هو خزانة المحفوظات .

وانتضى السيف من غمده إذا سلبه منه ؛ وفرى حبال العنق قطعها ، يقال
فريت الأديم إذا قطعت على وجه الإصلاح وأفريته إذا قطعت على وجه الإفساد
وعن الرمحشري يقال أفريت وما فريت يعني أفسدت وما أصلحت .

أَوَّلُ مَنْ قَالَ الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ

أول من قال البلاء موكل بالمنطق هو أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — ،
وذلك لما أمر « صلى الله عليه وسلم » بعرض نفسه على قبائل العرب وخرج معه
أبو بكر — رضي الله عنه — حتى بلغا إلى مجلس من مجالس العرب فتقدم أبو بكر
وكان نسابة فسلم فردوا عليه السلام فقال : ممن القوم ؟ فقالوا من ربيعة ، قال
وأني ربيعة أنتم ؟ من هامت أم من لهازمها ؟ قالوا من هامت العظمى . قال فأني
هامت العظمى أنتم ؟ قالوا ذهل الأكبر ، قال أفمنكم عوف الذي كان يقال
« لَا حُرَّ بِوَادِي عَوْفٍ » ؟ قالوا لا ، قال أفمنكم جساس بن مرة حامي الذمار
ومانع الجار ؟ قالوا لا ، قال أفمنكم بسطام بن قيس ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟
قالوا لا ، قال أفمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟ قالوا لا ، قال أفمنكم
المزدلف صاحب العمامة الفردة ؟ قالوا لا ، قال فأنتم أخوال الملوك من كندة ؟
قالوا لا ، قال فأنتم أصهار الملوك من لحم ؟ قالوا لا ، قال فليسم ذهلاً الأكبر إنما
أنتم ذهل الأصغر . فقام إليه غلام من القوم حين بَقَلَ وجهه وقال :

إن على سائلنا أن نسأله والعبء لا تعرفه أو تحمله

يا هذا إنك قد سألتنا فلم نكتمك فمن الرجل ؟ فقال أبو بكر — رضي الله عنه : من قريش قال بنخ بنخ أهل الشرف والرئاسة فمن أي قريش أنت ؟ قال من تيم بن مرة ، قال الآن أمكنت الرامي من شواء الثغرة ، أفمنكم قصي بن كلاب الذي جمع الله به القبائل من فهر فكان يدعى مجعاً ؟ قال لا ، فمنكم هاشم الذي هشم الغريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف ؟ قال لا ، أفمنكم شيبة الحمد مطعم طير السماء الذي كان وجهه قمر يضيء في الليلة الظلماء الداجية ؟ قال لا ، أفمن المفيضين بالناس أنت ؟ قال لا ، قال أفمن أهل الندوة أنت ؟ قال لا ، أفمن أهل الحجابة أنت ؟ قال لا ، قال أفمن أهل السقاية أنت ؟ قال لا ، واجتذب أبو بكر زمام ناقته ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الغلام :

صَادَفَ ذَرَّةُ السَّيْلِ ذَرَّةً يَذْفَعُهُ يَهِيضُهُ جِيناً وَحِيناً يَصْرَعُهُ

أما والله لو تلبثت لأخبرتكَ أنك من زمعات قريش ، أو ما أنا بدغفل ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لأبي بكر : « لَقَدْ وَقَعْتَ مِنَ الْغُلَامِ عَلَى بَاقِعَةٍ » . قال أجل إن لكل طامة طامة ، وإن البلاء موكَّل بالمنطق .

وقيل إن قائل الكلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا الغلام هو دغفل ابن حنظلة المشهور أسلم وعاش إلى خلافة معاوية — رضي الله عنه — ووفد عليه وأعجب معاوية بعلمه وقال بم أدركت هذا العلم ؟ فقال بلسان سثول وقلب عقول .

قلت : وذكروا أن معاوية — رضي الله عنه — سأله هل أدرك فيمن أدرك عبد المطلب بن هاشم ؟ قال نعم ، قال يرحمك الله كيف أدركته ؟ قال أدركته هشاً بشاً بدر تمام تحفة عشرة بدور ، قال معاوية — رضي الله عنه — : وهل أدركت فيمن أدركت أمية بن عبد شمس ؟ قال نعم ، قال معاوية — رضي الله عنه — : يرحمك الله كيف أدركته ؟ قال أدركته أزيق يقوده عبده ذكوان ،

فتبسم معاوية وقال ويحك ذاك ابنه أبو عمرو ، قال دغفل أنتم تقولون ذلك يا بني
أمية .

وقد أشار إلى هذا العلامة المجلسي الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي بقوله :

ودغفل النسابة السؤل لسانه وقلبه عقول
سأله عن كنه عبد المطلب وعن أمية معاوي فسب
أمية لكونه أزيقاً يقوده ذكوان عبد الحقا
بعُد به والمصطفى نفاه إذ لقريش عقبة نماه
وقال في شية عبد المطلب بدر تحفه بنون كالذهب

وقوله (إذ لقريش عقبة نماه) يشير به إلى ما حصل في عرق الظبية في قفول
رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر حيث إنه لما عرض الأسرى على رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأحد النظر في عقبة بن أبي مُعيط قام عقبة يحرض المهاجرين
على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله أأقتل صبراً بين قريش ؟ بين من أنا إذا ؟
وذلك لظنه أنه من صميم قريش من عبد شمس بن عبد مناف ، فقال النبي صلى
الله عليه وسلم : « حنّ قدح ليس منها إنك من يهود صفورية » أو كما قال صلى
الله عليه وسلم ، وقيل إن الذي قال هذا عمر بن الخطاب ولكن بحضرة النبي صلى
الله عليه وسلم « والله أعلم » .

[فَلْتَنِي نَفْسَكَ بِكَفِّكَ وَلَا تَسْمُ فَصِيحَ التُّطْقِ بِالتَّشْدُقِ]
[فَذَاكَ خَيْرٌ لَّكَ وَاسْتَمِعْ إِلَى نُصْحِ الْحَكِيمِ الْمَاهِرِ الْمُحَقِّقِ]

الوَاقِيَةُ : الحفظ وقد وقاه الله السوء وقاية بالكسر حفظه والوقاء مثل كتاب
كل ما وقيت به شيئاً ، والتشديق بالميم كلمة مولدة وإنما العربية المحضة التشديق
بشد الدال بلا ميم ففي الصحاح وغيره التشديق الذي يلوى شدقه للتفصح .

[فَكُنْ مُهَذَّبَ الطَّبَاعِ حَافِظاً لِحَكَمِ وَأَدَبِ مُفْتَرِقِ]
[وَعَاشِرِ النَّاسِ بِحُسْنِ تَخْلُقِ تُحَمَّدُ عَلَيْهِ زَمَنَ التَّفَرُّقِ]

التَّهْذِيبُ : التنقية والإصلاح تقول هذبت النخلة إذا نقيت عنها الليف ،
ورجل مهذب منقح الأخلاق ، قال نابغة ذبيان :

ولست بمستبقي أخا لاتلمه على شعث أى الرجال المهذب ؟
والطباع بالكسر السُّجِّية التي جبل عليها الإنسان وهو لفظ مفرد يجمع على
طُبِعَ ككتاب وكتب ، وليس الطباع جمعاً لطبع كما يتوهم .

[وَلَا تُصَاحِبْ مَنْ يَرَى لِنَفْسِهِ فَضْلًا بِلَا فَضْلٍ وَغَيْرَ الْمُتَّقِي]
[وَكُلُّ مَنْ لَيْسَ لَهُ عَلَيْكَ مِنْ فَضْلٍ فَلَا تُطِمْغُهُ بِالتَّمْلُقِ]

معنى البيتين معروف ظاهر ، والأول منهما يشير إلى المثل المشهور
« ولا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له » وفي مثل هذا يقول
الشاعر جحظة البرمكي :

تَذَلُّ لِمَنْ إِنْ تَذَلَّتْ لَهُ يَرَى ذَاكَ لِلْفَضْلِ لَا لِلْبَلَاءِ
وَجَانِبَ صَدَاقَةٍ مَنْ لَمْ يَزَلْ عَلَى الْأَصْدِقَاءِ يَرَى الْفَضْلَ لَهُ

والتواضع محمودة وهو أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس ولا تذلل ،
بل الحمود عند الله العدل وهو أن يعطي كل ذي حق حقه في تواضع وعزة نفس
والله الموفق .

[وَفَوْقَ سَهْمِ الثَّمِيرِيِّ لِمَنْ لَطَرِقَ الْعَلِيَاءِ لَمْ يُوفَّقِ]

فَوْقَ السهم تفويقاً إذا جعل له فوقاً وهو الحزُّ الذي يجعل فيه الوتر ، وإذا
وضعت السهم فيه لرمي قلت أفقته إفاقةً ؛ وأما السهم فهو واحد النبل وقيل
السهم نفس النصل ، والتميري يأتي خبره .

والعلياء فعلاء من العلو وهي في الأصل وصف للمنزلة العالية حساً أو معنى
ثم كثر استعمالها في الخصلة المحمودة حتى التحقت بالأسماء .

ومعنى البيت الحث على علو الهمة والترفع عن سفاسف الأمور .

ذكر سهم التميري

التميري هذا الذي يُنسَبُ إليه هذا السهم الذي يضرب به المثل هو أبو حية الهيثم بن الربيع بن زرارة من بني نمير بن عامر بن صعصعة ، وهو شاعر مشهور كان من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية .

وكان من خبره أنه لكذبه ادعى يوماً أنه رمى ظبيًا بسهم فراغ الظبي عن السهم فعارضه السهم ثم راغ فعارضه فمازال يروغ ويغارضه السهم حتى أصابه .

ويحكى : أنه قال إنه رمى ظبية بسهم ثم تذكر بالظبية حبيبة له فعدا خلف السهم حتى أخذه وقبض على قذذه قبل أن يدرك الظبية ، فصار مضرباً للأمثال لدى الشعراء ، وممن ضرب به المثل « ابن نباتة » حيث يقول :

وبديع الجمال لم ير طرفي مثل أعطافه ولا طرف غيري
كلما جذت عن هواه أتاني سهم أفاظه كسهم التميري
وأبو حية هذا مشهور بالكذب والجبن وله نوادر كثيرة في ذلك مسطورة في الأغاني .

[وَافْعَلْ بِمَنْ تَرْتَابُ مِنْهُ مِثْلَ فَعْدٍ لِي الْمُتَلَمَّسِ اللَّيْبِ الْحَذِقِ]
[أَلْقَى الصُّحُفَةَ بِنَهْرٍ حَيْرَةٍ وَقَالَ يَا ابْنَ هِنْدٍ ارْعُدْ وَازْبُدْ]

الارتياب : الشك والتهمة فإذا قلت ارتبت فيه فمعناه شككت وإذا قلت ارتبت منه فمعناه اتهمته أو تخوفت منه وهو المراد هنا .

والليب العاقل وجمعه ألباء وهو من اللب بالضم وهو العقل وأصله الكامل من كل شيء ، وقد لبنت بالكسر ثلبُ لبابة أي صيرت ذا لب .
والحاذق : الماهر ، وقد حذق الصبي القرآن : مهر فيه .

الصحيفة الكتاب والجمع صحائف وصُحف ؛ والحيرة بلد معروف .

وأرعد الرجل وأبرق إذا أوعد وتهدد ، قال ابن أحر :

يا جل ما بُعدت عليك بلادنا وطلابنا فابرق بأرضك وارعد

ذكر الحيرة وما قيل فيها

الحيرة بالكسر : بلد قريب من الكوفة والنسب إليها حيري على القياس وسمع حَارِيٍّ على غير قياس وهي غير دأخلة في حكم السواد لأن خالد بن الوليد فتحها صلحاً في زمان أبي بكر الصديق — رضي الله عنه — ثم كان فتح السواد في زمان عمر — رضي الله عنه — ، والحيرة كانت في الجاهلية دار ملك اللخمين من آل المنذر .

وقيل سميت بالحيرة لأن أبا كريب أخذ التبابعة كان قد غزا المشرق فمر بأرض الحيرة فتحير عسكره هناك فخلف فيها قوماً من الأزد ولحم وجدام وعاملة وقضاة .

ذكر المتلمس وصحيفته

أما المتلمس فهو جرير بن عبد المسيح بن عبد الله بن زيد بن دوقل بن حرب ابن وهب بن جلي بن أحمر بن ضبيعة وهو الأضجم بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان الضبعي ، وإنما سمي بالمتلمس باسم الفاعل لقوله من قصيدة :

فهذا أوان العرض طن ذبابه زبايره والأزرق المتلمس

وهو من ضبيعة أضجم كما ذكرنا ، وأما صاحبه وابن أخته طرفة بن العبد فهو من ضبيعة قيس وكان المتلمس قد نشأ في أخواله من بني يشكر ويقال إنه ولد فيهم وساكنهم حتى كادوا يغلبون على نسبه ، وهو أحد الثلاثة المقلين الذين اتفق العلماء بالشعر على أنه أشعرهم : المتلمس والمسيب بن علس والحسين بن

الحِمام ، وقال ابن فضل الله في حقه : هو رجل نبه الذكر معروف بصحة الفكر وهو الذى يضرب المثل بصحيفته ، ومن جيد شعره قوله :

ألم تر أن المرء رهن مَنِيَّةٍ صريعاً لعافي الطير أو سوف يُرْمَسُ
فلا تقبلن ضيماً حذار مَنِيَّةٍ وموتنُ بها حُرّاً وجلدك أملس
فمن حَذَرِ الأوتار ما حَزَّ أنْفَهُ قَصِيرٌ وخاضَ الموت بالسَّيْفِ بَيَّهَسُ
ومن جيد شعره أيضاً قوله :

إلى كل قوم سُلِّمَ يرتقى به وليس إلينا في السلام مَطْلَعُ
ويَهْرُبُ منا كل وحش وينتمى إلى وحشنا وحش البلاد فيرْتَعُ
ومن جيد شعره أيضاً قوله :

لحفظُ المالِ خيرٌ من ضياعٍ وسيَّر في البلاد بغير زادٍ
قليلُ المالِ تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد
إلى غير ذلك مما يطول ذكره .

وأما الصحيفة فكان من حديثها ما حكاه المفضل الضبي وغيره قال إن عمرو بن هند وعمرو بن المنذر بن ماء السماء ، وماء السماء أمه ، وفي زمنه ولد النبي صلى الله عليه وسلم كان يرشح أخاه قابوس ابن المنذر ليملك بعده .

وهما معاً لهند بنت الحرث بن عمرو المقصور بن حجر آكل المرار ملك كندة فوفد عليه المتلمس وابن أخته طرفة بن العبد فجعلهما في صحبة قابوس وأمرهما بلزومه وكان قابوس شاباً يعجبه اللهو وكان يركب يوماً للصيد فيركض ويتصيد وهما معه يركضان حتى يرجعا عشية ثم يكون قابوس في الغد في الشراب فيقفان بباب سرادقه إلى العشي فكان ذلك دأبهما معه حتى كان قابوس يوماً على الشراب فوقفا ببابه النهار كله ولم يصلا إليه فضجر طرفة وقال :

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوئاً حول قُبْتِنَا تَخُورُ

من الزمرات أسبل قادماها وضرتها مكنسة تدور
 يشاركنا لنا رخلان فيها وتعلوها الكباش فما تنور
 لعمرك إن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كبير
 فسمت الدهر في زمن رخي كذاك الدهر يقصد أو يجور
 لنا يوم وللكروان يوم تطير البائسات ولا نطير
 فأما يومهن فيوم نحس تطاردهن بالحرب الصقور
 وأما يومنا فتظل ركبا وقوفا ما نجل ولا نسير

ومعنى الأبيات ليت لنا بدل هذا الملك شاة قليلة الصوف ضعيفة الحركة
 يرضعها ولدان حتى لا يكون فيها خير .

وكان عبد عمرو بن بشر ابن عم طرفة بن العبد وزوج أخته ، كان من
 سادات زمانه ومن أكرم الناس على عمرو بن هند ، فشكت أخت طرفة إليه يوماً
 شيئاً من أمر زوجها عبد عمرو فعابه طرفة ووصفه في شعره وكان سميناً بادناً
 فقال :

فيا عجباً من عبد عمرو وبغيه لقد رام ظلمي عبد عمرو فأنعما^(١)
 ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كشحاً إذا قام أهضما^(٢)
 تظل نساء الحي يعكفن حوله يقلن عسيب^(٣) من سرارة ملهما^(٤)
 له شربتان بالعشي وأربع من الليل حتى ءاض سُخْداً^(٥) مورماً
 ويشرب حتى يغمر المحض قلبه وإن أعطه أترك لقلبي مَجْثِماً

ثم إن عمرو بن هند خرج يوماً إلى الصيد ومعه عبد عمرو فرمى الملك حمراً
 فعقره وقال لعبد عمرو انزل فاذبجه فنزل فعالجه فأعياه فضحك منه عمرو بن هند

(١) أنعم : بالغ .

(٢) أهضم : وصف للكشح أى لطيف .

(٣) عسيب : جريدة النخل المستقيمة .

(٤) ملهم : قرية بالجماعة كثيرة النخل .

(٥) السُخْد : بالضم الورم ، وقيل هو المشيمة .

وقال كأن ابن عمك طرفة قد راک حين قال : وأن له كشحاً إذا قام أهضما ،
ويقال إنه دخل معه الحمام وتجرد فرأى كشحه فقال له ذلك ، فأنف عبد عمرو
وقال أبيت اللعن ما قال فيك أقبح قال فما قال ؟ فأنشده : ليت لنا مكان الملك
عمرو : الأبيات ، فقال عمرو ما أصدّقك عليه ، وقد صدقه في باطنه ولكنه
خاف أن تدركه الرحم فينذره ، فمكث غير كثير ثم دعا المتلمس وطرفة لأنه
خاف إن مكر بطرفة أن يهجو المتلمس ، فقال لهما لعلكما اشتقتما إلى أهلكما
ويسركما أن تنصرفا ، قالا نعم فكتب لهما إلى أبي كرب عامله بهجر أن يقتلهما
وأخبرهما أنه كتب لهما بصلة ومعروف وأعطى كل واحد منهما شيئاً ، فخرجا
وكان المتلمس قد أسنّ فلما مرّا بنهر الحيرة على غلمان يلعبون قال المتلمس لطرفة
هل لك أن نستقري ما في كتابنا ؟ فإن كان فيهما خير مضينا له وإن كان شراً
اتقينا فأمي طرفة عليه ، فأعطى المتلمس كتابه بعض الغلمان فقرأه عليه ، فقال
الغلام : ثكلت المتلمس أمه فيقال إنه اكتفى منه بذلك وانتزعها منه ووضعها في
النهر ثم قال لطرفة تعلّم والله أن الذي في كتابك لمثل الذي في كتابي فقال طرفة
لئن اجتراً عليك ما كان ليجتري علي وأنى أن يطيعه ، ومر المتلمس من فوره
حتى لحق بملوك غسان من آل جفنة بالشام ، وقال في ذلك أشعاراً منها قوله :
إذا جاوزت من ذات عرق ثنيةً فقل لأبي قابوس ما شئت فارعد

وقال أيضاً في أبيات :

وإذا حللت ودون بيتي غارةً فابرق بأرضك ما بدا لك وارعد

وهو معنى قول الناظم : يا ابن هند ارعد وأبرق :

ولما وصل خبر فراره إلى عمرو بن هند ولحاقه بآل جفنة أقسم أن لا يصل

إليه من حب العراق شيء ، فقال المتلمس في ذلك :

آليت حبّ العراق الدهر أطعمه والحبّ يأكله في القرية السوس
أغنيت شأني فأغنوا اليوم شأنكم وألحفوا في مراس الحرب أو كيسوا

وقال المتلمس في نصحه لطرفة وعدم قبول طرفة منه :

مَنْ مُبْلِغُ الشَّعْرَاءِ عَنْ أَخْوَبِهِمْ نَبَأٌ فَتَصَدَّقَهُمْ بِذَاكَ الْأَنْفُسُ
أَوْدَى الَّذِي عُلِقَ الصَّحِيفَةُ مِنْهَا وَنَجَا حَذَا رَحْبَائِهِ الْمُتَلَمَّسُ
وَلَقَدْ نَصَحْتُ لَهُ فَرَدَ نَصِيحَتِي وَجَرَتْ لَهُ بَعْدَ السَّعَادَةِ أَنْحُسُ

وقيل في خبر الصحيفة غير ذلك ، وهلك المتلمس في الجاهلية .

وقع ذكر صحيفة المتلمس في الحديث في سنن أبي داود في آخر كتاب الزكاة وذلك أن عيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس التميمي قدما على النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه فأمرهما صلى الله عليه وسلم بما سألا وأمر معاوية فكتب لهما بذلك ، فأما الأقرع فأدخل كتابه فلفه في عمامته وانطلق وأما عيينة فأخذ كتابه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم مكانه وقال يا محمد أتراني حاملاً إلى قومي كتاباً لا أدري ما فيه كصحيفة المتلمس فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار ، قالوا يا رسول الله وما يغنيه ؟ قال قدر ما يغديه أو يعشيه » ، « والله أعلم » .

[وَلَا تَعِدْ بِوَعْدِ عُرْقُوبٍ أَخَا وَفَةٍ وَفَا السَّمَوَاتِ بِالْأَبْلَقِ]
[شَحٌّ بِأَذْرَجِ امْرِئِ الْقَيْسِ وَقَدْ تَرَكَ نَجْلَهُ غَسِيلَ الْعَلَقِ]

الوعد يستعمل في الخير والشر قال الفراء يقال وعدته خيراً ووعدته شراً ، فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا في الخير الوعد والعدة وفي الشر الإيعاد والوعيد قال عامر بن الطفيل :

وإني وإن أوعدته أو وعدته تخلف إيعادي ومنجز موعدي

وعرقوب بضم العين يأتي خبره إن شاء الله ، والوفاء ضد الغدر يقال وفا بعهده وأوفى به ثلاثياً ورباعياً ، وقد جمع الشاعر بينهما فقال :

أما ابن طوق فقد أوفى بدمته كما وفي بقلاص النجم حاديا

والوصف منه وَفِيَّ والجمع أوفياء مثل غني وأغنياء .

والسَّمَوَال يأتي خبره بإذن الله ، والأبْلَق هو الأبلق الفرد الذي تقدم ذكره
والشُّح بثلاث الشين المعجمة : البخل مع حرص وشح يشح كبخل يبخل وزناً
ومعنى وفي لغة من بالي قتل ونصر فهو شحيح وشحاح وقوم أشحة وأشحاء ،
وتشاحوا إذا شح بعضهم على بعض .

والأدرع بالبدال المهملة جمع درع بكسر فسكون هو الآلة التي تلبس في
الحرب من الحديد وهي مؤنثة وقد تذكر وتُصَغَّرُ على دُرَيْعٍ شذوذاً وتجمع على
أدرع في القلة وأدرع وفي الكثرة على دروع ، وأما درع المرأة وهو قميصها
فمذكر والنجل : الولد وهي في الأصل مصدر نجله أبوه إذا ولده ، قال الأعشى :

أُنْجِبَ أَيَّامَ والداه به إذ نجلاه فَنِعَمَ ما نَجَلَا

والعلق بالتحريك : الدم عامة وقيل الشديد الحمرة وقيل الغليظ المتجمد
واحد علقه ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا الْمُنْثَنَةَ عَلَقَةً ﴾ ^(١) أي دماً غليظاً
متجمداً « والله تعالى أعلم » .

والبيتان يرميان إلى الحث على الصدق وتجنب الكذب والغدر ، واتمسك
بالوفاء بالعهد وصدق الوعد ، وهذا مطلوب من أكل أحد .

ذكر عرقوب ووعده المكذوب

اختلف في عرقوب هذا ممن كان ، قيل كان رجلاً من أهل خيبر وقيل كان
من الأوس ، وقيل هو عرقوب بن سعد بن زيد مناة بن تميم وبنو سعد يقولون هو
منا ، والصحيح أنه من عمالقة الحجاز من بني عبد شمس بن ثعلبة منهم ، وهو
عرقوب بن صخر وقيل بن سعد بن أسد أكذب أهل زمانه .

أتاه أخ له يسأله تمراً فوعده ثم نخلة من نخله وقال له إذا طلع النخل فأتني ،

(١) الحج الآية (٥) .

فلما طلع قال إذا أبلح ، فلما أبلح قال إذا أزهى فلما أزهى قال إذا أرطب فلما
أرطب قال إذا صار تمرأ ، فلما صار تمرأ جذه ليلأ ولم يعطه فضربت العرب المثل
به في إخلاف الوعد والكذب قالوا أخلف من عرقوب ، وأكذب من عرقوب ،
قال المتلمس يهجو عمرو بن هند :

فطردتني حذر الهجاء ولا واللات والأنصاب لا تمل
أدنى الملوك وشرهم حسبأ في الناس من عرفتوا ومن جهلوا
من كان تخلف الوعد شيمته والقدر عرقوب له مثل
وقال آخر :

وأكذب من عرقوب يثرب لهجة وأبين شوما في الحوائج من زحل
وقال آخر :
وعدت وكان الخلف منك سجية مواعيد عرقوب أخاه يثرب
والشعر في هذا كثير .

ذكر السموأل ووفائه

هو السموأل بن عاديا قيل نسبه في غسان وقيل هو من بني الكاهن بن
هارون بن عمران عليه السلام وإنما كانت أمه غسانية ، وكان الأبلق الفرد لجده
عاديا واحتفر فيه بئراً عذبةً ، وقد ذكرته الشعراء ، وكانت العرب تنزل به
فيضيئها وتمتار من حصنه وتقيم هناك سوقاً كما في الأغاني .

وقيل إن الذي بناه عاديا ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك والاستشهاد عليه
ببيت السموأل كما سبقت الإشارة إلى أن الزباء غزته كما غزت مارد وقالت عز
الأبلق وتمرد مارد ، ولا يخفى ما في ذلك من التعارض لما بين زمن الزباء وزمن
عاديا .

والذي يجمع بين القولين أن الأبلق بناه سليمان بن داود « عليه السلام »

ولكن عاديا أصلح فيه بعض الإصلاحات وأدخله بعض التحسينات أو ما أشبه ذلك « والله أعلم » .

وأما وفاؤه الذي يضرب به المثل فكان من حديثه أن امرأ القيس بن حُجر ابن الحرث بن عمرو المقصور بن حجر الأكبر وهو آكل المزار الكندي كان والده ملكاً على بني أسد بن خزيمه وغطفان فعدوا عليه فقتلوه واتصل مقتله بابنه امرئ القيس الشاعر وهو باليمن لأن والده طرده آنفاً من قوله الشعر والغزل فشرع للأخذ بثأر أبيه وسار إلى بكر وتغلب يستنصرهم وساروا معه حتى أوقع ببني كنانة يظنهم بني أسد فكره من كان معه ذلك وتفرقوا عنه حتى بقي في نفر يسير ، وألح المنذر بن ماء السماء في طلبه وكان عدواً لأسلافه فصار يستجير بأشراف العرب فجاء إلى عمرو بن جابر الفزاري فطلب منه الجوار حتى يرى ذات غيبة ، فقال له يا ابن حُجر إني أراك في خلل من قومك وبينك وبين اليمن ذؤبان قيس ، وأهل البادية أهل وبرليست لهم حصون تمنعهم أفلا أدلك على رجل من شأنه كيت وكيت ؟ فذكر له السموأل وحسن جواره وحصنه فدله عليه وعلى من أوصله إليه ، وكان مع امرئ القيس دروع لأبيه كان الملوك من بني آكل المزار يتوارثونها ومعه أيضاً بنته هند وابن عمه يزيد بن الحرث بن معاوية ، فعرف السموأل لهم حقهم وبني للمرأة قبة من آدم وأنزل الرجال في مجلس له براح ، فكان عنده ما شاء الله ثم إنه طلب إليه أن يكتب إلى الحرث بن أبي شمر الغسانی بالشام ليوصله إلى قيصر ففعل واستصحب معه رجلاً يدلّه على الطريق وأودع بنته وماله وأدرعه السموأل وخلف ابن عمه يزيد بن الحرث مع ابنته هند ومضى حتى انتهى إلى قيصر فقبِلَهُ وأكرمه وضم إليه جيشاً كثيفاً فيه جماعة من أبناء الملوك يتوصل به إلى ملك أبيه ، ثم إن الطمّاح الأسدي أفسد عليه أمره حيث سعى به عند الملك بما كان سبباً في هلاكه في خبر يطول ذكره .

وكان المنذر بن ماء السماء قد وجه الحارث بن ظالم المري إلى السموأل ليأتيه بمال امرئ القيس وأدراعه ، وقيل إن الذي طالب بأدراع امرئ القيس هو الحرث

ابن أبي همر الغساني وأنه جاء بنفسه إلى السموأل ، فامتنع السموأل من إعطاء الأذراع والمال وتحصن بحصونه وكان له ابن قد يقع فخرج إلى القنص فلما رجع أخذه أحد الحارثين ثم قال للسموأل أتعرف هذا ؟ قال نعم هو ابني ، فقال إنما أن تسلم ما قبلك وإنما أن أقتله ، فقال شأئك به فإني لا أخفي ذمتي ولا أسلم مال جاري ، ف ضرب الحرث وسط الغلام فسقط نصفين وهو ينظر ثم انصرف عنه ، ثم إن السموأل وافى الموسم بما كان معه من الدروع والمال فأسلمه إلى ورثة امرئ القيس ، وقال في ذلك .

وفيت بأذرع الكندي إني إذا ما خان أقوامَ وفيت
وأوصى عاديا يوماً بأن لا تهلم باسموأل ما بهيت
وقالوا إنه كنز عظيم ولا والله أغدر ما حيث
بني لي عاديا حصناً حصيناً وماء كلما شئت استقيت

[وَمِثْلُ جَارٍ لِأَبِي دُوَادَ لَا تَطْمَعُ بِهِ إِنْ لَمْ تُكُنْ بِالْأَحْمَقِ]
[وَاحْمَدُ جَلِيساً لَا تَخَافُ شَرَّهُ وَكَأَنَّ شُورَ لَنْ تَرَى مِنْ مُطْرِقِ]

معنى البيتين أن هذا الزمان قد كثر شره وقل خيره وبنوه مثله فإذا ظفرت بجليس يكف عنك الأذى فاحمده وأشدد يدك عليه ، وأين هو اليوم ؟ فأما طمعك أن تجد جاراً مثل أبي دواد أو ترى جليساً مثل ابن شور فهو من المحال فلا تشغل به بالك يوماً من الأيام .

الجار : يطلق ويراد به المجير الذي يجير غيره أي يؤمنه مما يخافه ، وأبو دواد رجل يأتي خبره إن شاء الله .

والحمق فساد العقل قاله الأزهرى ، وحيق يحمق فهو حيق من باب تعب ، وحمق بالضم فهو أحمق والأنثى حمقاء ، والحماقة اسم منه .

والجليس : المجالس كالنديم بمعنى المنادم والكليم بمعنى المكالم ، وابن شور

يأتي خبره بإذن الله ، وأطرق الرجل إذا سكت فلم يتكلم ، وأطرق أرخى عينيه
ينظر إلى الأرض .

أَمَّا جَارُ أَبِي دَوَادٍ

فهو كعب بن مامة الإيادي الجواد المشهور وكان إذا جاوره رجل قام بكل
ما يصلحه وأهله وحماه ممن يريده وإن هلك له بعير أو شاة أو عبد أخلفه عليه
وإن مات وداه فجاءه أبو دواد الإيادي الشاعر مجاوراً له فكان كعب يفعل به
ذلك ثم اقتدى هو به وصار يفعل بمن جاوره ذلك كما كان كعب يفعل به ،
فضربت العرب به المثل في حسن الحوار ، قال قيس بن زهير :

أَطَوْفُ مَا أَطَوْفُ ثُمَّ آوِي إِلَى جَارِ كَجَارِ أَبِي دَوَادِي
وقال طرفة بن العبد :

إِنِّي كَفَانِي مِنْ أَمْرِ هَمَمْتُ بِهِ جَارِ كَجَارِ الْحُدَاقِيِّ الَّذِي اتَّصَفَا
والحذاق بضم الحاء المهملة وبالذال المعجمة وقاف هو الحارث بن الحجاج
وهو أبو دواد ، وهو منسوب إلى حُدَاقَة : بطن من إِيَاد .

قال في الأصل : وما ذكرناه من أن جَارَ أَبِي دَوَادٍ هو كعب بن مامة هو
الذي ذكره غير واحد ، وفي الأغاني أن جَارَ أَبِي دَوَادٍ هو الحرث بن همام بن مرة
ابن ذهل بن شيان وكان أبو دواد في جواره فخرج صبيان الحبي يلعبون في غدير
فغمس الصبيان ابن أبي دواد فيه فقتلوه فخرج الحرث فقال لا يبقى صبي في الحبي
إلا غُرِّقَ أو يرضي أبو دواد ، فودى ابن أبي دواد عشر ديات فرضي ، وهو قول
أبي دواد .

وَأَمَّا ابْنُ شُورٍ

فهو القعقاع بن شور أحد بني عمرو بن شيان بن ذهل بن ثعلبة ، كان

تابعياً جواداً يضرب به المثل في حسن العشرة وكرم المجالسة فكان إذا جالسه أحد
فعرّفه بالقصد إليه جعل له نصيباً من ماله وأعاناه على عدوه وشفع له في حاجته
وغدا إليه بعد المجالسة شاكراً .

ودخل القعقاع على معاوية — رضي الله عنه — ومجلسه غاص بأهله فلم يجد
موضعاً فأوسع له بعض جلسائه حتى جلس بجانبه ثم أمر معاوية للقعقاع بمائة ألف
درهم فقال القعقاع لجليسه اقبضها فلما قام ليذهب قال له الرجل خذ مالك فقال
ما دَفَعْتُهُ إِلَيْكَ وأنا أريد أن أسترجه ، كذا في الثار .

وفي الشريشي علي مقامات الحريري عن أبي عبيدة أن القعقاع كان من
جلساء معاوية — رضي الله عنه — فأهديت إلى معاوية — رضي الله عنه — هدايا
يوم المهرجان فيها جِامات ذهب وفضة فدفعها إلى جلسائه ودفع إلى القعقاع جام
ذهب وفي القوم أعراني إلى جنب القعقاع فدفع إليه الجام فأخذه الأعراني ونهض
يُنشد :

وكنْتُ جليسَ قعقاع بن شور ولا يَشْقَى بقعقاع جليسُ
ضحوك السنِّ إن نطقوا بخير وعند الشر مطراق عبوسُ

وهذا معنى قول الناظم « لن ترى من مطرق » وقال المبرد : وحدثني
التوزي أن رجلاً جالس قوماً من بني غزوم بن يقظة فأساءوا عشرته وسعوا به إلى
معاوية — رضي الله عنه — ، فقال :

شقيت بكم وكنتم لكم جليساً فليستُ جليسَ قعقاع بن شور
ومن جهل أبو جهل أخوكم غزا بدرأ بمجمرة وتور

فنسبه إلى التخنث وكان أبو جهل يُرمي بذلك « والله أعلم » .

[وَلَتَكُ أَبْصَرَ مِنَ الْهُدُودِ وَالزُّرِّ قَا بَعِيْبِ نَفْسِكَ الْمُحَقِّقِ]

معنى البيت حث على التَّعَافُلِ عن عيوب الناس وأن لا يُظَنَّ بهم سوء فإن

لن أكذب الحديث فإن لم يكن إلا البحث عن العيوب فبحث المرء عن عيب
سه أولى من بحثه عن عيوب الناس فعيبه محقق وعيوب الناس مظنوننة ويرحم الله
نائل :

تلتمس من عيوب الناس ماستروا فيكشف الله سترأ عن مساويكا
لذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

ذكر الهدد والزرقاء وبصريهما

أما الهدد فهو طائر معروف ذو خطوط وألوان كثيرة ويذكر عنه أنه يرى
الماء في بطن الأرض كما يراه الإنسان في باطن الزجاج وزعموا أنه كان دليل
سليمان عليه السلام على الماء ولذا تفقده ، وضرب به المثل في شدة الإبصار ف قيل
أبصر من الهدد ، وفي « الكامل » للمبرد وشُعَب الإيمان للبيهقي أن نافع بن
الأزرق سأل ابن عباس — رضي الله عنهما « فقال : يا ابن عباس سليمان عليه
السلام مع ما خوله الله من الملك كيف عُني بالهدد مع صغره ؟ فقال له ابن
عباس — رضي الله عنهما — إنه احتاج إلى الماء والهدد كانت له الأرض
كالزجاج ، فقال ابن الأزرق يا وقاف ! كيف يبصر الماء من تحت الأرض
ولا يرى الفخ إذا غُطي له بقدر أصبع من تراب ؟ فقال ابن عباس : إذا نزل
القضاء عُمي البصر . وفي ثمار القلوب أن هذا البصر خاص بهدد سليمان « عليه
السلام » والله أعلم .

وأما « الزرقاء » : فهي امرأة من جدیس من العرب العاربة وقيل من طسم
ولمّا كانت متزوجة في جدیس ، وكانت زرقاء وكانت الزباء زرقاء كما كانت
البسوس زرقاء ، قال : والعرب تتشائم بذلك لندوره فيهم ولأنه من صفة
الأعاجم ولذا قالوا في الشديد العداوة : عدو أزرق ، وكانت الزرقاء كما يقال
تبصر الراكب من مسيرة ثلاثة أيام وترى الشعرة البيضاء في الليل البهيم ، وكانت
تدعى اليمامة بنت مرة ، وبها سميت بلدها لأنها صلبت على بابها كما سيأتي ، ثم

أُضيفت إليها فليل زرقاء الحمامة ، واسم البلدة القديم « جو » ، قال المتنبي :
وأبصر من زرقاء جوٍّ لأنني إذا نظرت عيناى شأوها علمى
ومما يؤثر من شدة بصرها أنها كانت لها قطاة فمر بها سرباً قطعاً يطير بين
جبلين فقالت : ليت الحمام ليه .. إلى حمامية .. ونصفه قدية .. تم الحمام مائة .
فاتفق أن ذلك الحمام وقع برمته فى شبكة صياد فعذوه فإذا هو ست وستون
حمامة ، والقطا نوع من الحمام ، وقيل عدوه على الماء .

وسياتى خبر إنذارها قومها وكيف قتلها تبع حسان بن أبى كريب عند ذكر
قصة طسم وجديس عند قول الشاعر : وكن كمن أبى .. بالجيش خلف شجر
ذى ورق ..

[وكن كمثل واسطي شفقةً عن شتم ضارِعٍ وعُتْبٍ سُقِّ]
الواسطي نسبة إلى واسط بلد معروف بين البصرة والكوفة .

والضارع : الضعيف ، وقد صرع له يضرع بالفتح ، ذلٌ وخضع وضرع
بكسر الراء من باب فرح لغة فيها ، وتضرع إلى الله ابتهل ، وأضرعته الحمى
أوهنته ، وعتب عليه عتياً ومعتباً من بابي ضرب وقتل : لامة فى تسخط فهو
عائب وعتابٌ والسُّقُّ بضمين والسين المهملة المغتابون للناس قاله فى القاموس ،
ومعنى البيت الحث على التمسك بالأخلاق الحميدة من عدم مشاعة الدنيء
ومخاصمة اللئيم والسفينة لأن ذلك أبقى للمروءة وأصون للعرض وأنبه للقدر ،
ومن الحكيم قولهم : من سكت عن جاهل فقد أوسع جواباً والله در القائل :

ولقد أمر على اللئيم يسبني فأعف ثم أقول لا يعنيني
غضبان ممتكاً على إهابه إني وربك سُخطه يُرضيني
وقال آخر :

لا ترجعن إلى السفينة جوابه إلا جواب نحية حياكها

فمتى تُحَرِّكُهُ تُحَرِّكَ جيفةً تَزْدَادُ نَشْتاً ما أَزْدَتْ حِرَاكَهَا

ذكر غفلة الواسطي والسبب فيها

قال المبرد في قولهم : تَغَافَلُ كَأَنَّكَ وَاسِطِي ، أصله أن الحجاج كان يُسَخِّرُ أهل واسط في البناء فكانوا يهربون وينامون وسط الغرباء في المساجد فيجيء الشرطي ويقول : يا واسطي فمن رفع رأسه أخذه فلذلك كانوا يتغافلون . لطيفة تتعلق بذكر واسط :

يحكى أن الحجاج بن يوسف لما بنى واسط كان يعاقب من أحدث في شوارعها ، فاتفق أن أعرابياً بال في بعض أرباضها فشججه الحجاج وغفل ومكث في السجن اثنتي عشرة سنة حتى مات الحجاج فأخرج من كان في سجنه ومن بينهم الأعرابي المذكور فسئل عن ذنبه الذي سجن من أجله فقال بُلْتُ في ربض واسط وانطلق يعدو ويقول :

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط خَرِئْنَا وَبُلْنَا لا نخاف عقابا
[وَاغْدُ عَلَى رِجْلَيْ سُلَيْكِ هَارِباً مِنْ قُرْبِ كُلِّ خُنْبِقٍ وَسَهْوَقٍ]
الْخُنْبِقُ : كَقَنْفِذِ الْبَخِيلِ الضَّيِّقِ ، وَالسَّهْوَقُ كَجَعْفَرٍ : الْكَذَابُ .

ومعنى البيت الفرار من اللئيم الذميم حتى لا يصل إليك ولا تصل إليه ولا يفحش عليك ولا ترد عليه ، ومن قولهم : معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار ، وعن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — : في العزلة راحة من القرين السوء ، والله در القائل :

فَخَفَ أَبْنَاءَ دَهْرِكَ وَاحْشِينِهِمْ كَمَا تَخْشَى الضَّرَاغِمَ وَالسَّبْتَنِي
وَخَالَطَهُمْ وَزَايَلَهُمْ حَذَاراً وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لَمَسْتَ
وَمِنْ كَلَامِ أَبِي الدَّرْدَاءِ — رضي الله عنه — : وجدت الناس « اخْبِرْ ثَقِيلَةً »

أي مقولاً فيهم عند تجربتهم اخبر ثقله ، ونظم ذلك بعضهم على سبيل التلميح
فقال :

ليت شعري كيف الخلاص من الله ساس وقد أصبحوا اذياب اغتداء
فقلت لما بلاهم صدق خبري رضي الله عن ألى الدرداء

ذكر السليك وعدوه

هو السليك بن السلكة وهى أمة أمة سوداء ومنها سرى إليه السواد وهو
شاعر جاهلي قديم وهو أحد صعاليك العرب ولصوصهم العدائين الذين كانوا
لا يلحقون ولا تلحق بهم الخيل مثل المنتشر بن وهب الباهلي وأوفى بن مطر المازني
وعمر بن براق الأزدي وتأبط شراً والشنفرى وأضرابهم .

والسليك هذا هو ابن عمر من بني سعد بن زيد مناة بن تميم على القول
الصحيح ، وقد سار به ضرب المثل في العدو ، ويقال إنه طفر طفرة فعد له فيها
أربع وعشرون خطوة وهو أحد سودان العرب وهم غيره : عنتر بن شداد
العبيسي وخفاف بن ندبة السلمي وأبو عمير بن الحباب ؛ وهو أيضاً أحد الأربعة
الذين استنابهم عمرو بن معد يكرب لعمر بن الخطاب — رضي الله عنه — حيث
قال له لو سرت بظعينة وحدي على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها ما لم
يلقنى حرّاه أو عبداها ، وقد تقدم ذلك عند ذكر عمرو بن معد يكرب — رضي
الله عنه — .

ويحكى أنه كان يستودع في الشتاء ماء السماء بيض النعام ويدفنه فإذا كان
الصيف وانقطعت غارة الخيل أغار هو على رجليه وكان أدل من قطاة فيجئ
حتى يقف على البيضة وكان لا يغير على مضر بل على اليمن فإذا أخفق أغار على
ربيعة ، ويقال إنه كان يصيد الظباء على رجليه ، ويحكى أنه كان يدعو بهذا
الدعاء ، يقول : اللهم إنك تهبي ما شئت لمن شئت إذا شئت اللهم إني لو كنت
ضعيفاً لكنت عبداً ولو كنت امرأة كنت أمة اللهم إني أعوذ بك من الخيبة فأما
المهية فلا هية .

هذا وأخبار السليك طويلة والحكايات عنه تشبه الخيال الأسطوري وفي الأصل منها ما يطول ذكره وفي الأغاني وكتب الأدب المطولة فليراجعها من شاء « والله تعالى أعلم » .

[وَكُنْ نَدِيمَ الْفَرْقَدَيْنِ تَنْجُ مَنْ مُنْعَصٍ وَمِنْ طُرُوءِ الرَّئِيقِ]

النَّدِيمُ : هو الذي يجالس المرء على الشراب ويحادثه عليه وجمعه نِدَام بالکسر ونُدْماء ككرماء ، ويقال فيه أيضاً ندمان قال :

إذا كنت ندماني فبالأكبر اسقني ولا تسقني بالأصغر المثلّم

وجمعه ندامي ، والمنادمة مشتقة من الندم والندامة لأن معافر الخمر إذا سكر تكلم بما يندم عليه وقيل من المدامة لأنه يدمن الشراب مع نديمه .

والفرقدان : كوكبان يضرب بهما المثل في طول الصحبة ، قال الشاعر :

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبك إلا الفرقدان

والمُنْعَصُ : المكدر فالتنغيص هو التكدير يقال نَعَصَ الله عليه العيش تنغيصاً أي كدره وتنَعَصَت عيشته أي تكدرت وقد نَعَصَ الشرابُ نَعَصاً من باب فَرِح إذا لم يعم ، وَنَعَصَ البعير إذا لم يعم شربه ، قال لبيد :

فأرسلها العراك ولم يَدُذْها ولم يُشْفِقْ على نَعَصِ الدُّخَالِ

الطُّرُوءُ : المفاجأة ، والرُّئُقُ : بالتحريك مصدر قولك رنق الماء بالكسر أي كدر وزناً ومعنى ورئقته أنا ترنيقاً وأرنقته كدّرتّه ، وعيش رنق أي كدر « والله أعلم » .

ومعنى البيت حثّ على مجانبة الناس لأن غالبية الناس الأشرار وقد حث في السابق على مجانبة الأشرار ولما كان الأخيار الذين ترضي صحبتهم أقل من القليل بشهادة الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام حيث يقول : « الناس كإبل مائة

لا تجده فيها راحلة ، أمرك هنا بالتخلي عن الناس واعتزالهم جملة ، فالمرء اليوم إن عثر على أخ صالح يدل على الله تعالى بفعله وقوله فليحمد الله وليعلم أن ذلك من خرق العادات ومن جيد قول أبي الطيب قوله :

ولما صار وُدُّ الناس خُبًّا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

واختلفوا في أيتهما أفضل الخلطة أم العزلة ؟ فبعضهم يقول الخلطة إن انتفت آفاتهما أفضل وبعضهم يقول العزلة أفضل لأن درء المفسد مقدم على جلب المصالح والله در القائل :

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً سوى الإكثار من قيل وقال
فقلل في لقاء الناس إلا لأخذ العلم أو إصلاح حال

ذكر نديم الفرقدين وما كان من أمره

نديم الفرقدين هذا هو جذيمة الوضاح الذي قتلته الزباء وقد مر خبره عند قول الراجز :

[فإن تك الزبا دخلت خدرها وكقصير سيقها للنفق]

وأما مُنادمته للفرقدين فإن سببها أن جذيمة المذكور كان قد اتخذ صنمين يقال لهما الضيرتان يستسقي بهما ويستنصر بهما على أعدائه وكانت إياد قد خرجت من الحجاز وانتشروا فيما بين البصرة والكوفة وتمكنوا فيما يلي الحيرة فخرج جذيمة غازياً لهم وكان فيهم غلام من لحم هم أخواله يقال له عدي بن نصر ذو جمال وظرافة ولباقة ، ولما نزل جذيمة بساحتهم أرسلوا من سقى سدنة صنميه الخمر وسرقوها وبعثوا إلى جذيمة يقولون : إن صنميك قد صاراً فينا زهداً فيك ورغبة فينا فإن عاهدتنا أن لا تغزونا رددناهما إليك ، قال : وتعطوني عدي بن نصر ، ففعلوا وانصرف عنهم فضم عدياً إلى نفسه وولاه شرابه وأمر مجلسه ، وكان

لجذيمة أخت تدعى رقاش بكرة فأحبت عدياً وأحبها فراسلته وسأله أن يخطبها من
جذيمة قال لا أجتريء على ذلك فقالت له إذا سقيت القوم فامزج لهم وعرف
للملك فإذا أخذت منه الخمر فاخطبني إليه فإنه يزوجك فأشهد القوم إن فعل
ف فعل الغلام وخطبها فزوجه جذيمة وأشهد عليه وانصرف إليها فعرفها الخبر فقالت
ادخل بأهلك فلما أصبح غدا على جذيمة متضمخاً بالخلوق فقال ما هذه الآثار
يا عدى ؟ فقال آثار العرس قال وأي عرس ؟ قال عرس رقاش فقد زوجتها
فنخر وأكب على الأرض مغشياً عليه وفر عدى فلما أفاق جذيمة طلبه فلم يجده ،
وأرسل جذيمة إلى أختها تقول :

حَدَّثْنِي رِقَاشُ لَا تَكْذِيبْنِي أُجِرُّ زَنَيْتَ أُمَ بَهْجِينَ
أُمَ يَعْجِدُ فَأَنْتَ أَهْلُ لَعْدٍ أُمَ بَدُونُ فَأَنْتَ أَهْلُ لَدُونِ
فأجابته قائلة :

أنت زوجتي وما كنت أدري وأتاني النساء للـتـزيين
ذاك من شربك المدامة صرفا وتماديك في الصبي والمجون
ثم نقلها جذيمة إلى قصره وحصنها وقد اشتملت على حمل ، وأقسم جذيمة
بعد هذه الواقعة لا ينادم إلا الفرقدين فكان يشرب كأساً ويصب لهما كأساً أما
رقاش فقد ولدت ولداً وسمته عمراً فلما ترعرع عطرته وألبسته حلة فاخرة ثم
أزارته خاله فألقيت عليه محبته وأعجب به وخلطه بولده ، قيل ولم يكن له ولد
فتبناه وتفرس فيه النجابة وطوقه بفضة فكان أول عرى لبس الطوق ، ثم إن الجن
استطارت فطلبه جذيمة في الآفاق فلم يجده وأيس منه إلى أن أقبل رجلان من
قضاة أخوان هما مالك وعقيل ابنا فارح بن مالك فأقبلا من الشام يريدان جذيمة
وقد أهديا له طرفا فلما نزلا وادي السماوة ومعهما قينة فنصبت قدراً وهيات لهما
طعاماً فبيناهما يأكلان إذ أقبل فتى أشعث أغبر قد ساءت حاله وتلبد شعره
وطالت أظفاره فجلس بجزر الكلب ومد يده فناولته القينة كراعا فأكله ثم
استزادها فقالت لا تطعم العبد الكراع فيطمع في الذراع ، فأرسلتها مثلاً ، فقال له

الرجلان : من أنت ؟ فقال إن تنكراني فلن تنكرا نسيبي أنا عمرو بن عدى
 للخمى ابن أخت جذيمة فقاما إليه وسلموا عليه وأصلحا من شأنه وألبساه من
 طرائف ثيابهما وقالوا ما كنا لنهدى إلى الملك هدية هي أنفس عنده من ابن أخته قد
 رده الله إليه ، فخرجوا به حتى إذا وقفا بباب الملك بَشَّرَاهُ به فسر سرورا عظيما
 وبعث به إلى أمه فأصلحت من شأنه وألبسته طوقا من ذهب لنذر كان عليها ثم
 أمرته بزيارة خاله فلما رأى لحيته والطوق فى عنقه قال : شبَّ عمرو عن الطوق ،
 فأرسلها مثلا ، وأقام عمرو مع خاله وتحمل عنه عامه أمره حتى كان من أمره مع
 الزباء ما كان فأخذ عمرو هذا بثأره على ماتقدم ذكره وأما مالك وعقيل فإنهما لما
 أتيا جذيمة بابن أخته قال لهما حُكْمَكُمَا فقالا حُكْمُنَا منادمتك مابقيت وبقينا فقال
 لكما ذلك فنادماه على ما قيل أربعين عاما فما حدثاه حديثا حدثاه به فهما ندماني
 جذيمة المضروب بهما المثل فى طول الصحبة ، قال متمم بن نويرة :

وكنا كندمانى جذيمة حقة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
 فلما تفرقنا كأني ومالكاً لطول اجتماع لم يَبْثْ ليلة معا

وقيل إن جذيمة سكر أيضا وقتلها وبنى عليها الغريين وهما بناءان طويلان
 بظاهر الحيرة ، وقيل إن صاحب الغريين هو المنذر بن ماء السماء « والله تعالى
 أعلم » .

[وَكُنْ كَعَفْرِ بْنِ وَضْبٍ مَعَ مَنْ عَلَيْكَ قَلْبُهُ امْتَلَا بِالْحَنْقِ]
 [ثُمْتُ لَا تَعْجَلْ وَكُنْ أَبْطَأَ مِنْ غُرَابٍ تُوجِ أَوْ كَفِنْدِ الْمَوْسِقَى]
 [مَضَى لِنَارِ طَالِبًا وَبَعْدَ عَا مَ جَا بِهَا يَسْبُ فَرَطَ الْقَلْقَى]

ثمت : هى ثم العاطفة وفيها أربع لغات : ثم وفم بالفاء بدل الثاء ، وثمرت بقاء
 التأنيث الساكنة ، وثمرت بالثاء المفتوحة .

وَبَطْأُ : بضم الطاء بَطْأً وبطأً وأبطأً ضد أسرع ، ويقال فى صيغة التفضيل
 هو أبطأ منه فإن كان من الثلاثى فمقيس وإن كان من الرباعى فجائز عند سيبويه
 فى هذا الوزن ، ونوح عليه الصلاة والسلام هو أول رسول أرسله الله إلى الأرض

وهو أحد أولى العزم من الرسل ، وفند رجل يأتي خبره إن شاء الله .

والموسيقى معناه المغني نسبة إلى فن الموسيقى الذي هو صناعة الألحان وأصلها كلمة يونانية معناها علم النعمات والألحان .

ومعنى الآيات الحث على عدم مغاضبة السفهه وموابته والصبر على أذاه مع تحين الفرص بالملاينة له حتى يظفر به ويتمكن منه ، وفي هذا المعنى يقول المتنبي :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أوّل وهي المحلّ الثاني
فإذا هما اجتماعا لنفس حُرّة بلغت من العلياء كل مكان

ثم أمره بالتأني في تحين الفرصة بعدوه فإن من كلام العرب : « الثبات يكسر الوثبات » ، و « العجول مخطيء وإن ملك والمتأني مصيب وإن هلك » ، ولبعض الحكماء : إياك والعجلة فإنها تكنى أم الندامة فصاحبها يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن يفهم ، ويعزم قبل أن يفكر ، ويحمد قبل أن يجرب ، ولن تصحب هذه الصفة أحد إلا صحب الندامة وجانب السلامة .

تنبيه : هناك أمور مستثناه من طلب التأني بل تطلب فيها المسارعة وهي : التوبة من الذنب ، ورد المظالم ، والصلاة بعد دخول الوقت ، وإخراج الزكاة بعد حلول الحول ، وتجهيز الميت ، وإنكاح البكر ، وقرى الضيف ، وفطر الصائم ، وأوبة المسافر ، وقضاء الدين بعد حلوله و « الله أعلم » .

ذكر الضبّ والعقرب وما قيل فيهما

الضبّ حيوان معروف طويل العبر لا يشرب الماء ، يضرب به المثل في الخداع ، يقولون : أخذع من ضب .

وأما العقرب فمعروفة أيضا وتضرب العرب بها المثل في المكر والخداع كما تضربه بالضب فأما الضب : فيقولون : فلانّ خب ضبّ ، فيشبهون الحقد الكامن في قلبه الذي يسرى ضرره بحقد الضب في جحره ؛ وأما العقرب فإنهم يقولون : سرت عقارب فلان ، وفلان تربّ عقاربه إذا خفى مكان شره .

وترزعم العرب أن بين الضب والعقرب ألفة وأنها لذلك تأتي إلى جحره فتذب عنه قال الشاعر :

وأخذع من ضب إذا جاء حارسٌ أعدُّ له عند الذنابة عقربا
لطيفه : يحكى أن دار نصر بن حجاج السلمي كان بها عقارب إذا لسعت قتلت ، ففي بعض الليالي دبَّ ضيِّفٌ لهم إلى بعض أهل الدار فلسعته عقرب في مذاكيره ، فقال نصر يعرض به .

ودارى إذا نام سُكَّانُهَا أقام الحدودَ بها العَقْرَبُ
إذا غفل الناس عن دينهم فإنَّ عَقْرَبًا تَضْرِبُ
فلا تأمنن سرى عَقْرِبٍ بليـل إذا أذنب المذنبُ

ذكر غراب نوح وفند وبُطْئُهما

قال المؤرخون : لما استقرت سفينة نوح عليه الصلاة والسلام على الجودي بعث نبي الله تعالى الغراب ليأتيه بخبر الأرض هل جفت أم لا فوقع على جيفة فلم يرجع إليه فضرب المثل ببطنه ، فبعث الحمامة فجاءت بِوَرَقٍ زَيْتُونٍ في منقارها ولطخت رجليها بالطين فعلم نوح عليه الصلاة والسلام أن الماء قد ذهب ودعا على الغراب فَعُلَّت رجليه وخاف من الناس فلذلك لا يألف البيوت وإذا وقع لا يلبث أن يطير ، وطوق الحمامة بالخضرة التي في عنقها ودعا لها بالأمان فمن ثم ألفت البيوت و« الله تعالى أعلم بالحق من ذلك » .

وأما فندٌ ، فهو أبو زيد مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقَّاص « رضي الله عنه » ومنشأة المدينة المنورة وكان خليعا متهكاً وهو أحد المغنين المجيدين ، وكانت عائشة مولاته أرسلته ليأتيها بنار فخرج لذلك فلقى عيراً تخرج إلى مصر فخرج مَعَهَا فلما كان بعد سنة رجع فأخذ ناراً فدخل على عائشة وهو يعدو فعثر وقد قرب منها وتبدد الجمر فقال تعست العجلة فأرسلها مثلاً وهذا هو السب الذي أشار إليه الناظم ، فضرب به المثل وقيل أبطأ من فند كما قيل أبطأ من غراب نوح وقد قيل في ذلك :

ما رأينا لسعيد مثلاً إذ بعثناه يحيى بالمشملة
غير فند بعثوه قابساً فتوى حولاً وسبَّ العجلة
المشملة بكسر الميم كساء دون القطيفة يُشتمل به و«الله أعلم» .

[وَخُذْ بِتَّارِكَ وَكُنْ كَمَنْ أَتَى بِالْجَيْشِ خَلَفَ شَجَرِ ذِي وَرَقٍ]

التَّارُ : الدم والطلب به وثارت للقتيل وثارت به إذا قتلت قاتله ، والجيش
الجمع الكثير السائرون لحرب أو غيره ، مأخوذ من جاش البحر والقدر وغيرهما
إذا غلى ، يجوش جيشاً وجيوشاً وجيشاناً .

ومعنى البيت حث على أنك إن قررت الأخذ بحقك مع أن الأفضل لك
العفو ، فلتستعمل الحيلة حتى تصل بها إلى المطلوب ، اعلم أن الله قد أذن
للمُعْتَدِي عليه في الانتصار لنفسه بقوله تعالى ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ
مَاعْلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ ^(١) وقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ
يَنْتَصِرُونَ ﴾ ^(٢) غير أنه تبارك وتعالى أرشد إلى أن العفو أحسن من الانتصار
لنفس قال تعالى ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ وقال تعالى ﴿ وَإِذَا مَاغَضِبُوا
هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ فالانتصار حسن لإذن الله فيه والعفو أحسن منه ، ومن حكمة
التشريع الإسلامى تبين الحسن ثم الإرشاد إلى ما هو أحسن منه مبالغة للخلق في
مصالحهم جعلنا الله والمسلمين ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه إنه سميع
مجيب .

ذكر طسم وجديس ومهلكهما

أما طسم فهو ابن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح « عليه السلام » وأما جديس
فهو ابن كاثر بن إرم بن سام بن نوح ، فهما ابنا عم وقيل هما أخوان كلاهما ولد
لاوذ ، ولما تبلبلت الألسن وتفرقت الأمم نزلت طسم وجديس أرض اليمامة واسمها

(١) الشورى الآية (٤١)

(٢) الشورى الآية (٣٩)

يومئذ جو ، و كانت من أفضل البلاد وأكثرها نخيلاً وأعناها فغبروا بها دهرًا طويلاً
و كثر ت طسم وصار الملك فيهم إلى أن ملكوا عليهم عملوق بن جدیس فكان
ملكاً على القبيلتين معاً فعظم أمره وقويت شوكته وكان ظلوماً غشوماً فسام
جدیس من أنواع الخسف الكثير الذي يطول ذكره حتى أنه أمر ألا تتزوج امرأة
من جدیس فتزف إلى زوجها قبل أن تُحمل إليه هو فيفترعها قبل زوجها ، فلقوا
من ذلك بلاءً و ذلاً كبيراً ولم يزالوا على تلك الحالة من الهوان حتى تزوجت غفيرة
بنت غفار أخت الأسود بن غفار سيد جدیس وكبرها يومئذ ، وكانت غفيرة
تُدعى الشموس ، فلما حانت ليلة زفافها انطلقوا بها إلى عملوق لينال منها قبل
زوجها على عادته ومعها القيان يغنين ويقلن :

ابْدِيْ بعملوق وقومي واركي وبادري الصبح لأمر معجب
فسوف تلقين الذي لم تطلبي فما ليكر بعدكم من مهرب
يعنون أنها إن فعل بها وهي أخت سيندهم فغيرها أولى ، فلما أَدْخِلَتْ على
عملوق وافترعها وخلقى سبيلها خرجت على قومها شاقة ثوبها عن عورتها ودمها
يسيل وهي في أقبح منظر وتقول :

لا أحد أدل من جدیس أمكذا يفعل بالعروس ؟
يرضى بهذا يا لقومي خُر ؟ أهدى وقد أعطى وسيق المهر
لخوضه بحر الردى بنفسه خير من أن يفعل ذا بعمره
وامتنعت من الذهاب لزوجها وقالت تحرض قومها :

أَيَحْمَلُ ما يؤتى إلى فتياتكم وأنتم رجال فيكم عدد الثمل
وتصبح تمشي في الدماء فتاتكم صبيحة زفت في النساء إلى البعل
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساءً ماتفيق من الكحل

من قصيدة لها ، ولما سمع أخوها ذلك ، وكان سيداً مطاعاً في قومه ، فقال
لهم إن هؤلاء القوم ليسوا بأعز منكم في داركم إلا بما كان من ملك صاحبهم ،
فأطيعوني فيما أمركم به فإنه عز الدهر وذهاب ذل العمر وإلا اتكأت على سيفي

حتى يخرج من ظهري ، قالوا نطيعك ولكن القوم أكثر وأقوى مِنَّا ، قال أنا صانع لعملوق وقومه طعاماً وأدعوهم فإذا جاءوا متفضلين في الحلل والنعال ثرنا عليهم بأسيفنا فانفردت أنا بالملك وانفرد كل رجل منكم برجل منهم ، ثم إنَّ الأسود دعا القوم وأمر قومه باختراط السيوف ودفنها في الرمل حيث أعدوا الطعام وكان ذلك بظاهر البلد ثم قال لقومه إذا أتاكم القوم يرفلون في حللهم فشدوا عليهم بالسيوف وابدعوا بالرؤساء ، فلما وصل القوم إلى المدعاة وثبت جديس فاستلت سيوفها وشدوا على عملوق وأصحابه فاستأصلوهم إلا قليلاً ثم ذهبوا إلى ديارهم فنبهوها ثم إن رجلاً من طسم اسمه رياح بن مرة وهو أخو الإمامة الزرقاء نجا من الواقعة فقصد تبع اليمن حسان بن أبي كرب فاستغاث به وكان قد عمد إلى جريدة نخل رطبة فجعل عليها طيناً رطباً وحملها معه واستصحب معه كلبة فلما قرب من صنعاء كسر يد الكلبة ونزع الطين عن الجريدة فخرجت خضراء ودخل على حسان فاستغاثه وأخبره بالذي صنعت جديس بقومه فسأله الملك من أين جئت قال جئت أبيت اللعن من أرض إلى جنبك من عند قوم انتهك منهم مالم ينتهك من أحد وقص عليه ما حل بهم جراء غدر جديس بهم ، فقال أمن بلدك جئت بهذه الجريدة وهذه الكلبة ؟ قال نعم ، قال حسان إن كنت صدقتني فقد جئت من قريب ، ووعدته النصر فنأدى في حمير بالمسير وأعلمهم بما حل بطسم ، فخرجوا بعد مشورة بينهم استقر الرأي بعدها أن يخرجوا لنصرتهم وخرج الملك نفسه في مقدمتهم ، فلما كانوا من الإمامة على ثلاث قال رياح أبيت اللعن إن لي أختاً متزوجة في القوم ترى الراكب على مسيرة ثلاثة أيام وإني أخاف أن تنذر القوم بك والرأي أن تأمر كل رجل أن يقتلع شجرة فيجعلها أمامه ثم يسير فأمرهم حسان بذلك ففعلوه ، وكانت الزرقاء صعدت على منازلها فرأت الشجر مقبلاً فارتأبت وقالت يا جديس لقد سارت إليكم الشجر أو لقد غزتكم حمير ، قالوا وما ذاك ؟ قالت أرى شجراً من ورائها بشر وإنني لأرى رجلاً ينهش كتفاً أو يخصف نعلاً وكان كذلك فكذبوها ثم إن حسان صبحهم فأفناهم وسبا نساءهم وصبيانهم وفر الأسود بن غفار فنزل بجبلى طيء حتى قتلته طيء بعد حين .

ثم إن حسان أمر بالجماعة بنت مرة وكانت زرقاء فأمر بعينها فترعنا وإذا بداخلهما عروق سود فساها عن ذلك فأخبرته أنه الإثم كانت تكتحل به وقيل إنها أول من اكتحل به فاتخذها الناس كحلاً بعدها ، وأمر بها فصلبت على باب مدينة جو ، و« الله تعالى أعلم » .

[واتَّهَزِ الْفُرْصَةَ مِثْلَ بَيْهَسٍ وَبِالْمُدَى لَحْمَ الْعُدَاةِ شَرْقٍ]

الانتهاز هو الانتهاض والمبادرة فقولهم انتهر فلان الفرصة يعني انتهض إليها مبادراً والفرصة : أصلها النوبة اسم من تفرص القوم الماء إذا جعلوا لكل واحد منهم نوبة فيقال يافلان جاءت فرصتك أى نوبتك التى تسقي فيها ، ثم توسع فيه فاستعمل فى كل ما يمكن ويتأتى مما يخاف فواته فى وقت آخر .

والمُدَى جمع مُدْيَةٍ بالضم : الشفرة وفى القاموس أنها مثقلة الميم .

والْعُدَاة : جمع عاد بمعنى العدو ، والاسم العداوة ضد الصداقة .

وقوله شَرْقٍ : أى قطع وقُدِّذَ إذ التشريق تقطيع اللحم وتقديده ومنه سميت أيام التشريق لأن أيام الأضاحى تشرق فيها أى تقدد وتُشَرِّحُ ، وقيل فى وجه تسميتها غير ذلك و« الله أعلم » .

ومعنى البيت أن الثانى مطلوب مالم يخرج بصاحبه إلى حد التفريط والتوانى وتضييع الفرص فالثانى محمود والتوانى مذموم ، ويقول : وإذا أمكنتك الفرصة من عدوك نكّل به ولا تثق عليه ، وهذا رأى درج عليه الشعراء ومنه قول المتنبي :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رحمه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

وهذا رأى مرفوض من قبل الشرع الطاهر ، فالذى هو له أن يعاقب على قدر الجريمة التى فعلت به من غير زيادة ولا نقصان ﴿ فَمَنْ آغْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا آغْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ (١) الآية ، علماً بأنه بين أن العفو خير من الأخذ بالحق كما تقدمت الإشارة إليه قريباً و« الله أعلم » .

(١) البقرة

ذكر بييس وفرسته

بييس هذا كان رجلاً من فزارة بن ذبيان بن بغيض وكان سابع سبعة إخوة فأغار عليهم ناس من أشجع بينهم وبينهم حرب وهم في إبلهم في موضع يقال له الأثلاث ويقال إن إخوة بييس خرجوا مغيرين على بنى ضبيعة فلقبهم القوم من أشجع فقتلوههم إلا بييساً وكان أصغرهم وكان يُحْمَقُ فأرادوا قتله ثم قالوا وما تريدون في قتل هذا؟ يحسب عليكم برجل ولا خير فيه فتركوه ، فقال دعوني أتوصل معكم إلى حبي فإنكم إن تركتموني وحدي أكلتني السباع وقتلني العطش ففعلوا فأقبل معهم فلما نزلوا نَحَرُوا جزوراً من وسيقتهم في يوم شديد الحر فقالوا ظللوا لحكمكم لا يصلُ أي لا يتن ، فقال بييس : لكن بالأثلاث لحم لا يظلل يعنى لحم إخوته فأرسلها مثلاً ، فقال أحدهم إنى لأسمع من هذا الأنيسان أمراً يمكن أن يكون من ورائه شر فاقتلوه فقال زعيم القوم : أَيْعَدُ علينا هذا بقتيل ؟ فتركوه وظلوا يشوون ويأكلون فقال أحدهم ما أطيب يومنا هذا وأخصبَه ، فقال بييس : لكن على بلدٍ قوم عجفى ، فأرسلها مثلاً ثم انشعب طريقهم ففارقهم وأتى أمه فقالت له أين إخوتك أمورك أنت أم مخفق ؟ قال بل مخفق وأخبرها الخبر ، قالت فما جاءنى بك من بين أخوتك ؟ فقال بييس : لو خيرت لاخترت ، فأرسلها مثلاً ، وكانت أمه تُبغضه وتحب إخوته ثم إنها عطفت عليه ورقت له فقال الناس : لقد أحبت أم بييس بييساً ، فقال بييس : ثكل أرامها ولداً ، أى ثكلها لأولادها هو الذى أرامها ولو بقوا لها ما أحببنتى فأرسلها مثلاً ، ثم إن أمه جعلت تعطيه بعد ذلك ثياب إخوته فيلبسها ثم يقول : يا حبذا التراث لولا الذلة ، فأرسلها مثلاً ، ثم إنه أتى على ذلك ما شاء الله فمر بنسوة من قومه يصلحن امرأة تهدى لبعض القوم الذين قتلوا إخوته ، فقبل إنه تجرد وجعل يرقص مع النساء ، فقلن له ويحك ماتصنع يا بييس ؟ فقال :

البَسْ لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بؤسها
فأرسلها مثلاً ، ثم أمر نساءً من كنانة أن يصنعن له طعاماً ففعلن فصار يأكل

ويقول حبذا كثرة الأيدي في غير طعام ، فأرسلها مثلاً ، فقالت أمه لا يطلب هذا بثأراً أبداً فقالت الكنانية : لا تأمنى الأحق وفي يده سكين ، فأرسلتها مثلاً ، ثم إنه ذات يوم بينما هو يرعى غنماً له في أكمة إذ ألجأه الحر إلى غار يستظل فيه فرأى قتلة إخوته وهم عشرة قد عقلوا إبلهم على فم الغار وحلبوها وشربوا منها حتى خثروا فهم روى نيام ، فترك غنمه وبادر نحو الحى فاستلأه وأتى خالاً له يقال له أبو حنش وكان من أنجب العرب أى من أضعفهم قلباً فقال له هل لك في غار فيه ظباء ؟ ويروى أنه قال له هل لك في غنيمة باردة ؟ فأرسلها مثلاً ، قال نعم ، قال فتنكب قوسك وتقلد سيفك وحى هلا ورأيي ثم جاء بييس بأبي حنش حتى أقامه على فم الغار ثم دفعه فإذا هو في وسطه وقال ضرباً أبا حنش فلما علم أنه تورط وأنه لا ينجيه إلا الضرب أعمل سيفه فيهم ، يقول أحدهم إن أبا حنش لبطل فيقول مكره أخاك لا بطل ، ويروى بلغة الأعراب فأرسلها مثلاً ، ومازالا بهم حتى أبادوهم ورجعوا بأسلأهم إلى الحى فعُرفت شهامة بييس وصرامته وأنه أدرك ثأره ، وفي ذلك يقول المتلمس :

ومن طلب الأوتار ما حَزَّ أنفه قصير وخاض الموت بالسيف بييس
نعامة لما صرَّع القوم رهطه تبين في أثوابه كيف يلبس
وقوله نعامة يعنى بييساً لأنه كان يلقب نعامة قيل لأنه كان طويل الرجلين
وقيل لأنه كان أصم والعرب تصف النعام بالصمم لأنه مصلم الأذنين ، وتزعم
العرب أن النعامة ذهبت تطلب قرونا فقطعوا أذنيها ولهذا سموا الذكر ظليماً لأنه
ظلم بقطع أذنيه « والله أعلم » .

[وَكَانَ قَيْسٌ بِهِمْ كُنْ مُوَلِّمًا وَلَيْمَةً شَهِيرَةً كَالْفَلَقِ]
[يَوْمَ مَلَكَ بِهِ بَأْمٌ فَرَوَةٌ عَرَقَبَ كُلُّ ذَاتٍ أَرْبَعٌ لَقِي]

الوليمة اسم لكل طعام يتخذ لجمع ، وقيل هى طعام العرس ، وأولم زيد
صنع وليمة وفي الحديث « أولم ولو بشاة » ، وقد جمع بعضهم أسماء الولايم
فقال :

وليمة إعراس وحرس ولادة عقيقة مولود نقيعة قديم
وضيمة حزن والبناء وكبرة عذرة ختن مآدبات المكارم
وملاكة وإملاكة بالكسر فيهما تزوجه أو عقده ، وأملكه إياها زوجها إياها
ولا يقال ملك بها ، وقال في المصباح : قد يقال ملكت بامرأة على لغة من قال
تزوجت بامرأة .

وعرقب الدابة إذا قطع عرقوبها وهو العصب الغليظ في رجلي الدابة يكون
بمشابة الركبتين في يديها « والله أعلم » .

ومعنى البيتين حث من الناظم على التنكيل بالعدو والتمثيل به وأن لا يدخر في
ذلك وسعاً ، والمثلة حرام حتى في حق الكفار ، فهذا سهيل بن عمرو لما أُسِرَ
يوم بدر قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ : دعني أنزع ثنياه يدلع لسانه فلا
يقوم عليك خطيباً بعدها ، فقال رسول الله ﷺ لا أمثل فيمثل الله لي وإن كنت
نبياً ، أو كما قال ﷺ ، فإن قيل : مثل بالعُرَين فما بالكم تقولون بحرمة
التمثيل ؟ فالجواب : أن العرنيين جمعوا بين الكفر والقتل والسرقة والكفر بعد
الإيمان فقد حاربوا الله ورسوله ، ولذلك مُثِّلَ بهم ، والعلم عند الله تعالى .

ذكر ابن قيس ووليمته

أما ابن قيس فهو الأشعث بن قيس بن معد يكرب بن معاوية بن جيلة بن
عدى بن ربيعة بن معاوية بن الحرث الأصغر بن معاوية بن الحرث الأكبر بن
معاوية بن كندة الكندي الصحابي الشجاع الرئيس المشهور يُكنى أبا محمد .
وفد على رسول الله ﷺ سنة عشر رئيساً لوفاة كندة .

قال ابن عبد البر : ارتد الأشعث بن قيس بعد النبي ﷺ وأُتِيَ به أبو بكر
رضي الله عنه أسيراً فدار بينه وبين أبي بكر حديث فقال له الأشعث استبقني
لحربك وزوجني أختك ففعل أبو بكر ثم خرج من عند أبي بكر ودخل السوق

واخترط سيفه ثم لم تلقه ذات أربع إلا عرقبها من بعير وبقرة وشاة ودخل داراً من دور الأنصار فقال الناس هذا الأشعث قد ارتد ثانية ، فبعث أبو بكر رضي الله عنه إليه فأشرف من السطح وقال يا أهل المدينة إني غريب ببلدكم وأنا والله لو كنا ببلدنا لأولنا فاجتروا من هذه اللحمان وتصادقوا في الأثمان وليغد عليّ من كان له قبلي حق ، فلم تبق دار من دور المدينة إلا دخلها من ذلك اللحم ولا رؤي يوم أشبه بيوم الأضحى من ذلك اليوم فضرب أهل المدينة به المثل فقالوا : أُولَمْ مِنْ الْأَشْعَثِ .

ثم شهد الأشعث اليرموك بالشام وحروب العراق مع سعد بن أبي وقاص ثم شهد صفين مع علي « رضي الله عنه » وسكن الكوفة وتوفي « رضي الله عنه » بعد علي رضي الله عنه بأربعين يوماً وصلى عليه الحسن بن علي « رضي الله عنهما » وقيل مات سنة ٤٢ هـ و« الله أعلم » .

[وَلَا تَدْعُ وَإِنْ قَدَرْتَ حِيلَةً فَهِيَ أَجَلُ عَسْكَرٍ مُدْهَرِقٍ]

الحيلة بكسر الحاء قلب الفكر في العواقب حتى يهتدى إلى المقصود ، واحتال طلب الحيلة ودهرقت الشيء ودهقته كسرتة قال حجر بن خالد :

ندهرق بضع اللحم للباع والندی وبعضهم تغلى بدم منافع

ومعنى البيت الحث على استعمال الحيلة مع العدو وإن كان قادراً على الانتصاف منه بقتال ونحوه فالحيلة من فوائد الآراء المحكمة وهي حسنة ما لم يُسْتَبَحَ بها مُحَرَّمٌ وإلّا حرمت .

وقد عقد البخاري كتاب الحيلة في الرد على من يسلك الحيلة في فتواه . ومن أمثال العرب : رُب حيلة أنفع من قبيلة ، وقال بعضهم ، كن بحيلتك أوثق منك بشدتك وبحذرك أفرخ منك بنجدتك فإن الحرب حتف للمتهور وغنيمة للمتحذر ، وقال أبو الطيب :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أوّل وهى المحلّ الثاني

فإذا هما اجتماعاً لنفس حرة بلغت من العلياء كل عنان
ولربما طعن الفتى أقرانه بالرأى قبل تطاعن الأقران

[إِنْ كَانَ فِي سَفْكِ دَمِ الْعِدَا الشُّفَا سَفْكَ دَمِ الْبَرِيءِ غَيْرَ أَلِيْق]

والمقصود من هذا البيت التنبيه على أن مجاوزة المذنب إلى من لا ذنب له
محظور وغير لائق شرعاً وطبعاً قال تعالى ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (١) وفي
المسألة هنا في الأصل بحث نفيس في معالجة الأدلة التي يظهر لغير المطلع تعارضها
في ذلك ، فليقف عليه من شاء .

لطيفة بمناسبة أخذ الإنسان بجريرة غيره : حكى الجاحظ أن امرأة أتت معلماً
بابن لها وكان المعلم طويل اللحية فقالت إن هذا الصبي عاق لا يطيع أمه فأحب أن
تُفَزَعَهُ ، فأخذ المعلم لحيته والتقمها في فمه وحرك رأسه وصاح صيحة هائلة
فضرطت المرأة من الفزع وقالت إنما قلت لك أفزع الصبي ليس إِيَّايَ فقال لها :
ياحمقاء إن العذاب إذا نزل أهلك الصالح والطالح .

قلت : وَيُحْكِي أيضاً أن الحجاج بن يوسف فرّ منه رجل كان يطلبه فقيلاً له
هذا خاله موجود ، أو ذو قرابة منه فاستدعاه وأراد النكال به فقال الرجل علام
تنكلون بي ؟ قال الحجاج من أجل قريتك فلان ، قال الرجل : أَوْلَوْ جِئْتِكَ
بشاهدين يشهدان على براءتي من ذلك ؟ قال الحجاج ومن يشهد لك ؟ قال :
موسى وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، قال الحجاج : وكيف يشهدان لك ؟
فتلا الرجل قوله تعالى ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى
أَلَّا تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٢) الآية ، فضحك الحجاج وقال : هذا قد أَلْهِمَ
حجته فاتركوه والله أعلم .

ومن المعلوم أن الحجاج كان ممن يؤخذ المرء بجريرة غيره ، وذلك معلوم من
خطبته الشهيرة التي خطبها حين قدم العراق أميراً عليه والتي قال فيها بالحرف

(٢) النجم الآية (٣٨) .

(١) الأنعام (١٦٤) .

الواحد : [والله لألحونكم لحو العود ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ولأخذن البرىء بالسقيم والمحسن بالمسيء والمطيع بالعاصى حتى تستقيم لى قناتكم .
إلى غير ذلك « والله أعلم » .

[وَلَا تُحَارِبْ سَاقِطَ الْقَدْرِ فَكُمْ مِنْ شِهَةِ قَدْ غُلِبْتَ بِيَذِقِ]
الشَّهَةُ المراد بها عود من أعود رقعة الشطرنج ينزل من سائر أعوده منزلة الملك من الرعية ، وإنما المعروف شاه ومعناه فى لغة الفرس الملك وأما الشَّهَةُ كما نطق به الناظم فمولد عامى ، وقول الفرس شاهانشاه معناه ملك الملوك والبيذق : هو بفتح الباء الموحدة والذال المعجمة بينهما تحية ساكنة والمراد به هنا عود الشطرنج الذى هو فى آخر مرتبة منها وهو فى الأصل معرب يیفه بالفاء ومعناه فى لغة الفرس الراجل فى الحرب ويجمع على يياذق .

القول فى الشطرنج والنرد وما يتعلق بهما

والكلام عليهما من أربعة أوجه : تفسير لفظيهما وبيان واضعيهما والكشف عن سرهما وحكم اللعب بهما .

أما لفظيهما : فالنرد بفتح النون وسكون الراء عجمى معرب ويقال له النردشير نسبة إلى واضعه وهو : أزد شير بن بابك كما سيأتى ، ومعنى أزد شير بالعربية دقيق وحليب وقيل دقيق وحلاوة .

وأما الشطرنج فهو بكسر الشين وفتحُة من لحن العامة كما نص عليه ابن هشام وقيل إن اشتقاقه شدرنج ومعناه أن من اشتغل به ذهب عناؤه باطلاً ، وحكى الوطواط أنه مشتق من شِش رَثْكَ ومعناه ستة ألوان فالشاه لون ، والفرزان لون ، والفيل لون ، والرخ لون ، والفرس لون ، والبيذق لون ، وهذا الأصح والأقرب .

وأما واضعهما ، فإن النرد وضعه أزد شير بن بابك أول ملوك الساسانيين.
وضربه مثلاً للقضاء والقدر كما سنوضحه بإذن الله .

وأما الشطرنج فقد وضعه الحكيم صيصة بن داهر الهندي ، وقد اضطرب ابن
خلكان في اسم الملك الذي وضعه له هذا الحكيم فتارة سماه شهزام بكسر الشين
المعجمة وتارة سماه بلهيت بشاء مثلثة ، والذي عند الوطواط ونقله الدميرى عن
شيخه اليافعى وغيره أنه بلهيت .

واختلف في السبب الذى من أجله وضعه ، فقليل إن الفرس لما وضعت النرد
افتخرت بذلك فوضع الحكيم صيصة لملك عصره الشطرنج فقضت حكماء ذلك
العصر بترجيحه على النرد لأمر يطول شرحها ؛ وقيل إن ملك الهند أحب أن
يرى الحرب وتديرها فى خفض ودعة فوضع له الحكيم المذكور الشطرنج ؛ وقيل
إن السبب فى وضعه أن بعض ملوك الهند كان له ولد يسمى شاه أغزاه بعض
الجهات فقتل فيها فهاب الناس أن يعلموه بموته فوضع لهم حكيمهم الشطرنج
ولعب به الوزير مع الملك فقال الملك شاه مات فقال الوزير من الملك سمعتها فعلم
الملك أن ولده قد مات وأمر أن يُعزى فيه ؛ ولما عرض الشطرنج على ملك الهند
أعجبه وفرح به كثيراً وأمر أن يكون فى بيوت الديانة ورآه أفضل ما علم لأنه آلة
للحرب وعز للدين والدنيا وأساس لكل عدل ، وقال لصيصة اقترح عليّ ماتشتي
فقال له أشتي أن تضع فى البيت الأول حبه بُرّ ولا تزل تضعها حتى تنتهى إلى
آخر البيوت فما بلغ تعطيني فاستصغر الملك ذلك وأنكر عليه لكونه قابله بالنزر
واليسير وقال كنت أظن رجاحة عقلك ، فقال أيها الملك إنك لما صرفتنى إلى
التمنى لم يخطر ببالى غير ذلك ولا سبيل إلى الرجوع عنه فأمر الملك بما سأل وأمر
الحسابين باستخراج ذلك فإذا به شيء لا يفى به حصر فقال الملك لأدري أيهما
أعجب الشطرنج أم الأُمْنِيَّة ؟

وأما سر النرد فقد وضع ضربه للقضاء والقدر فَجَعَلَهُ واضِعُهُ مثلاً للدنيا
وأهلها فرتب الرقعة إلى اثنتى عشر بيتاً بعدد شهور السنة وجعل المهارك ثلاثين

بعدد أيام الشهر وخالف بين ألوانها كاختلاف سواد الليل وبياض النهار وجعل منازل الرقعة أربعاً وعشرين منزلة بعدد سوائع الليل والنهار ثم قسم المنازل أربع مرات كعدد الفصول الأربعة التي هي الشتاء والربيع والصيف والخريف وشبه جوانب كل فص وهي ستة بالجهات الست إلى غير ذلك من تفصيله الذي لا يستطيعه إلا من هو ملم به ودخل في الأصل في تفصيل كل شيء فليقف عليه من شاء .

وأما الشطرنج فاللعب به معروف وتخته رموز وأسرار جُلُّها ترجع إلى مكائد الحرب وقد قال الشاعر في وصفه :

وَكَيْتَنِي زَيْجٌ وَرُومٌ أَذْكِيَا حَرْباً يَسْأَلُ بِهَا الذِّكَاةَ مَنَاصِلَا
فِي مَعْرَكٍ قَسَمَ النَّزَالُ بَقَاعِهِ بَيْنَ الْكِمَاةِ الْمَعْلَمِينَ مَنَازِلَا
لَمْ يَسْفِكَا فِيهِ دَمًا وَكَأَنَّمَا رَشُّ الدِّمَاءِ أَعَالِيًا وَأَسَافِلَا
تَبْدَى لَعِينِكَ كُلَّمَا لَاحَظْتُهَا قَرْنَيْنِ جَالَا مُقَدِّمًا وَخَاتِلَا
فَكَأَنَّ ذَا صَاحٍ يَسِيرُ مُقَوِّمًا وَكَأَنَّ ذَا نَشْوَانٍ يَخْطُرُ مَائِلَا
فَاعْجَبْ لَهَا حَرْبًا تُثِيرُ إِذَا أَلْظَتْ فَضْلَ الرِّجَالِ وَلَا تُثِيرُ قَسَاطِلَا

وصاحب كتاب الصادح والباغم أبو يعلى الهاشمي المعروف بابن الهبارية ذكر ثمرة النوعين وفرض ذلك في مفاء وقعت بين شخصين أحدهما هندي والآخر فارسي فليراجع الأصل من شاء الوقوف عليه .

وأما حكم اللعب بهما ففي الصحيح عن بريرة أن النبي ﷺ قال : « من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه » وفي الموطأ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله » واختلف في علة تحريمه فقليل لأنه يورث العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة ويشغل القلب فيحرم اللعب به باتفاق السلف بل حكي بعضهم عليه الإجماع وتوزع فيه ، وقيل حرام لأن فيه إحياء سنة الجوس المتكبرين على الله .

وأما الشَّطرنج فقد ذهب جمهور العلماء إلى تحريم اللعب به وعليه الأئمة الثلاثة مالك وأبو حنيفة وأحمد ، وحكى البيهقي لإجماع الصحابة على ذلك وحكى عن الشافعي كراهته تنزيهاً على الصحيح المشهور عنه .

قال النووي هو مروي عن جماعة من التابعين ، لكن أنكر صاحب المقدمات ما روي من ذلك عن التابعين وقال هي أحاديث لا أصل لها من أحاديث الكوفة وكان مالك يسميها دار الضرب ، ثم الكراهة عند الشافعي مقيدة بما لم يواظب عليه ، وتعتبر المواظبة عليه بالعرف ، وما لم يلعب مع معتقد تحريمه ، أو يكن على شكل الحيوان أو يهدى عليه ، وما لم يقترن به قمار ، ولم يلعبه على الطريق ولم يؤخر به الصلاة والا حُرِّمَ في الجميع ، وما اقتضاه ظاهر مختصر خليل من عدم حرمة حيث جعله من أفراد مالا يليق بخلاف المذهب وفي الخطاب قول بجواز اللعب به مع نظيره في خلوة لا مع الأوباش وعلى كل حال فالإدمان عليه قاذح في الشهادة « والله تعالى أعلم » .

[وَكَمْ حُبَّارَى أُمَّهَا صَقَّرَ فَلَمْ يَظْفَرْ بِغَيْرِ حَتْفِهِ بِالدَّرِقِ]
[وَكَمْ غُيُونٍ لَأَسْوَدِ دَمِيثٍ بِالْعَضْرِ مِنْ بَعُوضِهَا الْمُلتَصِقِ]

الحبارى طائر معروف يقع على الذكر والأنثى والمفرد والجمع بلفظ واحد وألفه للتأنيث خلافاً للجوهري قال ولو لم تكن له لانصرفت ، ويصغر على حُبَيْرَى وحُبَيْرٍ قال ابن مالك :

وعند تصغير حبارى خير بين الحبيرى فادر والحُبَيْر

وهي من أشد الطير طيراناً وأبعدها شوطاً وذلك أنهم قالوا إنها تصاد بالبصرة فيوجد في حواصلها حبوب منابت شجرها بالشام .

والصقر هو كل طائر من البزاة والشواهين ويقال بالصاد وبالسین والزای لأنهم كثيراً ما يبدلون الصاد سيناً إذا كان في الكلمة قاف أو طاء أو غين أو خاء قاله الجوهري ، وقال الصيدلاني في شرح مختصر المزني كل كلمة فيها صاد وقاف فيها اللغات الثلاث كالصباق والبزاق .

الحتف : الهلاك ولا يبنى منه فعل على التحقيق ، ومات حتف أنفه أى على فراشه يتنفس حتى مات ؛ وذرق الطائر بالذال المعجمة وسكون الراء خُرءُ ويقال فيه بالزاي بدل الذال فى جميع تصاريفه .

والبعوض : معروف وقيل إنه على خلقة الفيل إلا أنه أكثر منه أعضاء واشتقاقه من البعض وهو القطع كالبضع والعضب وأنشدوا على ذلك قول الشاعر :

لنعم البيت بيت أى دثار إذا ما خاف بعض القوم بعضاً
أى إذا ما خاف بعض القوم عض البعوض ، وقد تقدم هذا المعنى عند قول الناظم :

[ودع يسوق بعضها بعضاً فقد دنا ولوجها بوعر ضيق]

ومعنى الأبيات الثلاثة المتقدمة أعنى ابتداءً من قوله ولا تحارب ساقط القدر إلخ أن العاقل لاسيما من كان من أهل الأقدار والهيآت لا ينبغي له أن يحارب من لا قدر له بأن يارزه ويقاتله لما فى ذلك من المعرة إذا كان مغلوباً وعدم المزية إذا كان غالباً وبرهن على ذلك أن أرقى قطعة فى الشطرنج هى الملك وقد يأسره البيدق وهو أضعف قطعة فيه ، وأن الصقر وهو أسد الطيور قد يلقي حتفه بسبب ذرق الحبارى .

ذكر الجاحظ أن للحبارى خزانة فى دبرها وأمعائها لها أبدأ فيها سلح رقيق فمتى ألح عليها الصقر سلحت عليه فينتف ريشه كله وفى ذلك هلاكه ، فقد جعل الله سلحها سلاحاً لها ؛ وفى ثمار القلوب : سلاح الحبارى يضرب مثلاً للضعيف يستعين بالآلة اللئيمة على مقارعة من هو أقوى منه فرجما يغلبه بها .
قال فى المعنى أبو فراس الحمدانى :

ولا خير فى دفع الردى بمذلة كما ردها يوماً بسوءته عمرو
هذا ، وقد أخذ ناظمنا قوله وكم عيون لأسود دمت إلخ .. من قول القائل :
لا تحقرن ضعيفاً فى عداوته إن البعوضة تدمى مقلة الأسد

وللشرارة نار حين تُضرمُها وربما أضرمت ناراً على بلد
ومما ينخرط في هذا قولهم في المثل : « أَشْرَى الشَّرِّ صِغَارُهُ » وأصله كما في
الميداني أن صياداً قدم بنحي من عسل ومعه كلب له فدخل على صاحب حانوت
فعرض عليه العسل لبيعه له فقطرت من العسل قطرة فوقع عليها زنبور وكان
لصاحب الدكان ابن عرس فوثب على الزنبور فوثب كلب الصياد على ابن عرس
فقتله فضرب صاحب الدكان كلب الصياد بعصاه فقتله فوقع الصياد على صاحب
الدكان فقتله فاجتمع أهل قرية صاحب الدكان على الصياد فقتلوه فبلغ الخبر قرية
الصياد فاقتتلوا مع أهل قرية صاحب الدكان حتى تفاقوا ، ف قيل هذا المثل « والله
أعلم » .

« وَالْخُلْدُ قَدْ مَزَّقَ أَقْوَامَ سَبَا وَهَدَّ سَدًّا مُحْكَمَ الثَّائِقِ » [

الخلد : بضم الخاء وسكون اللام ، وفي شرح مختصر خليل المالكي عند
قوله : كيربوع وخذ بثليث الخاء مع فتح اللام وسكونها ؛ قال الجاحظ : هو
دوية عمياء صماء لا تعرف ما بين يديها إلا بالشم فتخرج من جحرها وهي تعلم
أن لا سمع لها ولا بصر فتفتح فاما وتقف عند جحرها فيقع الذباب على شديقها
و يمر بين لحيها فتدخله جوفها بنفسها ، وجمع الخلد مناخذ من غير لفظه نسبة في
الأصل للقاموس ؛ والتمزيق : التفريق والتقطيع يكون في الثوب ونحوه ويستعار
لغير ذلك ، وهُدَّ البناء هدمه بِشِدَّة صوت ؛ والسَّدُّ : بناء يجعل في وجه الماء
والجمع أسداد ، والسدُّ الحاجز بين الشيئين بالضم فيهما والفتح لغة وبهما قرئ
القرآن وتأنق في الشيء إذا عمله بإتقانٍ وحِكمه .

ذكر أهل سبأ وتفرقهم وخراب السد والسبب في ذلك

هذه القصة مذكورة في كتاب الله في سورة سبأ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ
لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزِقٍ ﴾ ^(١) وعن مرة بن مسيك المرادي قال لما أنزل الله في

(١) سبأ الآية (١١٥ - ١٢٠)

سبأ ما أنزل قال رجل : يا رسول الله وما سبأ أرض أم امرأة ؟ قال ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرة من الولد فتيا من منهم ستة وتشاءم أربعة فأما الذين تشاءموا فلخم ، وجذام ، وغسان وعاملة ، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار ، فقال الرجل يا رسول الله وما أنمار ؟ قال الذين منهم خثعم وبجيلة أخرجه الترمذى مع زيادة وقال حسن غريب ،

فسبأ لقب عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان أحد ملوك اليمن العظام كما مر في ذكر دولتهم وتعداد ملوك هؤلاء] .

وأما السدّ فهو سد مأرب بفتح الميم وسكون الهمزة المبدلة ألفا وكسر الراء وباء موحدة في آخره ، وهى بلدة أو قصر باليمن بينه وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام .

قال البغوي في تفسيره عند قوله تعالى ﴿ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴾ قال أبو زيد لم يكن يُرى في بلدتهم بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية ، وكان الرجل يمر ببلدتهم وفي ثيابه القمل فيموت قمله من طيب الهواء .

وقد اختلف في باني هذا السد فقيل بنّته بلقيس وقيل بناه لقمان بن عاد ، والذي ذهب إليه السهيلي أنه من بناء سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان كما تقدمت الإشارة إليه في ذكر ملوك حمير ، وقد رجح ابن خلدون هذا القول وقال إنه هو الأليق والأصوب .

وقد كانت أرض سبأ من أخصب أرض اليمن وأثراها وأكثرها جنائا وغيطائا وأفسحها مروجاً وبنياناً وكانت أشجارها متكاثفة وظلالها ممتدة أكثر من مسيرة شهر في شهر للراكب المجد ، وكانت المرأة تخرج ومعها مغزها والمكتل على رأسها وهى تمشي تحت أغصان الشجر وتغزل فلا ترجع إلى بيتها إلا وقد امتلأ المكتل من الثمار ، فكان لهم ملك ضخيم وشوكة تامة فكانوا تاج الأرض وزينة الدنيا .

وذكر وهب بن منبه أن الله أرسل إليهم ثلاثة عشر نبياً فدعواهم إلى الله

وذكروهم نعمة الله عليهم وأنذروهم عقابه فكذبوهم وقالوا مانعرف الله علينا نعمة
فقولوا لربكم فليحبس عنا هذه النعمة إن استطاع ، وفي ذلك تقول امرأة منهم كما
نسبه إليها في مروج الذهب :

إن كان مانصبح في ظلاله من ربكم فلينطلق بماله
إليه عنا وإلى عياله

قال : فذلك قوله تعالى ﴿ فَأَعْرِضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ .

وذكر المسعودي أنه لاخلاف بين أهل الرواية منهم أن العَرِمَ هو المسبأة التي
أحكموا عملها لتكون حجزاً بين ضياعهم وبين السيول ففرجته فارة ليكون ذلك
أظهر في الأعجوبة ، وذلك مذكور في أشعارهم متواتر عند عامتهم وخاصتهم .

وكان للملكهم أخ عقيم كاهن يدعى عمران بن عامر وزوجته كاهنة من أهل
ردمان من حمير تدعى طُرَيْفَةَ بنت الخير ، وملكهم هذا هو : عمرو بن عامر
المعروف بمُزَيْقِيَاء ابن ماء السماء ابن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البهلول
ابن ثعلبة البطريق بن مازن الشَّدَاخ بن الأزد بن الغوث ، وكان من كبار ملوك
كهلان ، وإن ماء السماء هذا لقب له لجودته وسخائه وليس هو ماء السماء
المعروف في نسب ملوك العراق المنذر بن ماء السماء فتلك أمه من الثمر بن قاسط
لقبت بذلك لحسنها وجمالها .

قال المسعودي : وكان أول شيء ظهر من أمر سيل العرم أن عمران الكاهن
رأى في كهانته أن قومه سوف يمزقون كل ممزق ويباعد بين أسفارهم فذكر ذلك
لأخيه عمرو الملك وهو مزيقيا الذي كانت محنة القوم في زمنه ، ثم إن الكاهنة
طريفة رأت في منامها أن سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ثم أصعقت
فأحرقت ما وقعت عليه ففزعت لذلك وذعرت ذعراً شديداً وأتت الملك وهي
تقول : مارأيت كالיום ، قد ذهب عني النوم ، رأيت غيماً أبرق ، وأرعد طويلاً
ثم أصعقت ، فما وقع على شيء إلا وأحرق ، فما بعد هذا إلا الغرق ، فسكنوا من
رَوْعِهَا ثم إن الملك دخل حديقة له ومعه جاريتان له فبلغ ذلك طريفة فخرجت

نحوه وأمرت وصيفا له يقال له سنان أن يتبعها فلما برزت من بيتها عارضها ثلاث
مناجذ منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن فلما رأتهن طريفة
وضعت يديها على عينيها وقعدت إلى الأرض وقالت للوصيف إذا ذهبت هذه
المناجذ فأعلمني ففعل فانطلقت مسرعة فلما عارضها خليج الحديقة التي فيها
الملك وثبت من الماء سلحفاة فوقعت في الطريق على ظهرها وجعلت تروم
الانقلاب فلا تستطيع فتستعين بذنبها وتحشو التراب على بطنها وجنبها وتقذف
بالبول فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض فلما عادت السلحفاة إلى الماء مضت
طريفة حتى دخلت على عمرو الحديقة حين انتصف النهار في ساعة شديد حرها
فاذا الشجر يتكفأ من غير ريح فلما رآها قال هلم يا طريفة إلى فراشك ، فكهنت
وقالت : والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لتالف ، وليعودن الماء
كما كان في الدهر السالف ، قال عمرو : من خبرك بهذا ؟ قالت أخبرني المناجذ ،
سنين شداثد ، يقطع فيها الولد الوالد ، قال : ماتقولين ؟ قالت : قول الندمان
لهفى ، قد رأيت سلحفا ، تجرف التراب جرفا ، وتقذف بالبول قذفا ، فدخلت
الحديقة فاذا الشجر يتكفأ ، قال عمرو : وما ترين ذلك ؟ قالت : هي داهية
ركينة ، ومصيبة عظيمة ، بأمور جسيمة ، قال : وماهى ويلك ؟ قالت أجل إن
لي فيها الويل ، ومالك فيها من نيل ، فلي ولك الويل ، مما يجيء به السيل ، فألقى
عمرو نفسه على الفراش وقال : ماهذا يا طريفة ؟ قالت : هو خطبٌ جليل ،
وحزن طويل ، وخلف قليل ، والقليل خير من تركه ، ثم طريفة لم تنزل به حتى
تيقن الأمر النازل ورأى هو سيل العرم في نومه فعلم أن ذلك واقع وأن بلاده
ستخرب فقرر أن يبيع كل ما يملكه بأرض سبأ وأن يخرج هو وولده منها ثم خشي
أن يستنكر الناس ذلك فصنع طعاما وأمر بإبل فنحرت وبغنم فذبحت ثم بعث إلى
أهل مأرب أن عمرا صنع يوم مجد وذكر فاحضروا طعامه ثم دعا ابناً له يقال له
مالك وقيل كان يتيماً في حجره ، فقال إذا أنا جلست أطعم الناس الطعام اجلس
أنت عندي ونازعني الحديث وارده عليّ وافعل بي مثل ما أفعل بك ففعل الولد
مأمره به الملك فلطم عمرو وجهه وشتمه فصنع هو بعمرو مثل ما فعله به ، فقام

عمرو يصيح وأذلاه يوم فخر عمرو يشتمه صبي ويضرب وجهه وحلف ليقتله فلم يزالوا به حتى تركه وقال لا أقيم ببلد صنع لي فيه هذا ولأبيعن عقاري الذي فيه وأموالي فقال الناس اغتصموا غصبة عمرو واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى فابتاع الناس منه كل ماله بأرض مأرب وفشا بعض حديثه فيما بلغه من سيل العرم فخرج ناس من الأزد وباعوا أموالهم فلما أكثروا البيع استنكر الناس ذلك وأمسكوا أيديهم عن الشراء ، فلما اجتمعت لعمرو مزيقيا أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم ثم تحمل في أهله وولده وتبعه جل أهل سبأ ثم نَقَبَ الخلد أسفل السد ففرَّق الماء جناهم وأخرب أرضهم وأهلك بقيتهم ومُزَّقُوا كل مُمَزَّقٍ حتى صاروا مثلاً عند العرب يقولون : ذهبوا أيدي سبأ ، وتفرقوا أيادي سبأ .

ولما فصل مزيقيا بمن معه قالت لهم الكاهنة طريفة : لا تؤموا مكة حتى أقول ، وما علمني ما أقول إلا الحكيم المحكم ، رب جميع الأمم ، من عرب وعجم ، قالوا لها : ما شأنك يا طريفة ؟ قالت خذوا البعير الشدقم ، فخضبوه بالدم ، يكن لكم أرض جرهم ، جيران بيته المحرم ، فلما انتهوا إلى مكة وأهلها يومئذ جرهم وكانوا قد قهروا الناس وحازوا ولاية البيت على بني إسماعيل « عليه الصلاة والسلام » ، أرسل إليهم عمرو مزيقيا ولده ثعلبة يسألهم المقام معهم إلى أن يرجع إليه رواده الذين أرسلهم إلى أصقاع الأرض يتطلبون له موضعاً يسعه ومن معه من قومه فأبوا عليه فاقتتلوا ثلاثة أيام فانهزم جرهم ولم يفلت منهم أحد إلا الشريد ، وأقام ثعلبة بمكة وما حولها في قومه وعساكره حولاً فأصابتهم الحمى وما كانوا يدرون ما الحمى ببلادهم فاضطروا إلى الخروج وقد رجع إليهم روادهم فافترقوا بإشارة طريفة ، وقيل بإشاره زوجها عمران ، ففرقة منهم توجهت إلى عُمان بضم العين وهم الأزد وكندة وحمير ومن يتلوهم ، وسار ثعلبة إلى الشام فنزل الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بالمدينة وهم الأنصار ، وذهبت غسان إلى الشام وغسان ماء نزلوا قربه في طريقهم من اليمن إلى الحجاز فشربوا منه فسموا به ، فانخرعت خزاعة بمكة فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو مزيقيا وربيعه هذا هو لَحْيٌ بالتصغير فولي أمر مكة وابنه عمرو بن لحي هو أول من غير الحنيفية دين

إسماعيل « عليه السلام » ، وهلك طريفة بمكة وفي يوم موتها ولد شق وسطيح الكاهنان المشهوران اللذان بشرا بظهور النبي « صلى الله عليه وسلم » وقال ابن خلكان إن كل واحد منهما عاش مئة سنة .

قلت : وقد أشار في عمود النسب إلى حديث فروة بن مسثك الذي قدمنا قال العلامة الشيخ أحمد البدوي المجلسي الشنقيطي :

نسب خير مرسل نبينا عشرة الأزد الأشقرين
وحميراً ومذحجا وكندة أمار سادس لهم في العدة
وقد تيامنوا ومن أشام له غسان لحم وجذام عاملة

كما أشار رحمه الله في نظمه المفيد هذا عمود النسب إلى ما ذكر من طيب هواء سبب وموت الهوام والعقارب والقمل بأرضهم فقال :

طيب هواء سبب يموت له من حينه قمل غريب نرلة
وما تولد من العفولة ومن ذوات السم لا يرونه

[وَلَا تُنْعَضُ أَحَدًا فَكُلْنَا مِنْ رَجُلٍ وَأَصْلُنَا مِنْ عَلَقٍ]

معنى هذا البيت أنه ينبغي أنك إذا رفعت نفسك عن محاربة الدني ومبارزته فإياك أن يكون لك تنغيص له لا باللسان ولا بالجنان فلا تسبه ولا تسخر منه ، قال تعالى ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ (١) الآية ونسب في الأصل لمحمد الباقر رحمه الله أنه قال لابنه : يا بني إن الله أخفى ثلاثاً : أخفى رضاه في طاعته فلا تحقرن من الطاعة شيئاً لعل فيها رضا الله ، وأخفى سخطه في معصيته فلا تحقرن من المعصية شيئاً فلعل سخطه فيها ، وأخفى أوليائه في خلقه فلا تحقرن من عباد الله أحداً فلعله ذلك الولي ، قال الشاعر :
كن كيف شئت فإن الله ذو كرم وما عليك إذا أذبت من باس
إلا اثنتين فلا تقربهما أبداً الشرك بالله والإضرار بالناس
وقد أشار الناظم بقوله « فكلنا من رجل وأصلنا من علق »

(١) الحجرات الآية ١١

إلى أن أصل الإنسان شيء حقير فلا معنى لافتخاره وترفعه لا بالنظر إلى غيره ولا بالنظر إلى ذاته على الخصوص ، يروى أن عيسى « عليه الصلاة والسلام » سئل أي الناس أفضل فقبض قبضتين من تراب وقال أي هذا أفضل ؟ قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) وروى أبو داود والترمذي وابن حبان من حديث أبي هريرة « رضي الله عنه » أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقى وفاجر شقى أنتم بنو آدم وآدم من تراب ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها التتن » .

وعن علي « رضي الله عنه » أنه قال ما لابن آدم والفخر !؟ إنما أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قدرة وهو فيما بينهما يحمل العذرة ، قال الشاعر :

ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر

[لا تُلْزَمُ الْمَرْءَ غُيُوبَ أَصْلِهِ فَالْمِسْكُ أَصْلُهُ دَمٌ فِي الْعُنُقِ]
[وَالْحُمْرُ مَهْمَا طَهَّرْتَ فَبَيْنَنَا وَبَيْنَ أَصْلِهَا بِحُكْمٍ فَرَقِ]

ومعنى البيتين النهي عن تنغيص أحد من خلق الله وإن كان أصله ناقصاً لأن التعبير بالآباء من أخلاق الجاهلية كالافتخار بهم وقد قال رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه : يا أبا ذر أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية أي خصلة من خصال الجاهلية ، وذلك أنه غير غلاماً بأمه ، ولأنه قد يكون ذلك غير لازم ولا مطرد فقد يكون الأصل خسيساً والفرع شريفاً نفيساً كالمسك فإن أصله الدم القذر وقد أثنى عليه ﷺ : المسك أطيب الطيب ، وقد أحسن ابن الرومي حيث يقول :

وكم أب قد علا بابن ذرا شرف كما علت برسول الله عبدنان
ولأبي الطيب في هذا المعنى قوله :

(١) الحجرات الآية (١٣)

رَأَيْتَكَ فِي الذِّينِ أَرَى مُلُوكاً كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالٍ
فَإِنْ تَقُفِي الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمَسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

لعليفه : يحكى أن أبا الحسن محمد بن أحمد الشاعر قال كان سيف الدولة
يُسَرُّ مَنْ يَحْفَظُ شِعْرَ أَبِي الطَّيِّبِ فَأَنْشَدَتْهُ يَوْمًا .. رَأَيْتَكَ فِي الذِّينِ أَرَى مُلُوكاً ..
البيتين ، فقلت ، وكان أبو الطيب حاضرا : هذا البيت والذي بعده لم يسبق إليهما
أبو الطيب ؛ فقال سيف الدولة : كذا حدثني الثقة أن أبا الفضل محمد بن الحسن
قال كما قلت ، فأعجب أبو الطيب واهتز ، فأردت أن أحركه فقلت إلا أن فيه
عيباً في الصنعة ، فالتفت أبو الطيب التفات الحق وقال : ماهو ؟ قلت : قولك
« مستقيم في محال » والمحال ليس من ضد الاستقامة بل ضدها الاعوجاج ، فقال
الأمير : هب القصيدة جيمية فكيف تعمل في تغيير قافية البيت ، فقلت على
أبدية : فإن البيض بعض دم الدجاج :
فضحك ثم قال حسن مع هذه السرعة إلا أنه يصلح أن يباع في سوق الطير لا بما
يمدح به أمثالنا يأبها الحسن .

وقال آخر مضمناً عجز بيت أبي الطيب .
جرحت بناظري خديهِ لطفاً فخالوا خاله أثر اندمال
ولما فاح طيبا قيل مسك فقلت المسك بعض دم الغزال
وذكر الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » أن المشهور أن غزال المسك
كالظبي لكن لونه أسود وله نابان لطيفان أبيضان في فكه الأسفل وأن المسك دم
يجتمع في سرتة في وقت معلوم من السنة فإذا اجتمع ورم الموضع فيمرض الغزال
إلى أن يسقط منه ، ويقال إن أهل تلك البلاد يجعلون له أوتاداً في البريه يحتك بها
ليسقط ، وقيل فيه غير ذلك من أقاويل مختلفة كثيرة .

وأما ما أشار إليه من حكم طهارة الخل ونجاسه أصله الذي هو الخمر فهو
موضوع بحث وخلاف معروف ، فقد حكى النووي الإجماع على أن الخمر إن

تخللت بنفسها طهرت ، والمذكور في كتب المالكية عن مالك فيها ثلاث روايات ، فعنه أنها إن خللت فقد فعل حراماً فهو عاص بتخليها وتطهر ؛ قلت : وعليه مشى في مختصر خليل حيث قال في الطاهر : [وخمر تحجر أوخلل] — وهو المشهور في المذهب المالكي اهـ .

والرواية الثانية عن مالك أن التخليل حرام ولا أثر له بمعنى أنها لا تطهر به ، والثالثة : أن التخليل يجوز وتطهر به قاله النووي « رحمه الله » .

ومذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد أن التخليل لا يجوز ولا تطهر به لأن الخمر ، تجب إراقتها ، وقال الليث والأوزاعي وأبو حنيفة أنها تطهر بالتخليل .

قلت : علما بأن الخلاف واقع في نجاسة الخمر أصلاً بين العلماء وإن كان الجمهور على نجاستها والعلم عند الله تعالى .

[وَلَا تُؤَيِّنْ طَامِعاً فِي رُتْبَةٍ لِّئَلَّهَا نَظِيرُهُ لَمْ يَرْتَقِ]
[فَالزَّرْدُ يَوْمَ الْغَارِ لَمْ يَثْبُتْ لَهُ فَضْلٌ وَكَانَ الْفَضْلُ لِلْخَدْرَنْقِ]

والمرتبة : بالضم المنزلة والمكانة والجمع رُتْبٌ كغُرْفَةٍ وغُرْفٍ والنيل : الإدراك والإصابة .

والزَّرْدُ بالتحريك هي الدرع المزرودة ، وسكنها الناظم هنا لضرورة الوزن والغار هو كهف في أعلى جبل ثور في يمين مكة مكث فيه النبي ﷺ وأبو بكر « رضي الله عنه » ثلاثاً عند خروجهما للهجرة .

والخدرنق على وزن سفرجل وبالبدال المهملة وقيل يجوز في داله الإعجام ، هو العنكبوت أو العظيم منها ، قال الراجز :

ومنهل طام عليه الغَلْفَقُ يُنِيرُ أو يُسْنِدِي به الخدرنق

قال في الأصل والخدرنق يجمع على خدارق وخدارن والله أعلم .

ومغزى البيتين النهي عن ملازمة همة النظر بهمه نظيره فقد تكون همة هذا ساقطة وهمة نظيره عالية جداً سواء أكان ذلك النظر في السن أو في النسب أو غير

ذلك فكم رأينا من شخصين تَرَبَّينِ قد سمت بأحدهما هتته إلى المعالي فناها شأبا
وقعدت بالآخر نذالته حتى بقي في الحضيض .

ومن الحكيات المناسبة لهذا المقام ما ذكره الخطيب في تاريخه أن يحيى بن أكرم
قاضي المأمون كان قد ولى قضاء البصرة وسنه عشرون سنة أو نحوها فاستصغروه
فقالوا كم سن القاضي ؟ فعلم أنه قد استصغر فقال أنا أكبر من عتاب بن أسيد حين
ولاه رسول الله ﷺ على مكة عام الفتح وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين وجهه
رسول الله ﷺ قاضيا على اليمن وأنا أكبر من كعب بن سور الذي وجه به عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه قاضيا على البصرة . فأفحمهم .

وأما في النسب فكم من أخوين كان بينهما من البعد والبون ما بين الضب
والنون كما قال الشاعر :

علی وعبد الله بينهما أب
ألم تر عبد الله يلحی علی الندی
وشتان ما بين الطبايع والفعل
علیا ويلحاه علی علی البخل
وقال الآخر

أبو الحسن الطيب ومقتفيه أبو البركات في طرفي نقيض
فهذا بالتواضع في الثريا وهذا في التكبر في الحضيض

[وَقَوْسُ حَاجِبٍ يَرْهِنُهَا لَدَى كِسْرَى اطمأن قلبه بما لقي]

ومعنى البيت شاهد لمغزى البيتين قبله ، فهذه القوس كانت من جملة
الأقواس التي لاتساوى كبير فائدة ومع ذلك فقد حصلت مزية كبيرة وأكسبت
صاحبها منقبة كبيرة وأحيت أمة من الأمم واشتهر ذكرها عند العرب والعجم .

ذكر حاجب وقوسه

أما حاجب فهو ابن زُرارة بن عُدُس بن زيد بن عبد الله بن دارم بن مالك
ابن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم التميمي الدارمي أحد أشراف بني تميم
وساداتها في الجاهلية وهو الذي يعنيه الفرزدق بقوله :

ومنا الذى أحيا الوئيد وغالب وعمرؤ ومنا حاجب والأقارع
قال المبرد : حاجب بن زرارة سيد تميم فى الجاهلية غير مدافع ، وذكر أيضاً
أن بيوتات العرب ثلاثة : فبيت تميم بنو عبد الله بن دارم ومركزه بنو زرارة ،
وبيت قيس بنو فزارة ومركزه بنو بدر ، وبيت بكر بن وائل بنو شيان ومركزه
بنو ذى الجدين ا . هـ .

وأما قوس حاجب فكان من خبرها أن حاجبا كان قد وفد على كسرى
أبرويز بن هرمز بن أنوشروان فى جَدْبٍ أصاب مضر وابعثها عليهم سنين كسنى يوسف «
حيث قال : « اللهم اشُدْ وطأتك على مضر وابعثها عليهم سنين كسنى يوسف »
أو كما قال ﷺ ، فمنع كسرى تميمًا من دخول ريف العراق فوفد عليه حاجب
ابن زرارة فلما استأذن عليه أرسل إليه : أسيد العرب أنت ؟ قال لا ، قال أفسيد
مضر ؟ قال لا ، قال أفسيد بنى أبيك ؟ قال لا ، فأذن له ، فلما دخل عليه قال
من أنت ؟ قال أنا سيد العرب ، قال أليس قد أوحيت إليك أسيد العرب أنت
فقلت لا حتى اقتصرت بك على بنى أبيك فقلت لا ؟ فقال أيها الملك إني لم أكن
كذلك حتى دخلت على الملك ، فلما دخلت عليك صرت سيد العرب ، فقال
كسرى املثوا فاه ذهبًا ثم سأله حاجب أن يأذن له ولقومه فى دخول الريف من
بلاده حتى يحيا أى يصيبهم المطر ، قال كسرى إنكم معاشر العرب قوم غُدْرٌ فإذا
أذنت لكم أفسدتم البلادَ وأغرتم على العباد وآذيتموني ، قال حاجب إني ضامن
لك أن لا يفعلوا ، قال فمن لى بأن تفى أنت ؟ قال : أرهناك قوسى . فلما جاء
بها ضحك القوم وقالوا : ألهذه العصا يفي ؟ قال كسرى خذوها ما كان ليسلمها
فى شىء أبداً ، فقبضها منه وأذن لهم فدخلوا الريف ، ولما ارتحلت تميم وقد هلك
حاجب جاء ولده عطارِدُ « رضى الله عنه » إلى كسرى يريد القوس فقال ماأنت
بالذى رهنا قال أجل أيها الملك ، قال فما فعل رهنها ؟ قال هلك وهو أبى وقد
وفى له قومه ووفى هو للملك ، فردها عليه وكساه حلةً ، فلما وفد عطارِد على
رسول الله ﷺ فى وفد تميم وهو سيدهم أسلم هو وأصحابه وأهدى إليه تلك
الحلة فلم يقبلها ﷺ فباعها عطارِد بأربعة آلاف درهم من يهودى .

ويحكى أن كسرى قال لحاجب : إن قوسك هذه لقصيرة معوجة ، قال أيها الملك وإن وفائي لطويل مستقيم .

قالوا وصارت تلك القوس مفخرة كبيرة لبني تميم وبقيت عند بني عطار
يتوارثونها ، وقد ذكرها أبو تمام في قصيدته التي يمدح بها أبا دلف القاسم بن
عيسى العجلي وهو من ربيعة فقال :

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها وزادت على ما وطئت من مناقب
فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب
[لَا تُعْشَ دَارُ الظُّلْمِ وَاعْلَمْ أَنَّهَا أُخْرِبُ مِنْ جَوْفِ حِمَارٍ خَلَقَ]

غشيان المنزل إتيانه ، والغاشية السؤال يأتونك والزوار يتناوبونك .

قلت : والغاشية واحدة الغواشي وهي الغطاء ومنه قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ الآية قال الراغب الأصفهاني في المفردات في
غريب القرآن : والغاشية كل ما يغطي الشيء كغاشية السرج وقوله ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ ﴾ أى نائمة تغشاهم وتجلبلهم .

وغشيت الموضع أتيته وقد كنى به عن الجماع يقال تغشأها ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلْتُ ﴾ والظلم معروف وهو وضع الشيء في غير محله وبه سمى الشرك لأنه
وضع للعبادة في غير محلها ولغير مستحقها .

والجوف من الحيوان بطنه ، والجوف موضع معروف ، وجوف حمار واد
بأرض عاد حماه رجل اسمه حمار .

ونخلق بالتحريك صفة مشبهة من خَلَقَ الثوب إذا بلي وقد تُفْتَحُ عين الفعل
وتكسر وقد يقال أخلق بالهمزة .

ذكر جوف حمار

إن من أمثال العرب قولهم « أُخْرِبُ مِنْ جَوْفِ حِمَارٍ » و « أُخْلِي مِنْ جَوْفِ

حمار » واختلف الناس في المراد بحمار في هذا المثل ، فقيل هو رجل من بقية عاد يقال له حمار بن مويلع ، وقيل حمار بن مالك بن نصر الأزدي كان مسلماً أربعين سنة في كرم وجود وكان له وادٍ يقال له جوف طوله مسيرة يوم في عرض أربعة فراسخ لم يكن ببلاد العرب أخصب منه فيه من كل الثمار فخرج بنوه وهم عشرة يتصيدون فأصابتهم صاعقة فماتوا فكفر وقال لا أعبد من فعل هذا ببني ثم دعا قومه إلى الكفر فمن عصاه قتله فأهلكه الله وأخرب واديه فضربت العرب به المثل في الحراب والخلاء ، وضرب به المثل أيضاً في الكفر قالوا « أكفر من حمار » وقد ذكر ذلك في شعر العرب قال الأفوه الأودي :

بشؤم البغي والغشم قديماً ما خلا جوف ولم يبق حمار
وقال آخر

ألم تر أن حارثة بن بدر يصلي وهو أكفر من حمار ؟
وقيل فيه غير ذلك والله تعالى أعلم

[وَلَا تَبِعْ عِرْضَكَ بَيْعَ أَبِي غَبْشَانَ بَيْعَ الْعَبْنِ وَالتَّبْلُصُقِ]
[بَاغِ السَّدَانَةَ قُصِيًّا آخِذًا عَوْضَهَا نَحْبًا مِنْ أُمِّ زَيْبِقِ]

العِرْضُ بالكسر النَّفْسُ والحسب ، يقال أكرمت عنه عرضي أى صنت عنه نفسي ، وفلان نقي العرض أى بريء من أن يُشتم أو يعاب .

قلت : وعبرة الفقهاء في تعريف العرض أنه محل المدح والذم من الإنسان ، وأبو غبشان رجل من خزاعة يأتي خبره إن شاء الله .

والْعَبْنُ بالسكون في البيع وبالتحريك في الرأى يقال غبنته في البيع وقد غبن فهو مغبون ، ويوم التغابن يوم القيامة لأن أهل الجنة يغبنون فيه أهل النار والتَّبْلُصُقُ : طلب الشيء في خفاء ومكر .

والسَّدَانَةُ : بالكسر خدمة الكعبة ، ويطلقونها في الجاهلية على خدمة بيت الصنم وجاءت وزناً على فعالة بكسر الفاء كسائر الحرف كالتجارة والتجارة وقد سدنها من باب قتل سدناً والواحد سادن والجمع سَدَنَةٌ .

وَقُصِّيَّ هُوَ بَضْمُ الْقَافِ وَفَتْحُ الْمَهْمَلَةِ وَتَشْدِيدُ الْيَاءِ هُوَ ابْنُ كِلَابِ بْنِ مَرَّةٍ
أَحَدِ أَجْدَادِ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْمُهُ زَيْدٌ وَإِنَّمَا سُمِّيَ قُصِيًّا لِتَقْصِيهِ عَنِ بِلَادِ قَوْمِهِ مَعَ أُمِّهِ
وَهُوَ فَطِيمٌ وَنَشِوْهُ بِلَادِ عَذْرَةٍ ، وَكَانَ يَدْعِي مُجْمَعًا لَجَمْعِهِ أَحْيَاءَ قَرِيشٍ وَإِنْزَاهِمَ
بِمَكَّةَ وَلِذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

أَبُوكُمْ قُصِيٌّ كَانَ يَدْعِي مُجْمَعًا بِهِ جَمَعَ اللَّهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فَهْرٍ
قُلْتُ : وَقَدْ ذَكَرَ الْعَلَامَةُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ الْبَدَوِيُّ الْمَجْلِسِيُّ ثُمَّ الشَّنْقِيطِيُّ فِي عُمُودِ
النَّسَبِ خَبَرَ الصَّفِيقَةِ الْمَغْبُونَةِ هَذِهِ بَيْنَ أَيْ غَبْشَانَ وَقُصِيٍّ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّازِمُ وَالَّتِي
سَوْفَ نَتَعَرَّضُ بِإِذْنِ اللَّهِ لِتَفْصِيلِهَا فَقَالَ :

وَلَمْ تَزَلْ خِزَاعَةُ أَهْلِ الْحَرَمِ	حَتَّى أَزَاحَهُمْ قُصَيُّ الْخِضَمِّ
بَزَقَ خَمْرٍ مِنْ أَيْ غَبْشَانَ	رَأَيْسَهُمْ ذِي الْقَبَنِ وَالْحُسْرَانِ
نَالَ الْمَفَاتِيحَ قُصَيٌّ وَذَمَّرَ	أَخَاهُ مِنْ قِضَاعَةٍ حَتَّى انْتَهَرَ
وَاتَّخَذَ النَّدْوَةَ لَا يُخْتَرَعُ	فِي غَيْرِهَا أَمْرٌ وَلَا تُدْرَعُ
جَارِيَةً وَيَعْذِرُ الْعُلَامُ	إِلَّا بِأَمْرِهِ بِهَا يُرَامُ
وَبَاعَهَا بَعْدَ حَكِيمٍ بْنِ حِزَامٍ	وَأَبُوهُ وَتَصَدَّقَ الْهَمَامُ
سَيِّدُ نَادِيهِ بِكُلِّ الثَّمَنِ	إِذَا الْعُلَا بِالَّذِينَ لَا بِالَّذِينَ
حِجَابَةً سَقَايَةَ رِفَادَةٍ	لَوَاءُ النَّدْوَةِ بِالْقِلَادَةِ
أَتَحَفَ عَبْدُ الدَّارِ إِذَا رَأَاهُ	دُونَ مَدَى إِخْوَتِهِ مَدَاهُ

وَمَغْزَى تَوَلَّاهُ وَلَاتَبَعَ عَرْضَكَ .. الْبَيْتَيْنِ ، هُوَ النَّهْيُ عَنِ تَدْنِيسِ الْعَرْضِ
بِسُؤَالِ النَّاسِ لَمَّا فِي السُّؤَالِ مِنَ الْمَذَلَّةِ وَالْهَوَانِ فَإِنَّ السَّائِلَ بِأَذَلِّ لِعَرْضِهِ مَرِيقَ لَمَاءٍ
وَجْهِهِ وَلَيْسَ عَنِ مَاءِ الْوَجْهِ عَوْضٌ وَلَوْ نَالَ بِسُؤَالِهِ مَا نَالَ ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ :
مَا اغْتَاظَ بِأَذَلِّ وَجْهِهِ بِسُؤَالِهِ عَوْضًا وَلَوْ نَالَ الْغِنَى بِسُؤَالِ
وَإِذَا السُّؤَالُ مَعَ النِّوَالِ وَزَنْتَهُ رَجَحَ السُّؤَالُ وَخَفَّ كُلُّ نَوَالٍ

ذکر أبي غُبْشان وصفته

أبو غبشان بفتح الغين المعجمة وقد تضم رجل من خزاعة واختلف في اسمه فقيل سليمان بن عمرو بن لؤي بن ملكان ، وقيل المحترش بن حُلَيْل بن حُبَيْشِيَّة الخزاعى ، وكان من حديثه أن خزاعة كانت سدنة الكعبة وكان حُلَيْل بن حُبَيْشِيَّة سيدهم وكان له بنون وبنت اسمها حُبَيٌّ هى زوجة قُصَيِّ بن كلاب ثم هلك حُلَيْل وأوصى بسدانة الكعبة إلى ابنه المحترش وكان غائباً فدفع حُلَيْل مفاتيح البيت إلى ابنته حُبَيٍّ وأمرها أن تبعث إلى أخيها المحترش ، ولما علم قصي أن حُلَيْلاً قد هلك وبنوه غُيِّبَ وأن المفاتيح في يد امرأته طلب أن تدفعها إلى ابنها عبد الدار بن قصي وقال لبنيه اطلبوا إلى أمكم مفتاح بيت أبيكم فلم يزل بها حتى قالت كيف أصنع بأبى غبشان وهو وصي معي ؟ فقال قصي أنا أكفيك أمره ، فاتفق أن أبا غبشان اجتمع مع قصي في شرب في الطائف فأسكره ثم اشترى منه المفاتيح بزق خمر وأشهد عليه ودفع المفاتيح إلى ابنه عبد الدار وطيره إلى مكة فلما أشرف عليها قال يامعشر قريش هذه مفاتيح بيت أبيكم قد ردها الله عليكم ، ثم إن خزاعة حاربت قُصَيًّا فنصره الله عليهم وتم أمره وجمع إليه قريشاً فسمى مجمعاً لذلك .

« والله أعلم » .

[وَلَا تَكُنْ كَأَشْعَبِ قَرْيَمًا تَلْحَقُ يَوْمًا وَافِدَ الْمُحَرِّقِ]

وهذا البيت تابع لما قبله في ذم الطمع فإنه مضر بالعرض والدين بل وبالنفس فربما أهلك صاحبه كما أن التعفف والقناعة من أصلح الأشياء للدين والدنيا وأبقى لماء الوجه وودياجته . وحسبك مدحاً له ما مدح الله به فقراء المهاجرين وأثنى عليهم بقوله ﴿ يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ ، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع ، وعن علي رضي الله عنه : أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع ، وعن بعض الحكماء : أحسن إلى من شئت تكن أميره واستغن عن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره .

لطيفة : يحكى أن رجلاً من معد رأى صخرة عظيمة ببلاد اليمن مكتوباً عليها
 العبارة التالية « اقلبنى أنفعك » فاحتال في قلبها ولقي من ذلك الأمرين ، فإذا على
 الجانب الآخر مكتوب « رَبُّ طَمَعٍ هدى إلى طَبَعٍ » فمازال يضرب الصخرة
 برأسه تلهفاً حتى انتثر دماغه فمات ، فصار يضرب به المثل في الطمع يقال :
 « أطمع من قَالِبِ الصخرة » ا. هـ ولا شيء أدل على أن الطمع قاطع عنق صاحبه
 من قصة وافد المحرق التى أشار إليها الناظم وَسَنَقِفُ عَلَيْهَا بِإِذْنِ اللَّهِ فيما بعد ، والله
 در القائل :

يَخَادِعُ رَبَّ الدَّهْرِ عَنْ نَفْسِهِ الْفَتَى سَفَاهاً وَرَبُّ الدَّهْرِ عَنْهَا يُخَادِعُهُ
 وَيَطْمَعُ فِي سَوْفٍ وَيَهْلِكُ دُونَهَا وَكَمْ مِنْ حَرِيصٍ أَهْلَكَتُهُ مَطَامِعُهُ

ذكر أشعب الذى حذر الناظم من سيرته

هو رجل من أهل المدينة صاحب نوادر مشهور بالطمع واسمه شعيب بن
 جبير مولى لآل الزبير وقيل إنه مولى لآل عثمان بن عفان ، وكنيته أبو العلاء ثم
 اشتهر بأشعب وحدث عن نفسه قال : نشأت أنا وأبو الزناد في حجر عائشة بنت
 عثمان فلم يزل يعلو وأسفل حتى بلغ كل منا المنزلة التى ترى ، وكان حسن
 الصوت بالقراءة ، وكان صاحب سند ويروى من حديث رسول الله ﷺ : « لو
 دعيت إلى ذراع لأجبت ولو أهدى إليّ كراع لقبلت » أو كما قال ﷺ ، ولما قدم
 بغداد فى أيام المهدي تلقاه الناس لأنه كان ذا إسناد فقالوا حدثنا ، قال حدثنى سالم
 ابن عبد الله بن عمر وكان ييغضنى فى الله قال « خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن » .
 وسكت فقالوا ماهما ؟ قال نسي سالم إحداهما ونسيت الأخرى .

وقال له عبد الرحمن بن أبى الزناد : يا أشعب أنت شيخ مسنٌ حدثنا فهل
 تروى شيئاً من حديث رسول الله ﷺ ؟ قال نعم ! حدثنى عكرمة عن ابن
 عباس رضى الله عنهما قال : خصلتان من حافظ عليهما دخل الجنة قال فما هما ؟
 قال نسي عكرمة الأولى ونسيت الأخرى .

وكان أشعب أزرق أحول أكشف أقرع

وكان من طمع أشعب أنه اتخذ خرقاً في بابه فكان إذا نام أخرج يده من الخرق طمعاً في أن يطرح أحد في يده شيئاً ، فجاء بعض من كان يعبث به فسلح في يده فلم يعد بعد ذلك إلى إخراجها .

وقال المدائني : قال أشعب تعلقت بأستار الكعبة فقلت اللهم أذهب عني الحرص والطمع في الناس فمررت بالقرشيين وغيرهم فلم يعطني أحد شيئاً فجئت إلى أمي فقالت مالك قد جئت خائباً ؟ فأخبرتها فقالت لا والله لا تدخل حتى ترجع فتستقيل ربك فرجعت فقلت يارب أقلني ثم جئت فلم أمر بمجلس من القرشيين ولا غيرهم إلا أعطوني ووهب لي أحدهم غلاماً فجئت إلى أمي بحمار موفور من كل شيء فقالت ماهذا الغلام ؟ فخفت أن أخبرها بالقصة فتموت فرحاً فقلت وُهَبَ لي قالت أي شيء وهب لك ؟ قلت حين قالت أي شيء عَين ؟ قلت لام ، قالت أي شيء لام ؟ قلت ألف قالت وأي شيء ألف ؟ قلت ميم قالت وأي شيء ميم ؟ قلت : غلام ، فغشي عليها ولو لم أقطع الحروف لماتت الفاسقة فرحاً .

ويحكى أن أشعب ساوم رجلاً في قوس فقال الرجل لا أنقصها عن دينار فقال أشعب والله لو أني رميت بها طائراً في السماء فوق مشويماً بين رغيفين مأخذتها بدينار .

وسأل سالم بن عبد الله بن عمر أشعب يوماً عن طمعه فقال قلت يوماً للصبيان : هذا سالم قد فتح باب صدقة عمر فانطلقوا يعطيكم تمرأ فمضوا فلما أبطئوا عني ظننت أن الأمر كما قلت لهم فأتبعتهم .

وعن المدائني : قيل لأشعب مابلغ من طمعك ؟ قال مارأيت اثنين يتساران إلا كنت أراهما يأمران لي بشيء .

وحكى ابن خلكان أن أشعب قدم على يزيد بن حاتم المهلبى وهو أمير بمصر فجلس بمجلسه ودعا بغلامه فسأره فقام أشعب وقبل يده يريد الانصراف فسأل

الأمير لماذا الانصراف ؟ فقال لأنى رأيتك تسار غلامك فظننت أنك قد أمرت لي بشيء فضحك الأمير وقال سأفعل إن شاء الله ووصله فأحسن إليه .

وعن المدائنى : وقف أشعب يوماً على امرأة تصنع طبقاً من خوص فقال لها زديه طوقاً أو طوقين فقالت أتريد أن تشتريه ؟ قال لا ولكن عسى أن يشتريه إنسان فيهدي إلى فيه شيئاً فيكون كبيراً خيراً من أن يكون صغيراً .

وقال رجل يوماً لأشعب إن سالم بن عبد الله بن عمر قد مضى إلى بستان كذا ومعه طعام كثير فبادر حتى لحقه فأغلق الباب في وجهه فتصور عليه فقال سالم بناتى وويلك بناتى ، فناداه أشعب : « لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد » فأمر سالم بالطعام فأخرج إليه منه ما يكفيه .

وقال له أحد أصدقائه يوماً لو تحدثت عندى العشيّة فقال أكره أن يجيء ثقیل فقال ليس غيرى وغيرك ، قال إذا صليت الظهر فأنا عندك فصلى وجاء فلما وضعت الجارية الطعام إذا بصديق لصاحب المنزل يدق الباب فقال أشعب ماأرانا إلا قد صرنا إلى مانكره ، قال إنه صديقى وفيه عشر خصال إن كرهت واحدة منهن لم آذن له قال فما هي ؟ قال أولها أنه لا يأكل ولا يشرب ، قال أشعب التسع الباقية لك أدخله فقد أمنا ماكننا نخذر .

ويحكى أن أشعب صلى يوماً إلى جنب مروان بن أبان بن عثمان وكان مروان عظيم الخلق والعجيزة فأفلتت منه ريح عند نهوضه لها صوت فخرج أشعب من الصف وأوهم الناس أنه هو الذى انتفض وضوؤه فلما انصرف مروان إلى منزله جاءه أشعب فقال له الدية فقال دية ماذا ؟ قال دية الضرطة التى تحملتها عنك وإلا شهرتك فلم يدعه حتى أخذ منه شيئاً صالحاً .

وعن المدائنى أن صديقة لأشعب قالت له يوماً : هب لي خاتمك أذكرك به ، قال اذكريني أنى منعتك إياه فهو أحب إليّ .

وذكر عن أشعب أنه توضأ يوماً فترك رجله اليمنى وغسل اليسرى فقبل له لم

تركت غسل اليمنى ؟ قال لأن النبي ﷺ قال أمتى غر محجلون من أثر الوضوء وأنا أحب أن أكون أغر محجل ثلاث مطلق اليمنى ، وهو محمود في الخيل .

ويحكى أنه كانت بالمدينة عجوز شديدة العيز، لاستحسن شيئا إلا عانته قد خلت على أشعب وهو يجود بنفسه فلما رآها غطى وجهه وقال يا فلانة بالله عليك إن كنت استحسنيت شيئا مما أنا فيه فصلى على النبي ﷺ ولا تهلكيني فغضبت المرأة وقالت سخنت عينك فأى شيء يستحسن مما أنت فيه أنت في آخر رمق ، قال قد علمت ولكن قلت لئلا تكوني قد استحسنيت خفة الموت على وسهولة النزع فيشتد على ما أنا فيه ، وخرجت من عنده وهى ساخطة تشتمه وضحك كل من كان حوله من كلامه ثم مات « رحمه الله » .

وكانت وفاته في خلافة المهدي . وقد تركنا كثيراً من نوادره تحاشيا لها عن قصد والله الموفق ، ومن ذكر طمع أشعب في شعره ابن أشرف حيث يقول : وما بلوغ الأمانى في مواعدها إلا كأشعب يرجو وعد عرقوب وقد تخالف مكتوب القضاء به فكيف لى بقضاء غير مكتوب وقال آخر :

ووعدتنى وعداً ظننتك صادقاً فظللت من طمع أجدى وأذهب
فإذا اجتمعت أنا وأنت بمجلس قالوا مسيلمة وهذا أشعب

ذكر وافد المَحْرَق

وأما وافد المحرق فهو وافد البراجم واسمه عمار بن صخر التميمي ثم البرجمي ، والبراجم خمسة من أولاد حنظلة بن زيد مناة بن تميم وهم قيس وكلفة وظليم وغالب وعمرو وسموا بالبراجم لتبرجمهم أى تجمعهم فشبهوا ببراجم الكف ،

والحرق باسم الفاعل هو عمرو بن هند اللخمي ، وهو المراد هنا .

فالمحرقون من ملوك العرب ثلاثة هم : الحرث بن عمرو الغساني وهو أول من حرق من ملوك العرب فقد حرق العرب في ديارهم فهم يدعون آل محرق وإياهم عنى حسان « رضي الله عنه » بقوله :

ولدنا بنى العنقاء وابن محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا أبنياً

والثاني هو امرؤ القيس بن عمر اللخمي جد عمرو بن هند ، وهو المراد بقول الأسود بن يعفر :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إباد

وقول النابغة الجعدي رضي الله عنه :

تداماي عند المنذر بن محرق أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفرا

والثالث عمرو بن هند هذا وهند أمه وهو ابن المنذر بن ماء السماء ، وماء

السماء أيضاً اسم أم المنذر ، فهند أم عمرو هي بنت الحرث بن عمرو المقصور بن

حجر آكل المرار الكندي ، وماء السماء أم المنذر بنت عوف بن جشم بن النمر بن

قاسط وأما نسب عمرو بن هند فهو ابن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن

امرئ القيس بن عمرو بن عدى بن نصر اللخمي ، وقيل في نسبه غير هذا ، وكان

عمرو بن هند هذا يقال له مضطرب الحجارة لقساوته وشدة بأسه .

وسمى محرقاً لأنه حرق مائة من بنى تميم وقيل سمى به لغير ذلك .

وكان من خبر تحريقه لبني تميم أنه كان عاقداً طيباً أن لا ينازعه ولا يفاخروه

ولا يغزوه ولا يغزوه ثم إنه غزا اليمامة فمر في رجوعه بطييء فقال له زرارة بن

عُدس الدارمي والد حاجب صاحب القوس ، أبيت اللعن أصب من هذا الحي

شيئاً قال له ويلك إن لهم عقداً قال وإن كان فلم يزل به حتى أصاب نسوة

وأذواداً فقال في ذلك عارق الطائي وهو قيس بن جروة :

ألا حي قبل البين من أنت عاشقه ومن أنت مشتاق إليه وشائقه

إلى أن قال :

فهبك ابن هند لم تعقك أمانةً وما المرء إلا عقده وموائقه
فأقسمت جهراً بالمنازل من منى وما حب في بطحائهن درادقه
لئن لم تغير بعض ماقد صنعتكم لأنتحين العظم ذو أنا عارقه
فلما بلغه شعره غضب وتوعده وحلف ليقتلنه فبلغ ذلك عارقاً فقال أبيات
يقول فيها :

أيوعدي والرمل بيني وبينه تبين رويدا ما أمانة من هند
غدرت بعهد كنت أنت احتديتنا عليه وشر الشئمة الغدر بالعهد
ولما بلغ عمرو بن هند شعره هذا غزا طيماً وأسر أسرى من بني عدى بن
أخزم رهط حاتم الطائي الجواد فوفد عليه وأطلقهم له .

وكان المنذر بن ماء السماء قد أرضع ابناً له في تميم اسمه مالك وقيل اسمه أسعد
عند زرارة بن عدس فشبه فيهم وخرج ذات يوم للصيد فأخفق ولم يصب شيئاً
فمر بإبل سويد بن ربيعة من بني دارم وهو زوج ابنة زُرارة بن عدس ولدت له
تسعة أولاد ذكور ، فأمر أسعد بن المنذر بناقة من إبل سويد فنحرت وأكل من
شوائها وسويد نائم فلما انتبه شد على الغلام فضربه بعصى على رأسه فقتله وشرد
سويد ولحق بمكة فحالف بني نوفل بن عبد مناف بن قصي ، وكانت طيء تطلب
عثرات زُرارة بن عدس وبني أبيه فلما بلغهم ما فعلوا بأخي الملك قال عمرو بن
ثعلبة الطائي :

من مبلغ عمرا بأ ن المرء لم يخلق صبارة
وحوادث الأيام لا يقى لها إلا الحجارة
ها أن عجزة أمه بالسفح أسفل من أواره
تسفي الرياح خلال كَشْ حنيه وقد سلبوا إزاره
فاقل زُرارة لا أرى في القوم أوفى من زُراره
ومعنى الأبيات تحريض لعمرو بن هند على قتله أخيه يقول له إنك لم تخلق

حجراً حتى لا تؤثر فيك الحوادث فخذ بثأر أخيك آخر ولد ولدته أملك والمعجزة
بكسر العين وقد تضم آخر ولد الرجل .

فلما بلغ الشعر عمرو بن هند بكى حتى فاضت عيناه وبلغ الخبر زُرارة ففر
وركب عمرو بن هند في طلبه فلم يقدر عليه فأخذ امرأته وهي حبلى فقال أذكر
في بطنك أم أنثى ؟ قالت لا أعلم لي بذلك ، قال مافعل زُرارة الغادر الفاجر ؟
فقال إن كان ما علمت الطيب العرق ، السمين المرق ، يأكل ما وجد ، ولا يسأل
عما فقد ، لا ينام ليلة يخاف ، ولا يشبع ليلة يضاف ؛ فبقرها وذهب .

ثم إن قوم زُرارة قالوا له والله ماقتلت أخا الملك ولا يضرك أن تأتيه وتصدقه
الخبر ففعل فقال جئني بسويد فقال : قد لحق بمكة ، قال علي بينه التسعة وأمهم
بنت زُرارة فأتاه بهم فقتلهم جميعاً وزُرارة ينظر ، ثم إن عمرو بن هند أقسم
ليحرقن مائة من بنى دارم فخرج يريدهم وجعل على مقدمته عمرو بن ثعلبة
الطائي صاحب الشعر المتقدم فوجدوا القوم قد نذروا بهم فأخذوا منهم ثمانية
وتسعين رجلاً بأسفل أواره من ناحية البحرين فضربت للملك قبة بهذا الموضع
وأمر بأخدود فخذت وأوقدت فيها النار فلما تلظت قذف بهم فيها فاحترقوا ، ومر
رجل منهم فاشتم رائحة القطار فظن أن الملك قد اتخذ طعاماً وكان ساغباً فخرج على
النار مع المساء وجاء يوضع به بغيره حتى أناخ أمام قبة الملك فقال ما جاء بك ؟
قال الطعام فلم أذق طعاماً منذ ثلاثة أيام قال ممن أنت ؟ قال من البراجم ، قال
عمرو بن هند : إن الشقى وافد البراجم فأرسلها مثلاً وأمر به فقذف في النار
وأقام عمرو لا يرى أحداً فقيل له أبيت اللعن لو تحللت بامرأة منهم فقد أحرقت
تسعة وتسعين رجلاً ، فدعا بامرأة منهم من بنى حنظلة فقال من أنت ؟ قالت أنا
الحمراء بنت ضمرة بن جابر وأنشدت :

إني لبنت ضمرة بن جابر ساد معداً كاهراً عن كاهر

فقال عمرو أما والله لولا مخافة أن تلدى مثلك لصرفتكَ عن النار ، قالت أما
والذي أسأل أن يضع وسادك ، ويخفض عمادك ، ماقتلت إلا نساءً أعلاهن ثديً
وأسفلهن حُلِيً ، فقذفوها في النار .

وقد ذكرت الشعراء هذه القصة في أشعارها . من ذلك قول الأعشى :
وتكون في الشرف الموا زى منقراً وبنى زُرارة
أبناء قوم قُتِلُوا يوم القصيبة من أواره
وبسبب هذه الواقعة كانت بنو تميم تعير بحسب الطعام ، ومن ذلك قول
يزيد بن عمرو بن الصعق :

ألا أبلغ لديك بنى تميم بآية ما يحبون الطعاما
وقال أبو المهرش الأسدي

إذا ما مات ميت من تميم فسرك أن يعيش فجىء بزاز
بخبز أو بلخم أو بتمر أو الشيء الملفف في البجاد
تراه ينقب البطحاء حولاً ليأكل رأس لقمان بن عاد

ويُحكى أن الأحنف بن قيس دخل على معاوية رضى الله عنه فقال معاوية
للأحنف ما الشيء الملفف في البجاد يا أبا بحر ؟ قال : السخينة يا أمير المؤمنين ،
وهى طعام تعير به قريش كما كانت تميم تعير بالشيء الملفف في البجاد . قالوا : فلم
ير متمازحان أوفر منهما .

[وَلَا تَكُنْ كَوَاوِ عَمْرُو زائداً فِي الْقَوْمِ أَوْ كَمِثْلِ نُونٍ مُلْحَقِ]

ومعنى هذا البيت النهى عن التطفل وما في معناه ، والتطفل مشتق من لفظ طفيل
كزبير وهو رجل من أهل الكوفة من بني عبد الله بن غطفان وكان يجيئ الولائم
من غير أن يدعى إليها فكان يقال له طفيل الأعراس وكان يقول وددت أن الكوفة
بركة مصهرجة فلا يخفى عليّ منها شيء .

اشتق الفعل من اسمه ونسب إليه كل من يتعاطى حرفته فقيل تطفل فلان فهو
طفيلي ومن وصايا طفيل المذكور لأصحابه : إذا دخلتم عرساً فلا تلتفتوا إلى
الملاهي وتخبروا المجالس ، وإن كان العرس كثير الزحام فليمض أحدكم ولا ينظر في
وجوه الناس ليظن أهل الرجل أنه من أهل المرأة ويظن أهل المرأة أنه من أهل
الرجل وإن كان البواب فظاً وقوحاً ليبدأ به يأمره وينهاه من غير عنف ولكن بين

ومما يروى عن طفيل ، ليس في الأرض أكرم من ثلاثة أعواد : عصى موسى عليه السلام ومنبر الخليفة وخوان الطعام .

وقوله واو عمرو يشير إلى من يأتي الولايم من غير دعوة وحده وأشار بقوله نون ملحق إلى من يأتي الولايم تبعاً لمدعو وهو الذي يقال له الضيفن ، قال الشاعر :

إذا جاء ضيف جاء للضيف ضيفن فأودى بما نقرى الضيوف الضيفن

وهذا الاسم هو الذي أُلغز فيه الحريري في المقامة النحوية بقوله : وما وصف إذا أردف بالنون ، نقص صاحبه في العيون ، وقوم بالدون ، وخرج من الزبون ، وتعرض للهون ؛ قال الحريري : وهو الذي يتبع الضيف ، وينزل في النقد منزله الزيف .

[وَاغْضُلْ كَهَمَّامِ بَنَاتِ فِكْرَةٍ ضِيئًا بِهَا عَنْ غَيْرِ فَحِلٍ مُعْرِقِ]
[كَيْ لَا تَقُولَ بِلِسَانٍ حَالِهَا مَقَالَ هِنْدَ أَلْقَى مَنْ لَمْ يَلْقَ]

العُضْلُ : المنع والتضييق وقد عضل الرجل كريمته عضلاً من بابي قتل وَضَرَبَ : منعها التزويج وقيده في القاموس بكونه ظلماً ، وعضل الأمر اشتد ومنه داء عُضَال بالضم أي شديد .

والضُنُّ والضُّنَّة بالكسر فيهما والضنَّانة كسحابة البُحْلُ ، وقد ضننت يازيد بشيئك تَضُنُّ من باب تعب وقد يأتي من باب ضرب وهذا علق مَضْنَةٌ بالكسر والفتح أي نفيس مما يَضُنُّ به .

والفحل : الذكر من كل حيوان ؛ والمعرق اسم فاعل من أعرق إذا صار عريقاً في الكرم أو في اللؤم ، والمراد هنا الأول ، وهو مشتق من أعرق الشجر إذا اشتدت عروقه في الأرض .

ومعنى البيتين أنه لما كان الشاعر لا بد له من التزلف بشعره والاستجداء به لدى الملوك ومن في معناهم لم يمنعه ذلك بالكلية بل رخص له في استجداء من هو أهل للاستجداء وهو من اجتمع فيه أمران : أن يكون كريماً وأن يكون من أبناء الكرام ونهاه عن استجداء من لم يتأصل في الكرم ، قال الشاعر :

إذا ما رماك الدهر فانتجع قديم الغنى في الناس إنك حامده
ولا تطلبن الخير ممن أفاده حديثاً ومن لم يُورث المجد والده

واعلم ما سلكه الناظم في حق بنات الأفكار من صون منصبها عن الأخساء وعضلها إلا عن الأكفاء معنى مطروق للمتقدمين موجود في كلام السلفاء والمولدين ، ومن ذلك قول القائل :

فلأعضلن قصائدي من بعده حتى أزوجهها من الأكفاء
وعاتب محمد بن عبد الملك الزيات أبا تمام على مدحه غيره فاعتذر إليه بقوله :

أما القوافي فقد حصنت عُذرتها فلا يصاب دم منها ولا سلب
منعتُ إلا من الأكفاء منكحها وكان منها عليك العطف والحدب
ولو عضلت عن الأكفاء أيمها ولم يكن لك في أطهارها أرب
كانت بنات نصيب حين ضنَّ بها على الموالي ولم تحفل بها العرب

ومعنى الأبيات أما عذارى قصائدي فهي مقصورة عليك وأما ما دون ذلك وهي الأيامي فأنت لا ترغب فيها فلم تمنعني من أن أبعث بها إلى أكفائها فمن هو دونك في القدر وإلا كانت كبنات نصيب فقد ضنَّ بهن عن أكفائهن من العجم ولا ترغب العرب فيهن فبقين منسيات وصرن يضرب بهن المثل .

ذكر همام وماتفق له مع بناته

هو همام بن مرة بن ذهل الأصغر بن شيبان الأكبر بن ثعلبة بن عكاية بن

صعب بن علي بن بكر بن وائل وهو أخو جساس قاتل كليب المتقدم الذكر وكان من خبر همام مع بناته ما ذكره صاحب القاموس قال : كان همام بن مرة ثلاث بنات فأبى أن يزوجهن فلما عنسن واغتلمن قالت إحداهن بيتاً وأسمعته إياه متجاهلة :

أهمام بن مرة إن همي لفي اللأبي يكون مع الرجال فأعطاها سيفاً وقال هذا يكون مع الرجال ، فقالت لها الأخرى ما صنعت شيئاً ولكن أقول .

أهمام بن مرة إن همي لفي قنفاء بارزة القذال والقنفاء تطلق على الغليظة من آذان المعزى وتطلق على كمره الرجل وهي مراد القائلة ، ففألطمها وجاءها بمعزى ، فقالت الأخرى ما صنعت شيئاً ولكني أقول :

أهمام بن مرة إن همي لفي إمبر أسد به مبال فقال أخزأكن الله وزوجهن ؛ وقيل في خبرهن غير ذلك .

وأما قوله : مقال هند ، فهي بنت النعمان بن بشر الأنصاري — رضى الله عنه — ومقالها ما قالته في زوجها روح بن زنباع أو هو الحجاج بن يوسف الثقفي :

وما هند إلا مهرة عربية سليمة أفراس تحللها بغل فإن ولدت فحلا فله درها وإن بك أقراف فما أنجب الفحل والمشهور أنها تعني به روح بن زنباع ويشهد لذلك قول ابن صاره الشنتريني .

وصاحب لي كداء البطن صحبته يودني كوداد الذئب للراعى
يثنى على جزاء الله صالحة ثناء هند على روح بن زنباع

[وَسَلْ مُهُورَ كِنْدَةٍ إِنْ تُهْدِيَهَا لِذِي نَدَى كَالْبَحْرِ فِي تَدْفِقِ]

المهور جمع مهر بفتح فسكون وهو صداق المرأة ويجمع على مهورة كبعولة
وفي المثل : كالمهورة إحدى خدمتها ، طالبت حمقاء بعلها بمهرها فنزع إحدى
خدمتها ودفعها إليها ، وفي المثل أيضاً : كالمهورة من مال أبيها ، وذلك أن رجلاً
أعطى مالا لآخر فتزوج به ابنة المعطى ثم امتن عليها بما مهرها . ويقال أمهر
بالمهزة ، قال قُحَيْفُ الْعُقَيْلِي :

أَخِذْنَ اغْتِصَاباً خِطْبَةً . عَجْرَفِيَّةً وَأُمَهْرَنَ أُرْمَاحاً مِنْ الْخَطِّ ذُبْلًا
وكندة أبو حى من اليمن واسمه ثور بن عفير وإنما قيل له كندة لأنه كند أباه
النعمة أى كفرها ولحق بأخواله .

والندی بالفتح أصله المطر ثم كثر استعماله فى العطاء والجود حتى صار
حقيقة عرفية فيه ، يقال ندى الكف إذا كان جواداً .

ومعنى الكلام أن مثل هؤلاء الأكابر إذا سئلوا ينبغي أن تعظم المسألة لديهم
ويستكثر من الاقتراح عليهم ، قال هشام بن عبد الملك لنصيب الشاعر سلمي قال
كفاك بالعطية أبسط من لساني بالمسألة فدفع إليه ألف دينار ولما مدح أبو تمام
الحسن بن رجاء بقوله :

لَمَّا وَرَدْنَا سَاحَةَ الْحَسَنِ انْقَضَى عَنَّا تَعَجُّرُفُ دَوْلَةِ الْإِحْمَالِ
أَحْيَا الرِّجَاءَ لَنَا بِرَغَمِ نَوَائِبِ كَثُرَتْ بَيْنَ مِصَارِعِ الْأَمَالِ
أَغْلَى عَذَارَى الشَّعْرِ أَنَّ مَهْوَرَهَا عِنْدَ الْكَرِيمِ إِذَا رُخِصْنَ غَوَالِ

قام الحسن على قدميه وقال والله لا أتممتها إلا وأنا قائم فقام أبو تمام لقيامه
فلما أتمتها قال لأبى تمام ما أحسن ما جلوت هذه العروس قال أبو تمام والله لو
كانت من الحور العين لكان قيامك لها أوفى مهورها .

وذكر المبرد أن لبید بن ربیعۃ — رضى الله عنه — هبت عليه الصبا يوماً

بالكوفة وهو مملق وكان قد نذر ألا تهب إلا نحر الإبل ، وكان الوليد بن عقبة بن
أبي معيط والياً على الكوفة من قبل عثمان — رضى الله عنه — ، فخطب الناس
وقال قد عرفتم نذر أبي عقيل فأعينوا أخاكم ثم بعث إليه بمائة ناقة وبعث الناس إليه
فقضى نذره ، وفي غير المبرد أنه اجتمعت عنده ألف من الإبل ، وكتب إليه الوليد
بأبيات قال فيها :

أرى الجزار يشخذُ شفرتيه إذا هبت رياح أبي عقيل
أغر الوجه أبيض عامري طويل الباع كالسيف الصقيل
وفي ابن الجعفرى بحلفتيه على العلات والمال القليل
بنحر الكوم إذ سُجِبَتْ عليه ذيول صباً تجاوب بالأصيل

ولما بلغه الشعر وكان قد ترك انتحاله منذ أسلم قال لابنته أجيبه لعمرى لقد
عشت برهة من الزمن وما أعيا بجواب شاعر ، فقالت :

إذا هبت رياح أبي عقيل دعوت لها لهبتها الوليد
أشم الأنف أصيد عبشياً أعان على مروءته لبيد
بأمثال الهضاب كان ركباً عليها من بنى سام قعوداً
أبا وهب جزاك الله خيراً نخرناها وأطعمنا الثريد
فَعُدْ إِنَّ الكَريمَ له معادٌ وظنني بآبن أروى أن يعودا

فقال لها لبيد قد أحسنت لولا أنك استزدتيه فقالت إن الملوك لا يستحي من
مسألتهم ، فقال وأنت يابنية في هذه أشعر : اهـ . وهو الشاهد لما أشار إليه
الناظم — رحمه الله — .

وأما مهور كندة فإنها كانت لا تزوج بناتها إلا على مائة من الإبل وربما
مهرت الواحدة منهن ألفاً منها فصارت مهور كندة مثلاً في الغلاء .

[لا تنسَ مِنْ دُنْيَاكَ حَظًّا وَإِلَى كَالطَّلَاقَانِي وَالْحَصِيبِ انْطَلِقْ]

قوله : لا تنس من دنياك حظاً ، مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وَلا تَنسَ

نصيبك من الدنيا ﴿١﴾ .

وأشار بقوله وإلى كالتالقاني إلخ أنه لا مانع من استجداء الأديب ممن لا تلحقه معرة في استجدائه .

ذكر الطالقاني

الطالقاني هذا هو صاحب بن عبّاد وهو أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد بن القاسم بن عبّاد بن أحمد بن إدريس الطالقاني نسبة إلى طالقان قزوين لا طالقان خراسان ، كان نادرة الدهر وأعجوبة العصر في فضائله وكرمه ، قال أبو سعيد الرستمي في حقه :

ورث الوزارة كابراً عن كابر موصولة الإسناد بالإسناد
يروى عن العباس عبّاد وزا رثه وإسماعيل عن عبّاد

قال الثعالبي في يتيمة الدهر في حقه : ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب وجلالة شأنه في الجود والكرم وتفردّه بالغايات في المحاسن وجمعه أشتات المفاخر لأنّ همة قولي تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه وجهدٌ وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومسايعه .

وقال أبو بكر الخوارزمي في حقه : الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها ودبّ ودرج من وكرها ورضع أفوايق درها وورثها عن آبائه .

وكان قد ولي الوزارة لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بُويه الديلمي ، فلما توفي مؤيد الدولة بجرجان وتولى على المملكة أخوه فخر الدولة أبو الحسن أقره على وزارته وكان مبعجلاً عنده .

وأما أخباره في الجود والكرم فمنها أنه أنشده أبو القاسم الزعفراني يوماً أبياتاً نونية من جملتها :

(١) القصص آية (٧٧) .

أَيَّامُنْ عَطَايَاهُ تَهْدِي الْغَنَى إِلَى رَاحَتِي مِنْ نَأْيِ أَوْدَانَا
كَسَوْتَ الْمُقِيمِينَ وَالزَّائِرِينَ كُسِّيَ لَمْ تَحُلْ مِثْلَهَا مُمَكِّنَا
وَحَاشِيَةَ الدَّارِ يَمْشُونَ فِي صَنُوفٍ مِنَ الْخَزْرِ إِلَّا أَنَا

فَقَالَ الصَّاحِبُ قَرَأْتُ فِي أَخْبَارِ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ الشَّيْبَانِي أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ
أَحْمَلْنِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ فَأَمَرَ لَهُ بِنَاقَةٍ وَفَرَسٍ وَبَغْلٍ وَحِمَارٍ وَجَارِيَةٍ ثُمَّ قَالَ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ
تَعَالَى خَلَقَ مَرْكُوبًا غَيْرَ هَذَا لَحَمَلْتِكَ عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَمَرْنَا لَكَ مِنَ الْخَزْرِ بَجَبَةً وَقَمِيصًا
وَعِمَامَةً وَذُرَاعَةً وَسِرَاوِيلَ وَمَنْدِيلَ وَمِطْرَفَ وَرِدَاءٍ وَكِسَاءٍ وَجُورِبَ وَكَيْسَ وَلَوْ
عَلِمْنَا لِبَاسًا آخَرَ يَتَّخِذُ مِنَ الْخَزْرِ لَأَعْطَيْنَاكَ .

وَلَهُ مَوْلاَفَاتٌ وَتَصَانِيفٌ كَثِيرَةٌ وَكَانَ شَاعِرًا مَجِيدًا ، وَمِنْ شَعْرِهِ فِي رِثَاءِ الْوَزِيرِ
أَبِي عَلِيٍّ كَثِيرٌ بْنُ أَحْمَدَ :

يَقُولُونَ قَدْ أَوْدَى كَثِيرٌ بْنُ أَحْمَدَ وَذَلِكَ رِزْءٌ فِي الْأَنَامِ جَلِيلُ
فَقُلْتُ دَعُونِي وَالْعُلَا تَبْكُهُ مَعَا فَمِثْلُ كَثِيرٍ فِي الْأَنَامِ قَلِيلُ

وَتَوَفَّى الصَّاحِبُ بْنُ عَبَادٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ خَمْسٍ
وِثْمَانِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَكَانَتْ وَلَادَتُهُ لِأَرْبَعِ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ بَقِيَتْ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ سِتٍّ
وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ بِاصْطِخْرٍ وَقِيلَ بِالطَّلَاقَانِ ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ فِي أَصْبَهَانَ وَقَدْ تَنَافَسَ
الشُّعْرَاءُ فِي رِثَائِهِ ؛ فَمِنْ ذَلِكَ مَارِثَاهُ أَبُو سَعِيدٍ الرِّسْتَمِي بِقَوْلِهِ :

أَبْعَدَ ابْنِ عَبَّادٍ يَهْشُ إِلَى السُّرَى أَخُو أَمَلٍ أَوْ يَسْتَأْخُ جَوَادُ
أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَا بِمَوْتِهِ فَمَا لَهَا حَتَّى الْمَعَادِ مَعَادُ

وَرِثَاهُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ أَبِي الْعَلَاءِ الْأَصْبَهَانِي بِقَوْلِهِ :

يَا كَافِيَ الْمَلِكِ مَا وَفَيْتَ حَقَّكَ مِنْ مَدْحٍ وَإِنْ طَالَ تَقْرِيبُضُ وَتَأْيِينُ
فَتْ الصِّفَاتِ فَمَا يَرِثُكَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَتَزِينُهُ لِيَاكَ تَهْجِينُ
مَا مَتَّ وَخَدَّكَ بَلْ قَدْ مَاتَ مَنْ وَلَدَتْ حَوَاءُ طُرَّابِلِ الدُّنْيَا بَلِ الدِّينُ

هاذى نواعى العُلا مُدَّتْ نَادِبَةً من بعد مَانِدْبَتِكَ الْخُرْدُ الْعَيْنُ
تَبْكِي عَلَيْكَ الْعَطَايَا وَالْعَفَاةُ كَمَا تَبْكِي عَلَيْكَ الرَّعَايَا وَالسَّلَاطِينُ
قَامَ السَّعَاةُ وَكَانَ الْخَوْفُ أَقْعَدَهُمْ وَاسْتَيْقَظُوا بَعْدَمَا نَامَ الْمَلَاعِينُ
لَا يَعْجَبُ النَّاسُ أَنْ قَدْ مَتَّ فَاثْشَرُوا مَضَى سَلِيمَانُ فَانْحَلَّ الشَّيَاطِينُ

ذِكْرُ الْخَصِيبِ

وَأَمَّا الْخَصِيبُ فَهُوَ أَبُو نَصْرِ الْخَصِيبِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ أَحَدِ عَمَالِ الرَّشِيدِ
وَصَاحِبِ دِيْوَانِ الْخَرَاجِ بِمِصْرَ كَانَ مِنَ الْأَجْوَادِ الْمُقْصُودِينَ وَالسَّمْحَاءِ الْمَعْدُودِينَ ،
قَصِيدَهُ أَبُو نَوَاسِ الْحَسَنِ بْنُ هَافِيٍّ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى مِصْرَ وَمَدَحَهُ بِمَدَائِحَ بَلِيغَةٍ فَأَحْسَنَ
إِلَيْهِ غَايَةَ الْإِحْسَانِ حَتَّى حَسَدَهُ الْخَلِيفَةُ عَلَى ذَلِكَ ، وَيُرْوَى أَنَّ أَبَا نَوَاسٍ لَمَّا وَفَدَ
عَلَيْهِ اسْتَاذَنَ فَأَذِنَ لَهُ وَعِنْدَهُ الشُّعْرَاءُ فَأَنْشَدُوا أَشْعَارَهُمْ فَلَمَّا فَرَّغُوا قَالَ أَبُو نَوَاسٍ :
أَنْشُدْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ قَصِيدَةَ هِيَ كَعَصَى مُوسَى تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا ، فَأَنْشَدَ قَصِيدَتَهُ الَّتِي
أَوَّلَهَا :

أَجَارَةَ بَيْتَنَا أَبُوكَ غَيُورٌ وَمَيْسُورٌ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرٌ
إِلَى أَنْ قَالَ :

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مِخْمَلِي عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَكَ تَسِيرُ
أَمَّا دُونَ مِصْرَ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبٌ بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلْتُهَا بِوَادِرٍّ جَرَتْ فَجَرَى مِنْ جَرِيهِنَّ غَدِيرُ
ذَرِينِي أَكْثَرَ حَاسِدِيكَ بِرَحْلَةٍ إِلَى بَلَدَةٍ فِيهَا الْخَصِيبُ أَمِيرُ
فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ
فَمَا جَاذَهُ جُودٌ وَلَا حُلٌّ دُونَهُ وَلَكِنْ يَسِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَسِيرُ

إِلَى أَنْ قَالَ :

زَهَى بِالْخَصِيبِ السَّيْفُ وَالرَّحْمُ وَالْوَغَى وَفِي السَّلَمِ يَزْهَوُ مِنْبَرٌ وَسَرِيرُ
جَوَادٌ إِذَا الْأَيْدَى قَبْضَنَ عَنِ النَّدَى وَمِنْ دُونَ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ غَيُورُ

وإني جديرٌ أن بلغتك بالمني وأنت بما أملت منك جديرٌ
فإن ثولني منك الجميل فأهله وإلا فإني عاذرٌ وشكورٌ

فاهتز الخصيب لهذه القصيدة وأجازه عليها بألف دينار ووصيف ووصيفة
وكان الخصيب قبلة السائلين واشتهر بالكرم وحسن السيرة والسماحة والجودة
حتى إن أقارب الخليفة كانوا يقصدونه من بغداد إلى مصر فيحسن إليهم ويجزل
العطاء لهم ، فاتفق أن أمير المؤمنين فقد أحد أقاربه فلم يجده ثم جاء بعدُ فسأله
فقال كنت عند خصيب ثم ذكر له ما وصله فإذا هو شيء كثير فحسده الخليفة
وأمره بالحضور إلى بغداد فلما وصل سمل عينيه وطرحه في السوق .

ويحكى أن بعض الشعراء مر به وهو على تلك الحالة فقال يا خصيب إني
كنت قد قصدتك من بغداد إلى مصر مادحاً لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها
وأحب أن تسمعها الآن فقال كيف بسماعها وأنا على ما ترى ؟ قال إنما قصدي
أن تسمعها وأما العطاء فقد أغنيت الناس جزاك الله خيراً قال افعل ، فأنشده
قصيدة أولها :

أنت الخصيبُ وهذه مصرٌ فتعفقا فكلما بحرُ

فلما أتى على آخرها أخرج له الخصيب من جيبه ياقوته نفيسة كان ادخرها
هنده ليوم فأنى الشاعر أن يقبلها فعزم عليه حتى قبلها وذهب بها إلى سوق
الجوهريين فقالوا هذه لا تصلح إلا للخليفة وانتهى خبرها إلى الخليفة فأحضر
الشاعر وسأله فأخبره الخبر فندم على ما فرط منه في خصيب وأحضره وأجزل
عطاءه وحكمه فاقترح عليه أن يقطعه المنية التي بمصر ففعل فسكنها خصيب إلى
أن مات بها وأورثها بنيه فتوارثوها حتى انقرضوا ، ولذلك سميت بالمنية لأنها منية
خصيب ، نقله في الأصل عن رحلة ابن بطوطة .

[لا تَهْجُ مَنْ لَمْ يُعْطِ وَاهْجُ مَنْ أُنِيَ إِلَى السَّرَابِ بِالْذَّلَاءِ يَسْتَقِي]

ومعنى البيت أنه لا تؤم على البخيل ، في منعه سؤال من سأله وإنما الملامة على

الذي يطمع في نواله ، وهذا كما قال نصيب الشاعر لمسلمة بن عبد الملك حين قال له فلان سألتك فلم يعطك فلم تهجه ؟ فقال نصيب : لا والله لا ينبغي أن أهجوه وإنما ينبغي أن أهجو نفسي حين مدحته ، فقال مسلمة : هذا والله أشد الهجاء ، ولأبي الطيب في المعنى :

أبعين مفتقر إليك نظرتني فأهنتني وقذفتني من حلق
لست الملوّم أنا الملوّم لأنني أنزلت آمالي بغير الخالق
وقال مهيان الديلمي :

أكرم يدك عن السؤال فإنما قدر الحياة أقل من أن تسألا
تلحى على بُخْلِ البخيل بماله أفلا تكون بماء وجهك أبغلا
[وَعُدْ لِمَا عودت من بذل اللهى فالْعَوْدُ أَحْمَدُ لِكُلِّ مُمْلِقٍ]

العود : الرجوع وسميت العادة لأن صاحبها يعاودها ويرجع إليها مرة بعد أخرى وعودته كذا فاعتاده وتعوده أي صيرته له عادة .
بَذَلَ الشيء إعطاؤه عن طيب نفس .

اللّهُى : جمع لهُوة بالضم ويقال لهُة بالياء بدل الواو ، العطية من أي نوع كانت وقيل هي أفضل العطايا وأجزها ، وفي المثل « اللّهُى تفتح اللّهُى » ومعناه الإحسان يطلق اللسان بالحمد والشكر .

والمملق : الفقير المحتاج ، وفي التنزيل ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ ﴾ (١) أي فقر وحاجة « والله تعالى أعلم » .

ومعنى البيت أنه لما نهاك عن سؤال البخيل وحضك على لوم نفسك بدلاً من لومه على بخله ، ذكر أن المسئول إن كان قد عودك عطاءه ووقعت منه نبوة مرة

(١) الإسراء آية (٣١) .

فلا تجعلن تلك النبوة لهجران هذا الكريم فعُدْ لما عودك من بذل معروفه فسوف
تلقى عنده ما يسرك .

يحكى أن أبا جعفر محمد بن قاسم الكرخي عرض على أبي الحسن علي بن محمد بن
الفرات رقعة في حاجة له فقرأها ووضعها من غير أن يوقع فيها بشيء فأخذ الكرخي
رقعته ومضى وهو ينشد مثلاً بحيث يسمع ابن الفران :

وإذا خطبت إلى كريم حاجة وأبى فلا تعقد عليه بحاجب
فلربما منع الكريم ومأبه بُخلٌ ولكن سوء حظ الطالب

فلما سمع إنشاده دعاه ارجع يا أبا جعفر بغير سوء حظ الطالب ولكن إذا سألتونا
حاجة فعاودونا فإن القلوب بيد الله تعالى ، فأخذ الرقعة ووقع عليها بما أراد .

وهذا المعنى الذي طرقه الناظم هو طريقة الأدباء . والشأن هو رفع المهمة عنه
« والله الموفق » وليست ناظمنا قال في آخر بيته : « فالعود أحد لكل منفق » فهو
أحسن من أن يكون كلامه مع السائل يحرضه على المسألة ، فالصواب أن يكون مزيد
الوصية والتذكير مع المنفق لأن العود منه مستحسن شرعاً وطبعاً بخلاف المملق فإن
الأحسن له والأرفع له عند الناس والأحظى له عند الله هو رفع المهمة والتعفف كما
قلنا .

ولعل الحامل للناظم على ذلك هو تتبعه للأدب وإيراده لأمثال العرب ونواذرها .

ذكر أول من قال العود أحمد

اختلف في أول من قال العود أحمد ، فقيل مالك بن نويرة اليربوعي حيث
يقول :

جزينا بني شيان أمس بقرضهم وعدنا بمثل البدء فالعود أحمد

والأصح أن أول من قاله خدّاش بن حابس التميمي وذلك أنه قد خطب فتاة من بني ذهل ثم من بني سدّوس يقال لها الرباب بعد أن هام بها مدة ثم أقبل يخطبها فكان أبواها يمتنعان لجمالها وميسمها فردّا خدّاشاً فأضرب عنها زماناً ثم أقبل ذات ليلة راكباً فأنتهى إلى محلتهم وهو يتغنى ويقول :

ألا ليت شعري يارباب متى أرى . لنا منك نجحاً أو شفاءً فأشتفي
فقد طالما عنيتني ورددتني وأنت صفيي دون من كنت أصطفي
لحي الله من تسمو إلى المال نفسه إذا كان ذا فضل به ليس يكتفي
فينكح ذا مال ذميماً ملوماً ويترك حراً مثله ليس يتقي

فعرفت الرباب صوته وأرسلت إلى الركب الذين هو فيهم أن انزلوا بنا الليلة ، فنزلوا وبعثت إلى خدّاش قد عرفت حاجتك ، فاغدُ إلى أبي خاطباً ورجعت إلى أمها فقالت يا أمه هل أنكح إلا من أهوى ، وألتحف إلا من ارتضي ، فقالت : بلى . فما ذاك ؟ قالت فأنكحيني خدّاشاً ، قالت وما يدعوك إلى ذلك مع قلة ماله ، قالت إذا جمع المال السيئ الفعّال فقبحاً للمال ، فأخبرت الأم أباهما بذلك فقال ألم نكن صرفناه عنا فما بداله ، فلما أصبحوا غدا عليهم خدّاش فسلم وقال العود أحمد ، والمرء يرشد ، والورد يحمّد ، فأرسلها مثلاً ، ولما ملك خدّاش الرباب غاب عنها أعواماً فعلقها آخر من قومها يقال له سلّم ففضحها ، ثم إن سلما شردت له إبل فذهب في طلبها فوافاه خدّاش في الطريق فلما علم به خدّاش كتّمه أمر نفسه ليعلم علم إمرأته فسأله سلّم ممن الرجل ؟ فخبره بغير نسبه ، فأنشأ سلّم يقول :

أُغِبْتُ عن الرباب وهام سلّم بها ولهاً بعرسك يا خدّاش
فيالك بعلّ جارية هواها صبور حين تضطرب الكباش
وكنت بها أخصاً عطش شديد وقد يروى على الظمّ العطاش
فإن أرجع ويأتيا خدّاش يجرّه بما لاقى الفراش

فعرّف خدّاش الأمر عند ذلك ودنا منه وقال حدثنا يا أخا بني سدوس فقال
سلم علقت فتاة غاب عنها زوجها فأنا أنعم أهل الدنيا بها وهى لذّة عيشى فقال
خدّاش سرّ عنك فأرسلها مثلاً فسار ساعة ثم قال يا أخا بني سدوس حدثنا عن
خليلتك فقال تسديت خباءها ليلاً فبت بأقر ليلة أعلو وأعلى وأعانق وأفعل
ما أهوى فعرّف خدّاش الفضيحة فتأخّر واختلط سيفه وغطاه بثوبه ثم لحق به
وقال ما آية ما بينكما إذا جئتها ؟ قال : أذهب ليلاً إلى مكان كذا من خبائها وهى
تخرج فتقول :

ياليل هل من سار فيك طالب هوى تحلّة لا يرحن ملّتها
فأجابها :

نعم ساهر قد كابد الليل هائم بهائم ما هومت مُقلّتاها
فتعرف أنى أنا هو ، فدنا منه خدّاش حتى قرن ناقته بناقته وضربه بسيفه
فطار قحفه ثم انصرف فأقى المكان الذي وصفه سلم فقعده فيه ليلاً وخرجت
الرباب وهى تتكلم بذلك البيت فجابها بالآخر فدنت منه وهى ترى أنه سلم
فقعنها بالسيف ففلق ما بين المفرق إلى الزور .

ويحكى : أن عبد الملك بن مروان أحضر بدرة وقال لمن حضره من العرب :
أيكم ينشدنى صدر هذا البيت « والعود أحمد » فله جائزة ثم أمر حاجبه أن ينادي
بذلك فيمن عند الباب من العرب فقام فتى من القوم وقال أنا فأدخله الحاجب
فقال عبد الملك للفتى : أنشدنا صدر بيتنا ، فقال : يا أمير المؤمنين حاجتي ، قال
وما هى ؟ قال بنو عم لنا باعوا ضيعتهم بالسواد فأدخلوا ضيعتي فى ضيعتهم ،
فقال عبد الملك : فإن أمير المؤمنين قد رد عليك ضيعتك فأنشدنا صدر بيتنا ،
قال نعم يا أمير المؤمنين قالت تميم إنه بيتها ، يقول أوس بن عَجْر :

جزينا بنى شيان صاعا بصاعهم وعدنا بمثل البدء والعود أحمد

قال أخطأت قال أمير المؤمنين أبلغني ريتي ، قال أبلغتك قال قالت الين إنه بيتها
قال امرؤ القيس :

فإن كنت قد ساءتكم مني خليفة فمودى كما نهواك فالمود أحمد

قال أخطأت قال يا أمير المؤمنين قالت ربيعة إنه بيتها قال الموقش :

وأحسن فيما كان بيني وبينه وإن عاد في الإحسان فالمود أحمد

قال أصبت وإنك لظريف من أنت ؟ قال أنا زيد بن عمرو قال ممن ؟ قال من
حي جانب عجرفة قيس وعنينة تيم وكسكة ربيعة وصأصة الين وتأنيث كنانة أنا
امرؤ من بني عذرة ، فأمر له بالبذرة ، « والله أعلم » .

[وَلَا تَعْدُ لِحَرْبٍ مَنْ مِنْ وَلَوْ مَنْ فَمَا غَلَّ يَدَا كَمُطْلِقٍ]

معنى البيت واضح لا إشكال فيه :

ذكر أول من قال : « غَلَّ يَدَا مُطْلَقَهَا » وسبب ذلك

قائل هذا المثل هو عمران بن حطان السدوسي قال في الأغاني : كنيته
أبو سماك وهو الخارجي الشاعر المشهور ، وكان قبل أن يفتن بالخارجية من طلبة
العلم المشتهرين بطلبه وطلب الحديث ثم بلى بذلك المذهب فضل وهلك والعياذ
بالله ، وهو الذي مدح عبد الرحمن بن ملجم المرادي أن قتل أمير المؤمنين على بن
أبي طالب — رضي الله عنه — وأبياته مشهورة وقد تركنا جلبها تنزيها لهذا
الكتاب عن مثلها .

وهو الذي عير الحجاج بفراره عن غزاة الحرورية بقوله :

أسد على وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صغير الصافر
هلاً برزت إلى غزاة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

ولقد كان هذا الرجل سيناً فذكرت له امرأة بارعة جمال تعتنق مذهب

الخوارج فقال أتزوجها وأردها إلى السنة ، فلما تزوجها ردت هى إلى مذهبها
« ومن يرد الله فتنه فلن تملك له من الله شيئاً » .

يحكى أن عمران بن حطان الخارجي هذا كان من أقبح خلق الله وكانت
زوجته الخارجية من أجمل الناس فأجالت نظرها يوماً في وجهه ثم تابعت الحمد لله
فقال مالك ؟ قالت : حمدت الله على أنى وإياك من أهل الجنة ، قال كيف ذلك ؟
قالت : لأنك رزقت مثلى فشكرت ورزقت مثلك فصبرت ، وقد وعد الله عباده
الشاكرين والصابرين الجنة .

وكان السبب في قوله المثل المترجم له أن الحجاج كان حنقاً عليه فطلبه حتى
ظفر به في جماعة من أسرى الخوارج فقال يا غلام اضرب عنق ابن الفاعلة فقال
عمران : بئس ما أدبك به مؤدبك يا حجاج كيف أمنت أن أجيبك بمثل ما جبهتنى
به أو أفحش ، أبعد الموت منزلة أصانعتك عليها ؟ فأطرق الحجاج استحياء مما فرط
منه وقال : خلوا عنه وأمر له بفرس وسرج وسيف وخلق سبيله ، فلما عاد
عمران إلى أصحابه من الخوارج قالوا له والله يا أبا سماك ما أطلقك إلا الله فعد بنا
لحرب الفاسق ، قال : هيهات ، غلّ يداً مطلقها واسترق رقبة معتقها ، فأرسلها
مثلاً ، ثم قال :

أَقَاتِلُ الْحَجَّاجَ عَنْ مَلَكُوتِهِ يَدُ ثِقَرٍ بِأَنْهَا مَوْلَانُ
إِنِّى إِذَا لَأَخُو الدَّنَاءَةِ وَالَّذِى عَفْتُ عَلَى عِرْفَانِهِ جَهْلَانُ
مَاذَا أَقُولُ إِذَا وَقَفْتَ إِزَاءَهُ فِى الصِّفِّ وَاحْتَجَّتْ لَهُ فَعْلَانُ
وَتَحَدَّثَ الْأَكْفَاءُ أَنَّ صِنَائِعاً غُرِسَتْ لَدَيْهِ فَحَنَظَلَتْ نَحْلَانُ
لَمَلَحْ

[وَالْعَوْدُ يُخْتَارُ عَلَى مَنْ كَانَ كَالْ مُحْتَارٍ أَوْ مَنْ كَانَ ذَا تَزْنَدِيقِ]

التزندق مصدر تزندق إذا ألحد في الدين وطعن فيه والاسم الزنديق ، ونسب
في الأصل لفخر الدين أن المجوس يلقبون بالزنداقة لأن الكتاب الذى زعم

زرادشت الذى تزعم المجوس أنه نبيها ، أنه نزل عليه من عند الله مُسمى بالزند والمنسوب إليه يسمى زندي ثم عرب فقيل زنديق ، وقال فى المصباح : إن الزنديق هو الذى لا يتمسك بدين ولا بشرية ويقول بدوام الدهر .

ومعنى كلام الناظم هنا يشير إلى أنه لما نهى عن العود لمحاربة من له عليك يد أفاد هنا أن العود والمحاربة إنما تحسن وتتوجه على من كان كافراً أو زنديقاً كاختار ابن أبى عبيد ومن سلك سبيله .

وفى كلام الناظم — رحمه الله — ما يفيد أنه لا يجوز الخروج على إمام الطاعة بمجرد الفسق حتى يثبت الكفر الصريح من غير احتمال ، وهو الحق ، ففى البخارى عن عبادة بن الصامت — رضى الله عنه — : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعُسْرنا ويُسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان .

وخالف المعتزلة فجوزوا الخروج على الإمام الجائر ، وهو مذهب باطل فالصبر على طاعة الجائر أولى من الخروج عليه ، ومن المعلوم أنه إذا تقابل الضرران أو المكروهان أو المحرمان نفى الأصغر للأكبر والله أعلم .

ذكر المختار بن أبى عبيد

هو أبو إسحاق المختار بن أبى عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفى ، كان أبوه أبو عبيد — رضى الله عنه — من أجلاء الصحابة وكان من ولادة عمر ابن الخطاب — رضى الله عنه — ، ولاد جيش العراق فلقى جافان كبير جيش الفرس بين الحيرة والقادسية فأوقع به أبو عبيد وأسرهُ ففدى جافان منه نفسه ثم جمع يزدجرد جمعاً كبيراً ووجهها نحو أبى عبيد فأوقعوا به على الجسر واستشهد أبو عبيد — رضى الله عنه — .

وأما المختار ولده هذا فإنه ولد عام الهجرة وليست له صحبة ولا رواية ، قيل أن أمه أتتها آت فى المنام فقال لها :

لك البشرى بولد .. أشبه شئ بالأسد .. إذا الرجال فى كبد .. تغالبوا على بلد ..
كان له حظ الأسد ..

فولده ، وذكر أبو عمر ابن عبد البر أنه كان يتظاهر بالفضل والصلاح
ويكتم الفسق فظهر منه ما كان يضمّر ، وكان يتظاهر بطلب دم الحسين ويسر
بذلك طلب الدنيا والإمارة فيأتى منه الكذب والجنون .

وذكر النورى أنه اتفق العلماء على أن المراد بالكذاب فى الحديث الذى يذكر
خروج كذاب من ثقيف أنه المختار بن أبى عبيد .

وقد تغلب على الكوفة وفعل بها الأفاعيل ، وقد سأله : لم خرجت تدعو إلى
هؤلاء ولم تعترف بالتشيع لهم ؟ فأجاب : لأنى رأيت مروان دبّ على الشام وابن
الزبير على مكة ، ونجدة على اليمامة ، وابن حازم على خراسان ، والله ما أنا
دونهم .

وكان المختار بن أبى عبيد يدعو فى ظاهره إلى محمد ابن الحنفية ويطلب بدم
الحسين ، وكان المختار بن أبى عبيد يدعى أنه يلهم ضرباً من السجع لأمر تكون
ثم يحتال فيوقعها ويقول للناس هذا من عند الله ، ولما قيل لابن عباس — رضى الله
عنهما — : إن المختار بن أبى عبيد يدعى أنه يوحى إليه قال : صدق المختار مع قول
الله عز ذكره : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ﴾^(١) .

وفى طلبه لدم الحسين اعتمد على إبراهيم بن الأشتر النخعى وكان بطلاً وسيداً
من سادات العرب ، فوجهه على رأس جيش إلى عبيد الله بن زياد قاتل الحسين
— رضى الله عنه — وكان جيش ابن زياد أضعاف جيش ابن الأشتر قالتقى به
بخارز وهو نهر بين الموصل ولاربيل فاقتل الفريقان وكانت الدائرة أول النهار على
أصحاب المختار ولما كان آخر النهار كانت الدائرة على ابن زياد وأصحابه ،
ويُحكى أن ذلك كان نتيجة لحيلة احتال بها المختار حيث أنه أودع حماماً ما بيضا

(١) الأنعام الآية (١٢١)

لأناس وقال لهم إن رأيتم الدائرة علينا أطلقوا هذا الحمام ، ثم خطب الناس وقال :
إن الله مدمكم بملائكة غضاب ، نأتى في صور الحمام دوين السحاب ، ولما أرسل
أصحاب الطيور طيورهم تصايح الناس الملائكة الملائكة فتراجعوا وقويت معنويتهم
ووقع القتل في أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ووضع فيهم السيف حتى أفنوا وكان
من هلك فرقاً أكثر ممن أخذ السيف ، وقال ابن الأشر يومئذ لقد ضربت بسيفي
رجلاً على شاطئ هذا النهر غولى إلى سيفي وفيه رائحة المسك ورأيت إقداماً
وجراًه فضربتة فصرخته فشرقت يدها وغربت رجلاه فانظروا من هو فأوقدوا النار
وتطلبوه فإذا هو ابن زياد .

وكان من حيل المختار في هذه الواقعة أنه كان عنده كرسي قديم العهد فغشاه
بالدياج وقال هذا كرسي من ذخائر أمير المؤمنين على بن أبى طالب فتركوا
وقاتلوا عنه فإن محله فيكم محل تابوت السكينة في بنى إسرائيل .

ثم ان مصعب بن الزبير سار إلى المختار بن أبى عبيد من البصرة فقاتله حتى
قتله ، ثم زحف عبد الملك بن مروان من الشام فقتل مصعب بن الزبير واستولى
على العراق .

يُحكى أن عبد الملك بن عمير قال : كنت مع عبد الملك بن مروان بقصر
الكوفة حين جيئ برأس مصعب بن الزبير فوضع بين يديه فرآني قد ارتعدت
فقال لى مالك ؟ فقلت أعينك بالله يا أمير المؤمنين ، كنت بهذا القصر بهذا
الموضع مع عبيد الله بن زياد فرأيت رأس الحسين بن على بين يديه في هذا المكان
ثم كنت فيه مع المختار بن أبى عبيد فرأيت رأس ابن زياد بين يديه ثم كنت فيه مع
مصعب بن الزبير فرأيت فيه رأس المختار بين يديه ثم هذا رأس مصعب بين
يديك ، قال فقام عبد الملك من الموضع وأمر بهدم الطاق الذى فيه . وكان
مقتل المختار بالكوفة سنة سبع وستين من الهجرة .

[وَالصَّمْتُ حِصْنٌ لِلْفَتَى مِنَ الرَّدَى وَقُلْ مَنْ شَرَّ لِسَانِهِ وَفَى]
[وَلَا وَجَدْتُ لِلْكَلامِ مَوْضِعاً فَكُنْ عَرَّاراً فِيهِ أَوْ كَالْأَشْدَقِ]

الصَّمْتُ : بفتح الصاد وقد تضم السكوت ، يقال قد صمتَ صَمْتًا وصُمْتُاً وصُمُوتًا من باب قَتَلَ ؛ والحصن بالكسر المكان الذي لا يُقدر عليه لارتفاعه يقال قد حصنَ بضم الصاد حَصَانَةً فهو حصينٌ أي منيعٌ .

والرَّدى الهلاك وقد ردي كرضي وأرداهُ غيره أهلكه « والله أعلم » .

ومعنى البيتين أن الصمت حصن ووقاية من الآفات المهلكة والمعاطب المتلفة وأنَّ جل من أرسل لسانه وأهمله قد عاد عليه وبال ذلك وشره وفي الحديث الصحيح : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » وفيه أيضاً « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

ومن كلام علي - رضي الله عنه - : إذا تم العقل نقص الكلام ؛ وقال طاووس : لساني سَيِّعٌ إن أرسلته أكلني ، والله در القائل :

أَحْفَظُ لِسَانِكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ لَا تَلِدْ غَنَّاكَ إِنَّهُ تُغْبَانُ
كَمْ فِي الْمَقَابِرِ مِنْ قَتِيلٍ لِسَانِهِ كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ

ثم ان كان لا بد من الكلام فلا تتكلم إلا لإحقاق حق أو إبطال باطل فإنه من صمت نجا وبالله تعالى التوفيق .

ذكر عرار وفصاحته

أما عرارٌ هذا فهو ابن عمرو بن شاس بن عبيد بن ثعلبة بن ذؤيبة بن مالك بن الحرث بن سعد بن ثعلبة بن داودان بن خزيمه ، كان والده عمرو بن شاس ممن شهد الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مشهوراً بالبأس والشدة والنجدة والشعر المطبوع .

وعِرَّار ، قال ابن عبد البر هو بفتح العين وكسر ها ، فالفتح على أنه منقول من الشجر المعروف والكسر على أنه منقول من صياح الظليم ، وهو أسود اللون ابن

جارية لاييه ، وكانت زوجة أبيه أم حسان السعدية تُبغضه وتشتمه وتؤذيه وتعير أباه به فطلقها أبوه لأجل ذلك ثم تبعها نفسه وله فيها أشعار كثيرة ، ومن شعره فيها وفي ابنه عرار قوله :

فإن كنت مني أو تريدني صحبتي فكوني له كالتمن ربّه الأدم
وإلا فسيري سير راكب ناقة تيمّم خبثاً ليس في سيره أقم
أرادت عراراً بالهوان ومن يُرذ عرار لعمرى بالهوان فقد ظلم
وإن عرار ان يكن غير واضح فإني أحب الجون ذا المنطق العمّم

ومعنى العمّم التام ، وكان عرار من النجباء الفصحاء ، وقد وجهه الحجاج إلى عبد الملك بن مروان برأس ابن الأشعث وكتب معه كتاباً بالفتح فجعل عبد الملك كلما قرأ الكتاب وشك في لفظ سأل عنه عراراً فيخبره في أصح لفظ وأبلغ قول فملاً أذنه صواباً وعبد الملك لا يعرفه وقد استنقصه حين رأى سواده ودمايته فقال متمثلاً :

وإن عراراً إن يكن غير واضح فإني أحب الجون ذا المنطق العمّم
فضحك عرار فقال عبد الملك ممّ تضحك ؟ فقال أتعرف عراراً يا أمير المؤمنين ؟ قال لا ! قال أنا هو فضحك عبد الملك وقال : خط وافق كلمة ، وأحسن جائزته وسرحه .

وقيل في سبب استشهاد عبد الملك بالبيت المتقدم بحضرة عرار المنشود فيه غير ذلك « والله أعلم » .

ذكر الأشدق وفصاحته

وأما الأشدق فهو أبو أمية عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، قتل جده العاص بن سعيد كافراً يوم بدر قتله على بن أبي طالب — رضي الله عنه — ، وولد أبوه سعيد بن العاص عام الهجرة

وعنه ابن عبد البر من الصحابة وكان أحد أشراف قریش ممن جمع السخاء
والفصاحة وهو أحد كتبة المصحف لعثمان — رضي الله عنه — ، وقد ولاه عثمان
الكوفة ، وكان اعتزل حرب الجمل وصفين ، فلما اجتمع الناس على معاوية
— رضي الله عنه — ولاه على المدينة المنورة ، وكان له سبعة أولاد أنجبهم عمرو
الأشدق الذي نحن بصدد ترجمته .

واختلف في سبب تسميته بالأشدق ، فقيل لأن ذلك لسبب ريح أصابته
فأملت شدقه ولذلك كان يقال له لطيم الشيطان .

وذكر القسطلاني في شرح البخاري أن عمراً الأشدق صعد المنبر فبالغ في شتم علي بن
أبي طالب فأصابته لغوة أملت شدقه .

وقيل إن معاوية هو الذي سماه الأشدق وذلك أنه لما مات أبوه ودخل على معاوية
فقال له إلى من أوصى بك أبوك ؟ فقال يأمر المؤمنين إن أبي أوصاني ولم يوص بي ،
فقال : فبأي شيء أوصاك ؟ قال : بأن لا يفقد منه أصحابه غير شخصه ، فقال
معاوية : إن عمراً هذا لأشدق فسمي بالأشدق ، وفي ذلك يقول الشاعر :

تشادق حتى مال بالقول شدقه وكل خطيب لا أبالك أشدق

يُحكى أن سعيد بن العاص لما اختصر استدعى بنيه فقال يا بني من يكون وصي
فيكم ؟ فسكتوا لما يعملونه من كثرة بناته وكثرة ديونه ، فأعاد مقالته فسكتوا فقال
عمرو أنا وصيك يا أبت ، قال إني أوصي بثلاث ، قال قل يا أبت ما بدا لك قال : علي
ثلاثمائة ألف درهم ديناً أو قال ثلاثه آلاف درهم فقال عمرو نعم هذه واحدة فقال
سعيد : إخواني الذين كنت أتعهدهم بالمعروف لا تقطع ذلك عنهم ، فقال عمرو نعم ،
فقال سعيد : أما والله يا بني لأن كنت فعلت لقد كنت تأملت ذلك في حماليق عينيك
وأنت في المهد ، ثم إن عمراً وفي بما عهد به إليه أبوه .

ولما اختل أمر الخلافة بعد يزيد بن معاوية وثب مروان بن الحكم بالشام وعضده عمرو بن سعيد الأشدق على أمره بشرط أن يجعل له الأمر من بعده ففعل ثم كان من الأمر أن رفض مروان الشرط بعد أن تمكن وبائع بولاية العهد لابنه عبد الملك ثم لعبد العزيز ولما هلك مروان واستقل عبد الملك بالأمر طلب منه الأشدق أن يجعل له الأمر بعده فأبى فتربص الأشدق حتى خرج عبد الملك لقتال ابن الزبير بالعراق وقيل لقتال زفر بن الحرث الكلبي بقرقيسياء فخالفه إلى دمشق وأغلقها وتمكن من دار عبد الملك وبيوت المال واتصل الخبر بعبد الملك فكر راجعاً وحاصر الأشدق أياماً ثم وقع الصلح على أن يكون له الأمر من بعده وأن له مع كل عامل عاملاً ففتتح الأشدق دمشق وخرج في الخيل إلى عبد الملك فأقبل حتى وطئ فرسه أطناب عبد الملك فانقطعت وسقط السرادق ثم دخل على عبد الملك فاجتمعا ثم بعد أيام من دخول عبد الملك دمشق غدر بالأشدق فقتله بعد أن استدعاه إلى جواره في خبر طويل ، وذلك سنة سبعين للهجرة ، وكانت أخته آمنة بنت سعيد تحت الوليد بن عبد الملك فرثته وخرجت حاسرة تبكي وتقول :

ألا يا قومي للوفاء وللغدر وللغلقين الباب قسرا على عمرو
 غدرتم بعمرو يابني خيط باطل وكلكم بيني البيوت على غدر
 كأن بني مروان إذ يقتلونه بغاث من الطير اجتمعن على صقر
 لحى الله دنيا تُعقبُ النار أهلها وتهتك ما بين القرابة من ستر
 الخ

ولما توفي عبد الملك سعى بآمنة ساج عند الوليدة بأنها لم تبكه كما بكته نظائرها فذكر لها الوليد ذلك فقالت صدق القائل ، ماذا أقول في بكائه ؟ أتريدون مني أن أقول ياليتها بقي حتى يقتل لي أخاً مثل عمرو بن سعيد ؟ فأعرض عنها « والله أعلم » .

[لَأَتَكْتُمُ الْحَقَّ وَقُلُّهُ مُغْلَنًا فَهُوَ جَمَالُ صَوْتِكَ الصَّهْصَاقِ]

[وَصَحَّحَ بِهِ مِثْلَ شَيْبٍ وَأَبَى عُروَةَ وَالْعَبَّاسُ عِنْدَ الرَّعَقِيِّ]

الصَّهْصَلُ كَجَحْمَرٍ شَدِيدٍ ، وَالصَّهْصَلُ الْعَجُوزُ الصَّخَابَةُ .

وَالرَّعَقِيُّ بِالتَّحْرِيكِ مَصْدَرُ رَعَقٍ كَفَرَحٍ وَعُغْنِي إِذَا خَافَ بِاللَّيْلِ فَهُوَ زَعَقٌ كَكَتَفَ ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ أَنْ إِظْهَارَ الْحَقِّ وَنَصْرَهُ وَالْإِشَادَةَ بِهِ مَطْلُوبٌ شَرْعاً وَعَقْلاً ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ (١) الْآيَةُ .

تَنْبِيْهُ : مِنْ الْفُرُوضِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُؤَكَّدَةِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ فَقَدْ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى وَجُوبِهِمَا وَدَلَّ عَلَيْهِ لِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ الْمَعْصُومِ فَأَمَّا الْكِتَابُ ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٢) الْآيَةُ ، وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ بِقَوْلِهِ : ﴿ كَانُوا لَا يَتَّهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣) وَأَمَّا السُّنَّةُ فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : مِثْلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمِثْلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا خَرَقًا وَلَمْ نَتُذَّ مِنْ فَوْقِنَا ، فَإِنْ تَرَكَوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَّوْا جَمِيعًا .

قُلْتُ : وَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الْمُتَطَفِّلِينَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ مِنْ مَنْطُوقِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (٤) بِأَنَّهُ

(٣) الْمَائِدَةُ الْآيَةُ (٧٩) .

(٤) الْمَائِدَةُ الْآيَةُ (١٥) .

(١) النِّسَاءُ (١٣٥)

(٢) آلُ عِمْرَانَ (١٠٤)

إذن في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو ظن باطل وجهل بكنه الآية الكريمة فمدلولها « والله تعالى أعلم » هو أنكم إذا امتدعتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقمتم بتبليغ حجة الله في ذلك لا يضركم من ضل يوم القيامة وفي « الطبري » أن أبا هريرة — رضي الله عنه — سمع قوماً يقولون في الآية إنها منسوخة فقال يا بني الآية محكمة ولكن ذلك في الآخرة ، أمّا في الدنيا أما ترى الحبارى تموت عطشاً من ذنب ابن آدم . يعصي ابن آدم ربه فيمسك الله المطر فتموت الحبارى عطشاً في الصحراء ، ومن تلا قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ ^(١) وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم لإحدى أمهات المؤمنين حين سأله : أنهلك وفيما الصالحون ؟ قال نعم إذا كثرت الخبث ، علم بوضوح أن مدلول قوله تعالى : ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ يعني يوم القيامة .

وقصة بني إسرائيل في القرية التي كانت حاضرة البحر تشهد لما قررناه ، لأن الذين لم يرتكبوا ما تُهوا عنه ولم ينهوا المرتكبين قالوا للطائفة المؤمنة منهم التي قامت بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ﴿ لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ^(٢) ؟ فأجابوهم بأن ذلك كان منهم خروجاً من عهدة وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع أنهم يرجون أن يوفقهم الله ويتلقاهم بعنايته ﴿ قَالُوا مَعذْرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ^(٣) .

ولما جاء عذاب الاستئصال للذين انتهكوا حُرّمات الله أصاب أولئك الذين ارتكبوا المنهي عنه والذين لم ينهوا عن المنكر على حد السواء وذلك هو التحقيق لأن القرآن العظيم لم يخبرنا إلا بنجاة الذين كانوا ينهون عن السوء حيث قال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنحَنَّا الَّذِينَ يَهْوِي السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ^(٤) .

(١) الأنفال (٢٥)

(٢ ، ٣) الأعراف (١٦٤)

(٤) الأعراف الآية (١٦٥)

فالحاصل : أن الأمر بالمعروف يلزم لزوماً باتاً وأن من يمكنه القيام بذلك ولم
يقم به مع عدم المسقط عنه أحق بالعقوبة من مرتكبي المنهى عنه لأنهم شركاء فيه
وسكوتهم على ذلك يؤذن برضاهم به والله ولي التوفيق وهو الهادي إلى سواء
الطريق .

تتمة : يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من يعرف المعروف من
المنكر لأنه إن جاز أن يلي ذلك كل من خب ودبّ وقع النهي عن المعروف يظن
منكراً والأمر بالمنكر يظن معروفاً والله — جل وعلا — يقول : ﴿ وَلَا تَقْفُ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾^(١) ويشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضاً
فطنة الإفادة وبه فسر بعض المحققين قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرْ إِنْ نَفَعْتَ
الذِّكْرَى ﴾^(٢) انظر دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب لعلم زمانه
والكوكب الفرد شيخنا وابن عمنا العلامة الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار بن
عبد القادر بن أحمد نوح الجكني ثم اليعقوبي الموريتاني أصلاً ومنشأ وميلاداً دفين
المعلاة بمكة المكرمة جمعنا الله به في مستقر رحمة الله .

كما يشترط فيه أيضاً أمن الأمر بالمعروف على نفسه من وصول الأذى إليه
وهو مسقط للوجوب والاستحباب باق « والله تعالى أعلم » .

ذكر العباس — رضي الله عنه —

أما العباس فهو ابن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وهو أشهر من
أن يُعرف به كان أسن من النبي صلى الله عليه وسلم بستين وكان رئيساً شريفاً في
الجاهلية والإسلام أسلم قبل فتح خيبر وكان بمكة يكتُم إسلامه ثم أظهره يوم الفتح
وشهد حينئذ والطائف وتبوك .

وقيل كان إسلامه في بدر وكان يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بأخبار المشركين وكان المسلمون بمكة يتقوون به وكان يحب الهجرة إلى المدينة غير

(٢) الأعلى الآية (٩) .

(١) الإسراء (٣٦) .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول له إن بقاءه بمكة خير للمسلمين ،
ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : من رأى منكم العباس
فلا يقتله فإنما أخرج مكرها ، ثم أسر وفدى نفسه وابني إخوته نوفل بن الحارث
وعقيل بن أبي طالب وثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين في نفر
من بني هاشم حين فر الناس عنه وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه
راضٍ واستسقى عمر — رضي الله عنه — بدعائه عام الرمادة فجاء الله بالمطر
والخصب .

كان — رضي الله عنه — جميلاً أبيض ذا ضفيرتين طويل القامة جداً ، وفيه
وفي أمثاله من بني أبيه يقول جرير :

تعالوا ففاتونا ففى الحكم مقنع إلى الغر من أهل البطاح الأكارم
فإني لأرضى عبد شمس وما قضت وأرضى الطوال البيض من آل هاشم

وذكر المبرد أن علي بن عبد الله بن عباس كان إلى منكب والده عبد الله بن
عباس وكان عبد الله إلى منكب العباس وكان العباس إلى منكب عبد المطلب بن
هاشم وذكر المبرد أيضاً أن قيس بن سعد بن عبادة كان موصوفاً بالكمال مع
جماعة بنوا الناس طولاً وجمالاً منهم العباس بن عبد المطلب وولده عبد الله وجرير
ابن عبد الله البجلي والأشعث بن قيس الكندي وعدي بن حاتم الطائي وزيد الخيل
الطائي وكان أحد هؤلاء يقبل المرأة على الهودج وكان يقال للرجل منهم مقبل
الظعن .

وكان العباس — رضي الله عنه — من أجهر الناس صوتاً ولذلك قال له النبي
صلى الله عليه وسلم لما انهزم الناس يوم حنين يا عباس اصرخ بالناس ، أو كما قال
صلى الله عليه وسلم ، وفي تهذيب الأسماء أن العباس كان يقف على سلع بالمدينة
فينادى غلمانه بالغابة فيسمعونه وبين الغابة وبين المدينة ثمانية أميال والله
أعلم .

وتوفي العباس — رضي الله عنه — يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب وقيل من رمضان سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة قبل مقتل عثمان — رضي الله عنه — بستين .

ذكر أبي عروة وشيب

وأما أبو عروة فهو رجل من العرب يضرب به المثل في شدة الصوت وجهارته ويقال له أبو عروة السباع بالإضافة كما في الثمار ، وقال أبو عبيدة : كان أبو عروة يصيح على الأسد وقد احتمل الشاة فيخلها ويسقط فيموت فيشق بطنه فيوجد فؤاده قد زال عن موضعه ، « والله على كل شيء قدير » ، قال النابغة الجعدي :

زجر أبي عروة السباع إذا أشفق أن يختلطن بالغنم
وقد طعن بعض الناس في خبر أبي عروة هذا وفي بيت النابغة كما في الكامل ، قالوا : إذا كان هذا أثر صوته في السباع مع قوتها فما بال الغنم ؟ فهي أولى بالهلاك من السباع ، وأجيب بأن الغنم كانت قد ألفت منه هذا الصوت ، ألا ترى إلى صوت الرعد فلو جاء أقل منه من جهة الأرض لأهلك الناس فرعاً . قلت : قدرة الله لا يعجزها شيء ، والاعتراض على هذه المقالة وجيه جداً والعلم عند الله تعالى .

وأما شبيب : فهو أبو الضحاك شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس بن عمرو ابن الصلت بن قيس بن شراحيل بن مرة بن همام بن مرة بن ذهل بن شيان الشيباني الخارجي وقد تقدم تمام نسبه في ترجمة جساس ومام ابني مرة ، كان أبوه قد اشترى جارية رومية حمراء طويلة من سبي الروم وكانت جميلة فقال لها أسلمي فامتنعت فضربها فلم تسلم فواقعها فحملت فلما تحرك الولد في بطنها قالت في بطني شيء ينفر ، فقيل : أحق من جهيزة ، ثم أسلمت وولدت شيباً يوم النحر سنة ست وعشرين للهجرة فقالت لمولاه : إني رأيت قبل أن ألد كأنني

ولدت غلاماً فخرج منى شهاب من نار سطع له ما بين السماء والأرض ثم سقط في الماء فخبأ وقد ولدته يوم النحر يوم تراق فيه الدماء وقد رجوت أن ابني هذا يعلو أمره ويكون صاحب دماء يهريقها .

ونشأ شبيب فقرأ القرآن وتفقّه في الدين ثم انتحل مذهب الخوارج الصُّفْريّة وعلا أمره حتى بايعته الخوارج ودعوه بأمر المؤمنين ، وفي ذلك يقول ابن المنهال عتاب بن وصيلة الحروري يخاطب عبد الملك بن مروان وكان شبيب قد خرج في أيامه .

أبلغ أمير المؤمنين رسالةً وذو النُّصْح لو يُدْعَى إليه قريبُ
فلا صلَح ما دامت مناير أرضنا يقوم عليها من ثقيف خطيبُ
وإنك إن لا تُرضي بكر بن وائل يكن لك يوم في العراق عصبُ
فإن يك منكم كان مروان وابنه وعمر و منكم هاشمٌ وحبيبُ
فمنا سُوَيْدٌ والبَطِينُ وقَعَبٌ ومنا أمير المؤمنين شبيبُ

وكان خروج شبيب بالعراق بالموصل فوجه إليه الحجاج بن يوسف خمسة قواد فقتلهم واحداً بعد واحد ، وكان شجاعاً فاتكاً وبطلاً مجرباً وبلاءً مسلطاً وعذاباً مرسلأً ، فكان إذا غزاه جيش لا يقصد إلا قائده فيحمل عليه حتى يصرعه وينهزم الجيش لموت قائده ، ومن غريب أمره أن الحجاج وجه إليه عتاب ابن ورقاء الرياحي في خمسين ألف مقاتل فصمد إليه شبيب في ستائة من قومه فقتل عتاباً واستولى على ذلك الجيش وألزمهم بيعته فبايعوه كرها ثم فر أكثرهم في ظلام الليل ، وكان شديد الصوت جهيره إذا صاح في الجيش انهزم لا يلوي على شيء ، وفي ذلك يقول بعض شعراء الخوارج :

إن صاح يوماً حسبت الصخر منحدرأً والريح عاصفة والبحر يلتطم

ثم إنه خرج من الموصل يريد الكوفة وخرج الحجاج من البصرة يريدّها وطمع شبيب أن يلقاه قبل أن يصل الكوفة ولكن الحجاج أقحم خيله فدخلها قبل

أن يلحق به وذلك سنة سبع وسبعين للهجرة وتحصن الحجاج بقصر الإمارة
واقترح شبيب عليه الكوفة حتى وصل إلى باب القصر وضربه بعموده وسب
الحجاج ، وكانت زوجته غزالة الحورية قد نذرت أن تدخل مسجد الكوفة
فتصلي فيه ركعتين تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران فأتت الجامع في سبعين من
الخوارج ووفت بنذرهما ، وكان قد اتفق أن حملت في بعض الوقائع على الحجاج
ففر عنها فقال عمران بن حطان السدوسي يعيره :

أسد علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صغير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر
وكانت جهيزة أم شبيب تشهد الحروب أيضاً كزوجته .

ولما أعيا الحجاج أمر شبيب استنجد عليه عبد الملك بن مروان فأمدّه بنحو
سنة آلاف من جنود الشام عليهم سفيان بن الأبرد الكلبي فانضم إليه الحجاج عند
وصوله الكوفة وخرج الجميع لشبيب فأحسنوا دفاعه ولقي منهم شوكة لم يعهدها
من قبل وماتت زوجته غزالة في حروب يشيب الطفل لها ، ثم ذهب شبيب إلى
كرمان يريخ نفسه ، ثم إن الحجاج أمر أصحاب ابن الأبرد بالتوجه إلى شبيب
بعدما بلغه رجوعه ، وبعد أن أغدق العطاء لهم فاقتل معه أهل الشام قتلاً شديداً
ثبتوا فيه ثبوت الأبطال فولى عنهم شبيب فلما كان على جسر دُجَيْل نفر به فرسه
وكان مثقلاً بالحديد فوقع في النهر فقال له بعض أصحابه أغرقاً يا أمير المؤمنين ؟
فقال ذلك تقدير العزيز العليم ، فألقاه دُجَيْل ميتاً في ساحله فحمل جثثانه إلى
الحجاج فأمر بشق جوفه واستخراج قلبه فوجدوه صلباً كأنه صخرة فكان
يضرب به الصخرة فيشب عنها قامة الإنسان ، كذا في « ابن الأثير » اهـ من
الأصل .

[لا تَنْسَ مَا أَوْصَى بِهِ الْبَكْرَى أُنْحَا فَهَوَ سَدَادٌ فِيهِ السُّوءُ أَتَقِي]

معنى البيت معروف لوضوح ألفاظه .

ذكر وصية البكرى لأخيه

كان الحجاج بن يوسف الثقفى قد ولى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى على سجستان وماتصل بها وأمره بمحاربة رتبيل أحد ملوك الترك فحاربه واستولى على الكثير من بلاده فلم يقنع الحجاج بذلك وكتب إليه يهدده بالخلع إن لم يتوغل فى أرض رتبيل فقرأ عبد الرحمن كتابه على الناس واستشارهم فى أمره فأجمعوا على خلعه بإشارة أبى الطفيل عامر بن واثلة « رضى الله عنه » ثم أقبل عبد الرحمن بمن معه من الناس يريد حرب الحجاج وتسامع بذلك الناس فاتفقوا على خلع الحجاج ومن أفتى بخلعه سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبى ليلى وعامر الشعبى وأبو البحتري الطائى والحسن البصرى وغيرهم .

يُحكى أن عامل عبد الملك على اليمن بعث إليه بهدية ومعها جارية بارعة جمال وكان ذلك أيام خروج ابن الأشعث فلما دخلت عليه رأى جمالاً بهره فلما هم بها أعلمه الحاجب بأن رسول الحجاج بالباب فأدخله ونحى الجارية فأعطاه كتاباً من عبد الرحمن بن الأشعث فيه خمسة أسطر ، فكتب إليه : يكفيك مأوصى به البكرى أخاه زيدا ، فلما قرأه الحجاج لم يدر مأوصى به البكرى أخاه فصاح صائحه من يعرف مأوصى به البكرى أخاه زيدا فُضيئت حاجته فقام أعرابى قد طالت إقامته فقال أنا أعرفها فأدخل على الحجاج فأنشده

فقلتُ لزيد لا تُترترَ فإلهم يرون المنايا دون قتلك أو قتلى
فإن وضعوا حرباً فضعها وإن أبوا فعرضةً عضَّ الحرب مثلك أو مثلى
وإن رفعوا الحرب العوان التى ترى فشبَّ وقودَ الحربِ بالحطِّ الجزل
فقال الحجاج وأبيك إنها ليه وقضى حاجته .

وأما خبر الجارية التى سيقَت إلى عبد الملك فإنه امتنع من قربها وكان يقول لها ما حصلت على فائدة أحب إلى منك ، فتقول : فما بمنعك ياأمير المؤمنين ؟

فيقول بمنعني قول القائل :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء وإن باتت بأطهار

فإني إن خرجت منه كنت أأم العرب ، ولم يقربها حتى انقضى أمر ابن الأشعث . وكان خروج ابن الأشعث سنة ثنتين وثمانين للهجرة وكانت بينه وبين الحجاج نيف وثمانون وقعة هلك فيها خلق كثير ثم كانت الكرة على ابن الأشعث ففر إلى رتبيل ملك الترك فاستجار به ثم غدر به فقبض عليه وبعث به إلى الحجاج فألقى ابن الأشعث نفسه من شاهق فهلك وبعث برأسه إلى الحجاج فبعث به إلى عبد الملك مع عرار بن عمرو الأسدي المتقدم الذكر وذلك سنة خمس وثمانين .

وتتبع الحجاج أصحاب ابن الأشعث فقتل منهم جماعة من القراء منهم سعيد ابن جبير « رضى الله عنه » بعد اختفائه مدة وكان الحجاج إذا جيء إليه بأحد من أصحاب ابن الأشعث قال له اشهد على نفسك بأنك كنت كافراً بخروجك على عبد الملك فإن فعل أطلقه وإلا قتله ، فجيء بشيخ يوماً فقال الحجاج مأظن الشيخ يشهد على نفسه بالكفر ، فقال الشيخ أتحادعني عن نفسي يا حجاج والله إني لأكفر من فرعون وهامان فضحك الحجاج وخلي سبيله ؟
[لَا تَأْمَنِي الدَّهْرَ الْخُثُونَ إِنَّهُ أَرْشَقُ نُبْلًا مِنْ رُمَاةِ الْحَدَقِ]

الدهر الزمان قل أو كثر قال الشاعر :

إِنَّ دَهْرًا يَلْفُ شَمْلِي بِجُمْلٍ لَزِمَانٌ يَهُمُّ بِالْإِحْسَانِ

وقيل فيه غير ذلك

والخثون فعول من الخيانة ، والرشق بالنبل الرمي بها ، والنبل السهام العربية جمع لا واحد له من لفظه وهي مؤنثة والواحد سهم وقد تجمع على نبال وأنبال ومعنى البيت التحذير من غوائل الدهر ومكائده وتقلباته ، والتنبيه على أن العاقل لا يطمئن إليه ولا يأنس به ، والعرب تسميه أبا العجب ، ومن كلامهم فيه :
الدهر حبل لا يدرى متى تلد ، فالعاقل إذاً عليه أن يجعل الموت نصب عينيه

ويتزود لمعاده ويجعل الآخرة أقصى مراده ؛ وفي الحديث عن ابن عباس عند الحاكم أن النبي ﷺ قال لرجل يعظه : « اغتسم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » وفي « الصحيح » عن ابن عباس أيضاً : قال ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » والله درُّ القائل .

إذا هبَّ رياحُك فاغتنمها فإنَّ لكل خافقة سُكُونُ
وإنَّ دَرَّتْ نياقُك فاخْتَلِبْهَا فما تدرى الفصيل لمن يكون
وان ظفرت يداك فلا تُقَصِّرْ فإنَّ الدَّهرَ عادته يَحُونُ
وقال الآخر وهو عمرو بن قمئة

رمتني صروف الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يُرمى وليس بِرَامٍ
فلو أنَّها نَبَلٌ إذا لا تُثْقِيْهَا وَلَكِنَّمَا أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامٍ

ويحكى أن عبد الملك بن مروان أنشد هذين البيتين قرب موته

ذكر رُماة الحدق وما قيل فيهم

اختلف في رماة الحدق فقليل هم بنو طيء لأن منهم بني ثعل وهم مشهورون بالرمي وجودته ، وقيل هم النوبة ، ففي الاكتفاء عن ابن عبد الحكم أن عبد الله ابن سعد بن أبي سرح غزا النوبة سنة إحدى وثلاثين فقاتلوه قتالاً شديداً وأصيب حينئذ عين معاوية بن خديج وأبي شمر بن أبرهة وحيويل ابن ناشرة فسموا رماة الحدق فهادنهم عبد الله بن أبي سرح إذ لم يظفر بهم ، وقيل هم القارة الذين قيل فيهم : قد أنصف القارة من رامها ، وهم عَضَلُّ والرئيس ابنا الهون بن خزيمة وإنما سموا قارة لاجتماعهم والتفافهم لما أراد الشداخ أن يفرقهم في بني كنانة ، فقال شاعرهم :

دعونَا قارةً لاتنفرونَا فَنُجْفِلْ مِثْلَ إَجْفَالِ الظِّلِمِ

وفي شرح الحازمية للغرناطي أن كل حاذق في الرمي يقال له من رماة الحدق

تشبيها بهم ، قال حازم يصف قوما رماة ذوى إجادة .

قد وكلوا أعينهم بأعين يُكمنُ للصيد بها ويكتمى
وأحدقت بهم رماة حَدَقَ قد استحقوا مالمعمرو يُدعى

وقيل رماة الحدق هم أصحاب خالد بن الوليد رضي الله عنه في وقعة ذات
العيون بالأنبار لأن خالداً قال لهم إني أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم
ولا تتوخوا غيرها فرمواهم ففقت ألف عين فصاح الناس ذهبت عيون أهل
الأنبار ، وصالحوا خالداً بما يريد والله تعالى أعلم .

[لا تَرْجُونَ صِفْوَاً بِدُونِ كَدَرٍ فَذَا لِيْغِيْرَ اللهِ لَمْ يَتَّفِقِ]

مراده بهذا الكلام أن الإنسان ينبغي أن لا يطمع في وجود خير متمحض لا
يتخلله شيء من الشرفان ذلك لا يتحقق إلا في دار الخلود لأن الجنة خير متمحض
نرجو الله تعالى أن يجعلنا ووالدينا وأهلنا وولدنا ومشائخنا ومن أوصانا بالدعاء له
بخير من أهلها ، وأما الدنيا فقد اقتضت حكمة الله تعاقب الخير والشر فيها فهي لا
تصفو من الكدر والنكد نرجو الله تعالى أن يريد بنا وبالمؤمنين خيراً إنه بصير
وبالإجابة جدير .

ولقد طرق الزمخشري هذا المعنى قائلاً يعني الدهر :

مليح ولكن عنده كل جفوة ولم أر في الدنيا صفاء بلا كَدَرٍ
[لَا تَبْخُلُنْ بِرَدٍّ مَا اسْتَعْرَيْتُهُ كَضَائِبِي فَأَبْخُلُ شَرُّ مُوْبِقِ]
[شَحٌّ بَرْدٌ كَلْبٌ صَيْدٌ وَهَجَا أَرْبَابُهُ ظُلْمًا فَلَمْ يُصَدِّقِ]
[وَمَاتَ فِي سَجْنِ ابْنِ عَفَّانَ كَمَا قَضَى إِلَهِ مِيتَةَ الْمُخْزَرَقِ]
[وَنَجَلُهُ مِنْ أَجَلِهِ أَجَلُهُ مِنْ سَطْوَةِ الْحَجَّاجِ لَمْ يَكُنْ وَقِي]

البخل بالضم وبالتحريك ضد الكرم وهو في الشرع منع الواجب وعند
العرب منع السائل مما يفضل عندك

واستعرفته استفعلته من العارية وهي من التعاور وهو التداول يقال أعترته

إعارة وعارة بذلته له على وجه العارية وهي كما حدها ابن عرفة تملك منفعة مؤقتة والموبق بكسر الباء المهلك وزناً ومعنى ، والشُّعُ بثلاث الشين : البخل مع الحرص والحزقة التضيق وفيه لغة بتقديم الراء على الزاي ، والنجل الولد ، والأجل بسكون الجيم مصدر أَجَلَ الرجل بالتحريك على قومه شراً من باب قتل جناء عليهم وكان بسببه ، والأجل بالتحريك مدة الشيء ووقته الذي يحل فيه وأجل العبد وقت انقضاء عمره ، والسطوة الصولة والبطش ، والله أعلم .

ذكر ضاىء وابنه

ضاىء بصيغة اسم الفاعل هو ابن الحرث بن أرطاة بن شهاب البرجمي وهم أولاد حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم كما تقدم .

وكان ضاىء شاعراً مقلداً وكان سبب حبسه الذي أشار إليه الناظم أنه استعار من بعض بنى حنظلة كلباً يصيد به ، وقيل استعاره من قوم من الأنصار يصيد به الظباء فحبسه عنهم فأخذوه منه قهراً فهجاهم بقوله :

أيا راكباً إماً عرضت فبلغن أمامة عني والأمور تدور
إلى أن قال

تجشمت نحوى وفد فرحان سربخاً تظل به الوجناء وهي حسيـر
فأردتهم كلباً فراحوا كأنما حباهم بتاج الهرمزان أمير
وقلدهم ما لو رميت متالعا به وهو مقبر لكاد يطير
فكلبكم لاتشكلوا فيه أمكم فإن عقوق الأمهات كبير
إذا عبت من آخر الليل دخنة بيت له فوق الفراش هريـر
فيا لك كلباً قد ضربت بحرفة سميع بما تحت الإزار بصير

فشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه فعزره وحبسه وقال والله لو كان رسول الله ﷺ حياً لنزل فيك قرآن وما رأيت أحداً رمى قوماً بكلب قبلك ، ومكث في سجن عثمان إلى أن مات ، وقوله وفد فرحان هو اسم

الكلب المذكور ، ولما قتل عثمان رضى الله عنه اقتحم عمير بن ضامىء عليه داره فوجده قد قتل فوثب عليه فكسر ضلعين من أضلاعه وقال سجنى حتى مات فى السجن ثم أنشد يقول شغره الذى منه قوله :

همت ولم أفعل وكدت وليتنى تركت على عثمان تبكى حلاله
فكان من قدر الله أن عميراً عاد إلى الكوفة وأقام بها إلى أن ولى الحجاج على العراق سنة خمس وسبعين من الهجرة فقام خطيباً يستحث الناس على الخروج لقتال الخوارج مع المهلب بن أبى صفرة ، فلما كان بعد ثلاث سمع الحجاج تكبيراً فى السوق فقام خطيباً وقال : يا أهل العراق ، وأهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذى يراد به وجه الله ولكنه التكبير الذى يراد به الترهيب وقد عرفت أنها عجاجة تحمها قصف ، يا بنى اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الإماء ألا يربح رجل منكم ظلمه ويحسن حقن دمه ويعرف موضع قدمه ، فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالاً لما قبلها وأدباً لما بعدها ، وكان الحجاج أقسم أن لا يتأخر أحد عن الخروج إلى المهلب أكثر من ثلاث إلا ضرب عنقه ، فلما قال الحجاج ما ذكرناه آنفاً تقدم عمير بن ضامىء وكان قد أسن وقال أصلح الله الأمير أنا فى هذا البعث وأنا شيخ كبير عليل وابنى هذا مكافى ، قال الحجاج هذا خير لنا من أبيه ثم قال ومن أنت ؟ قال أنا عمير بن ضامىء ، قال ألسنت الذى غزا عثمان بن عفان ؟ قال بلى ، قال ياعدو الله أفلا إلى عثمان بعثت بدلاً ، وما حملك على ذلك ؟ قال إنه حبس أبى حتى مات ، قال أولست القائل : همت ولم أفعل وكدت وليتنى تركت على عثمان تبكى حلاله

إنى لأحسب فى قتلك صلاح المصرين وأمر به فقتل وانتهب ماله ، ثم أمر مناديه وقال ألا إن عميراً تأخر بعد ثلاث فقتل ومن تأخر فإن ذمة الله بريئة منه فخرج الناس وازدحموا على الجسر خروجاً إلى المهلب .

ولما قتل عمير بن ضامىء جاء البراجم لينصروه فلما سمع الحجاج قال ما هذه الضوضاء فأخبر فقال ارموا إليهم برأسه أتخفوهم به ففعلوا فولوا هاربين . والله أعلم .

[وَاسْتُرَّ عَنِ الْحُسَادِ كُلِّ نِعْمَةٍ كَمْ فَاضِلٌ بِكَأْسٍ مَكْرَهُمْ سُقِيَ]
[فَصَاعِدٌ عَلَى مَدِيحٍ وَرَدَّةٍ أَصْبَحَ مُنْحَطًا يَقُولُ سَهْوَق]

النَّعْمَةُ بالكسر اليد والصنعة كالنعماء وكحمراء والنعمى كحُبلى ، وأما
النَّعْمَةُ بالفتح فهي اسم من التَّعَمُّعِ والتَّعَمُّعُ ، قال تعالى ﴿ وَنِعْمَةٌ كَانُوا فِيهَا
فَاكِهِينَ ﴾ (١) .

والفضيلة خلاف النقص والنقيصة وأصله الزيادة فإذا برز الإنسان على أمثاله
في خصلة من الخصال فقد فضلهم فيها واستحق أن يسمى فاضلاً ، وخصه
الاستعمال بما كان محموداً فلا يقال في زائد البخل والجهل والخداع فاضلاً .

والمكر هو الخداع ، وصاعد اسم رجل يأتي خبره بإذن الله ، والسهوق
بوزن جعفر الكذاب والعلم عند الله تعالى .

ومغزى البيتين الحث على كتمان السر عن الحساد خوفاً من كيدهم وفي ذلك
يقول الأثر : « استعينوا على أموركم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود » ولا شيء
أدل على ذلك من قصة إخوة يوسف مع أخيه يوسف فإنهم لما سمعوا الرؤية
كادوه وقد قال له أبوه يابني لاتقصص رؤياك على إخوتك .

أما ما مثل به الناظم هنا من خبر صاعد فإنه ليس في محله لأن ما أصيب به
صاعد من قبل أولئك الحسدة ليس من أجل أنه أفشى إليهم سراً كان يجب عليه
كتمانه عنهم بل لأنه عرض له وصف منظر على البديهة بحضرة القوم وبمجلس الأمير
فحسدوه على ذلك ، ولو قلنا بوجوب سكوته لما كان في حضوره مجلس الأمير
فائدة .

ذكر صاعد ومالقيه من حاسديه

هو أبو العلاء صاعد بن الحسين بن عيسى الربيعي البغدادي اللغوي صاحب
كتاب الفصوص وأصله من بلاد الموصل ودخل بغداد وأخذ عن علمائها ورحل

(١) الدخان ، آية (٢٧)

إلى الأندلس في أيام هشام بن الحكم الأموي في ولاية حاجبه المنصور بن أبي عامر في حدود ثمانين وثلاثمائة للهجرة ، وكان عالماً باللغة والأدب والأخبار سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة محسناً للسؤال وجمع كتاب الفصوص نحى فيه منحى القالى في أماليه فإن المنصور أطلعه عليه فقال صاعد إن أراد الحاجب المنصور أمليت على دولته كتاباً أرفع منه لا أورد فيه خبراً مما أورده أبو علي فأذن له فأملى الفصوص فلما تتبعه أدباء أخذوا عليه في صحة أخباره فأمر المنصور به فقذف به في النهر ، فقال فيه بعض الشعراء :

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقل يغوص
فأجابه صاعد :

عاد إلى معدنه إنما تخرج من قعر البحار الفصوص
وذكر ابن خلكان أن المنصور أجازه على كتاب الفصوص بخمسة آلاف دينار والله أعلم . وأما الحكاية التي أشار الناظم إليها فهي أعجب ماجرى له ، فقد كان ذات يوم مع المنصور حتى جىء الأمير بياكورة ورد في أول إبانها لم يستم فتح ورقها فقال فيها صاعد على البديهة :

أتتك أبا عامر وردة يذكر المسك أنفاسها
كعداء أبصرها مبصر فططت بأكامها رأسها

فسر المنصور بتلك البديهة وكان أبو القاسم بن العريف حاضراً فحسده وتصدى لمناقضته وقال للمنصور : هذان البيتان ليسا له ، فقد أنشدنيهما بعض البغداديين بمصر للعباس بن الأحنف وهما عندي على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور : أرنه فركب ابن العريف وحرك دابته حتى أتى ابن بدر وكان أحسن أهل زمانه بديهة فوصف له ماجرى فقال بعض الأبيات ودس فيها بيتي صاعد وهي :

عسوت إلى قصر عباس وقد جدل النوم حراسها
فألفيتها وهي في خدرها وقد صرع السكر آناسها

فقلت أسارى على هجعة فقلت نعم فرمت كاسها
ومدت يديها إلى وردة يذكر المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها رأسها
وقالت خف الله لا تفضح من في ابنة عمك عباسها
فوليت عنها على غفلة وما خنت ناسي ولا ناسها

فطار بها ابن العريف وعلقها على ظهر كتاب بخط مصرى بمداد أشقر ودخل بها على المنصور فلما رآها اشتد غيظه على صاعد وقال للحاضرين غداً أمتحنه فإن فضحه الامتحان لم يبق بموضع لي عليه سلطان ، فلما أصبح وجه إليه المنصور فحضر وأحضر جميع الندماء فأدخل الجميع في مجلس حفل قد أعد فيه طبقاً عظيماً جعل فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير ووضع على السقائف لعباً من ياسمين في شكل الجوارى وتحت السقائف بركة ماء قد ألقى فيها اللآلىء مثل الحصباء وفي البركة حية تسبح ، فلما دخل صاعد ورأى الطبق قال له المنصور : فهذا يوم إما أن تسعد فيه معنا وإما أن تشقى بالضد عندنا لأنه قد زعم قوم أن كل ما تأتى به دعوى وقد وقفت من ذلك على حقيقة وهذا الطبق ماتوهمت أنه حضر بين يدي ملك قبل شكله فصفه بجميع ما فيه ، فقال صاعد على البديهة :

أبا عامر هل غير جدواك واكف؟ وهل غير من عاداك في الأرض خائف؟
يسوق إليك الدهر كل غرية وأغرب مايلقاه عندك واصف
وشائع نور صاغها هامر الحيا على حافتيها عبقر ورفارف
ولما تنهى الحسن فيها تقابلت عليها بأنواع الملاهي الوصائف
كمثل الظباء المستكنة كُنُساء تظللها بالياسمين السقائف
وأعجب من ذا أنهن نواظر إلى بركة ضمت إليها الطرائف
حصاها اللآلىء سابح في عُبابها من الرقش مسموم العرائن زاحف
ترى ماتشاء العين في جنباتها من الوحش حتى بينهن السلاحف

فاستغرب المنصور له تلك البديهة وكتبها بخطه وأمر له بألف دينار ومائة
ثوب ورتب له ثلاثين ديناراً كل شهر وألحقه بالندماء ، وظهر بهذا الاختبار
الصعب فضل الرجل وبراعته وأن مانسبوه إليه من السرقة كله نحامل عليه من أهل
الأندلس لأنه كان غريباً لديهم وكان مبرزاً عليهم في صناعتهم فحسدوه .

وتوفى صاعد بصقلية سنة سبع وعشرين وأربعمائة للهجرة لأنه قد هاجر من
الأندلس لما ظهرت الفتنة فيها « رحمه الله » .

[وَأَفْخَرُ كَفْخَرٍ خَالِدٍ بِالْعَيْرِ وَالْخَفِيرِ لَا بِحُلَّةٍ مِنْ سَرَقٍ]

الفخر المباهاة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب وغيرهما إما في المتكلم أو
في آبائه والعير بالكسر الإبل تحمل الميرة ثم غلب على كل قافلة والنفير كأمير
القوم النافرون لحرب أو غيرها تسمية بالمصدر ، وفي المثل « لا في العير ولا في
النفير » يضرب للرجل يحط أمره ويصغر قدره ، وسيأتى له مزيد بيان بإذن الله .
والحلة بالضم الثوبان من جنس واحد والجمع حلل مثل غرفة وغرف .

والسرق بالتحريك شقق الحرير الأبيض وقيل الحرير عامة ، وأحدها سرقة
وفي الحديث أن النبي ﷺ رأى عائشة مرتين في منامه يحملها رجل في سرقة من
حرير يقول هذه امرأتك .

ومعنى البيت النهي عن الفخر إلا بما هو ثابت راسخ من شرف النفس أو
كرم الآباء وأنه لا يفتخر بالعرض الفاني من مال وأثاث وملابس ومأكل ومشرب
فإن ذلك ظل زائل ، وأن الفخر ينبغي أن يكون بالعلم والتقوى والصلاح فقط
و« الله تعالى » الموفق فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) .

أما الافتخار بالملابس فإنه ليس من شيم أهل الفضل ، ولقد اختلف الناس فيه
فمنهم من يرى استجادة الثياب ويرى أن ذلك من المروءة وأن ضده من النذالة

(١) الحجرات الآية (١٣)

وخساسة النفس ، والحق أن خير الأمور الوسط فلا ينبغي أن يصرف المرء همهته إلى استجادة الملبس ويعتنى بذلك حتى يكون كالعروس المتصنعة لزوجها كما ينبغي أن لا يكون وحش الهيئة تنفر عنه الطباع وتزدرية العيون ، فإن رسول الله ﷺ كان يتجمل للوفود وقال بأبي وأمي هو : « إن الله إذا أنعم على عبد أحب أن يرى أثر نعمته عليه ويكره البؤس والتباؤس » .

يحكى أن جارية نظرت إلى أبي هريرة « رضي الله عنه » وهو أمير العراق وعليه قميص مرقوع فضحكت منه فأنشد :

هَزَيْتُ أَمَامَهُ أَنْ رَأَتْنِي مَمْلُوقًا ثَكَلْتُكَ أَثْمُكَ أَيُّ ذَاكَ يَرْوَعُ
قَدْ يَدْرِكُ الشَّرَفَ الْفَتَى وَرَدَاؤُهُ خَلَقَ وَجَبُّ قَمِيصِهِ مَرْقُوعُ

ويُحكى أن النجار العذري دخل على معاوية « رضي الله عنه » وعليه عباءة فازدراه فقال يأمرير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك إنما يكلمك من فيها فملاً سمعه حكماً ثم نهض ولم يسأله شيئاً فقال معاوية : مارأيت أحقر أولاً ولا أجلاً آخرأ منه .

ذكر خالد وفخره بالغير والنفير

اعلم أولاً أن أول من قال « لا في العير ولا في النفير » هو أبو سفيان بن حرب وذلك أنه لما استنفر قريشاً لحماية عيرها فخرجت بعددها وعُدِّدها وتمكن من التساحل بالغير فجنبها الخطر الذي كان يخافه عليها أرسل إلى قريش يريد منها أن ترجع فامتنع أبو جهل ورجع بنو زهرة فالتقى بهم أبو سفيان قرب مكة فقال يابني زهرة لافي العير ولا في النفير ؟ فقالوا أنت أرسلت للناس لترجع فامثلنا أمرك وهكذا لم يشهد بدرا أحد من مشركي بني زهرة .

قلت : وذكر الواقدي أنه لم يشهدها أيضاً مشرك من بني عدي بن كعب رهط عمر بن الخطاب « رضي الله عنه » .

وأما خالد الذي ذكره الناظم فهو أبو هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي

سفيان بن خرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، ذكر ابن خلكان أنه كان من أعلم قريس بفنون العلم وله كلام في صناعة الكيمياء وله معرفة بالطب ، وأنكر ابن خلدون معرفته بالكيمياء .

وكان خالد هذا شريف المنكح : تزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وآمنة بنت سعيد بن العاص الأموي وهي أخت الأشدق المتقدم الذكر ، ورملة بنت عبد الله بن الزبير وقيل بنت الزبير بن العوام ، فقال في ذلك بعض من يحرض عليه عبد الملك بن مروان ويحذره طلبه للخلافة :

عليك أمير المؤمنين بخالد فقي خالد عما تحب صدود
إذا ما نظرنا في مناكح خالد علمنا الذي يهوى وأين يريد
فكان عبد الملك كثيراً ما يغيض منه ، ولما طلق خالد آمنة بنت سعيد وأراد الوليد بن عبد الملك أن يتزوجها قال خالد :

فتاة أبوها ذو العصابة وابنه أخوها فما أكفاؤها بكثير
فإن تفتلتها والخلافة تنقلب بأكرم علقى منبر وسرير
ويعني بقوله ذو العصابة ، سعيد بن العاص ، يقال إنه كان في الجاهلية إذا اعتَمَّ لا يعتم قرشي معه .

يُحكى أن خالد بن يزيد دخل يوماً على عبد الملك بن مروان وعنده جماعة من وجوه الشام فأحب أن يحط منه فقال له يا خالد أنت القائل في زوجتك :
تجول خلاخيل النساء ولا أرى لرملة خلخالاً يجول ولا قلباً
أحب بني العوام طراً لحبا ومن أجلها أحببت أخوالها كلباً
فلا تعذلوني في هواها فإنما تخيرتها منهم زيرية قلباً
ثم إن عبد الملك زاد فيها من عند نفسه بيتاً رابعاً هو قوله :

فإن تسلمي نسلم وإن تنصري يعلق رجال بين أعينهم صلباً

وعلم خالد أن عبد الملك اختلق هذا البيت فقال لعن الله قائل هذا البيت
ياأمير المؤمنين .

وأما فخر خالد بالعرير والنفير فإنه يروى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية قال
يوما لأخيه خالد لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ، فقال له خالد
بئس ماقلت أبابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ؟ فقال عبد الله إن خيلي مرت
به اليوم فعبت بها وأصغرنى فقال خالد أنا أكفيكه ، فدخل خالد على عبد الملك
والوليد معه فقال ياأمير المؤمنين إن الوليد بن أمير المؤمنين مرت به خيل ابن عمه
عبد الله بن يزيد بن معاوية فعبت بها وأصغره ، وعبد الملك مطرق ، ورفع رأسه
وقال : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً
وكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾^(١) ، فقال خالد : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا
فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾^(٢) ، فقال عبد الملك : أفي
عبد الله تكلمنى ؟ والله لقد دخل عليّ فما أقام لسانه لحنا ، فقال خالد : أفعلى
الوليد تعول ؟ فقال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان ، فقال
خالد : وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد .

فقال الوليد : اسكت ياخالد فوالله ماتعد فى العير ولا فى النفير ، فقال
خالد : اسمع ياأمير المؤمنين ! ثم أقبل على الوليد وقال : ويحك ، فمن للعير والنفير
غيرى ؟ جدى أبو سفيان صاحب العير وجدى عتبة بن ربيعة صاحب النفير ،
ولكن لو قلت غنيمات وحُلَيَّات والطائف ورحم الله عثمان لقلنا صدقت ؛ يشير
بذلك إلى ماكان من نفي رسول الله ﷺ للحكم بن أبى العاص جد عبد الملك
إلى الطائف فأقام هناك يرعى غنماً ويأوى إلى حُلْبَةٍ ، وهى الكرمة شجرة
العنب ، حتى رده عثمان « رضى الله عنه » إلى المدينة أيام خلافته .

وما درجنا عليه من أنه كان يرعى غنماً هو الذى عند ابن خلكان والمبرد ،
وقال الميدانى إنه يريد بقوله غنيمات موضعاً بالطائف « فالله أعلم » .

(١) النحل الآية (٣٤)

(٢) الإسراء الآية (١٦)

وهذا هو فخر خالد بالغير والنفير وهو فخر بمأثرة جاهلية ، ولا يرد على
الناظم في ذلك شيء لأن الأمثال يراد بها مضربها لا موردتها ، وهذا المثل يضرب
لمن لا يُعبأ به ولا يصلح لخير ولا لشر والله تعالى أعلم .

وتوفى خالد بن يزيد بن معاوية سنة خمس وثمانين من هجرته صلى الله عليه .

[وَأَتَّخِذِ الصَّبْرَ دِلَاصًا سَابِغًا وَبِمِجَنٍّ عُمَرٍ لَا تُتَّقَى]

الصَّبْرُ : حبس النفس على المكروه وعما تدعو إليه من اللذات وأصله من
صبر الحيوان للقتل حبسه ، وهو أنواع تختلف أسماؤه باختلاف الشيء المصبور عنه
فإن كان عن مشتهيات الطبع فهو عفة ، وإن كان على مصيبة فهو صبر ويقابله
الجزع ، وإن كان في حرب سمي شجاعة ومقابله الجبن ، وإن كان في كظم الغيظ
سمي حلمًا إلى غير ذلك .

والدِّلاصُ ككتاب الدرع الملساء اللينة البراقة وهو وصف يستوى الواحد فيه
والجمع ؛ والسَّابِغُ : الطويل إلى الأرض وسبغ الثوب من باب قَعَدَ سُبُوغًا إذا تم
وكمل .

والمِجَنُّ بكسر الميم وفتح الجيم هو الثَّرس ، من جَنَّهُ إذا ستره لأن صاحبه
يستر به .

ويرمى البيت إلى الحث على استعمال الصبر في موطنه واتقاء مواقف التهم
ومظان السوء وكل منهما معلوم موقف الشرع منه وحثه عليه ومراعاته له فلا
حاجة إلى بحثه هنا فهو مباحوث في مكانه .

ذكر ابن أبي ربيعة ومجنّه

هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة واسمه حذيفة بن المغيرة بن
عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي الخزومي ،
لم يكن في قريش أشعر منه وهو كثير المجون والخلاعة وله في ذلك حكايات ونوادر

مشهورة وليس له شعر في المدح ولا في الهجاء والفخر وإنما قصر شعره على ذكر النساء ، ولما قال له سليمان بن عبد الملك : مالك لا تمدحنا ؟ أجاب لأني أمدح النساء لا الرجال .

وأما حديث مجنه الذي أشار إليه الناظم فقد كان من خبره أن عمر بن أبي ربيعة تشبب بامرأة من الأنصار يقال لها نعم من بنى جمع وتكنى أم بكر ويحكي من نوادره فيها أنه بلغه أن نعمًا اغتسلت في غدير فأقام عليه ومازال يشرب منه حتى جف .

ثم إن نعمًا هذه حجت في جماعة من قومها فأتبعهم عمر أياما عديدة يسير حيث ساروا ويقم حيث أقاموا حتى أمكنته غفلة منهم فاتصل بها وبات يغازلها إلى أن طلع الفجر وهب القوم من نومهم وتعذر على عمر الخروج من الخباء فاحتالت نعم بأن سارت إلى أختين لها وأطلعتهما على موضوعها واستنجدت بهما فأقبلتا معها وجعلته بينهن وخرجن به حتى جاوزن به رحال القوم ، فوصف عمر هذه الليلة في رائيته التي مطلعها .

أمن آل نعم أنت غادٍ فمُبَكِّرُ غداة غِدِّ أمِّ رائح فمُهَجِّرُ
وجعل أولئك النسوة الثلاث كالجن له حيث اتقى بهن عدوه كما يتقى الرجل في الحرب بالجن الذي هو الترس ، والقصيدة طويلة جداً ولنذكر منها ما يتعلق بالقصة حيث يقول :

وليلة ذى دوران جشمتني السرى	وقد يجشم الهول المحب المغرر
فبت رقيًا للرفاق على شفا	أحاذر منهم من يطوف وأنظر
إليهم متى يستمكن النوم منهم	ولي مجلس لولا اللبنة أغور
وباتت قلوبى بالعراء ورحلها	لطارق ليل أو لمن جاء مغور
وبت أناجي النفس أين خباؤها	وكيف لما آتى من الأمر مصدر
فدل عليها القلب ريًا عرقتها	لها وهوى النفس الذى كان يضمُر
فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت	مصاييحُ شبت بالعشاء وأنور

وَرُوحُ رُعيانٍ وَنَوْمٌ سَمَرُ
حُبَابٍ وَرُكنِي خَشْيَةِ الْقَوْمِ أَزُورُ
وَكَادَتْ بِمَكْتُومِ التَّحِيَةِ تَجْهَرُ
وَأَنْتِ امْرُؤُ مَيْسُورٍ أَمْرُكَ أَعْسَرُ
رَقِيئاً وَحَوْلِي مِنْ عَدُوِّكَ حُضْرُ
سَرْتُ بِكَ أَمْ قَدْ نَامَ مِنْ كُنْتَ تَحْذَرُ
إِلَيْكَ وَمَنْفَسٌ مِنَ النَّاسِ تَشْعُرُ
كَلَاكَ بِحَفِظِ رَبِّكَ الْمَتَكْبِرِ
عَلَيَّ أَمِيرٌ مَا مَكُنْتُ مُؤَمَّرُ
وَمَا كَانَ لِيْلِي قَبْلَ ذَلِكَ يَقْصُرُ
نَقِي الثَّنَا ذُو غُرُوبٍ مُؤَشِّرُ
حَصِي بَرْدٍ أَوْ أَقْحَوَانِ مَنُورُ
إِلَى رَهْبٍ وَسَطِ الْحَمِيلَةِ جُودُ
وَكَادَتْ تَوَالِي نَجْمَهُ تَغُورُ
هَيُوبٌ وَلَكِنْ مَوْعِدٌ لَكَ عَزُورُ
وَقَدْ لَاحَ مَفْتُوقٍ مِنَ الصَّبْحِ أَشْقَرُ
وَأَيْقَاضُهُمْ قَالَتْ أَشْرُ كَيْفَ تَأْمُرُ؟
وَأَمَّا يَنَالُ السَّيْفُ ثَاراً فَيُثَارُ
عَلَيْنَا وَتَصَدِيقاً لِمَا كَانَ يُؤَثَّرُ
مِنَ الْأَمْرِ أَدْنَى لِلْخَفَاءِ وَأَسْتَرُ
وَمَالِي مِنْ أَنْ تَعْلَمَا مُتَأَخَّرُ
وَأَنْ تَرْحَبَا سَرَباً بِمَا كُنْتَ أَحْصَرُ
مِنَ الْحَزَنِ تَذَرِي دَمْعَةً تَتَحَدَّرُ
أَنْ زَائِراً وَالْأَمْرَ لِلْأَمْرِ يُقَدَّرُ
كَسَاءَانِ مِنْ خَرٍّ دِمَقْسٍ وَأَخْضَرُ

وَعَابَ قَمِيرٌ كُنْتُ أَرْجُو غِيُوبَهُ
وَنَفَضْتُ عَنِي الْعَيْنَ أَقْبَلْتُ مَشِيَةَ الْ
فَجَعْتُ إِذْ فَاجَأَتْهَا فَتَلَهَّفْتُ
وَقَالَتْ وَعَضْتُ بِالْبَنَانِ فَضَحَّتَنِي
أَرَيْتَكَ إِذْ هُنَا عَلَيْكَ أَلَمْ تَخَفْ
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرَى أَتَعْجِيلُ حَاجَةَ
فَقُلْتُ لَهَا بَلْ قَادَنِي الشَّوْقُ وَالْهَوَى
فَقَالَتْ وَقَدْ لَانَتْ وَأَفْرَخَ رَوْعُهَا
فَأَنْتِ أَمَّا الْخَطَابُ غَيْرِ مَنَازِعِ
فِيَالِكَ مِنْ لَيْلٍ تَقَاصِرُ طَوْلُهُ
يَمُجُّ ذِكِّي الْمَسْكَ مِنْهَا مَفْلَجُ
تَرَاهُ إِذَا تَفَتَّرَ عَنْهُ كَأَنَّهُ
وَتَرْنُوا - بَعِينِيهَا إِلَيَّ كَمَا رَنَا
فَلَمَّا تَقَضَى اللَّيْلُ إِلَّا أَقْلَهُ
أَشَارَتْ بِأَنْ الْحَى قَدْ حَانَ مِنْهُمْ
فَمَا رَاعَنِي إِلَّا مَنَادٍ تَرَحَّلُوا
فَلَمَّا رَأَتْ مَا قَدْ تَنَبَّهَ مِنْهُمْ
فَقُلْتُ أَبَادِيهِمْ فَمَا أَفُوتِهِمْ
فَقَالَتْ أَتَحْقِيقاً لِمَا قَالَ كَاشِحُ
فَإِنْ كَانَ مَا لَا بَدَّ مِنْهُ فَغِيرُهُ
أَقْصُ عَلَى اخْتِيَّ بَدَأَ حَدِيثُنَا
لَعَلَّهُمَا أَنْ تَطْلُبَا لَكَ مَخْرَجاً
فَقَامَتْ كَتِيئاً لَيْسَ فِي وَجْهَيْهَا دَمٌ
فَقَالَتْ لِاخْتِيهَا أَعِينَا عَلَى فَتَى
فَقَامَتْ إِلَيْهَا حَرْتَانِ عَلَيْهِمَا

فَأَقْبَلْتَا فَارْتَاعَتَا ثُمَّ قَالَتَا
يَقُومُ فَيَمْشِي بَيْنَنَا مَتَكْرَأً
وَقَالَتْ لَهَا الصَّغْرَى سَاعِطِيهِ مَطْرِفِي
فَكَانَ مِجْنَى دُونَ مَا كُنْتُ أَتَّقِي
فَلَمَّا أَجْزَنَا سَاحَةَ الْحَيِّ قَلْنَ لِي
وَقَلْنَ أَهَذَا دَأْبُكَ الدَّهْرَ سَادِرًا
إِذَا جِئْتَ فَاْمْنَحْ طَرَفَ عَيْنِكَ غَيْرِنَا
فَآخِرَ عَهْدٍ لِي بِهَا حَيْثُ أُعْرِضْتُ
أَقْلَى عَلَيْكَ اللُّومَ فَالْخُطْبَ أُيْسُرُ
فَلَا سِرُّنَا يَفْشُو وَلَا هُوَ يُنْصَرُ
وَدَرَعِي وَهَذَا الْبَرْدُ إِنْ كَانَ يَحْذَرُ
ثَلَاثَ شَخُوصٍ كَاعْبَانٍ وَمُعْصَرُ
أَمَّا تَتَّقِي الْأَعْدَاءَ وَاللَّيْلَ مُقِمِرُ
أَمَّا تَسْتَحِي أَوْ تَرَعُو أَوْ تَفَكِّرُ
لَكِي يَحْسِبُوا أَنَّ الْهَوَى حَيْثُ تَنْظُرُ
وَلَاخَ لَهَا خَدُّ نَقِيٍّ وَمَخْجَرُ

هذا ما يتعلق بهذه القصة من هذه القصيدة ، وعن بعضهم أنه كان يقول شعر ابن أبي ربيعة هو الفستق المقشر الذي لا يشبع منه ، والعلم عند الله تعالى .

وكانت ولادة عمر بن أبي ربيعة ليلة وفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعاش ثمانين سنة أو نحواً منها فتك في أربعين منها ونسك في باقي عمره والله الموفق .

[وَلَاِنْ حَمَلْتُ رَايَةَ الْأَمْرِ فَكُنْ كَجَعْفَرٍ أَوْ دَعِ وَلَا تَسْتَبِقِ]
[قَدْ قُطِعَتْ يَدَاهُ يَوْمَ مَوْتِهِ وَلَمْ يَدْعُهَا لِكَمِّي سَوْحَقِ]
[لَكِنَّهُ احْتَضَنَهَا حُبًّا لَهَا فَيَالَهُ مِنْ سَيِّدٍ مُوَفِّقِ]

الراية : العلم الضخم ودونها اللواء قال ابن العربي اللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه ، والراية ما يعقد فيه ويترك للريح تصفقه وقال عياض في مشارق الأنوار : اللواء الراية فاقتضى كلامه أنهما مترادفان — ومؤنة بضم الميم وسكون الهمزة ويجوز إبدالها واواً قرية بمشارف الشام من أرض البلقاء إلى جهة الحجاز قرية من الكرك ، والكمي الشجاع المكتمي في سلاحه لأنه ستر نفسه بالدرع والبيضة ومن ذلك قولهم كمي فلان الشهادة إذا جحدتها والجمع على غير قياس ، والسَّوْحَقُ : الطويل ، واحتضن الشيء جعله في حضنيه ، وهو ما دون الإبط والكشح ، ونواحي كل شيء أحضانه .

والآيات حث على الصبر وتنبه على أن عاقبته محمودة في الدنيا والآخرة .

وقعة مؤتة واستشهاد جعفر رضي الله عنه

سبب هذه الوقعة أن النبي ﷺ أرسل الحرث بن عمير الأزدي « رضي الله عنه » بكتاب إلى الحرث بن أبي ثمر الغساني ملك بصرى وقيل أرسله إلى قيصر ، فلما نزل بمؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الفسائي فقتله ، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول سواه ، فجهز ﷺ جيشاً إلى الشام في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة واستعمل عليه زيد بن حارثة « رضي الله عنه » وقال إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فتهباً الناس للخروج وهم ثلاثة آلاف وودعوا النبي ﷺ فلما نزلوا بمكان بلغهم أن هرقل قد نزل بالبلقاء في مائة ألف من الروم وأن مائة ألف أخرى من لحم وجذام وبهراء وبلى قد انضمت إليه ، فتشاور القوم في الأمر فخطبهم ابن رواحة قائلاً : والله للتي تكرهون هي التي خرجتم تطلبونها الشهادة وما نقاتل بعدي ولا عدي ، فما نقاتل إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به وإنما هي إحدى الحُسنيين : إما ظهور وإما شهادة في سبيل الله ، فتقدم القوم حتى كانوا يتخوم البلقاء لقيتهم جموع الروم فانحازوا إلى قرية يقال لها مؤتة فكان اللقاء عندها فقاتل زيد بن حارثة « رضي الله عنه » براية رسول الله ﷺ حتى قضى نجه ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب « رضي الله عنه » حتى إذا أقحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء ثم عقرها وقاتل القوم وهو يرتجز :

ياحبذا الجنة واقتربها طيبةً وبارداً شربها
والروم رومٌ قد دنا عذابها كافرةً بعيدةً أنسابها
عَلَيَّ إِذْ لَا قِيَّتْهَا ضِرَابُهَا

فاستشهد « رضي الله عنه » .

ذكر ابن هشام أنه قطعت يده اليمنى فأخذ الراية بشماله فلما قطعت شماله

احتضنها بعضديه فأثابه الله جناحين يطير بهما في الجنة ، وعن ابن عمر وهو ممن شهد موته أن القوم وجدوا بجعفر رضي الله عنه مابين صدره ومنكبيه تسعين جرحاً مابين ضربة بسيف أو طعنة برمح . وكان استشهاده وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة

ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل بها وهو يرتجز رضي الله عنه بقوله :
 مَأْنَتْ إِلَّا أَصْبَعَ دَمِيَّتٍ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَتْ
 يَأْنِفْسُ إِنْ لَمْ تَقْتُلِي فَمَوْتِي هَذَا حِيَاضُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيَتْ
 وَمَا تَمْنَيْتُ فَقَدْ رَأَيْتُ إِنْ تَفْعَلِي فَعَلَهُمَا هَدَيْتُ

ثم استشهد « رضي الله عنه » ، فأخذ الراية رجل من المسلمين يدعى ثابت ابن أقدم العجلاني فقال يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، فاصطلحوا على خالد بن الوليد « رضي الله عنه » فقاتل بالقوم وتصرف حتى انصرف بالناس ، وقد رثاهم حسان « رضي الله عنه » بقوله :

تَأْوِبُنِي لَيْلٌ بِيَتْرِبُ أَعْسَرُ وَهُمْ إِذَا مَا نَوْمَ النَّاسِ مُسْتَهْرُ
 إِلَى أَنْ قَالَ :

فَلَا يَعْدَنَّ اللَّهُ قَتْلِي تَتَابَعُوا	بِمَوْتِهِ مِنْهُمْ ذُو الْجَنَاحَيْنِ جَعْفَرُ
وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ حِينَ تَتَابَعُوا	جَمِيعاً وَأَسْبَابُ الْمَنِيَةِ تَخْطُرُ
غَدَاةً مَضَوْا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ	إِلَى الْمَوْتِ مَيْمُونُ النَّقِيَّةِ أَزْهَرُ
أَغْرَ كَضْوَاءَ الْبَدْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ	أَبِي إِذَا سِيمَ الظُّلَامَةِ مِجْسَرُ
فَطَاعَنَ حَتَّى مَالَ غَيْرِ مُوسَدٍ	بِمُعْتَرِكٍ فِيهِ قَنَى مُتَكَسِرُ
فَصَارَ مَعَ الْمُسْتَشْهِدِينَ ثَوَابُهُ	جَنَّاتٌ وَمَلْتَفٌ الْحَدَائِقُ أَخْضَرُ
وَكُنَّا نَرَى فِي جَعْفَرٍ مِنْ مُحَمَّدٍ	وَفَاءٍ وَأَمْرًا حَازِمًا حِينَ يَأْمُرُ
وَمَا زَالَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ	دَعَائِمُ عِزٍّ لَا يَزْلَنَ وَمَفْخَرُ
هُمْ جَبَلُ الْإِسْلَامِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُمْ	رِضَامٌ إِلَى طَوْدٍ يَرُوقُ وَيَهْرُ
بِهَالِيلٍ مِنْهُمْ جَعْفَرُ وَابْنُ أُمِّهِ	عَلِيٌّ وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الْمُتَخَيَّرُ

وَحِزَّةٌ وَالْعَبَّاسُ مِنْهُمْ وَمِنْهُمْ عَقِيلٌ وَمَاءُ الْعُودِ مِنْ حَيْثُ يُعْصَرُ
بِهِمْ تُفْرَجُ اللَّأْوَاءُ فِي كُلِّ مَازِقٍ عَمَّاسٍ إِذَا مَا ضَاقَ بِالنَّاسِ مَصْنَدُ
هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ أَنْزَلَ حُكْمَهُ عَلَيْهِمْ وَفِيهِمْ ذَا الْكِتَابِ الْمُطَهَّرُ

[وَكُنْ إِذَا اسْتَنْجَدْتَ مِثْلَ مَنْ غَزَا أَرْضَ الْعِدَا بِكُلِّ طَرَفٍ أَبْلَقَ]

النجدة الشجاعة تقول نجد الرجل ككرم فهو نجيد ككريم ، والطرف
الكريم من الخيل قال أبو زيد هو نعت للذكور خاصة ، والأبلى مافيه بياض
وسواد من الخيل وفي المثل : يجرى بليق ويذم ، وهو فرس كان يسبق الخيل وهو
مع ذلك يعاب .

ذكر من غزا أرض العدو بالخيال البلق

المراد به أمير المؤمنين أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد وقيل هو إبراهيم بن
هارون ولقبه المعتصم بالله ، وكان أمر هذه القصة ، كما ذكر الأصل هنا ، عزوا
للغيث للصفدي ، أن المعتصم بلغه وهو في مجلسه أن امرأة هاشمية بعثت لطمها
أحد بطارقة البلدة على وجهها ، فقالت وَأَمْتَصِمَاهُ ! فقال النصراني لا يجيء إليك
المعتصم إلا على الأبلق ، فلما سمع المعتصم ذلك يقال إنه ختم كأسه التي كانت
بيده وأقسم أن لا يشربها حتى يفك الهاشمية من الأسر واستنفر الناس ونادى أن
اجتهدوا في ركوب الخيل البلق وذكر أنه خرج إلى عمورية في سبعين ألف جواد
أبلى فلم يزل حتى فتح عمورية وتطلب تلك الهاشمية فلما حضرت لديه قال لبيك
لبيك وطلب كأسه فشربها ، وكانت وقعة عمورية قد بدأ حصارها في رمضان
سنة ثلاث وعشرين ومائتين من الهجرة ودام حصارها خمسة وخمسين يوماً ؛
وذكر اليوسي أن المعتصم كان أثناء حصاره عمورية أمسك عن القتال وكان
بمعسكره رجل من أهل الدين والصلاح فقال ما لأمر المؤمنين أمسك عن القتال ؟
فقيل لأن بعض المنجمين أمر بالتأخير وقال إن الوقت ليس لك ، فجاء الرجل إلى
المعتصم فوقف بين يديه وقال :

دع النجوم لطرفي يعيش بها وقم لوقتك وانهض أيها الملك
إن النبي وأصحاب النبي نهوا عن النجوم وقد أبصرت ممالكها

فقام إلى القتال ففتح عليه ، وقال في ذلك أبو تمام :

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصفائح في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماع لامة بين الخميسين لافي السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
إلى أن قال :

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار بوماً ذلي الصخر والحشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحي يقله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلايب الدجى رعبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحي شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت والشمس واجبة من ذا ولم تجب

إلى أن قال في إجابته نداء الهاشمية

لبيت صوتاً زبطراً هرفت له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
عذاك حر الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحصب
أجبتة معلناً بالسيف منصلتنا ولو أجبت بغير السيف لم تجب
حتى تركت عمود الشرك منقعرأ ولم تخرج على الأوتار والطنب

وتوفي المعتصم بالله « رحمه الله » في ربيع الأول لثمان عشرة خلت منه سنة
سبع وعشرين ومائتين للهجرة .

[وَسُمِّ عَدُو الدِّينِ بِالْحَسَفِ وَكُنْ مِثْلَ أَيْ يُوسُفُ ذِي التَّحْقِيقِ]
[رَدَّ كِتَابَ مَنْ دَعَاهُ لِلْوَعَى مِنْهُمْ مُمَزَّقاً لِفِرْطِ الْحَنْقِ]
[وَقَالَ إِنِّي لَا أَجِيبُ بِسِوَى جَيْشِ عَرَمَرَمٍ وَخَيْلِ دُلُقِ]

[وَضَرَبَ الْفِسْطَاطَ فِي الْحَيْنِ وَقَدْ أَحَاطَ جَيْشُهُ بِهِمْ كَالشُّوَذَقِ]
[وَكَانَ مَا قَدْ أَبْصَرُوا مِنْ بَأْسِهِ أَتْلَعَ مِنْ جَوَابِهِ الْمُشْبِرِقِ]
يقال سامه خَسَفًا إذا أولاه ذُلًّا وهزيمة يتعدى إلى الثاني بنفسه ومنه قول

عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سَامَ النَّاسَ خَسَفًا أَيْنَا أَنْ نَقِرَ الْخَسَفَ فِينَا
وأصله من سوم السلعة عند الشراء ، وقد عداه الناظم بالتاء تضميناً له معنى
المعاملة ، والتخبيق : العلو والارتفاع وهو بخاء معجمة ، وأصل الوغى الجلبة
والأصوات المرتفعة ثم أطلق على الحرب لملازمة ذلك لها ، وقال ابن جنى : الوغى
بالمهملة الجلبة والصوت وبالمعجمة الحرب نفسها ، والْحَقُّ بفتح الحاء : الغيظ
ومجاوزة الحد فيه ، وجيش عرمرم كسفر رجل كثير ، والخيل الدُّلُق بضم الدال وبقاف
مثناه فوقية وبدال مهملته هي شديدة الدفعة ، قال طرفة :

دُلَّتِي فِي غَارَةٍ مَسْفُوحَةٍ كَرَعَالِ الطَّيْرِ أُسْرَابًا تَمَرُ
والفسطاط خيمة عظيمة تتخذها الملوك ، والشُّوَذَقُ كجوهر والذال معجمة
السوار في يد المرأة ، والمشبِرِقُ بصيغة اسم الفاعل الممزق من شبرقت الثوب إذا
مزقته « والله أعلم » .

ذكر أبي يُوسُفَ وجوابه وما إلى ذلك

هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي صاحب بلاد المغرب
والأندلس وكنيته أبو يوسُفَ ويدعى المنصور ، وهو أحد ملوك دولة بني
عبد المؤمن المعروفة بالموحدين وكان ذا سيرة محمودة من حيث نشر العدل بين
الناس وإظهار الجهاد وإظهار وإقامة حدود الله فأظهر بذلك أبهة الإسلام ، وخافه
ملك الجلائقة ألفونس ، فسأله الصلح ، وصالحه خمس سنين فلما انقضت مدة
الهدنة ولم يبق منها إلا القليل خرج جماعة من الإسبان في جيش كثيف وعاثوا في

الأرض فساداً فعزم الأمير على غزو الإسبان وأمر بالجيوش فاجتمعت بمدينة سلا حيث خرج لانتظارهم ثم إنه قضى الله بمرض الأمير مرضاً كاد أن يؤدي بحياته ، الأمر الذى تسبب عنه حركات فى أطراف البلاد اقتضى الحال بموجبها أن تتفرق الجيوش المجتمعة لنشر الأمن فطمع عدو الله ملك طليطلة الألفونس وكتب إلى الأمير كتاباً من إنشاء وزيره ابن الفخار يقول فيه : باسمك اللهم فاطر السموات والأرض وصلى الله على المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح ، أما بعد فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذى عقل لازب أنك أمير الملة الحنيفة كما أنى أمير الملة النصرانية وقد علمت الآن ما عليه أمراء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل والتكاسل وإهمالهم أمر الرعية وإخلادهم إلى الراحة والأمنية ، وأنا أسومهم بحكم القهر وإخلاء الديار وأسبي الذراري وأمثل بالرجال وأذيقهم عذاب الهون وشديد النكال ، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرتهم إذا أمكنتك يد القدرة وساعدك من عساكرك وجنودك ذوو رأى وخبرة ، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً رحمة منه ومنا ، ونحن الآن نقاتل العشرة منكم بواحد منا ، لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتناعاً ، وتماطل نفسك سنة بعد أخرى وتقدم رجلاً وتأخر أخرى ، فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك أم التكذيب بوعد ربك ، ثم قيل إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعله لا يسوغ لك التقحم معها وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر عنك ولك على أن تفى بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان وترسل إليّ جملة من عبيدك بالمراكب الشوانى والطرائد والمسطحات ، وإلا جزيت بجملتى إليك ، فقاتلتك فى أعز الأماكن لديك ، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة سيقى إليك ، وهدية عظيمة مثلت بين يديك ، وإن كانت لي كانت اليد العليا عليك ، واستحققت إمارة الملتين ، والحكم على البرين ، والله يوفق للسعادة ، ويسهل الإرادة ، لارب غيره ، ولا خير إلا خيره .

فلما وصل كتابه إلى يعقوب مزقه وكتب على ظهر قطعة منه :

﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ ، الجواب ما ترى لا ما تسمع ، وتمثل بيت المتنبي :

ولا كتب إلا المشرفية عنده ولا رسله إلا الخميس العرمرم
ثم استنفر جيوشه وعسكر من يومه بظاهر البلد وسار بجيوشه إلى زقاق سبتة
فعبث منه إلى الأندلس وسار إلى أن دخل بلاد الإفرنج فوجدتهم قد احتشدوا
فكسروهم وبَدَدَ جموعهم وهذه الغزوة تعرف بغزوة الأرك .

قال ابن الأثير إنهم التقوا في تاسع شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة
للهجرة بشمال قرطبة عند قلعة رباح بمكان يعرف بمرج الحديد ، وكان عدد من
قتل من العدو الإسبان مائة ألف وستة وأربعين ألفاً ، وأسَرَ ثلاثة عشر ألفاً وغنم
المسلمون منهم مغنم كثيرة لا يفى بها حصر .

وأبو يوسف هذا هو الذي بنى رباط الفتح والمهدية وبنى قصبة مراکش
وجامعها الأعظم المنسوب إليه .

وكانت وفاته رحمه الله ، بمدينة سلا ثامن عشر ربيع الآخر سنة خمس
وتسعين بالفوقية المثناة وخمسمائة للهجرة ونقل إلى مراکش حيث دفن بجبل
يُتِمَلَّل عند مدفن أسلافه « والله أعلم » .

[يَصَاحُ وَاشْغُلْ فُسْحَةَ الْعُمْرِ بِمَا يَغْنِي وَزُرْ غِبًّا رُسُومَ الْعِيْهِقِ]

فُسْحَةُ الْعُمْرِ بقيته وأصلها السعة ومكان فسيح واسع ، وفسحت له في المجلس
إذا تركت له فيه فرجة يجلس فيها ، وقوله زر غباً : الغب بالكسر أن ترد الإبل
الماء يوماً بعد يوم ورسوم العيقيق مظان النشاط واللهو ومنازلهما « والله أعلم » .

وقد اشتمل كلام الناظم هنا على جملتين إحداهما تتضمن الحث على تدارك
بقية العمر بتعمير أوقاته بما تحمد عاقبته في العاجل والآجل ، والثانية تتضمن الحث

على الجِد والاجتهاد والأخذ بالحزم والاحتياط في أعمال البر والطاعات واجتناب
اللهو وأخلاق أهل البطالات .

وهذا هو المقصود من بعثة الرسل وإنزال الكتب عليهم وإرشاد الخلق بهم إلى
ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم قال تعالى : ﴿ أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ
الْمَقَابِرَ ﴾ ^(١) ، الآية ، وأخرج « مسلم » ، والترمذى « عن مطرف بن عبد الله بن
الشخير عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ
فقال : « يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت أو
لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت » .

فإن المرء مُطالب بالجِد والاجتهاد فيما يُرضى الله عزَّ وجلَّ ، فإن العمر
قَصْبٌ ، والعيش حقير ، والناقد بصير ، ولأن الفرح والبطر من صفات الغافلين ،
والله تعالى لا يحب الفرحين ، وفي الحديث : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً
ولبكيتم كثيراً .

وإنما لم يحسم الناظم مادة اللهو بل أمر بالإقلال منه فقط لما في ذلك من
الاستجمام المعين على مراجعة العمل بمجد ونشاط ، قال الشاعر :

أفد نفسك المكثود بالجِد راحة يحجم وعمله بشيء من المرح
ولكن إذا أعطيته المرح فليكن بقدر الذي يعطى الطعام من الملح

[وَأَبْكَ عَلَى ذَنْبٍ وَقَلْبٍ قَدْ قَسَا كَالصَّخْرِ مِنْ هَوَاهُ لَمْ يَسْتَفِقْ]
[بِمُقْلَةٍ كَمُقْلَةِ الْخَنَسَاءِ إِذْ بَكَتْ عَلَى صَخْرٍ بِلا تَرْفُقِ]

مفردات البيتين واضحة فلا تحتاج إلى تبين ، ومراد الناظم بهما حث
المخاطب على البكاء على ذنبه الفاشي وقلبه القاسي ، وذلك ثمرة الخوف من الله
تعالى .

(١) التكاثر

ذكر الخنساء وبكائها

هي تماضر بنت عمرو بن الشريد بن رياح بن ثعلبة بن عُصبة بن خفاف بن امرئ القيس بن بهيثة بن سليم بن منصور السلمية الصحابية المشهورة والخنساء لقب لها غلب عليها وقد وهم صاحب القاموس حيث جعل الصحابية غير الشاعرة فهو خلاف التحقيق عند ابن عبد البر وابن الأثير وغيرهما .

ويُحكى أن الخنساء خطبها دريد بن الصمة فبعثت جارية لها وقالت انظري إليه إذا بال فإن كان بوله يخرق الأرض ويخذ فيها فقيه بقيه وإن كان بوله يسبح على وجه الأرض فلا بقيه فيه فأخبرتها الجارية أن بوله ساح على وجه الأرض ، فأرسلت إليه ما كنت لأدع بني عمي وهم مثل عوالى الرماح وأنزوج شيخاً من بني جشم ، فقال دريد :

وقاك الله يا ابنة آل عمرو من الفتيان أمثالي ونفسي
فلا تلدي ولا ينكحك مثلي إذا ماليلة طرقت بنحس
تريد شربث القدمين شناً يقطع بالحديدة كل كرمي
وقالت إنه شيخ كبير وما خبرتها أني ابن أمس

والكرمي الأبوال والأبعار يتلبد بعضها فوق بعض ، فقالت الخنساء :

معاذ الله ينكحني حبركي قصير الشبر من جشم بن بكر
يرى مجداً وتكرمة أتاها إذا عشي الصديق جريم تمر
ولو أصبحت في جشم هديا إذا أصبحت في دنس وفقر

والحبركي الغليظ الظهر القصير الرجلين ، وجريم التمر يابسه .

قلت : وأفادني شيخى فضيلة المغفور له الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار ابن عبد القادر الجكني الشنقيطي ، أفادني أيام قراءتي عليه هذه القصيدة بالمدينة المنورة سنة ١٣٧٩ أن الحبركي القراد « والله أعلم » .

وذكر ابن عبد البر أن الخنساء قدمت على رسول الله صلى الله وسلم مع قومها من بني سليم فأسلمت معهم وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستنشدتها ويعجبه شعرها ويقول : هَيْه يَا خُنَاسُ ، قال : وأجمع أهل المعرفة بالشعر أنه لم تكن امرأة قط قبلها ولا بعدها أشعر منها ، وقال المبرد : كان بشار ابن برد يقول : لم تقل امرأة شعراً إلا تبين الضعف فيه ، فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟ قال تلك كان لها أربع خصي ، وحكي الزبير بن بكار أن الخنساء حضرت حرب القادسية ومعها بنوها الأربعة فخطبتهم قائلة : إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين والله إنكم لبنو رجل واحد كما أن أمكم امرأة واحدة ما خنت أباكم ولا فضحت خالكُم ولا هجنت حَسَبَكُم ولا غيرت نسبكم وقد علمتم ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية فإن الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(١) ، فاعدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطربت لظى على سباقها وجللت ناراً على أوراقها فقيموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنيمة والكرامة في دار الخلد والمقامة فاستشهد أربعتهم فلبغها الخبر فقالت الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته .

وكان عمر — رضى الله عنه — يعطيها أرزاقهم لكل واحد منهم مائتا درهم حتى قبض رحمة الله عليه . وأما بكاؤها ، فإن سببه أنها كانت لها أخوين أحدهما لأبيها وأمها وهو معاوية ابن عمرو الشريد والآخر لأبيها فقط وهو صخر بن عمرو وكان أحب أخويها إليها لجوده وكرمه وحلمه وحب العشيرة له ، فأصابت بهما واحداً بعد الآخر وكان مصابها بمعاوية قبل صخر فكانت تندبه وقالت في ذلك شعراً كثيراً من أجوده قولها :

أريقي من دموعك واستفيقي وصبراً إن أطق ولن تطيقي

(١) آل عمران الآية (٢٠٠)

وقولى إن خير بنى سليم
ألا هل ترجعن لنا ليالى
وإذ نحن الفوارس كل يوم
وإذ فينا معاوية بن عمرو
فبكىه فقد أودى حميداً
فلا والله لا تسلاك نفسى
ولكنى رأيت الصبر خيراً
وفارسهم بصحراء العقيق
وأيام لنا يلوى الشقيق
إذا حضروا وفتيان الحقوق
على أدماء كالجمل الفنيق
أمين الرأي محمود الصديق
لفاحشة أتيت ولا عقوق
من النعلين والرأس الحليق

ولما قتل صخر نسيت الخنساء مصابها بمعاوية وجعلت تبكي صخرًا ومراثيها
فيه كثيرة جداً موجودة في محلها ، ومن أجود ما قالت فيه قولها :

قدى بعينك أم بالعين عوار
كأن عيني لذكره إذا خطرث
لا بد من ميتة في صرفها غير
تبكى نخاس على صخر وحق لها
تبكى لصخر هي العبرى وقد ثكلت
يا صخر ورأى ماء قد تناذره
مشى السبتي إلى هجاء معضلة
وما عجول على بو تجن له
ترئع ما غفلت حتى إذا اذكرت
لا تسمن الدهر في أرض وإن رتعت
يوماً بأوجد مني حين فازني
وإن صخرًا لوالينا وسيدنا
وإن صخرًا لتأتم الهداة به
جواب قاصية جزاز ناصية
حامي الحقيقة محمود الخليفة مهـ

أم ذرفت إذ خلث من أهلها الدار
فيض يسيل على الخدين مذار
والدهر في صرفه حول وأطوار
إذ رابها الدهر إن الدهر دوأر
ودونه من جديد الترب أستاذ
أهل المياه وما في وزده عار
له سلاحان أنياب وأظفار
لها حنينان إعلان وإسرار
فإنما هي إقبال وإدبار
فإنما هي تخان وتشجار
صخر وللدهر إخلاء وإمرار
وإن صخرًا إذا نشتو لنحار
كأنه علم في رأسه نار
عقاد ألوية للجيش جرار
يدى الطريقة نقاع وضرار

لم ترهُ جارةً يمشى بساحتها لرية حين يخلي بيته الجارُ
ولا تراه وما في البيت يأكله لكنه بارزٌ بالصحن مهمارُ
مثل الرديني لم تنفذ شببته كأنه تحت طيِّ البرد إسوارُ
في جوف رمسٍ مقيم قد تضمنه في رسمه مقمطراتٌ وأحجارُ
طلق اليدين بفعل الخير ذو فجَرٍ ضخم الدسيسة بالخيرات أمارُ
في رفعة حار حاديهن بمهلكة كأنَّ ظلمتها في الطخية القارُ

ومن جيد رثائها قولها :

أعينيَّ جوداً ولا تجمداً ألا تبكيان لصخر النّدا
ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا
طويلُ النجاد رفيع العما د ساد عشيرته أمردا
إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مدّ إليه يدا
فنال الذي فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا
يحمّله القوم ما عاظم وإن كان أصغرهم مولدا
ترى المجد يهوي إلى بيته يرى أفضل الكسب أن يحمدا
وإن ذكر المجد ألفيته تأزر بالمجد ثم ارتدى

ولو تتبعنا ذكر مرثي الخنساء في صخرها لطال المقام بنا ولنكتف بهذا القدر

منه .

وذكر المبرد أن عائشة — رضي الله عنها — رأت الخنساء وعليها صدار من شعر فقالت يا خنساء أتلبسين الصدار وقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت لم أعلم بنهيه ، وكان لهذا الصدار سبب ، قالت وما هو ؟ فقالت كان زوجي رجلاً متلاًفاً فأخفق فأراد أن يسافر فقلت له أقم حتى آتي صخراً أخي فأتيته فشاطرني ماله فأتلفه زوجي فعدت فعاد لي بمثل ذلك فأتلفه زوجي فعدت له فلما كان في الثالثة قالت زوجته إن هذا المال لهالك فأمّنها شرارها فقال صخر :

والله لا أمنحها شرارها وهي حصانٌ قد كفتني عارها
ولو هلكُ مزقت خمارها واتخذت من شعر صدرها
فلما هلك اتخذت هذا الصدار انتهى . والعلم عند الله .

ومن تمثل ببكاء الخنساء أبو نواس حيث قال يهجو بخيلاً :

فتى لرغيفه قُرْطٌ وشَنْفٌ ولؤلؤتان في خرز وشذرٍ
ودون رغيفه قلْعُ الثنايا وحربٌ مثل وقعة يوم بدرٍ
وإن كسر الرغيف بكى عليه بكا الخنساء إذ فجعت بصخر
والعلم عند الله تعالى :

[أَوْكَبْكَا فَارِعَةَ عَلَى الْوَلِيدِ يَدِ وَبُكَاءِ خِنْدِفٍ وَخَرْنِقِ]

فارعة وخندف وخرنق نساء معروفات وسوف نتعرض لذكرهن الواحدة
تلو الأخرى .

أَمَّا خِنْدِفُ

فهى ليلي بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وهي زوج إلياس بن
مضر جد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسميت خندف بوزن زبرج لأنه كان
لإلياس منها ثلاثة من الولد هم عمرو وعامر وعمير ثم إن عائلة إلياس خرجت في
نجعة فنفرت إبلهم من أرنب فخرج إليها عمرو فأدركها فسموه مدركة واصطاد
عامر الأرنب فطبخها فسمي طابخة وانقمع عمير في الخباء فسموه قمعة وخرجت
أمهم خلفهم تهول فقال لها إلياس أين تخندين ؟ والخندة مشية تشبه الهرولة ،
فقال ما زلت أحندف خلفكم فسميت خندف ، كذا في القاموس ، وقيل إن
طابخة هو عمرو وأن مدركة هو عامر والله تعالى أعلم ..

قلت : وفي عمود النسب للعلامة البدوي المجلسي ثم الشنقيطي قوله :

في صلب إلياس لخير الأمم تليئة تسمع من بالحرم

أولاده من خندف الشاحنة قمعة مدركة وطابخة

ثم إنه ينبغي أن تعلم أن عرب الحجاز وجل عرب نجد من خندف ، فمنها قريش ، وكنانة وأسند ابنا خزيمة بن مدركة ومنها هذيل بن مدركة ومنها أسلم ، قيل ومنها خزاعة ، فخزاعة من ولد عمرو بن لحي وقيل إنه من ولد قمعة .

قلت : قال العلامة أحمد البدوي في عمود النسب :

قمعة قبل جد عمرو بن لحي ذي القصب في حديث أفضل لؤي
أول من حمل أكياس الحرم لكفروا على عبادة الصنم
وأدخل الذين أخرجهما إذ أخذنا فسحاً أهلها
وصلبا على الصفا ليتعظ عن الزنا بمكة كل يقظ
إلى أن قال :

وهو أبو خزاعة وأكثم شبه به النبي منهم

ومن خندف تميم بن مر بن أد بن طابخة ، ومنها ضبة بن أد بن طابخة ، ومنها الرباب وهي قبائل : بنو عدي بن عبد مناة بن أد بن طابخة ، وبنو تميم بن عبد مناة ابن أد بن طابخة ، وبنو ثور بن عبد مناة ، وبنو عكل وهو عوف بن عبد مناة ومن خندف كذلك مزينة وهم بنو عمرو بن أد بن طابخة وسموا باسم أمهم مزينة وهي أم عمرو بن أد .

قلت : وإلى ما سردناه من قبائل خندف أشار العلامة الشنقيطي أحمد

البدوي ثم المجلسي في عمود نسبه بقوله :

مدركة منه هذيل الذي منه خزاعة التي منها احتذى
أصبل شوق النبي مكته وزوجه بوصفه فأسكتة
ومن هذيل صاحب السواد والسر والسواك والوساد
والنعل والستر لدى المعتسل والإذن في المجلس طلم يعزل

وهو ابن مسعود مبشر النبي برأس عمرو بن هشام الغبي
ومن بني أد سليل طابحة ضبة إحدى الجمرات الراسخة
إلى أن قال :

أهلكه الحارث ثم افتخرا بقتله لضبة إذ لا يرى
أن أباه ضبة فقتله وسبق السيف العتاب أرسله
عبد مناة بن أد تنسب له الرباب زمر ترثوا
مع تميم وهي ثور عجل تيم عدى ضبة وعكل
وانسب لثور الذي ما استودعا حجاه معلوماً فخان ما وعى
وهو سمى ابن عينة العلم مولى بني هلال الندب الحكم
مزينة أم بني عمرو بن أد وفي ربابة الرباب قيل عدا
الخ ..

والحاصل أن مضر تنقسم إلى قسمين : إلى قيس وإلى خندف ولخندف فخر
الجاهلية ومجد الإسلام بالنبوة والخلافة .

وأما بكاء خندف فهو أنه لما مرض زوجها إلياس وجدت لذلك وجداً
شديداً ونذرت إن هلك أن لا تقيم ببلد مات فيه وأن لا يظلمها بيت بعده وأن
تسيح في الأرض وحرمت الرجال والطيب فلما هلك إلياس خرجت سائحة في
الأرض حتى هلكت حزناً ، وكانت وفاته يوم الخميس فكانت كلما طلعت
الشمس من ذلك اليوم بكته حتى تغيب فصارت خندف وما صنعت عجباً في
الناس يتحدثون به .

وأما خرنق : فهي بنت هفان من بني سعد بن ضبيعة رهط الأعشى ، وهي
أخت طرفة بن العبد الشاعر لأمه ، وقد اشتهرت في رثائها لزوجها بشر بن عمرو
ابن مرثد الضبعي وبنيه علقمة وحسان وشرحبيل حين قتلهم بنو أسد بجبل يقال
لم قلاب ، ومن رثائها فيهم قولها :

فلا وأبيك آسى بعد بشر على جي يموت ولا صديق

وبعد الخير علقمة بن بشر إذا ما الموت كان لدى الحلو
ونال بنى ضبيعة بعد بشر كما نال الجزوع من الحريق
فكم بقلب من أوصال خرق أخى ثقة وجمجمة فليق
وقالت فى رثاء أخيها طرفة بن العبد :

عددنا له ستاً وعشرين حجة فلما توفّاها استوى أسداً ضخماً
فُجعنا به لما رجونا إياه على خير حال لا وليداً ولا فحماً

وأما فارعة : فهى بنت طريف بن الصلت بن طارق بن سيجان بن عمرو
ابن مالك الشيبانية أخت الوليد بن طريف الخارجي المشهور . كان شجاعاً فاتكاً
وكان رأس الخوارج مقيماً بنصيبين والخابور وتلك التّواحي وكان خروجه فى
خلافة هارون الرشيد فوجه إليه الرشيد عدة أمراء فقضى عليهم واحداً واحداً
فوجه إليه يزيد بن مزيد الشيبانى بإشارة من البرامكة وكانوا يحرضون أمير المؤمنين
عليه ويغروه به ويقولون إنما يتجافى عن الوليد للرحم الذي بينهما وإلا فشوكة
الوليد ضعيفة ، فوجه إليه الرشيد كتاباً يقول فيه لو وجهت أحد الخدم لقام بأكثر
مما قمت به ولكنك مداهن متعصب وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزته
ليوجهن إليك من يأتيه برأسك ، فلقيه فى أول خميس من رمضان سنة ثمان
وسبعين ومائة ، وكان الوليد قد خرج إليهم یرتجز ويقول :

أنا الوليد بن طريف الشاري قسورة لا يصطلى بناري
جوركم أخرجني من داري

وقال يزيد لأصحابه فداكم أبي وأمي إنما هي الخوارج ولهم حملة فائبتوا لها
تحت التراس فإذا انقضت حملتهم فاحملوا فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا ، فكان كما
قال ، ويقال إنهم لما انكشفوا نادى يزيد الوليد قائلاً يا وليد ما حاجتك إلى التسر
بالرجال ابرز إليّ فقال نعم والله فبرز إليه ووقف العسكران فلم يتحرك منهما
أحد ، فطاردا ساعات وكل منهما لا يقدر على صاحبه فأمكنك يزيد منه غفلة

فضرب رجله فسقط وصاح بخيله فوقعوا عليه واحتزوا رأسه ووجه به وبكتاب
الفتح مع ابنه أسد بن يزيد بن يزيد .

ولما قدم يزيد على الرشيد ظافراً احتجب عنه بإشارة من البرامكة وأظهر عليه
السخط فأقسم يزيد ليصيفن ويشتون على جواده أو يدخل على أمير المؤمنين
فارتفع الخبر بذلك إلى الرشيد فأدخله عليه ورحب به وأكرمه وعرف بلأه ونقاء
صدره ومدحه الشعراء وقال في مدحه مسلم بن الوليد :

يفتر عند افترار الحرب مبتسماً إذا تغير وجه الفارس البطل
موف على مهج في يوم ذي رهج كأنه أجل يسعى إلى أجل
ينال بالرفق ما تعيا الرجال به كالموت مستعجلاً يأتي على مهل

ولما قتل الوليد بن طريف صبحتهم أخته الفارعة وعند « الأصفهاني » أ
اسمها ليلي ، فجعلت تحمل على الناس فعرفت فقال يزيد دعوها ثم خرج إلى
فضرب بالرمح قطاة فرسها ثم قال اغرنى فقد فضحت العشيرة فاستحيه
وانصرفت وهي تنشد في رثاء أخيها :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً	كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من النقى	ولا المال إلا من قنّى وسيوف
ولا الذخر إلا كل جرداء صلعم	معودة للكر بين صفوف
كأنك لم تشهد هُناك ولم تقم	مقاماً على الأعداء غير خفيف
ولم تستلم يوماً لورد كريمة	من السرد في خضراء ذات رفيف
ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقح	وسمر للقنا ينكزها بأنوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى	فإن مات لم يرض الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا	فديناك من فتياننا بالوف
وما زال حتى أزهد الموت نفسه	شجى لعدو أو نجاً لضعيف
ألا بالقومي للجمام وللبلبل	وللأرض همت بعده برجوف

ألا بالقومي للنوائب والردى
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى
وليث كل الليث إذ يحملونه
ألا قتل الله الجثى حيث أضمرت
فإن يك أرداه يزيد بن يزيد
عليه سلام الله وفقاً فإنني
ودهر ملح بالكرام عنيف
وللشمس لما أزمعت بكسوف
إلى حفرة ملحودة وسقيف
فتى كان للمعروف غير عيوف
فرب زحوف لُقها بزحوف
أرى الموت وقاعاً بكل شريف

ولها في رثائه قولها :

ذكرت الوليد وأيامه
فأقبلت أطلبه في السماء
أضاعتك قومك فليطلبوا
لو أن السيوف التي حُدّها
نبث عنك أو جعلت هيبة
إذ الأرض من شخصه بلقُع
كما يتغنى أنفه الأجدع
إفادة مثل الذي ضيعوا
يصيبك تعلم ما تصنع
وخوفاً لصولك لا تقطع

ولفارعة هذه مرثي كثيرة في أخيها الوليد سلكت فيها مسلك الخنساء في
رثائها لأخيها صخر « والله تعالى أعلم » .

[وَكُنْ مُتَمِّمًا بُكَاءَ مُتَمِّمٍ عَلَى الذُّنُوبِ وَارْجُ عَفْوَ مُعْتِقٍ]

ألفاظ هذا البيت ظاهرة ، وقوله وارج عفو معتق ، عقب ما أمر به من
البكاء الذي هو ثمرة الخوف من الله تعالى ، يشير به إلى أن الحالة الكاملة للعبد هو
أن لا يغلب خوفه على رجائه ولا رجاءه على خوفه ، فإنه مهما غلب خوفه على
رجائه خيف عليه اليأس من رُوح الله ولا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون ،
ومهما غلب رجاءه على خوفه خيف عليه الأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله
إلا القوم الخاسرون .

هذا ، والرجاء المعتبر شرعاً هو تعلق القلب بمطموع في حصوله في المستقبل
مع الأخذ في عمل محصل له ، فإن تجرد عن العمل فهو طمع وهو قبيح والرجاء

حسنٌ ، وفي الحكم : الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنيّة ، وفي التنزيل : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سِيفُ قُرْآنَا ﴾ ^(١) الآية — وفي الحديث النبوي الشريف : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

ذكر بكاء مُتَمِّمٍ والسبب فيه

أما متمم هذا فهو أبو نهشل متمم بن نويرة بن حمزة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم التميمي ثم اليربوعي ، عده ابن عبد البر في الصحابة وكان شاعراً فصيحاً بليغاً وضبط اسمه أنه بصيغة اسم الفاعل من اتّمام وذلك خلاف ما في القاموس حيث وزنه بمعظم الأمر الذي يجعله مفتوح الثالث .

وبكاء متمم هذا الذي يشير إليه الناظم هو رثاؤه لأخيه مالك بن نويرة الذي قتله خالد بن الوليد — رضي الله عنه — في حرب الردة ، وكان من خبره أنه أدرك الإسلام وأسلم وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقة قومه بني يربوع فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتد ورد الصدقات إلى أهلها ، وبعث أبو بكر — رضي الله عنه — خالد بن الوليد لقتال أهل الردة فكان إذا صبح قوماً تسمع إلى الأذان فإن سمعته كف عنهم وإن لم يسمعه قاتلهم إلى أن مر بالبطاح وبها مالك بن نويرة وأصحابه فقاتلوهم وأوتي بمالك بن نويرة أسيراً فقتله خالد — رضي الله عنه — بعدما بدا منه ما يستوجب قتله ، ولا ينبغي إلى ما يُشبه به بعضهم على الضعفاء من ذكر ما لا يليق في جانب سيف الله المسلول — رضي الله عنه — ، ولا شيء أدل على قتل مالك على الردة مما ذكر أخوه متمم هذا لأmir المؤمنين عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — لما سمع متمماً يحكى

(١) الأعراف (١٦٩)

ما يرى به اخاه فقال : وددت لو رثيت أخى زيداً بمثل ما رثيت به أخاك ، قال :
والله لو علمت أن أخى صار إلى ما صار إليه أخوك لم أرته ولم أحزن عليه .

وكان متمم بن نويرة منقطعاً إلى أخيه مالك مكفي المثونة فلما قتل رثاه
بقصائد مشهورة ، ولما بلغته وفاته حضر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم
وصلى الصبح خلف أبي بكر — رضي الله عنه — فلما فرغ من صلاته قام متمم
وأنشأ يقول :

نعم القتلُ إذا الرياح تناوحت خَلَفَ البيوت قتلت يا ابن الأزور
ثم أوماً إلى أبي بكر — رضي الله عنه — وقال :

أدعوتـه بالله ثم غدرتـه لو هُوَ دعاكَ بذمةٍ لم يَغْدِرْ
فقال أبو بكر — رضي الله عنه — : والله ما دعوته ولا غدرته ، فأنشأ
يقول :

ولنعم حشو الدرع كان وحاسراً ولنعم مأوى الطارق المتَّوَر
لا يضمـر الفحشاء تحت ردائه حُلُوْ شِمائله عفيفُ المَزور

ثم بكى حتى انخط على سية قوسه فما زال يبكي حتى قام إليه عمر بن
الخطاب — رضي الله عنه — وقال وددت لو رثيت أخى زيداً بما رثيت به أخاك
مالكاً ، فأجابه الجواب المتقدم وقال أيضاً في رثائه :

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكي كل قبر أتيتـه لقبر ثوي بين الموى فالدكادك ؟
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى فدعنى فهذا كله قبر مالك
وله أيضاً في رثائه :

جميلُ الحيا ضاجك عند ضيفه أغرَّ جميعُ الرأي مشترك الرخل

وقور إذا القوم الكرام تناولوا فحلت حباهم واستطيروا من الجفل
وكنت إلى نفسي أشد حلاوة من الماء بالماذي من غسل الثخل
وكل فتى في الناس بعد ابن عمه كساقطة إحدى يديه من الخيل
وبعض الرجال نخلة لا جنى لها ولا ظل إلا أن تعد من الثخل

هذا ، ولو تتبعنا مرثي متمم في أخيه مالك لطال المقام ولكننا اكتفينا بهذا
خشية الإطالة ؛ ومن تمثل ببكاء متمم القاضي السعيد بن سناء الملك قال :

بكيت بكلتا مقلتي كأنني أتم ما قد فات عيني متمم .

[وَكُنْ خَمِصَ الْبَطْنِ مِنْ زَادِ الرَّبَا وَخَمْرَةَ التَّقْوَى اصْطَبِخْ وَاعْتَبِقْ]

الخُمْصُ بالضم الجوع والخمصة المجاعة وقد خُمِصَ خُمْصاً فهو خَمِصٌ إذا
جاع على وزن قَرْب والاصطباح شرب الصبوح وهو ما يحلب ويشرب من اللبن
في الصباح ، والاعتباق شرب الغبوق وهو ما يحلب ويشرب من اللبن بالعشي ،
وقد يستعملان في غير اللبن من الأشربة ، والتَّقْوَى قد تقدم الكلام عليه .

هذا ، وكلام الناظم هنا مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ
التَّقْوَى ﴾ (١) .

وفي نحو ذلك قول الأعشى :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثلته فترصد للموت الذي كان أرصدا

[وَحَصِّلَ الْعِلْمَ وَزِنُهُ بِالتَّقَى وَسَائِرَ الْأَوْقَاتِ فِيهِ اسْتَعْرِقْ]
[.وَلَيْكَ قَلْبُكَ لَهُ افْرَغْ مِنْ حَجَّامِ سَابَاطٍ وَمَنْ لَمْ يُعَشِّقْ]

(١) البقرة (١٩٧)

تحصيل الشيء تقييده وضبطه من حصل حصولاً إذا ثبت ، وعن ابن فارس أن أصل التحصيل استخراج الذهب من حجر المعدن ، والمُحصلة : المرأة التي تحصل تراب المعدن . قال الشاعر :

ألا رجل جزاه الله خيراً يدل على محصلة تبيت
وتحصيل الكلام رده إلى محموله أي خلاصته .

وقوله : وزنه فعل أمر من زانه يزينه بمعنى حسنه ، وسائر الناس جميعهم عند الجوهري ، وقد يأتي سائر مراداً به الباقي ، قال في المصباح : اتفق أهل اللغة أن سائر الشيء باقيه قليلاً كان أو كثيراً ، وزعم الصاغاني أن جعله بمعنى الجميع من لحن العوام .

والاستغراق الاستيعاب ، وقولهم استغرق في الضحك استوعب .

وأفرغ من حجام سابط مثل تضربه العرب يأتي إن شاء الله الكلام عليه ، وسابط موضع بعينه في المدائن بفارس .

والعشق مرض وسواسي يجلبه المرء إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور ، قال المتنبي :

وما العشق إلا غيرة وطماعة يُعرض قلب نفسه فيصاب

ذكر حجام سابط

قال الثعالبي : حجام سابط يضرب به المثل في الفراغ فيقال أفرغ من حجام سابط كما يضرب المثل بالشغل بذات النحيين يقال : أشغل من ذات النحيين ، ومن خبره أنه كان حجاماً ملازماً لسابط المدائن فإذا مر به جند قد ضرب عليهم البعث حجمهم نسيئة بدانق إلى وقت قفولهم وكان مع ذلك يمر عليه الأسبوع والأسبوعان من غير أن يدنو منه أحد فعند ذلك يخرج أمه فيحجمها ليرى الناس

أنه غير فارغ ، فما زال ذلك دأبه حتى نرف دم أمه فماتت فجأة ، فصار فراغ ذلك الحجام مثلاً ، ومن ضرب المثل بحجام سابط ابن بسام حيث قال :

دَارُ أُمِّي الْعَبَّاسُ مَفْرُوشَةٌ مَا شِئْتُ مِنْ بُسْطٍ وَمِنْ أُنْمَاطٍ
لَكِنَّمَا بُعْدُكَ مِنْ خُبْرِهِ كَبُعْدِ بَلْعٍ مِنْ سُمْنِيسَاطٍ
مَطْبُخُهُ قَفَرٌ وَطَبَّاخُهُ أَفْرَغٌ مِنْ حَجَّامٍ سَابِطٍ

وذكر ابن عساكر في تاريخه أن يزيد بن المهلب حج فطلب حجاًماً فجاء فحلق رأسه فأمر له بألف درهم فدهش الحجام وقال : بهذه الألف أمضي إلى أمي فلانة فأشترىها ، فقال يزيد : أعطوه ألفاً أخرى ، فقال الحلاق : امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك ، فقال يزيد : أعطوه ألفين آخرين .

وحكى ابن خلكان عن وكيع قال : قال لي أبو حنيفة الإمام : أخطأت في خمسة أبواب من المناسك بمكة فعلمنيها حجام وذلك أني أردت أن أحلق فقلت لأعرابي بكم تحلق ؟ فقال الأعرابي : أمتحلل أنت ؟ قلت نعم ، فقال النسك لا يشارط فيه ، اجلس ، فجلست منحرفاً عن القبلة فأومأ إلى أن استقبل القبلة ، وأردت أن أحلق رأسي من الجانب الأيسر ، فقال أدر شقك الأيمن من رأسك ففعلت ، وجعل يحلق وأنا ساكت فقال لي كبر فجعلت أكبر حتى فرغت قمت لأذهب فقال أين تريد ؟ فقلت رحلي ، فقال : صل ركعتين ثم امضي ، فقلت له من أين لك ما رأيته أمرتني به ؟ فقال رأيت عطاء بن أبي رباح يفعل هذا .

[وَلَا تَكُنْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى وَاصْطَبِرْ لِكَدِّهِ وَلِلْمَلَالِ طَلْق]

وهذا البيت يرمز إلى ما هو مأثور عن الخليل رحمه الله : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ثم أنت في إعطائه إياك بعضه على خطر ؛ وقال بعض الحكماء :

لا يدرك العلم من لا يطيل درسه ولا يكد في تفهمه نفسه ، وقال الشاعر :

قالت مسائل سحنون لقارئها بالكد تدرك منه كل ما استترا
لا يدرك العلم بطل ولا كسيل ولا ملول ولا من يألف البشر

ومما ينسب للشافعي قوله

أخى لن تنال العلم إلا بسنة سأنبىء عن تفصيلها بيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وصحة أستاذ وطول زمان

ذكر قوم موسى والمثل السائر فيهم

قال في ثمار القلوب : بقية قوم موسى يضرب بهم المثل في الملل وقلة الصبر
على طعام واحد كما قال الراجز :

وقوم موسى في الزمان البائد لم يصبروا على طعام واحد
وعن الشيباني قال : كان عند رجل قينة وكان أبو نواس يختلف إليها وكانت
تريه أنها لا تحب غيره فكان كلما دخل عليها وجد عندها من الشبان من يحادثها ،
فقال فيها :

ومظهرة لخلق الله وداً وتلقى بالتحية والسلام
أتيت لبابها أشكو إليها فلم أخلص إليه من الزحام
فيا من ليس يكفيها خليل ولا ألفا خليل كل عام
أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

وكان العباس بن الأحنف يهوى جارية لبعض الرؤساء يقال لها فوز فمالت
إلى بعض الجند وبلغ ذلك العباس فتركها ثم لم ترض هي بالبديل بعد ذلك فكتبت
إلى العباس تعاتبه في إعراضه عنها ، فكتب إليها :

كتبك تلوم وتستريب زيارتي وتقول لست لنا كعهد العاهد
فأجبتُها ودموع عيني جمّة تجري على الحدين غير جوامد
يا فوز لم أهجرُكم لملاة مني ولا لمقال واش حاسد
لكنني جربتكم فوجدتكم لا تصبرون على طعام واحد

[وَحُصَّ عِلْمُ الْفَقْهِ بِالذُّرْسِ وَكُنْ كَاللَّيْثِ أَوْ كَأَشْهَبِ وَالْعُتْقَى]

الفقه في الأصل هو الفهم يقال فقه الرجل بالكسر يفقه فقهاً إذا فهم ،

ويقال فقه بالضم إذا صار فقيهاً عالماً ، وجعله العرف خاصاً بعلم الشريعة
وخصصاً بعلم الفروع .

قلت : الفقه في الاصطلاح هو العلم بالأحكام الشرعية المتعلقة بفعل من
أفعال المكلف بدنياً كان أو قلبياً ، على أن تكون هذه الأحكام مستمدة من الأدلة
الشرعية التفصيلية نصاً أو استنباطاً .

قال العلامة عبد الله بن إبراهيم العلوي شيخ مشايخنا ومجدد العلم بقطر
شنقيط في القرن الثالث عشر للهجرة ، قال في مراقي السعود :
والفقه هو العلم بالأحكام للشرع والفرع ثماها النام
أدلة التفصيل منها مكتسب . والعلم بالصلاح فيما قد ذهب
وفي الصحيحين عنه عليه السلام : « من يرد الله به خيراً يفقهها في الدين وإنما أنا
قاسم والله يعطي » ، وعند الطبراني : « يفقهه في الدين ويلهمه رشده » ، وفي
الصحيحين أيضاً : « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية
خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » ، وفي الترمذي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » .

ذكر الليث وأشهب والعتي رحيم الله

أما الليث : فهو أبو الحرث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي إمام أهل
مصر في الفقه والحديث . كان مولى لقيس رفاعه وهو مولى عبد الرحمن بن خالد
ابن مسافر الفهمي وأصله من أصبهان وولد بقلقشندة قرية في الوجه البحري من
القاهرة بينها وبينها ثلاثة فراسخ ، وعنه أنه ولد سنة ثنتين وتسعين للهجرة ، في
شعبان وقيل سنة أربع وتسعين ، وكان سرياً سخياً وروى عن الزهري وعطاء
ونافع وخلق كثير ، وروى عنه ابنه شعيب وابن المبارك وخلق آخرون ، وكان
من الأجواد الكرماء ذكر ابن خلكان أن دخله كل سنة كان خمسة آلاف دينار
وكان يفرقها في الصلوات وغيرها .

وقال الشافعي : كان الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به ، وقال ابن وهب لرجل بل كأن مالكا كان يسمع الليث يجيب فيجيب هو ، والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أحداً قط أفقه من الليث ، وكان ابن وهب يرد بذلك على رجل حضر عنده ، ومسائل الليث تقرأ عليه فقال الرجل : أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب هو فأجابه ابن وهب الإجابة المتقدمة .

وحكى بعضهم أن الليث ولي القضاء بمصر وأن المنصور عرض عليه ولايتها فامتنع وتوفي رحمه الله في رابع عشر شعبان سنة خمس وسبعين ومائة ودفن بالقرافة وأما أشهب ، فهو أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داود بن إبراهيم القيسي ثم الجعدي الفقيه المالكي المصري ، ذكره ابن يونس في تاريخه فقال : أشهب القيسي ثم العامري من بني جعدة يكنى أبا عمرو أحد فقهاء مصر ولد سنة أربعين ومائة للهجرة ، ويقال إن اسمه مسكين وأشهب لقب له غلب عليه وصحح ابن خلكان الأول .

وكان ثقة فيما يرويه عن مالك فقد تفقه على مالك وعلى المدنيين والمصريين وكان بينه وبين ابن القاسم منافسة ثم انتهت إليه الرئاسة بمصر بعد ابن القاسم ، وقال الشافعي ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه ، وقال ابن عبد البر : كان أشهب فقيهاً حسن الرأي والنظر ولم يدرك الشافعي بمصر من أصحاب مالك سوى أشهب وابن عبد الحكم ، وقال ابن عبد الحكم : سمعت أشهب يدعو على الشافعي بالموت فذكرت ذلك للشافعي فقال متمثلاً :

تمنى رجال أن أموت فإن أمث فثلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي خلاف الذي مضى تزود لأخرى مثلها فكأن قد

قال فمات الشافعي فاشترى أشهب من تركته عبداً ثم مات أشهب فاشتريت أنا ذلك العبد من تركه أشهب ، وتوفي أشهب رحمه الله يوم السبت لثمان بقين من شعبان سنة أربع ومائتين بعد الشافعي بشهر واحد وقيل بثمانية عشر يوماً ودفن بالقرافة الصغرى بجانب قبر ابن القاسم .

وَأَمَّا الْعُتْقِيُّ : فهو أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي بالولاء الفقيه المالكي راوى المسائل عن الإمام مالك رحمه الله ، ولد سنة ثمان وعشرين ومائة للهجرة وقيل غير ذلك ، وتفقه على الإمام مالك بن أنس ولازمه عشرين عاماً وفرّع على أصوله وانتفع به أصحاب مالك بعد موت الإمام مالك وهو صاحب المدونة ونقلها عنه سحنون وهمام في المذهب المالكي ؛ — كان ابن القاسم زاهداً صبوراً مجانباً للسلطان ، روى عن ابن عيينة وغيره من طبقة مالك وعنه أخذ أصبغ وسحنون وآخرون ، وتوفي ابن القاسم رحمه الله ليلة الجمعة لسبع مضين من صفر سنة إحدى وتسعين ومائة للهجرة ودفن بالقرافة بمصر ، وكان ابن القاسم مولى لزبيد بن الحرث العتقي من حجر حمير من العتقاء . « والله أعلم » .

[وَفِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ إِنْ لَمْ تَكُنْ مِثْلَ الْبُخَارِيِّ فَكُنْ كَالْبَيْهَقِيِّ]

قلت : الحديث والسنة والخبر والأثر أسماء مترادفة تعنى كل ما يضاف لرسول الله ﷺ من قول وفعل وتقرير وصفة ، قال شيخ مشائخنا عبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي في مراقي السعود :

وهي ما انضاف إلى الرسول من صفة كليس بالطويل والقول والفعل وفي الفعل انحصر تقريره كذى الحديث والأثر

وفضل علم الحديث أشهر من أن يذكر وأبين من أن يقرر وكفى أهله فضلاً وشرفاً دعاء النبي ﷺ لهم وهو مستجاب قطعاً ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه : عن النبي ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : « نضر الله امرأً سمع مقالتي فحفظها ووعاها فأدّاها فرب حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه » .

وعن سفيان الثوري رحمه الله : لا أعلم علماً أفضل من علم الحديث لمن أراد به وجه الله تعالى إن الناس يحتاجون إليه حتى في طعامهم وشرابهم فهو أفضل من التطوع بالصلاة والصيام لأنه فرض كفاية والله در القائل :

لا ترغبين عن الحديث وأهله فالرأي ليل والحديث نهار

ذكر البخاري والبيهقي رحمهما الله

أما البخاري : فهو الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه بفتح الموحدة وسكون الراء بعدها دال مهملة مكسورة فزاي ساكنة فموحدة مفتوحة فهاء على المشهور في ضبطه ومعناه الزراع ، الجعفي بالولاء وكان بردزبه مجوسياً على دين قومه ثم أسلم ولده المغيرة على يد اليمان الجعفي والى بخاري فنسب إليه نسبة ولاء عملاً بمذهب من يرى أن من أسلم على يد شخص كان له ولاؤه .

ولد محمد بن إسماعيل البخاري بعد صلاة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة ببخاري وهي من أعظم مدن ما وراء النهر ، بينها وبين سمرقند ثمانية أيام ، وتوفي والده وهو صغير فنشأ وهو يتيم في حجر أمه .

وأهم الحديث وهو ابن عشر سنين أو أقل وكتب الناس عنه وهو أمرد لا شعر بوجهه وكان نحيفاً ربع القامة ، ورحل في طلب العلم إلى أكثر محدثي الأمصار وكتب بخراسان والجبل والعراق والحجاز والشام ومصر وكان له الإمامة المطلقة في العلم على الإطلاق ، ولا شيء أدل على رسوخ قدمه في العلم من الاختبار الذي اختبره به أهل بغداد ، حكى الخطيب البغدادي في تاريخه أن البخاري لما قدم بغداد سمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث فقبلوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوا إلى كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري وأخذوا الموعد للمجلس ، فحضر المجلس جماعة من أصحاب الحديث من البغداديين والغرباء من أهل خراسان وغيرهم فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه واحد من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخاري

لأعرفه فمازال يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول لا أعرفه ، فكان الفقهاء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون الرجل فهم ومن كان منهم ضد ذلك يحكم على البخاري بالعجز وقلة الحفظ .

وتتابع العشرة على الولاء والبخاري يقول لا أعرفه حتى أتى على تمام العشرة فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه فأقر له الناس بالحفظ وأذعنوا له بالفضل .

ونقل عنه الفربري أنه قال ما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين ، وصنفت كتابي لست عشرة حجة خَرَجْتُه من ستائة ألف حديث وجعلته حجة فيما بيني وبين الله .
ومن شعره رحمه الله :

اغتنم في الفراغ فضل ركوع فعسى أن يكون موتك بغنة
كم صحيح رأيت من غير سُقيم ذهبَتْ . نفسه الصحيحة فلتنة

وامتحن رحمه الله في آخر عمره في مسألة الفرق بين التلاوة والتلو ونحو مل عليه فيها .

وتوفي ليلة السبت فاتح شوال سنة ست وخمسين ومائتين بمرتك أو خرتك على بعد فرسخين من سمرقند وعمره ثنتان وستون سنة رحمة الله على البخاري وعلى جميع علماء الإسلام .

وأما البيهقي : فهو الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي الحُسْرَوَجْدِيُّ الفقيه الشافعي الحافظ المشهور ، ولد في شعبان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة وكان فريد زمانه في الفنون ، من كبار أصحاب الحاكم أبي عبد الله بن البيع في الحديث ، وأخذ الفقه عن أبي الفتح ناصر بن محمد الغمري المروزي وغلب عليه الحديث واشتهر به ورحل في طلبه إلى العراق والجليل والحجاز وسمع بخراسان من علماء عصره ، وكانت له التصانيف العديدة ، وهو

أول من جمع نُصُوصَ الإمام الشافعي رحمه الله في عشر مجلدات ، وكانت أشهر مصنفاته السنن الكبرى والسنن الصغرى ودلائل النبوة والسنن والآثار وشعب الإيمان ومناقب الشافعي المطلبى ومناقب الإمام أحمد إلى غير ذلك .

وكان البيهقي قانعا بالقليل من الدنيا رحمه الله وكان على سيرة السلف وطلب إلى نيسابور لنشر العلم فأجاب وانتقل إليها وأخذ عنه الحديث من السلف جماعة وتوفي رحمه الله عاشر جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة بنيسابور ونقل إلى بيهق على عشرين فرسخاً من نيسابور و« الله تعالى أعلم » .

[فَالْعِلْمُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَى لَهُ فَضْلٌ فَبَشِّرْ حِزْبَهُ شَرًّا وَفِي]

أما في الدنيا فقد قال ﷺ : إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك أو كما قال ﷺ ، وقال سالم بن أبي الجعد : اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني فقلت بأي شيء أحترف ؟ فاحترفت بالعلم فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير البلد زائراً فلم آذن له .

وأما في الآخرة ، فقد قال ﷺ : يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ، عزاه في الأصل للإحياء للغزالي .

[وَاعْنِ يَقُولَ الشَّعْرِ فَالشَّعْرُ كَمَا لَ لِلْفَتَى إِنْ بِهِ لَمْ يَرْتَزِقْ]
[وَالشَّعْرُ لِلْمَجْدِ نِجَادُ سَيْفِهِ وَلِلْعُلَى كَالْعِقْدِ فَوْقَ الْعُنُقِ]

واعن : أمر من عنيت بأمره إذا اعتنيت به ، والأكثر عنيت به مبنياً للمفعول والأمر منه لئتن بحاجتي باللام ، والمجد : الشرف ، ونجاد السيف حمائله ، والعلى بالضم والقصر ، الشرف أيضا وهو جمع عليا كأنه وصف للمرتبة ثم كثر حتى استعمل استعمال الأسماء ، والعقد القلادة التي تُجعل في العنق ، والله أعلم .

ومعنى البيتين أمران : أحدهما أن قول الشعر كال الفتى إذا كان ذلك منه تأدباً لاتكسباً ، والثاني أن المجد والشرف للإنسان مثل السيف الذي يصل به على

الأعداء والشعر بمنزلة علاقة ذلك السيف ؛ وقد صدق فيما ذكره في الأمر الأول لأن الشاعر إذا كان مكتسباً بشعره فهو آكل للسُّحت لا محالة لأنه يمدح ويقدح تبعاً لهواه ، وقد قال ﷺ : « شر الناس من أكرمهم الناس اتقاء شر لسانه » ؛ وفي الحكم : لا تؤاخ شاعراً فإنه يمدحك بضمن ويهجوك بمجاناً .

ولما حبس عمر الخطيئة بسبب الزبرقان بن بدر ثم أراد تسريحه قال له : إياك والشعر ، فأخرج الخطيئة لسانه وقال : والله ما لأولادي كاسب غيره ، قال عمر رضي الله عنه : فلا تهجمهم ، فقال الخطيئة : إن لم أهجمهم لم يفرقوني فلا يعطوني ، قال عمر رضي الله عنه ، فاذهب فبئس الكسب كسبك .

وقال بعضهم :

الكلب والشاعر في منزل فليت أنى لم أكن شاعرا
هل هو إلا باسط كفه يستطيع الوارد والصادرا
وقال آخر :

لا تحسبن الشعر فضلاً بارعاً ما الشعر إلا هُجْنة ونُجْبَالُ
الهُجْوُ قَذْفُ والرَّئَاءُ نِيَاحَةٌ والعَتْبُ ضِعْنٌ والمديحُ سُؤَالُ
وقد علمت أن هذا الدم منزل على حالة مخصوصة فلا ينافي ما يأتي من فضله إذا حصلت السلامة من آفاته .

وأما الأمر الثاني مما تضمنه بيت الناظم بقوله : والشعر للمجد نجاد سيفه ... البيت فهو مأخوذ من قول المعري :
أرى المجد سيفاً والقريضَ نجادهُ ولولا نِجَادُ السَّيْفِ لم يُتَقَلَّدِ
وخَيْرُ حمالاتِ السُّيُوفِ حِمَالَةٌ تَحَلَّتْ بِأَبْكَارِ الثَّنَاءِ الْمُحَلَّدِ
وفي معناه قال أبو تمام :

ولولا خِصَالُ سُنَّهَا الشُّعْرُ مَادِرَى بُقَاةَ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تَوَقَّى الْمَكَارِمُ

[فَقُلُّهُ غَيْرَ مُكْثَرٍ مِنْهُ وَلَا تَعْبَأُ بِقَوْلِ جَاهِلٍ أَوْ أُخْمَقٍ]
[وَلَئِنْ تَكُنْ مِنْهُ عَدِيمَ فِكْرَةٍ فَأَعْنَ بِجَمْعِ شَمْلِهِ الْمُفْتَرِقِ]

ومراد الناظم والله تعالى أعلم ، إن لم يكن الشعر يشغلك عن القرآن والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية ولم يكن الغالب عليك فلا يضرك حفظ اليسير منه ، وبه أفتى النووى رحمه الله .

أما إذا كان الشعر الغالب على أوقات المرء بحيث إنه يشغله عن القرآن والحديث والعلوم الشرعية فإن رسول الله ﷺ صح عنه قوله : لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ ابْنِ آدَمَ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا . قال النووى : يَرِيهِ بفتح الياء وكسر الراء من الورى وهو داء يفسد الجوف ، فمعناه إذا قَيْحًا يَأْكُلُ جَوْفَهُ ويفسده ، « والله تعالى أعلم » .

واعلم أن الشعر كلام حسنٌ وقييحه قبيحٌ ، فقد سمع النبي ﷺ الشعر واستنشدته وأمر به حسان رضى الله عنه في هجاء المشركين وأنشده أصحابه بحضرته في الأسفار وغيرها ، وأنشده الخلفاء وأئمة الصحابة وفضلاء السلف ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه وإنما أنكروا المذموم منه وهو الفُحْشُ ونحوه ، — وقوله : [بشمله المفترق] يحتمل أحد أمرين :

الأول : أن يحفظ مختاره من شعر فحول الشعراء المبرزين في الصناعة كشعر امرئ القيس والنابغة وزهير بن أبى سلمى ولبيد من شعراء العرب أهل السليقة وكشعر البُحْثَرِيِّ والمنتبئى وكثير وأبى تمام من بلغاء المولدين .

ويُحْكَى عن الخوارزمي قوله : من روى حوليات زهير ، واعتذارات النابغة ، وأهاجي الخطيئة ، وهاشميات الكميت ، ونقائض جرير والفرزدق ، وخمريات أبى نواس ، وزهديات أبى العتاهية ، ومراثى أبى تمام ، ومدائح البحترى وتشبيهات ابن المعتز ، وروضيات الصنوبرى ، ولطائف كشاجم ، وقلائد المنتبئى ، ثم لم يتخرج فى الشعر فلا أثبت الله قدمه فيه .

والثاني : أن المراد بشمله آله التي يتأتى بها نظمه كعلوم اللغة ، ولا بد مع ذلك من حفظ الجيد منه والنقى وإلا فعلوم اللغة ، وحدها لا تكفي في التخرج فيه ، وقد قال بعضهم في التنبيه على تحصيل آله :

وما الطبعُ مُعْنَى وحده في نظامه ولا العلم عن حد الطباع بنائب
إذا لم تكن مجموعة أدوائه فأحسن مبناه كنسج العناكب
وقال آخر

وأرى القوافي لا تصير مطيعة إلا على المثرين من أدوائها
والطبع ليس بمقنع إلا إذا حصلت إضافته إلى آلتها

[مَا عَابَهُ إِلَّا عَيْيٌ مُفْحَمٌ يَعْرِفُهُ الذَّكِيُّ لَمْ يَسْتَنْشِقِ]
[كَمْ حَاجَةٌ يَسَرَّهَا وَكَمْ قَضَى بِفِكَ عَانٍ وَأَسِيرٌ مُوَثَّقِ]

العِيُّ بالكسر خلاف البيان والفصاحة وقد عِيِيَ في منطق كرضي ، وعِيَّ بالإدغام فهو عِيٌّ كَحَيٍّ فهو حَيٌّ ، وفي المثل : أعْي من باقل وهو رجل له قصة مشهورة .

قلت : هذه القصة ذكرها الجاحظ في البيان والتبيين ، قال : إن باقلاً هذا اشترى غزالاً وحشياً من السوق وجاء يقوده فلقبه رجل سأل بهكم اشتراه فلم يستطع لعيه أن يعبر له بأنه اشتراه بأحد عشر درهما حتى مد أصابع يديه ومد لسانه فشرد الغزال والله أعلم بصحة ذلك . هـ وأما في السير فيقال أعْيى إعْيَاءً رباعياً .

لطيفة : لهذا الفعل اللغوي حكاية لها مساس بتاريخ النحو ، فقد كان السبب الفعلي في اعتناء الإمام الكسائي بالنحو ، ذلك أَنَّهُ يحكى أنه مشى يوماً حتى أعْيَا فجلس فقال قد عِيَيْتُ ، فقليل له لَحْنَتْ ، قال كيف ؟ قيل إن كنت أردت التعب فقل أَعْيَيْتُ وإن كنت أردت انقطاع الحيلة فقل عِيَيْت ، فَأَنْفَ من قولهم لَحْنَتْ واشتغل بالنحو حتى صار إمام وقته فيه .

وَتُشَبِّهُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ هِشَامٍ فِي مَبْحَثِ « لَيْسَ » مِنْ مَغْنَى اللَّيْبِ وَأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ حَرْفَ اسْتِثْنَاءٍ ، قَالَ : هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ كَانَتْ سَبَبَ قِرَاءَةِ سَيَبَوِيهِ النَّحْوِ وَذَلِكَ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ لِدِرَاسَةِ الْحَدِيثِ فَاسْتَمَلَى مِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ : لَيْسَ مِنْ أَصْحَابِي إِلَّا لَوْ شِئْتُ أَخَذْتُ عَلَيْهِ لَيْسَ أَبَا الدَّرْدَاءِ ، فَقَالَ سَيَبَوِيهِ لَيْسَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ، فَصَاحَ بِهِ حَمَادُ لَحَنَتْ يَاسِيَبَوِيهِ إِنَّمَا هَذَا اسْتِثْنَاءٌ ، فَقَالَ وَاللَّهِ لَا أَطْلُبَنَّ عِلْمًا لَا يَلْحَنُنِي مَعَهُ أَحَدٌ ثُمَّ مَضَى وَلَزِمَ الْخَلِيلَ وَغَيْرَهُ . ا. هـ .

وَالْمُفْحَمُ كَمَكْرَمِ الْعِيِي وَمَنْ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ شِعْرًا ، وَأَفْحَمَهُ الْهَمُّ : مِنْهُ قَوْلُ الشَّعْرِ ، وَهَاجَاهُ فَأَفْحَمَهُ صَادَفَهُ مَفْحَمًا ، قَالَ عَمْرُو بْنُ مَعَدٍ يَكْرَبُ : اللَّهُ بَنُو مَجَاشِعٍ مَا أَشَدَّ فِي الْحَرْبِ لِقَاءَهَا وَأَجْزَلَ عَطَاءَهَا ، وَأَحْسَنُ فِي الْمَكْرَمَاتِ ثَنَاءَهَا ، لَقَدْ قَاتَلْتُهَا فَمَا أَفْلَلْتُهَا ، وَسَأَلْتُهَا فَمَا أَبْخَلْتُهَا ، وَهَاجَيْتُهَا فَمَا أَفْحَمْتُهَا أَى - لَمْ أَصَادِفْهُمْ عَلَى حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ الْمَذْكُورَةِ .

وَالْعَرْفُ : الرِّيحُ طَيِّبَةٌ كَانَتْ أَوْ مُتَنَتَةٌ وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِهِ فِي الطَّيْبَةِ كَمَا اسْتَعْمَلَ هُنَا ، وَالذَّكِيُّ كَغْنِي السَّاطِعِ الرِّيحِ مِنْ ذَكَتِ النَّارِ تَذَكُّو إِذَا اشْتَدَّ لَهَبُهَا فَهِيَ ذَكِيَّةٌ ، وَاسْتِنْشَاقُ الرِّيحِ شَمُّهَا وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ جَذْبُهُ بِالنَّفْسِ إِلَى الْمُنْخَرَيْنِ ، وَعَنَا فُلَانٌ عُنَا مِنْ بَابِ قَعَدَ أَى خَضَعَ وَذَلَّ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ ^(١) .

وَعَنَى كَرَضَى إِذَا نَشَبَ فِي الْإِسَارِ فَهُوَ عَانٍ وَالْجَمْعُ عُنَاةٌ لِلذَّكُورِ وَعَوَانٌ لِلنِّسَاءِ وَفِي الْحَدِيثِ : « اللَّهُ اللَّهُ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ فِي أَيْدِيكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ » .

وَالْأَسِيرُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٌ مِنَ الْأَسْرِ وَهُوَ الشَّدُّ الْمَحْكَمُ

وَمَغْزَى الْبَيْتَيْنِ أَنَّهُ لَا يَغِيبُ الشَّعْرُ إِلَّا مِنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ وَحُرْمَ فَضِيلَتِهِ ، وَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ أَنْ كُلِّ مِنْ جَهْلٍ صِنَاعَةٍ مِنَ الصِّنَاعَاتِ أَنْكَرَ فَضِيلَتِهَا

(١) طه الآية (١١١)

أو كاد ، فإن الناس أعداء ماجهلوا ، وفي المثل « من جهل شيئاً عاداه » وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾^(١) .

وقوله : كم حاجة يسرها ، يؤيده ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من أفضل ما أعطيته العرب الأبيات يقدمها الرجل أمام حاجته فيستعطف بها الكريم ويستنزل بها اللئيم ، ا. هـ .

[وَكَمْ أَدِيبَ عَادَ كَالنَّطْفِ غَنَى وَكَانَ أَفْقَرَ مِنْ الْمَذْلَقِ]

معنى البيت كم أديب أثرى بعد فقره بأبياته وفقره ، واستبدل الراحة والنعمة بيؤسه وضرره ، بل كانت معيشة الأدباء في الصدر الأول من جوائز الخلفاء وكانت بضاعتهم الأدبية أنفق بضاعة .

ذكر النطف والمذلق

أما النطف فقد اختلف فيه والتحقيق إن شاء الله أنه النطف بن خيرى بن حنظلة اليربوعي وكان مقيماً في قومه من بنى تميم في البادية وكان باذان عامل كسرى على اليمن يحمل مالا عظيماً ويرسله إلى كسرى فأرسل في بعض السنين عيراً تحمل شيئاً كثيراً من ذلك مع قوم من بنى الجعيد المراديين فلما توسطوا بلاد بنى يربوع أغاروا عليها وقتلوا خفراء العرب وأساوره الفرس وكان فيمن فعل ذلك ناجية بن عقال جد الفرزدق وعتبة بن الحرث بن شهاب وقعب بن عتاب الرياحي والنطف بن خيرى وغيرهم من فرسان تميم فنهبوا ذلك المال فحصل النطف على شيء كثير منه فأثرى وضرب الناس المثل بما أصاب فقيل أهنأ من كنز النطف ، ويُحكى أنه جلس يوماً يعطى الفقراء من قومه منذ طلعت الشمس إلى أن غربت ، وفي ذلك يقول بعض ولده :

أبى النطف المبارى الشمس إلى عريق فى السماحة والمعالى

(١) الأحقاف الآية (١١)

وأما المذلق : فَهُوَ رجل يضرب به المثل في الفقر يقال : أفلس من المذلق ، يروى بالذال المعجمة والذال المهملة وهو من عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم لم يكن يجد بيت ليلة وكان أبوه وأجداده يعرفون بالفقر والإفلاس وفي أبيه يقول الشاعر :

فإنك إن ترجو تميماً ونفعها كراجي الندي والعُرف عند المذلق

[وَكَمْ حَدِيثٌ جَاءَنَا عَنْ فَضْلِهِ عَنْ سَيِّدِ عَنِ الْهَوَى لَمْ يَنْطِقْ]
[وَقَدْ تَمَثَّلَ بِهِ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ يَسْمَعُهُ فِي الْحِلَقِ]

الحلق بفتح الحاء وكسرهما جمع حلقة وهم القوم يجتمعون مستديرين لأجل أخذ العلم وكذلك كانت حال أصحابه صلى الله عليه وسلم .

يروى عن الشعبي رحمه الله قوله إن أبا بكر — رضي الله عنه — كان يقول الشعر وأن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — كان يقول الشعر أيضاً وأن علياً — رضي الله عنه — كان أشعر منهما ، ويروى عن ابن عباس — رضي الله عنه — أنه كان يُنشد الشعر ويستنشده في المسجد فقد استنشد عمر بن أبي ربيعة المخزومي قصيدته التي يقول فيها :

أَيْنُ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادَ فَمُبَكَّرُ غَدَاةٍ غَدِ أُمِّ رَائِحٍ فَمَهْجَرُ

فأنشده إياها إلى آخرها وهي قريب من تسعين بيتاً ثم أعادها ابن عباس — رضي الله عنهما — عن ظهر قلب بحكاية واحدة ، وكانت عائشة — رضي الله عنها — من رواة الشعر ، روي عنها أنها قالت رويت للبيد اثني عشر ألف بيت خلاف ما رويت لغيره .

قلت : وقد نوه عن ذلك العلامة الشنقيطي ثم المجلسي الشيخ أحمد البدوي في عمود النسب في ذكر لبيد — رضي الله عنه — ، قال :

منه لبيد بن ربيعة الأبي فاز بصحبة وفضل أذب

روت له من الألف اثني عشر عائشة وكل شعره دُرر

واعلم أن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أبلغ وأكثر مما تكلمت به من لوم ومع ذلك لم يحفظ من المنثور عشره ولم يضع من المنظوم عشره فكان للشعر بهذا فضل على النثر زيادة على ما روي في فضله من الأحاديث والآثار ، والحاصل أن الشعر كلام كالنثر جيده جيد وقبيحه قبيح فهو كالنثر غير أنه تستحسن فيه أشياء لا تستحسن في النثر ، فالكذب وقع الإجماع على حرمة ، وأجود الشعر أكذبه ، والشاعر يزكي نفسه ويمدحها إلى غير ذلك مما يستقبح في النثر ويقبل في الشعر .

وأما قول الناظم : وقد تمثل به ، فإنه يرمي به إلى حديث الصحيحين عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ، « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وفيهما أيضاً : بينا النبي صلى الله عليه وسلم يمشي إذ أصابه حجر فعثر فدميت أصبعه فقال : هل أنت إلا أصبغ دمت .. وفي سبيل الله ما لقيت .

قال القسطلاني : الصحيح أنه يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتمثل بالشعر وينشده حاكياً له عن غيره ، وذكر الخازن في تفسيره أن عائشة — رضي الله عنها — قالت إن النبي صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت طرفه .

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
فجعل يقول ويأتيك من لم تزود بالأخبار فقال أبو بكر — رضي الله عنه —
ليس هكذا يارسول الله فقال إني لست بشاعر ولا ينبغي لي .

وأما قول الناظم : وكان من أصحابه يسمعه في الحلق ، فهو أمر معلوم فقد كان يسمعه من حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير وغيرهم ، وكان يسمعه من شعراء العرب الذين كانوا يقدون عليه وربما

أثابهم على ذلك وربما استحسنه واستزادهم منه ، وعن أنس بن مالك — رضي الله عنه — أنه صلى الله عليه وسلم دخل مكة المكرمة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه يَرتجز :

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نُضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر يا ابن رواحة ! بين يدي رسول الله وفي حرم الله تقول الشعر ؟
فقال صلى الله عليه وسلم : « نَحَلُّ عَنْهُ يَاعْمَرُ فَلَهِيَ فِيهِمْ أَسْرَعُ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ » ،
أخرجه الترمذي والنسائي .

[وَقَدْ بَنَى الْمِنْبَرَ لِابْنِ ثَابِتٍ فَكَانَ لِلْإِنْشَادِ فِيهِ يَرْتَقِي]
ألفاظ البيت واضحة .

ذِكْرُ حَسَانِ بْنِ ثَابِتٍ — رضي الله عنه —

هو أبو الوليد وقيل أبو الحُسام حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو
ابن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الخزرجي النجاري الأنصاري
— رضي الله عنه — كان يُدعى شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعن أم
المؤمنين عائشة — رضي الله عنها — في وصف رسول الله عليه الصلاة والسلام
أنها قالت : كان والله كما قال شاعره حسان بن ثابت :

مَتَى يَبْدُؤُا فِي الدَّاجِ الْبَهِيمِ جَبِينَهُ يَلُحُّ مِثْلَ مُصْبَاحِ الدُّجَى الْمُتَوَقِّدِ
فَمَنْ كَانَ أَوْ قَدْ يَكُونُ كَأَحْمَدٍ نِظَاماً لِحَقِّ أَوْ نِكَالاً لِمُلْجِدٍ ؟؟

وذكر ابن عبد البر عن جماعة من السلف أن الذين كانوا يهجون رسول الله
صلى الله عليه وسلم من مشركي قريش هم : عبد الله بن الزُّبَيْري وأبو سفيان بن
الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص وضرار بن الخطاب وكلهم أسلم ،
فقال قائل لعلي — رضي الله عنه — : اهج عنا القوم ، فقال إن أذن لي رسول الله

صلى الله عليه وسلم فعلت ، فقالوا يا رسول الله ائذن لي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن علياً ليس هنالك ، ثم قال : ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلاحهم أن ينصروه بألستهم ؟ فقال حسان أنا لها وأخذ بطرف لسانه وقال والله ما يسرني به مقول بين بُصرى وصنعاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن عمي ؟ فقال والله لأُسَلِّتَنَّكَ منهم كما تسل الشعرة من العجين ، فقال له أيت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك ، ففعل فلما سمعت قريش شعر حسان قالت إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة .

ومن شعر حسان في أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قوله :

ألا أبلغ أبا سفيان أنَّ مُحَمَّدًا	هو العُصْنُ ذو الأفنان لا الواحدُ الفردُ
وأنَّ سَنَامَ المجد مِنْ آلِ هاشمٍ	بنو بنت مخزوم ووالدك العبدُ
ومن ولدت أبناء زهرة منهم	كرامٌ ولم يقرب عجائزك المجدُ
ولست كعبَّاس ولا كابن أمِّه	ولكن لئيم لا ينور له زندُ
وإن امرأً كانت سمية أمِّه	وسمراء مغلوب إذا بلغ الجهدُ
وأنت هجينٌ نيط في آل هاشم	كما نيط خلف الراكب القدح الفردُ

قال ابن عبد البر : يعنى بقوله : بنت مخزوم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم وهى أم أبى طالب وعبد الله والزيير بنى عبد المطلب ، وقوله : ومن ولدت أبناء زهرة ، يعنى به حمزة وصفية أمهما هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة وأما عباس وابن أمه ضرار بن عبد المطلب فإن أمهما ثبيلة امرأة من النمر بن قاسط وأما سمية فهى أم أبي سفيان بن الحارث وأما سمراء فهى أم أبيه الحارث بن عبد المطلب .

قلت : وقد ذكر فى عمود النسب حسان بن ثابت — رضى الله عنه — ، حيث يقول العلامة الشنقيطى الشيخ أحمد البدوى المجلسى :

مِنْ مَالِكٍ أَيْضاً أَبُيُّ الْقَارِي أَوْسٌ وَحَسَّانُ أَخُوهُ الدَّارِي
عَنِ النَّبِيِّ بِاللِّسَانِ اللَّقْلَقِي بَمَدِّجٍ أَفْضَلُ الْأَنَامِ مُفْلِقِي
وَهُوَ إِلَى أَرْبَعَةِ يَمُدُّهُ وَجَبْرَائِيلُ ثَارَةً يُمِدُّهُ

وذكر المبرد أن أعرق قوم في الشعر آل حسَّان فإنهم كانوا يعدون ستة في
نسق كلهم شاعر وهم : سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن
حرام .

وعاش حسان — رضي الله عنه — مائة وعشرين عاماً ، ستون منها في
الجاهلية وستون في الإسلام .

نادرة : ذكر ابن مندة وابن سعد أن حسان وأباه وجده وأبا جده كلهم
عاش مائة وعشرين عاماً ولم يعرف في العرب أربعة تناسلوا من صلب واحد
اتفقت مدة أعمارهم مائة وعشرين عاماً غيرهم .

وتوفي — رضي الله عنه — سنة خمسين من الهجرة وقيل : سنة أربع
 وخمسين والله تعالى أعلم .

[وَقَالَ لَابْنُ أَهْتَمٍ فِي مَدْحِهِ وَذَمِّهِ لِلزُّبَرْقَانِ الْأَسْمَقِ]
[مَقَالَةً خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةً تَقِي]

الأسمق من سمق سموقاً إذا علا وطال والمراد هنا علو المنزلة « والله أعلم » .

ذكر ابن أهتم والزُّبَرْقَان وما جرى بينهما

أما ابن الأهتم فهو أبو ربعي عمرو بن الأهتم بن خالد بن منقر بن عبيد بن
الحرث وهو مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم السعدي
المنقري ، والأهتم بمثناة من فوق هو سنان وإنما سمي أهتماً لأن قيس بن عاصم
المنقري ضربه بقوس فهتم ثنياه وقيل بل اهتم يوم الكلاب .

وكان عمرو هذا من أكابر تميم وساداتها وكان بليغاً طلق العبارة وكان شعره
يعتبر حُللاً مُنْشَرَّةً ، ومن شعره :

وكل كريم يتقى الذم بالقري وللخير بين الصالحين طريق
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

وأما الزبرقان بن بدر فهو أبو شذرة الزبرقان بن بدر بن امرئ القيس بن
خلف بن بهذلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي السعدي
البهذلي أحد سادات بني تميم وشعرائهم المشهورين ، والزبرقان في اللغة من أسماء
القمر فسمي به لجماله وقيل غير ذلك ، وفيه يقول الشاعر وهو من التمر بن
قاسط :

تقول حليتي لما اشتكينا سيدر كنا بنو القمر الهجان
سيدركنا بنو القمر بن بدر سراج الليل للشمس الحصان
فقلت ادعى وأدعو إن أندى لصوت أن ينادي داعيان
فمن يك سائلاً عني فأني أنا النمرى جار الزبرقان

وأما ما جري بينهما بمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قال ابن
عبد البر أن عمرو بن الأهمم والزبرقان بن بدر قدما على النبي صلى الله عليه وسلم
وافدين في وجوه قومهما من بني تميم فأسلموا وذلك سنة تسع من الهجرة ،
وروى البيهقي وغيره عن ابن عباس قال جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهمم فقال الزبرقان يا رسول الله أنا سيد بني تميم
والمطاع فيهم والمُحِبُّ لديهم أمنعهم من الظلم وآخذ لهم حقوقهم وهذا يعلم
ذلك يعني عمرو بن الأهمم فقال عمرو إنه لشديد العارضة مانع لجانبه مطاع في
أدنيه ، فقال الزبرقان : والله لقد علم مني أكثر مما قال ومامنعه إلا الحسد ، فقال
عمرو أنا أحسدك فو الله إنك للقيم الخال ، حديث المال ، أحق الوالد مُضَيِّع في
العشيرة ، والله يا رسول الله لقد صدقت في الأولى وما كذبت في الأخرى ،
ولكنني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت
ولقد صدقت في الأولى والأخرى جميعاً فقال صلى الله عليه وسلم : « إن من
البيان لسحراً » .

ولقد ذكر القصة الميداني وابن الأثير وغيرهما بألفاظ متقاربة ولم يذكروا أنه صلى الله عليه وسلم قال إن من الشعر لحكمة كما ذكر الناظم ، مع أنه لا يلائم القصة لأن ابن الأهم لم يصدر منه شعر .

ولكن البخاري وأبا داود وابن ماجه في الأدب أخرجوا عن أبي بن كعب — رضي الله عنه — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الشعر حكمة » أى قولاً صادقاً مطابقاً للحق ، وقيل كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه ، وذلك يتفق مع قول الناظم « لحكمة تقى » أى تحفظ من الجهل والسفه .

يُحْكِي : أن الأحنف بن قيس وعَمْرُو بن الأَهم وفدا على عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فأراد أن يقرع بينهما فى الرئاسة فلما اجتمعت بنو تميم قال الأحنف ، وهى سقطة منه :

ثوى قدح عن قومه طول ما ثوى فلما أتاهم قال قوموا ففاخروا فقال عمرو إنا كنا وأنتم فى دار جاهلية وكان الفضل فيها لمن جهل ففسكنا دماءكم وسبينا نساءكم ونحن اليوم فى دار إسلام والفضل فيها لمن حَلُم ، فغفر الله لنا ولكم .

فَعُلبَ يومئذ عمرو على الأحنف ، ووقعت القرعة لآل الأهم فقال عمرو : ولما دعتنى للرئاسة منقر لدى مجلس أضحى به النجم باديا شددت لها إزري وقد كنت قبلها لأمشاها قدماً أشد إزارياً وكان رحمه الله يقول أشجع الناس من رد جهله بحلمه ، وكان من نفر الذين حرموا الخمر فى الجاهلية مثل قيس بن عاصم المنقري ، وتوفى — رضى الله عنه — سنة سبع وخمسين من الهجرة « والله تعالى أعلم » .

[وَعِنْدَمَا سَمِعَ مِنْ قُتَيْلَةٍ رَنَى قَتِيلَهَا الَّذِى لَمْ يُعْتَقِ]
[رَدَّ لَهَا سَلْبَهُ وَقَدْ بَكَى شَفَقَةً بِدَمْعِهِ الْمُنْطَلِقِ]
معنى البيتين واضح لا إشكال فيه .

ذكر قتيلة — رضي الله عنه — ورثائها لقتيلها

قتيلة هذه هي بنت النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي ، وكان من حديثها أن النضر هذا كان من أشد الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يؤذيه بمكة ويؤذي أصحابه صلى الله عليه وسلم فلما أكرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالنصر يوم بدر كان النضر هذا من بين الأسرى هو وعقبة بن أبي معيط فقتل النضر بالصفراء ، والنبي صلى الله عليه وسلم قافل إلى المدينة .

قلت : ذكر الواقدي في مغازيه أن النضر بن الحارث بن كلدة قتل بالأثيل على ثلاثة أميال من بدر وكذا قال ابن هشام ، والأبيات المنشودة في رثائه تشهد بصحة ذلك حيث قالت : ياراكباً إن الأثيل مظنة : إلخ . ولم تقل إن الصفراء .

ذكر الواقدي أن الرسول لما نزل بالأثيل بعد قفوله من بدر عرض عليه الأسرى فأحد النظر في النضر بن الحارث بن كلدة ، فقال النضر لابن عمه مصعب بن عمير — رضي الله عنه — يامصعب ما أرى صاحبك إلا قاتلي ، يامصعب كلم صاحبك يجعلني أسوة الأسرى إن قتلهم قتلني وإن من عليهم من عليّ ، قال مصعب : لست مثلهم كنت تقول في رسول الله كذا وفي كتاب الله كذا وكنت تفعل بأصحاب رسول الله كذا .

فقال النضر : يامصعب والله لو أسرتك قريش ما قتلت وأنا حي ، فقال مصعب : أظنك صادقاً ولكن لست مثلك قطع الإسلام العهود .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع عنقه فقتل والحمد لله .

وقتيلة هذه التي رثته هي أخته في قول ابن هشام وتبعه جمع كثير منهم النوى واليعمرى ، وقال الزبير بن بكار هي ابنته وتبعه ابن عبد البر والجوهري والذهبي وغيرهم ، قال السهيلي : وهو الصحيح ، فقد قالت في رثائها له :

ياراكباً إنَّ الأثيل مظنة
أبلغ به ميثاً بأن تحية
مني إليك وعبرة مسفوحة
هل يسمعي النظر إن ناديته
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه
صبراً يقاد إلى المنية مرغماً
أحمدُ ياخير ضينٌ كريمة
ما كان ضرك لو مننت وربما
أو كنت قابل فدية فلنأتين
فالنظر أقرب من أسرت قرابة
من صبح خامسة وأنت موفق
ما إن تزال بها النجائب تخفق
جادت بواكفها وأخرى تخنق
أم كيف يسمع ميث لا ينطق
لله أرحام هناك تشقق
رسف المقيد وهو عانٍ موثق
في قومها والفحل فحل معرق
من الفتى وهو المغيظ المُحنق
بأعز ما يغلو لديك ويُنفق
وأحقهم إن كان عتق يعتق

قال ابن عبد البر فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قولها بكى حتى
أخضلت الدموع لحيته وقال لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه ، ومعنى
قوله لو شفعت عندي منه قبل موته لشفعت بها .

قال الواقدي : أسلمت قتيلة يوم الفتح وقال الزبير : وكانت تحت عبد الله
ابن الحارث بن أمية الأصغر رحمه الله .

وقول الناظم : « رد لها سلبه » قال أحمد بن خالد الناصري هنا في الأصل :
لم نر في شيء مما وقفنا عليه من كتب الحديث والسير ما ذكره من أن النبي صلى
الله عليه وسلم ردَّ لقتيلة سلب أبيها فالله أعلم .

[وَقَدْ حَبَّأَ كَعْبًا غَدَاةَ مَدَحِهِ بِرُودَةٍ وَمَائَةٍ مِنْ أَيُّسَقِ]
الرُّودَةُ بالضم كساء أسود صغير مربع .

ذكر كعب بن زهير ومدحه النبي صلى الله عليه وسلم

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى بالضم واسمه ربيعة بن رياح المزني الشاعر ، كان أبوه زهير من فحول الشعراء وكان عمر — رضي الله عنه — لا يقدم عليه أحداً ويقول أشعر الناس الذي يقول ومن ومن ، يشير إلى قوله في معلقته المشهورة :

ومن يك ذا مال فيبخل بماله على قومه يُستغن عنه ويُذم
ومن لم يزل يستحمل الناس نفسه ولا يُقْنِها يوماً من الدهر يُسْتَم
ومن يَغْتَرِزُ يَحْسِبُ عُلُوّاً صَدِيقه ومن لا يُكْرَم نفسه لا يُكْرَم

وكان من خبر كعب أنه خرج هو وأخوه بُجَيْر إلى موضع قال بُجَيْر لكعب لما وصلا اثبت هنا بالغنم حتى آتي هذا الرجل فأسمع كلامه يعني النبي صلى الله عليه وسلم فلما سمع بجير كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن به وجلس بالمدينة ، ولما اتصل خبر إسلام بجير بأخيه كعب أغضبه ذلك وقال :

ألا بلغا عني بجيراً رسالةً فهل لك فيما قلت ويحك هل لك
سقاك بها المأمون كأساً رويةً فأنهلك المأمون منها وعلك
ففارقت أسباب الهدى واتبعته على أي شيء وبب نفسك ذلك
على مذهب لم تلف أمماً ولا أباً عليه ولم تعرف عليه أخاً لك
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف ولا قائل إذا عثرت لعاً لك

وأرسل بها إلى بجير فلما وقف عليها أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع صلى الله عليه وسلم قوله سقاك بها المأمون قال « مأمون والله » ، وفي رواية ابن الأثير سقاك بها المأمور بالراء بدل النون ، ولما سمع قوله : على مذهب لم تلف أمماً ... البيت قال أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه ، ثم إن النبي

صلى الله عليه وسلم قال : من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله ، وذلك انصرافه
صلى الله عليه وسلم من الطائف سنة ثمان فكتب إليه أخوه بجير هذه الأبيات :

فَمَنْ مَبْلُغٌ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي التِّي تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهِيَ أَحْزَمُ
إِلَى اللَّهِ لَا الْعِزَّى وَلَا اللَّاتِ وَحْدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النِّجَاءُ وَتَسْلَمُ
لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمَقْلَبٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ
فَدَيْنِ زَهِيرٍ هُوَ لَا شَيْءَ دِينِهِ وَدَيْنِ أَيْ سُلْمَى عَلَيَّ مُحَرَّمُ

وكتب بعد هذه الأبيات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدر دمك وأنه
قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوهم ويؤذيه وإن من بقي من شعراء قريش كابن
الزبير وهبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه وما أحسبك ناجياً فإن كان
لك في نفسك حاجة فطر إليه فإنه يقبل من أتاه تائباً وإن كنت لم تفعل فأنج إلى
نجائك من الأرض .

ولما وصل الكتاب إلى كعب أتى قبيلته مزينة لتجيرة من رسول الله صلى الله
عليه وسلم فأبوا ذلك عليه فضاقت عليه الأرض وأشفق على نفسه ، وأرجف به
أعداؤه فقالوا هو مقتول لا محالة ، فخرج يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالمدينة فنزل على رجل من جهينة كانت بينه وبينه معرفة فغدا به إلى المسجد
وأشار له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده في يده وكان صلى الله عليه
وسلم لا يعرفه ، فقال يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاءك ليستأمنك على
نفسه تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئت بك به ؟ قال نعم ! قال أنا يا رسول
الله كعب بن زهير ، فقال صلى الله عليه وسلم الذي تقول ما تقول ثم أقبل على
أبي بكر فاستنشده فأنشده — رضي الله عنه — : سقاك بها المأمور كأساً روية ،
بالراء وكانت العرب تسمى من تأتبه الجن مأموراً ، فقال كعب لم أقل هكذا وإنما
قلت :

سقاك أبو بكر بكأس روية فأهلك المأمون منها وعلكا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مأمون والله .

وذكر ابن إسحاق أن رجلاً من الأنصار وثب عليه وقال يا رسول الله دعني
وعلى الله أضرب عنقه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دعه عنك فقد جاء
تائباً نازعاً ، قال فغضب كعب لذلك السبب على الأنصار ، ثم أنشد قصيدته
اللامية التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غصيص الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

إلى أن قال :

أنبت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وإن كثرت في الأقاويل

وفيها قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

وفي الروض أنه لما قال هذا البيت نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى
أصحابه كالمُعْجَب لهم من حسن القول وجودة الشعر ، وروى الحاكم أن كعباً
أنشده من سيوف الهند فقال صلى الله عليه وسلم من سيوف الله ، وعند ابن
الأنباري أنه لما وصل هذا البيت رمى عليه النبي صلى الله عليه وسلم بردة كانت
عليه وأن معاوية - رضي الله عنه - بذل فيها لكعب عشرة آلاف درهم فامتنع
وقال ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً ، فلما مات
كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألف درهم فأخذها منهم بها .

ولما ختم كعب القصيدة مدح قريشاً وعرض بالأنصار قائلاً :

في فتية من قريش قال قائلهم يبطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فمازال أنكاسٌ ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرّد السود التنايل

قال ابن هشام : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له بعد ذلك ألا ذكرت
الأنصار بخير فإن الأنصار لذلك أهل فقال أبيات منها قوله :

من سره كرم الحياة فلا يزل في منقب من صالح الأنصار
ورثوا المكارم كابراً عن كابر إن الخيار هم بنو الخيار

[وبشر الجعدي وابن ثابت بجنة جزاء شجر عسقي]

العسقي كقنفذ التام الحسن « والله أعلم » .

وقوله وبشر الجعدي إلخ ، يرمي به إلى ما ذكره ابن عبد البر قال : وفد النابغة
الجعدي على النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً وأنشده فدعا له النبي صلى الله عليه
وسلم فكان من أول ما أنشده قوله :

أتينا رسول الله إذ جاء باهدى ويتلو كتاباً كالجرة نيراً
وعن النابغة الجعدي — رضي الله عنه — قال أتيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم فأنشدته قولي :

وإنا لقوم ما نعود خيلنا إذا ما التقينا أن تحيد وتنفر
وننكر يوم الزوع ألوان خيلنا من الطعن حتى نحسب الجون أشقراً
وليس بمعروف لنا أن نرُدّها صحاحاً ولا مستنكراً أن تُعقراً
بلغنا السماء مجئنا وسناؤنا وإنا لنترجو فوق ذلك مظهراً

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقلت إلى الجنة قال نعم
إن شاء الله ، فأنشدته قولي :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادٍ تحمي صفوه أن يكدرها

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصلاً

فقال صلى الله عليه وسلم : أجدت لا يفضض الله فاك ، قالوا : فكان من أحسن الناس ثغراً وكان كلما سقطت له سن نبتت له أخرى اهـ .

وأما تبشير النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت بالجنة فإنه لما أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدته الهزمية التي أجاب بها أبا سفيان بن الحارث وانتهى فيها إلى قوله :

هجوت محمداً وأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

قال له النبي صلى الله عليه وسلم جزاؤك الجنة يا حسان ، فلما بلغ قوله :

أتهجوه ولست له بكفؤ فشركا لخيركا الفــــداء

قال من حضر هذا أنصف بيت قاله العرب ، فلما قال :

فإن أئى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : وقاك الله حر النار يا حسان .

ذكر النابغة الجعدي

أما النابغة الجعدي فهو أبو ليلي النابغة واختلف في اسمه فقيل حيان وقيل قيس ابن عبد الله بن عمرو بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة العامري الجعدي ، وإنما قيل له النابغة فيما يقولون لأنه قال الشعر في الجاهلية ثم أقام مدة ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فيه بعد فقاله فقيل النابغة ، وكان شاعراً فحلاً وهو أسن من النابغة الذبياني بدلالة أن النابغة الذبياني كان نديم النعمان بن المنذر والجعدي أدرك المنذر بن محرق ونادمه ومعلوم أن ذلك كان قبل النعمان بن المنذر ، وشاهد منادمته للمنذر بن محرق قوله :

تذكرت والذكرى تهيج للفتى ومن حاجة المحزون أن يتذكرا

ندامى عند المنذر بن محرق أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفراً
وعُمّر النابغة الجعدي مائتين وعشرين عاماً وأدرك الإسلام وحسن إسلامه
ودعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاش بعد ذلك حتى أدرك زمن ابن
الزبير فقدم عليه ومدحه ثم تأخر عمره حتى هاجى أوس بن مغيرة بحضرة
الأخطل والعجاج ولىلى الأخيلية وغيرهم .

قالوا وكان النابغة الجعدي يذكر في الجاهلية دين إبراهيم والخيفية ويصوم
ويستغفر فيما ذكره وأنكر الخمر وهجر الأزلام والأوثان ، ومن شعره في
الجاهلية قوله :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلماً
وقد ذكرنا فيما تقدم وفادته على رسول الله صلى الله عليه وسلم وشعره بين
يديه ودعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له . وبالله تعالى التوفيق .

[كَمْ حَامِلٍ سَمَا بِهِ إِلَى الْعُلَا بَيْتٌ مَدِيحٍ مِنْ بَلِيغٍ ذَلِيقٍ]
[مِثْلُ بَنِي الْأَنْفِ وَمِثْلُ هَرِمٍ وَكَالَّذِي يُعْرِفُ بِالْمُحَلَّقِ]

السمو العلو ، والذلق ككتف ويقال ذليق فصيح حديد اللسان ، وباقي معنى
البيت واضح لا إشكال فيه .

ذكر بنى أنف الناقة

بنو أنف الناقة هم بنو جعفر بن فريع بالتصغير بن عوف بن كعب بن سعد
ابن زيد مناة بن تميم وسبب جريان هذا اللقب عليه أن أباه فريعاً نحر ناقة فقسمها
بين نسائه فبعثت جعفر هذا أمه وهى الشموس الهذيمية إلى أبيه تسأله حظها من
اللحم ولم يجد عنده غير رأس الناقة وعنقها فقال له : شألك بهذا ، فأدخل جعفر
يده فى أنف الناقة وجعل يحجره إلى أمه والناس يضحكون منه فلقلب بأنف الناقة ،
فكان جعفر يُسَبُّ بها ، وبقي هذا اللقب سبة فى عقبه فكان الواحد منهم إذا سئل

عن نسبه ينتسب إلى جده فُريح بن عوف ويتجاوز النسبة إلى جعفر فراراً من اللقب ، فبقوا على ذلك إلى أن مدحهم الخطيئة فأزال ذلك العار عنهم .

وكان من حديث ذلك أن الزبرقان بن بدر التميمي المتقدم الذكر كان قد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فولاه على قومه ثم أقره على ذلك أبو بكر وعمر — رضي الله عنهما — فقدم في سنة مجدبة على عمر ليؤدي إليه صدقة قومه فلقيه الخطيئة بقرقري ومعه زوجته وولده ذكوراً وإناثاً فقال له الزبرقان وقد عرفه : إلى أين تُريد ؟ فقال إلى العراق وقد حطمتنا هذه السنة ، قال فتصنع ماذا ؟ قال وددت أن أصادف بها رجلاً يكفيني مئونة عيالي وأصفيه مدحى أبدأ فقال له الزبرقان قد أصبته ، فهل لك فيمن يوسعك لبناً وتمراً ويجاورك أحسن جوار وأكرمه ؟ فقال الخطيئة : فهذا وأبيك العيش وماكنت أرجو هذا كله ، قال قد أصبته ، قال وأين ؟ قال عندي ، قال ومن أنت ؟ قال : الزبرقان بن بدر قال : وأين محلك ؟ قال : اركب هذه الناقة واستقبل مطلع الشمس وسل عن القمر بن القمر حتى تأتي منزلي ، وكتب الزبرقان إلى زوجته أن أحسنني إليه وأكثرني له من التمر واللبن ، وهي بنت صعصعة بن ناجية المجاشعي ، فأكرمت المرأة مشواه ، فبلغ ذلك بني جعفر أنف الناقة بن فُريح فحسدوا الزبرقان عليه فدسُّوا إلى الخطيئة أن تحول إلينا نعطيك مائة ناقة ونشد كل طنب من أطناب بيتك بحلة نفيسة ، قال وأنى لي ذلك ؟ قالوا إنهم يريدون النجعة فتخلف عنهم ، ودسُّوا إلى امرأة الزبرقان من يقول لها إن الزبرقان إنما قدم أمامه هذا الشيخ ليتزوج ابنته وكانت ذات جمال ، فصدقت المرأة وظهر منها للخطيئة جفوة وهي مع ذلك تداريه ، فلما احتمل القوم تخلف الخطيئة عنهم فاحتمله الفريعيون فوفوا له بما وعدوه وربطوا له بكل طنب من أطناب قبته حلة هجرية فلما قدم الزبرقان سأل عنه فأخبر بقصته فنادى في قومه وجاء إلى بني فُريح فقال ردُّوا عليّ جاري ، فقالوا ليس لك بجار وقد طرحته فاستعدى عليهم عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فحكم أن يخرج الخطيئة وينزل بمنزل بين الحيين ويُحْلَى سبيله فيكون جار أيهما شاء ففعل به

ذلك فاختر الفريعيين وجعل الخطيئة يمدحهم من غير أن يهجو الزبرقان وهم
يخرضونه على ذلك فيأبى ويقول لا ذنب للرجل عندي ، فكان مما مدحهم به
قصيدته التي يقول فيها :

قالت أمانة لا تَجَزَعُ فقلت لها إن العزاء وإن الصبر قد غلبا
سيرى أمام فإن الأكثرين حصى والأكرمين إذا ما ينسبون أبا
قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا
قوم هم الأنف والأذنان غيرهم من ذا يُسوي بأئف الثاقاة الذنبا

فصار هذا اللقب مدحاً لهم وفخراً بعد أن كان ضعةً وذماً فصاروا يفتخرون
به ويقولون نحن بنو الأنف ، ثم عرّض بالزبرقان ورهطه بقوله :

ما نقموا من بغضي لا أبا لهم في بائس جاء يحدو أينقاً جرباً
جاءت به من بلاد الطور تحمله حصباء لم تترك دون العصا شذبا

ثم مدحهم بقوله وهي من جيد شعره :

ألا طرقتنا بعدما هجعوا هند وقد جزن غوراً واستبان لنا نجد
إلى أن قال :

وإن التي نكبتها عن معاشر علي غضاب أن صددت كما صدوا
أنت آل شماسي بن لاي وإنما اتاهم بها الأحلام والحسب العبد
فإن الشقي من تُعادي صدورهم وذو الجد من لانوا له ومن ودوا
يسوسون أحلاماً بعيداً أئانها فإن غضبوا جاء الحفيظة والجد
أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم أوسدوا كمثل الذي سدوا
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عاهدوا شدوا
وإن كانت التعمى عليهم جزوا بها وإن أتعموا لا كدروها ولا كدوا
وإن قال مولاهم على جلّ حادث من الدهر ردوا فضل أخلامكم ردوا
مطاعين في الهيجا مكاشيف للذجا بنى لهم آباؤهم وبنى الجد .. الخ

وقال أيضاً وصرح فيها يهجو الزبرقان :

والله مامعشر لاموا امراً جُبَّبا	في آل لاي بن شماس بأكياس
ماكان ذنب بفيض لا أبا لكم	في بئس جاء يحثو آخر الناس
لقد مريتكم لو أن درتكم	يوماً يحجى بها مدحي وإنساني
لما بدا لي منكم غيب أنفسيكم	ولم يكن لجراحي منكم آسى
أزمت يأساً مريحاً من نوالكم	ولن ترى طارداً للحر كالئاس
جار لِقَوْمٍ أطالوا هون منزله	وغادروه مقيماً بين أرماس
ملوا قراه وهرة كلابهم	وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها	واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه	لا يذهب العرف بين الله والناس

فاشتكاه الزبرقان بن بدر إلى عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — وقال إنه هجاني ، فقال عمر : وماذا قال في هجائك ؟ قال : قال كذا ، وأنشده دع المكارم ... البيت ، فقال ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة ، فقال الزبرقان : أوماتبلغ مروءتي إلا أنني آكل وألبس ؟ فقال عمر : عليّ بحسان فجئ به فسأله عمر — رضي الله عنه — فقال لم يهجه ولكنه سلح عليه ، فأمر به عمر فجعل في قعر بئر وألقى عليه شيء فجزع الحطيئة جزعاً شديداً وتضرع إلى عمر وقال شعراً يستعطفه به فلم يلتفت إليه عمر ثم شفع فيه عبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص وغيرهما فأخرجه فلما مثل بين يديه قال :

بسم الذي أنزلت من عنده السور	والحمد لله أما بعد يا عمر
ماذا تقول بأفراخ بذي مرخ	زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسهم في قعر مظلمة	فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه	ألقي إليك مقاليد النهي البشر
فامتن على صبية بالرمل مسكنهم	بين الأباطح تغشاهم بها القرر

وفى بعض النسخ : تفشاهم بها القز ، بزاي بدل الراء الأولى قال الدميري والقز نوع من السماع ، وأما القز جمع قرّة وهى البرد .

أما أمير المؤمنين عمر — رضى الله عنه — فإنه قد بكى لقوله : ويقول عمرو ابن العاص لذلك ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أعدل من رجل يبكي على تركة الخطيئة .

ثم إن عمر — رضى الله عنه — أراد إرهاب الخطيئة فجعل يستشير قومه فيه ويقول ما أراني إلا قاطعاً لسانه إيتوني بطست إيتوني بسكين إيتوني بموسى فهو أحمَد ، فقالوا لا يعود يا أمير المؤمنين وأشاروا عليه أن قل لا أعودُ فقال له النجاء ، وقيل غير ذلك .

ذكر هرم

هو هرم بن سنان بن أوى حارثة المرى كان من سادات بنى مُرة بن عوف ولكن أخاه خارجة بن سنان كان أسود منه وأشهر فى الناس فلما وقع لزهير بن أبي سلمى فى هرم ما وقع من المدح فاق خارجة بل لا يكاد يذكر معه ، ومن جيد شعره قوله فيه :

إنّ الخليط أجْدُ البين فانفرقا وعلق القلبُ من أسماء ماعلقا
وأخلفتك ابنت البكري ما وعدت فأصبح الحبل منها واهناً خلقا
قامت تراءى بذي ضال لتحزنني ولا محالة أن يشناق من عشقا

إلى أن قال :

بل اذكرن خير قيس كلها حسبا وخيرها نائلاً وخيرها مُخلقا
القائد الخيل منكوباً دوابرها قد احكمت حكمت القد والأبقا
يطلب شأو امرأين قدما حسبا نالا الملوك وبدأ هذه السوقا
هو الجوادُ فإن يلحق بشأويهما على تكاليفه فمثله لحقا
أو يسبقاه على ما كان من مهل فمثل ما قدما من صالح سبقا

أَغْرُ أبيضُ فياضٌ يفكُّكُ عن
فذاك أحزمهم رأياً إذا نبأ
فضل الجياد على الخيل البطاء فلا
وليس مانع ذي قُرْبَى وذو رحم
قد جعل المبتغون الخير في هرم
إن تلقى يوماً على عِلَاقَةٍ هَرماً
ليثٌ بعَثَرٌ يصطاد الرجال إذا
يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا
هذا وليس كمن يَغِيَا بخطته
لو نال حَيٍّ من الدنيا بمنزلة

أَيْدِي العِناة وعن أعناقها الرِّبَا
من الحوادث غادى الناس أو طرقا
يعطي بذلك ممنوناً ولا نزقا
يوماً ولا معدماً من خابط ورقاً
والسائلون إلى أبوابه طرقا
تلقى السماحة منه والندی خُلُقاً
ما كذب الليث عن أقرانه صدقا
ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا
وسط النَّدْيِ إذا ما ناطقٌ نَطَقاً
وَفَقَّ السماء نالت كفه الأفقا

ويروى أن عمر — رضى الله عنه — استنشدتها كعب بن زهير فاستحسنها
وقال : بماذا أجازكم ؟ قال بمائة ناقة وجبة بيعت بمائة ناقة وأقسم أن لا يسلم عليه
زهير إلا أعطاه مائة ناقة ، فصار زهير لذلك إذا قدم مجلساً هو فيه يقول خوفاً من
أن يخرج به : عموا صباحاً إلا هراً وخيركم تركت .

ومن جيد شعره فيه وفي ابن عمه الحارث بن عوف بن أبى حارثة يذكر
سعيهما في صلح عبس وذبيان من حرب داحس والغبراء وتحملهما الحماله في ذلك
قوله وهو من معلقته التى مطلعها :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالتمثلم
إلى أن قال :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله
يميناً لنعم السيدان وُجدُثُما
تداركتما عبساً وذبيان بعدما
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً

تَبَزَّل ما بين العشيرة بالدم
رجال بنوه من قريش وجُرْهُم
على كل حال من سحيل ومبرم
تفانوا ودَقُّوا بينهم عطر منشم
بمال ومعروف من القول نسلم

فأصبحتا منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
 عظيمين في عليا معد وغيرها ومن يستبح كثرأ من المجد يعظم
 فأصبح يجري فيهم من تلادكم مغام شتى من إفال مُرّيم
 تُعفى الكلوم بالمئين فأصبحت يُنجمها من ليس فيها بُمجرم
 يُنجمها قوم لِقوم غرامة ولم يُهرقوا بينهم ملء منجم
 هذا وأخبار مدحه له طويلة جميلة والمقام مقام اختصار وبالله التوفيق .

ذكر المخلق

وأما المُخلَقُ على وزن معظم خلافاً للجوهري فهو أبو مَسْمَع عبد العزى بن
 خيثم بن شداد بن ربيعة بن عبد الله بن عبيد وهو أبو بكر بن كلاب بن ربيعة بن
 عامر بن صعصعة العامري ثم الكلابي ، وقد كان رجلاً مقلأً من المال فمر به
 الأعشى في بعض السنين ذاهباً إلى سوق عكاظ فقالت له أمه إن أبا بصير رجل
 مجود في شعره وأنت رجل خامل مقل ولك بنات قيل عشر وقيل ثمان فلو سبقت
 إليه وأكرمته رجونا أن يكون لك منه خير فبادر المخلق إليه وأنزله ونحر له وسقاه
 الخمر فلما أخذت الخمر منه شكاً إليه حاله وحال بناته فقال له ستكفي أمرهن
 فلما أصبح غدا إلى سوق عكاظ فقام وأنشد قصيدته التي يقول فيها :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وماني من داء وماني معشوق
 ولكن أرائى لا أزال بحادث أغادى بما لم يُنسى عندي وأطرق
 فكم دون سلمى من عدو وبلدة وسهب به مستوضح الآل يرق
 وإن امرأ أسرى إليك ودونه سُهوّب ومومة وبيداء سملق
 لحقوقة أن تستجيبى لصوته وأن تعلمى أن المُعان موفق

إلى أن قال :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار في يفاع تحرق
 تُشب لمقرورين بصطليانها وبات على النار الندى والمخلق

رضيى لبان ثدى أم تحالفا
تري الجود يسري سائلاً فوق وجهه
نفى الذم عن آل المخلق جفنه
تري القوم فيها شارعين وبينهم
بأسحم داج عَوْضُ لا تنفرك
كما زان متن الهندواني رونق
كجاية الشيخ العراقي تدفق
شيوخ وولدان من الحي دردق

إلى أن قال :

أبا مسمع سار الذي قد فعلتم
وإن عتاق العيس سوف يزورك
به تنفض الأحلاس في كل منزل
يداك يدا صديق فكف مبيرة
كذلك فافعل ماحيت إذا شتوا
فأنجد أقوام بذاك وأعرفوا
ثناء على أعجازهن معلق
وتعقد أطراف الحبال ويطلق
وكف إذا ماضن بالمال تنفق
وأقدم إذا ما أعين الناس تفرق .. الخ

فلم يفرغ من إنشادها حتى تسارع الأشراف يخطبون بناته فما باتت واحدة
منهن إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها بكثير ، وفي قصته روايات غير هذا والله
تعالى أعلم .

[وَكَمْ وَكَمْ حَطَّ الْهَجَا مِنْ مُاجِدِ ذِي رُتْبَةٍ قَعَسَا وَقَدِرِ سَمِقِ]
[مَثَلُ الرَّبِيعِ وَبَنَى الْعَجَلَانِ مَعَ بَنِي لُغَيْرِ جَمَرَاتِ الْحَدَقِ]

الرتبة القعساء أي الثابتة والرجل الأقعس أي المنيع ، والقدر السمق أي العالي
المرتفع يقال سَمَقَ سُوقًا إذا علا وطلال .

ومعنى البيتين واضح لا إشكال فيه وفي معناهما قال ابن سكرة يهجو بعض

الرؤساء :

تَهَتْ عَلَيْنَا وَلَسَتْ فِينَا وَلِيَّ عَهْدٍ وَلَا خَلِيفَةَ
قَتَ وَزْدَ مَا عَلَى جَارٍ يُقَطِّعُ عَنِّي وَلَا وَظِيفَةَ
وَلَا تُقْلَ لَيْسَ فِي عَيْبٍ قَدْ تُقَذِّفُ الْحُرَّةُ الْعَفِيفَةَ

الشَّعْرُ نَارٌ بِلَا دُخَانٍ وَلِلْقَوَافِي رُقْيٌ لَطِيفَةٌ
كَمْ مِنْ ثَقِيلٍ أَهْلَ سَامٍ هَوَتْ بِهِ أَحْرَفٌ لَطِيفَةٌ
لَوْ هُجِيَ الْمِسْكُ وَهُوَ أَهْلٌ لِكُلِّ مَدْحٍ لَصَارَ جِنَّةً

ذكر الربيع وسبب انحطاطه

هو الربيع بن زياد بن عبد الله بن سفيان بن ناشب بن هرم بن عوذ بن قطيعة بن عيس بن بغيض بن ريث بن غطفان الغطفاني ثم العبسي ، وأمه فاطمة بنت الحُرْشُبِ الأُمَيَّة أُمُّ بغيض وهي إحدى المنجبات .

كان يقال لبنيها الكلمة وهم : الربيع الكامل ، وقيس الحافظ ، وعمارة الوهاب ، وأنسُ الفوارس .

وكان سبب انحطاطه أنه وفد ملاعب الأُسنة وهو عامر بن مالك بن جعفر ابن كلاب وإخوته معاوية وطفيل وعبيدة ومعهم ابن أخيهم لييد بن ربيعة وهو يومئذ غلام ، وفدوا على النعمان بن المنذر فوجدوا عنده الربيع بن زياد العبسي وكان عدواً لهم ، فلما رأى إكرام الملك لهم جعل يحط من قدرهم حتى حط منه عند الملك ، وكان لييد يجلس في رحلهم ويرعى لهم إبلهم فسمعهم يوماً يتكلمون في أمر الربيع وما يلقون منه ويقال إنه سمعهم يقولون ارجعوا بنا إلى أهلينا ولا نعرض أحسابنا لهذا الكلب يضحك الوفود منا ، فسأهم لييد فكتموا ، فقال والله لا رعيت لكم ولا حفظت لكم رجالكم تخبروني ، وكانت أم لييد امرأة من عبس يتيمة في حجر الربيع بن زياد ، فقالوا خالك غلبنا على الملك وصد عنا وجهه ، فقال لييد هل تقدرون علي أن تجمعوا بيني وبينه فأزجره عنكم بقول ممض فلا يلتفت النعمان إليه أبداً ؟ فاخبروه فوجدوه مستعداً كل الاستعداد فلما أصبحوا ذهبوا به إلى الملك بعدما حلّقوا رأسه وتركوا له ذؤابة وألبسوه حلة فانتهوا به إلى النعمان وهو في قبة وحوله الناس ومعه الربيع بن زياد يؤاكله فتداه لييد من وراء القبة قائلاً :

أَنَامَ أُمُّ يَسْمَعُ رَبُّ الْقُبَّةِ يَا أَوْهَبَ النَّاسِ لِعَنِي صُلْبُهُ
ذَاتِ هَبَابٍ فِي يَدَيْهَا حُذْبَةٌ ضَرَابَةٌ بِالْمَشْفَرِ الْأَذْبَنَةِ
فِي لَحَبِ كَأَنَّهُ الْأُطْبَةُ :

فلما سمع النعمان ذلك أذن لهم فدخلوا فناداهم إلى المائدة وبسط يده إلى
الطعام وبسط الربيع يده أيضاً ، فقال لبيد يخاطب النعمان :

أَكَلُ يَوْمِ هَامَتِي مُقَزَّعَةٌ يَا رَبُّ هَيْجَا هِيَ خَيْرٌ مِنْ دَعَةٍ
يَا وَهَبَ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ مِنْ سَعَةٍ نَحْنُ بَنِي أُمِّ الْبَنِينَ الْأَرْبَعَةِ
نَحْنُ خِيَارُ عَامِرِ بْنِ صَعَصَعَةٍ الْمُطْعَمُونَ الْجَفْنَةُ الْمُرْعَزَعَةُ
وَالضَّارِبُونَ الْهَامَ تَحْتَ الْخَيْضَةِ إِلَيْكَ جَاوَزْنَا بِلَاداً مُسَبَّعَةً
نُخْبِرُ عَنْ هَذَا خَيْرًا فَاسْمَعِ مَهْلًا أَبَيْتَ اللَّعْنَ لَا تَأْكُلْ مَعَهُ
فَاسْتَه مِنْ بَرَصٍ مُلَمَّعَةٍ وَإِنَّهُ يُدْخِلُ فِيهَا أَصْبَعَهُ
يُدْخِلُهَا حَتَّى يَوَارِيَ أَشْجَعَهُ كَأَنَّمَا يَطْلُبُ شَيْئاً ضَيْعَةً

فلما فرغ من إنشاده نظر النعمان إلى الربيع شزراً يرُمُّه وقال أكذلك أنت ؟
قال لا والله لقد كذب على ابن الأحمق اللئيم ، فقال النعمان أف لهذا الطعام لقد
خَبِثَتْ عَلَيَّ طَعَامِي يَا غَلَامَ ، فقال الربيع أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَمَا إِنِّي لَقَدْ فَعَلْتُ بِأُمِّهِ ، مَالِ
لِبِيدِ أَنْتَ لِهَذَا الْكَلَامِ أَهْلٌ وَمِثْلُكَ فَعَلَ بِابْنَةِ عَمِّهِ وَرَبِيبَتِهِ فِي حَجَرِهِ ، فقال ضمرة
ابن ضمرة الدارمي كلاماً ينصر به الربيع فقال له لبيد :

يَا ضَمْرُ يَا عَبْدَ بَنِي كِلَابٍ وَيَا ابْنَ كَلْبٍ عَلَيَّ بِالْبَابِ
أَكَانَ هَذَا أَوَّلُ الثَّوَابِ لَا يَغْلِقُنْكُمْ ظُفْرِي وَنَابِ
إِنِّي إِذَا عَاقَبْتُ ذُو عِقَابٍ

وكان ضمرة أسره بنو كلاب رهط لبيد فمِنُوا عَلَيْهِ وَأَطْلَقُوهُ فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ
قَالَ لَهُ مَا قَالَ .

ثم إن الربيع بن زياد انصرف من مجلس الملك إلى رحله فبعث إليه النعمان

بضعف ما كان يصله به كل عام وأمره بالرحيل عنه ، فأرسل إليه الربيع إلى قد
تخوفت أن يكون قد وقر في صدرك ما قاله ليبد ولست ببارح حتى تبعث إلى من
يجردني فيُعَلِّم من حضرك من الناس أني لست كما قال ، فبعث إليه النعمان : إني
لست صانعا بانتفائك مما قال ليبد شيئا ولا قادراً على ما زلت به الألسن فالحق
بأهلك فارتحل فلما وصل إلى بيته أرسل إلى النعمان بهذه الأبيات :

لكن رحلت جمالي إن لي سعةً مامثلها سعةً عَرَضاً ولا طولاً
بحيث لو وزنت لحمٍ بأجمعها لم يعدلوا ريشةً من ريش هُمويلا
ترعى الروائم أحرار البقول بها لا مثل رعيكم ملحاً وُغويلا
فأبرق بأرضك يانعمان متكئاً مع النطاسي طوراً وابن نوفيلا
فأجابه النعمان قائلا

شَرُّدٌ برحلك حيث شئت ولا تكثر عليّ ودع عنك الأباطيلا
فقد رميت بداء لست غاسله ماجاوزت مصرَ أهل الشام والنيلا
فما انتفاؤك منه بعدما جزعت هوجُ المطي به إبراق شمليلا
قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا فما اعتذارك من قول إذا قيل
فالحق بحيث رأيت الأرض واسعةً وانشر بها الطرق إن عَرَضاً وإن طولاً
قالوا ولم يُدِ الربيع بحضرة النعمان بعدها

فائدة : في حل بعض ألفاظ رجزه المتقدم : قوله : عَنَسَ صُلْبُهُ يعني ناقة
شديدة وهَبَاب ككتاب السرعة وتُحْدِبة بضم الحاء هوج والأذْبَةُ جمع ذباب
والأُطْبَةُ جمع طبابة وهي قطعة من آدم شبه بها الطريق

وقوله نحن بنى أم البنين الأربعة ، فأم البنين هي ابنة عمرو بن عامر فارس
الضحياء وهي إحدى المنجبات ، ولدت لمالك بن جعفر بن كلاب عامراً أبا براء
وهو ملاعب الأسِنَّة ، وطفيل الخيل فارس قُرْزُل وهو والد عامر بن الطفيل وربيعه
المقترين والد ليبد « رضى الله عنه » وسلمى نزال المضيف ومعاوية موعود
الحكماء .

لطيفة : يُحكى عن بعض شيوخ تونس أنه اشتكت إليه امرأة سوء عشرة زوجها وهو رجل من الأندلس أساء عشرتها وعسر عليها التخلص منه فقال لها الشيخ ادّعي عليه أن بإسته برّصاً ففعلت فحكم القاضي عليه أن يتكشف لينظره الأطباء في ذلك المحل فلما رأى الزوج أن الأمر أفضى به إلى هذه الغاية طلقها وتخلصت منه بهذه الحيلة ، ولعل الشيخ الذى أشار إليها بذلك انتزع الفكرة من قصة لبيد هذه مع الربيع بن زياد والله أعلم .

ذكر بني العجلان وحط الهجاء لهم

وبنو العجلان بن عبد الله بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، لقب أبوهم بالعجلان لتعجيله القرى للضيوف فيما قيل فكانوا يفتخرون بهذه النسبة ويتبجحون بها حتى هاجاهم النجاشي الشاعر واسمه قيس بن عمرو الحارثي أحد بني الحارث بن كعب فقال :

إذا الله عادى أهل لؤم وذقة فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل
قُبِيلَةٌ لَا يَخْفَرُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلَمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ
وَلَا يَرُدُّونَ الْمَاءَ إِلَّا عَشِيَّةً إِذَا صَدَرَ الْوَرَادُ عَنْ كُلِّ مَنْهَلٍ
تُعَافُ الْكِلَابُ الضَّارِيَاتِ لِحَوْمِهِمْ وَتَأْكُلُ مِنْ كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ وَنَهْشَلٍ
وَمَا سَمِيَ الْعَجْلَانُ إِلَّا لِقَوْلِهِمْ تُحِذُ الْقَعْبَ وَاحْلُبُ أَيُّهَا الْعَبْدُ وَاعْجَلْ

قد ذكر الرواة أن بني العجلان اتضعوا بهذا الشعر بعد رفعتهم وذلوا بعد عزتهم حتى صاروا يفرون من الانتساب إلى العجلان وجعل أحدهم إذا سئل عن نسبه يقول كعبي مخافة أن يسخر منه .

وقد اشتكوا النجاشي إلى عمر بن الخطاب « رضي الله عنه » وقالوا إنه هجانا ، فقال ماذا قال لكم ، فأنشدوا البيت الأول ، فقال لقد دعا عليكم ولعله لا يستجاب له ، فأنشدوه البيت الثانى ، فقال عمر ليتني من هؤلاء ، فأنشدوه البيت الثالث ، فقال فذلك أصفى للماء وأقل للركاب ، فأنشدوه البيت الرابع ،

فقال عمر كفى ضياعاً بمن تأكل الكلاب لحمه ، فأنشدوه البيت الأخير ، فقال
عمر كلنا عبد وخير القوم خادهم ، فقالوا بل يأمر المؤمنين إنه هجانا فقال
ما أسمع هجوا فقالوا : سل حسان فلما سأله قال إنه سلح عليهم فسجنه عمر
« رضى الله عنه » وقيل بل جلده و« الله تعالى أعلم » .

ذكر بنى نمر وخط الهجاء لهم

وأما بنو نمر فهم أيضاً بطن من عامر بن صعصعة وكانوا من العز والمنعة
بمكان وناهيك أنهم إحدى جمرات العرب لم يحالفوا أحداً لعزتهم وقوتهم فكان
الرجل منهم إذا سئل عن نسبه قال من بنى نمر وفخّم بها صوته وأمال عُقْقه إدلالاً
بعزته وافتخاراً بمنعته حتى هجا جرير شاعرهم الراعي فهجاهم معه بقصيدته التى
سمّاها الدُّمَغة والى مطلعها :

أقلى اللوم عاذلً والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا
والى يقول فيها :

فَقُضُّ الطرف إنك من نمر فلا كعباً بلغت ولا كلابا
ولو وضعت شيوخ بنى نمر على الميزان ماعدلت ذبابا

قال المؤرخون : فلم يرفعوا بعدها رأساً ولم تلق قبيلة من العرب بهجو ما
لقيت نمر من هجو جرير حتى صاروا يفرون من الانتساب إلى نمر ويتسبون إلى
عامر الجَد الأعلى .

وكان سبب هجاء جرير للراعي كما يروى عن الأصمعى أن عبيد بن حصين
التميري الملقب بالراعى ، ولقب به لكثرة وصفه الإبل وإصابته فى وصفه ، كان
يقضى للفرزدق على جرير ويفضله عليه ومن ذلك قوله فى قصيدة له :
يا صاحِبى دنا الرواح فسيرا غلب الفرزدق فى الهجاء جريرا
وقال أيضاً فى قصيدة أخرى

رأيت الجحش جحش بنى كليب تيمم خوض دحلة ثم هابا

وكان الراعى من أشعر الناس فلما أكثر في تفضيل الفرزدق على جرير خرج جرير إلى رجال من قومه فقال ألا تعجبون لهذا الرجل الذى يقضى للفرزدق علىّ وهو يهجو قومه وأنا أمدحهم ثم إن جريرا تحين الفرص للقاء الراعى فمر عليه يوما وهو راكب على بغلة وابنه جندل يتبعه على مهر له أحوى مخوف الذنب فلما استقبله جرير قال مرحبا بك أبا جندل إن قولك ليستمع وإنك تفضل على الفرزدق تفضيلا قبيحا وأنا أمدح قَوْمَكَ وهو يهجوهم وهو ابن عمى دونك ويكفيك من ذلك إذا ذكرنا أن تقول كلاهما شاعر كريم ولا تتحمل منى ولا منه لائمة فيينا جرير والراعى كذلك إذ أقبل ولده جندل وضرب بالسوط بغلة والده قائلا : لأراك واقفا على كلب من بنى كليب كأنك تخشى منه شرا أو ترجو منه خيرا ، فزحمت البغلة جريرا حتى سقطت قلنسوته ، قال جرير : والله لو عرج على الراعى لقلت إنها هفوة من سفيه يعنى جندلا ولكن الراعى لم يعرج عليه ، فأخذ جرير قلنسوته فمسحها وردّها لخلها فقال الراعى لولده أما والله لقد طرحت قلنسوته طرحة مشعومة ، فانصرف جرير مغضبا إلى منزله حتى إذا صلى العشاء قال لأهله : ارفعوا إلى باطية من نبيذ وأسرجوا لى فأسرجوا له ورفعوا إليه باطية من نبيذ قال فجعل يهمهم فسمعت صوته عجوز فى الدار فأطلعت فى الدرجة حتى نظرت إليه فإذا هو يجبو على الفراش عريانا لما هو فيه فأنحدرت فقالت ضيفكم مجنون رأيت منه كذا وكذا فقالوا لها نحن أعلم به وبما يمارس فما زال كذلك حتى كان السحر فإذا هو يكبر قد قالها ثمانين بيتا فى بنى نمر فلما بلغ إلى قوله : فغُضُّ الطرف إنك من نمر البيت ، فذلك حين كبر ثم قال أخزيته ورب الكعبة فقد قدمت أخويه عليه والله لا يفلح بعدها أبداً .

ثم أصبح حتى إذا عرف أن الناس قد أخذوا بمجالسهم وكان يعرف مجلس الراعى والفرزدق فقصده مجلسهما حتى إذا كان بموقع السلام قال يا غلام قل لعبيد يعنى الراعى بَعَثْتُكَ نَسْوَتَكَ إلى العراق تكسبن المال أما والذى نفس جرير بيده لترجعن إليهن بمر يسوءهن ولايسرهن ثم اندفع فى القصيدة ينشدها فنكس

الفرزدق رأسه وأطرق الراعى فلو انشقت له الأرض لساخ فيها حتى إذا فرغ منها سار فركب الراعى بغلته وصعد إلى منزله وتفرق المجلس فقال لأصحابه ركابكم ركابكم فليس لكم هاهنا مقام فضحكهم والله جرير فقال بعض القوم ذلك من شؤمك علينا وشؤم ابنك فقال فما كان إلا ترحلكم فرحلوا إلى أهلهم وساروا سيرا حثيثا وهم بالشريف بأعلى ديار بنى نمر فيحلف بالله راعى الإبل أنهم وجدوا في أهلهم قول جرير فغض الطرف إنك من نمر البيت يتناشده الناس وأقسم بالله ما بلغه إنسى قط وإن لجرير لأشياء من الجن ، فتشاءمت به بنو نمر وسبوا ابنه وطردوه وعلم الراعى أنه قد أساء وندم وتزعم بنو نمر أنه مات قبل انقضاء السنة ويقول غيرهم إنه مات كمدا و« الله تعالى أعلم » .

لطيفة : يحكى أن مولى لباهلة كان يرد سوق البصرة فيسخر منه بنو نمر فذكر ذلك لمواليه فقالوا له إن نبزك واحد منهم فقل له فغض الطرف إنك من نمر البيت فلما عاد إلى السوق سخروا منه ونبزوه فأراد يقول البيت فنسيه فجعل يقول غص عينيك والإجاءك ماتكره فكفوا عنه وعلموا أنه قد عرف قول جرير فيهم .

ويحكى أيضاً أن امرأة مرت بقوم من بنى نمر فأخذوا ينظرون إليها ويتواصفونها فقالت قبحكم الله يا بنى نمر ما امثلتم في واحدة من اثنتين لاقول الله تعالى ﴿ قل للمؤمنين يفضوا من أبصارهم ﴾ (١) ، ولا قول جرير : فغض الطرف إنك من نمر :

فأبلسوا وتفرقوا . و« الله أعلم » .

تتمة : قال أبو عبيدة في كتاب الديباج : جمرات العرب ثلاث بنوضبة بن أد ابن طابخة ، وبنو الحارث بن كعب بن غلة ، وبنو نمر بن عامر بن صعصعة ، فطفئت منهم جمرتان : طفئت ضبة لأنها حالفت الرباب ، وطفئت بنو الحارث بن كعب لأنها حالفت مذحج ، فالجمره إذاً في اصطلاح العرب كل قبيلة انضمت

(١) النور الآية (٣٠)

على نفسها فكانت يدا واحده ولم تحالف غيرها وأما من حالف غيره فليس
بجمرة .

وبقيت نمر لم تطفأ لأنها لم تحالف غيرها ولذا قال شاعرهم :

نميرٌ جمرة العرب التي لم تزل في الحرب تلهب التهاها
وقال بعضهم إن جمرات العرب ثلاث : ثنتان في مضر وهما بنوضبة بن أد بن
طابخة وبنو عيس بن بغيض ، وواحدة في اليمن وهم بنو الحارث بن كعب بن علة
الذين منهم بنو عبد المدان أشراف اليمن .

ومن عجيب الصدف كون الثلاثة إخوة لأم وهى امرأة من اليمن رأت في
منامها أنها خرج من فرجها ثلاث جمرات فولدت الحارث بن كعب بن علة وضبة
ابن أد بن طابخة وعيسا بن بغيض من ثلاثة أزواج وه الله تعالى أعلم .

[لَوْ لَمْ يَكُنَ لِلشَّعْرِ عِنْدَ مَنْ مَضَى فَضْلٌ عَلَى الْكَعْبَةِ لَمْ يُعْلَقِ]

أما هذه الحجة التى يحتج بها الناظم على فضل الشعر فهى داحضة لأنها فخر
جاهلى واحتجاج بعمل أهل الجاهلية وقد قال ﷺ : « إن الله أذهب عنكم نخوة
الجاهلية وتعاظمها بالآباء » أو كما قال ﷺ .

ذكر المعلقات وما قيل فيها

قال ابن خلدون إن الشعر كان ديوان العرب فيه علومهم وأخبارهم
وحكمهم وكان رؤساء العرب يتنافسون فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده
وعرضه على أهل الخبرة والبصيرة فيه ليميز غثه من سمينه وجيده من رديئه حتى
انتهوا بذلك إلى تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت أبيهم
إبراهيم ﷺ .

وقال غيره إنما سميت المعلقات لأن العرب فى الجاهلية كان الرجل منهن يقول
الشعر فى أقصى الأرض فلا يعبأ به ولا ينشده أحداً حتى يأتى مكة فيعرضه على

أُندية قريش فإن استحسنوه رُوي وكان فخراً لقائله ، وإن لم يستحسنوه طرح ولم
يعبأ به ، وقال بعضهم إن أحد أمراء بني أمية أمر من اختار له سبع قصائد فسامها
المعلقات وهي : معلقة امرئ القيس التي مطلعها :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
ومعلقة طرفة بن العبد ومطلعها

لخولة أطلال بريقة نهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
ومعلقة زهير بن أبي سلمى ومطلعها

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمثلـم
ومعلقه لبـيد « رضى الله عنه » ومطلعها

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غوها فرجامها
ومعلقة عمرو بن كلثوم ومطلعها

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمر الأندرينا
ومعلقة عنتره بن شداد ومطلعها

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
ومعلقة الحارث بن حلزة الشكري ومطلعها

آذنتنا بينا أسماء رب ثاو يمل منه الشواء
قلت : ومعلقة النابغة الذبياني ومطلعها :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

وكذلك معلقة علقمة بن عبدة ومعلقة الأعشى فتم بها المعلقة عشرًا وقد
نعاطاها الأدباء بالدرس والشرح وأعطوها كل عنايتهم وبالله تعالى التوفيق .

[لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ بَيَانُ آيَةٍ مَا فُسِّرَتْ مَسَائِلُ ابْنِ الْأَزْرَقِ]

ومجمل معنى البيت أن من فضائل الشعر أنه يتوصل به إلى تفسير كتاب
الله ، فقد ذكر المفسرون أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب « رضى الله عنه » قال

على المنبر أيها الناس ما تقولون في قوله تعالى ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ (١) ؟ فسكتوا فقام رجل من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف النقص ، قال فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال نعم قال شاعرنا أبو كبير الهذلي في وصف ناقته :
تخوف الرجل منها تامكا قرداً كما تخوف عود الثبغة السفن
فقال عمر رضي الله عنه أيها الناس عليكم ديوانكم لاتضلوا ، قالوا وما ديواننا ؟ قال شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ؛ وقوله السفن بفتح السين والفاء المبرد ، وذكر أبو بكر ابن الأنباري أنه جاء عن الصحابة والتابعين كثيراً الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر .

وأنكر جماعة لا علم لهم على النحويين ذلك ، وقالوا إن فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن ، قالوا : وكيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن وهو مذموم في القرآن والحديث ؟ والأمر ليس كما زعموا فلم نجعل الشعر أصلاً للقرآن ولكننا نريد تبين الحرف الغريب في القرآن بالشعر لأن الله تعالى قال ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (٢) وقال تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (٣) وقال ابن عباس : الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه ، ومسائل ابن الأزرقي الآتية خير دليل على صحة ذلك والله الموفق

ذكر مسائل ابن الأزرقي

ذكر السيوطي في الإتيان بسنده إلى أبي بكر بن محمد قال بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفته الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، قال نافع ابن الأزرقي لنجدة الحروري وهو نجدة بن عويم قُم بنا إلى هذا الذي يجترىء على

(١) النحل الآية (٤٧)

(٢) الزخرف الآية (٣)

(٣) الشعراء الآية (١٩٥)

تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما إليه فقالا له إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله تعالى فتفسرها لنا وتأتينا بما صدقه من كلام العرب فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين ، فقال ابن عباس : سلانى عن ما بدا لكما ، فقال نافع : أخبرنى عن قوله تعالى ﴿ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ ^(١) قال العزون خلق قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ! أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يُهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا
قال أخبرنى عن قوله تعالى ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ ^(٢) ؟ قال الوسيلة الحاجة ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ! أما سمعت عنبرة وهو يقول :

إن الرجال لهم إليك وسيلة أن يأخذوك تكلى وتخضبى
قال فأخبرنى عن قوله تعالى ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ^(٣) ؟ قال الشريعة الدين والمنهاج الطريق ، قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ! أما سمعت أبا سفيان ابن حرب يقول :

لقد صدق المأمون بالصدق والهدى وبين للإسلام ديناً ومنهاجاً
ولقد تتبعها السيوطى فى الإتقان مسألة مسألة وكذلك أبو عبد الله القرطبى فى تفسيره فانظر أيهما إن شئت للوقوف على تفصيلها و« الله تعالى الموفق » .

[مَا هُوَ إِلَّا كَالْكِتَابَةِ وَمَا فَضْلُهُمَا إِلَّا كَشَمْسِ الْأَفْقِ]
[وَإِنَّمَا نُزُّهُ عَنْهُمَا النَّبِيُّ لِيُذَكِّرَ الْإِعْجَازَ بِالْتَحْقِيقِ]

أما الكلام فى فضل الكتابة والشعر فهو طويل معروف
وأما تنزيه النبى ﷺ عن الكتابة والشعر ، فقد قال تعالى ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ

(١) المعارج الآية (٣٧)

(٢) المائدة الآية (٣٥)

(٣) المائدة الآية (٤٨)

الشعر وما ينبغي له ^(١) وقال تعالى ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا
تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون﴾ ^(٢) ، ولا التفات إلى من جوزوا عليه
الكتابة بعد تحقق المعجزة فإن النصوص الصريحة تأباه وإن قال به أبو الوليد الباجي
من أجلاء علماء المالكية وقد شنع عليه العلماء في زمنه حتى رموه بالزندقة لأنه
قال بقول يخالف القرآن العظيم ولذا قال قائلهم :

برئت ممن شرى دنيا بآخرة وقال إن رسول الله قد كتب
والحق الذي لا غبار عليه أن رسول الله ﷺ استمر على وصف الأمية كما هو
ظاهر القرآن ، ولقوله ﷺ إنا أمة أمية ، وحديث البراء عند البخاري في
صحيحه في قصة الحديبية مصرح بأنه كان أميا غير محسن للكتابة ولذا قال لعل في
الرواية الأخرى : أرنيه لما امتنع من محو اسمه ﷺ فلو كان يعرف موضع الحروف
أو التهجي لما سأله إراءته ، « والله أعلم » .

[فِهِمْ بِهِ فَإِنَّهُ لَا شَكَّ عَنْ حَوَانُ الْحِجَا وَالْفَضْلِ وَالتَّحَذُّقِ]

فِهِمْ أَمْرٌ من الهيمان بالتحريك وهو العشق ومراده به أقبل على الشعر
واعكف عليه عكوف العاشق على معشوقه ، ولا يخفى أنه قدم قوله : فقله غير
مكرر منه البيت ، والحجا بالقصر والمد العقل والفتنة ، والتَّحَذُّقُ بالحاء المهملة
والذال المعجمة مصدر تحذلق الرجل إذا أظهر الحذق وأدعى أكثر مما عنده
كحذلق ، وقال الخليفة المهدي يوما لأبي العتاهية : أنت رجل متحذلق معته فمن
ثم سمي أبا العتاهية ، والمعته كمعظم العاقل المعتدل الخلق كذا في القاموس .

تُكْنَةُ : إنما سُمي الشاعر شاعرا لشعوره بما لا يشعر به غيره لأنه يهتدى إلى
مواقع المدح والهجاء ويتقلب في أفانين الكلام فيأتى بالسحر الحلال ، وينطق بل
يطوق بأجمل من سمط اللال ، فكل من لم يهتد إلى تلك المعاني لا ينبغي أن يقال له
شاعر لأنه يعلم شيئا من العروض وأوزان الكلام فمثل ذلك ينبغي أن يقال له

(١) يس الآية (٦٩)

(٢) العنكبوت (٤٨)

وزان فقط وأما شاعر فلها مدلول لا تستحق بدونه .

[وَهُوَ إِكْسِيرٌ وَتَذِيرٌ لِمَنْ رَامَ اصْطِيَادَ وَرَقٍ بِوَرَقٍ]
[مِنْ غَيْرِ تَقْطِيرٍ وَتَصْعِيدٍ وَتَكْ لَيْسَ وَتَرْطِيبٍ وَقَتْلٍ زَيْبِقٍ]

مراده بهذين البيتين تفضيل الشعر من حيث الاكتساب به على صناعة الكيمياء وهي المراد عنده بالإكسير لأن أربابها يتعاطونها من غير حصول منها على طائل وهو هراء لا يُلتَفَتُ إليه ، انظر الأصل في هذا البحث تجد ما يفند لك زعم الناظم .

[وَكُنْ لَهُ رَاوِيَةً كَالْأَصْمَعِيِّ وَالْجَهْلُ أَوْلَى بِالَّذِي لَمْ يَصْدُقِ]

ومراده بهذا البيت أن من لم يصدق النية ويخلصها لله في طلب العلم فالجهل أولى به ، فينبغي لطالب العلم أن يخلص النية لله تعالى وأن يزين طلبه بالتقوى فإن الله تعالى يقول ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ ﴾ وفي الأثر « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

قلت : قال العلامة محمد العاقب بن عبد الله بن مايا الجكني ثم اليوسفي الشنقيطي في نظم المسائل :

من طلب العلم احتساباً وابتغا رضا العليم فاز بالذي ابتغى
ومن به نهج المباحاة سلك وطن نفسه على خير هلك
وطالب الدنيا به إذا درى خسة قصده الخسيس خاطرا
فإن يتب قبل الممات سلما من خطر الذنب وإلا أسلما

ذكر الأصمعي رحمه الله

الأصمعي هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمعي الباهلي وهي امرأة من همدان تزوجت معن بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر فنسب ولدها إليها .

وكان الأصمعي قد نشأ بالبصرة وأخذ عن أئمتها وسمع من شعبة بن الحجاج والحمادين وغيرهم وروى عنه أبو عبيد القاسم بن سلام وأبو الفضل الرياشي وأبو حاتم السجستاني وغيرهم ؛ قال ابن خلكان : كان الأصمعي إماما في الأخبار والنوادر والملح والفرائب ، صاحب لغة ونحو ، وقال غيره : كان صاحب غرائب الأشعار وعجائب الأخبار وقدوة الفضلاء وقبلة الأدباء صاحب ديانة متينة وعقل رصين وكان خاصا بالرشيد حظيا عنده آخذا لإصلاحاته .

قال الربيع بن سليمان : سمعت الشافعي يقول : ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي ، وقال ابن خلكان قال الأصمعي : حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل بن الربيع فقال لي كم كتابك عن الخيل ؟ قلت مجلد واحد ، وقال لأبي عبيدة فقال خمسون مجلدا ، فقال له قم إلى هذا الفرس وأمسك عضوا عضوا منه وسمه ، فقال لست بيطارا وإنما هذا شيء أخذته عن العرب ، فقال لي قم يا أصمعي وافعل أنت ذلك فقمتم وأمسكت بناصيته وشرعت أذكره عضوا عضوا وأضع يدي عليه وأنشد ما قالت العرب فيه إلى أن فرغت منه ، فقال خذه وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه .

ولقد حرص المأمون على الأصمعي وهو بالبصرة أن يسير إليه فامتنع واعتذر بالضعف وكبر السن فكان المأمون يجمع المشاكل من المسائل ويسير بها إليه ليجيب عنها .

ويحكى أن الأصمعي ركب حمارا دميما ذات يوم فقيل له تركب هذا بعد براذين الخلفاء ؟ فقال متمثلا :

ولما أبت إلا انصراما لودها وتكديرها الشرب الذي كان صافيا
شربنا برنق من هواها مكدر وليس يعاف الرنق من كان صاديا
هذا ، وأملك ديني أحب إلي من ذلك .

ونوادر الأصمعي كثيرة ، وكانت ولادته سنة اثنتين وعشرين ومائة وتوفي في صفر سنة ست عشرة ومائتين بالبصرة وقيل بمرور وله تأليف كثيرة رحمه الله .

[وَلَكَّ فِيمَنْ كَانَ مِثْلَ الْأُمُو يَ أُسْوَةٌ بِهَا اقْتَدَى كُلُّ نَقِي]

الأموى نسبة إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وهو بضم الهمزة على القياس وبفتحها على غير قياس وهو المشهور كما في المصباح ، والأسوه بكسر الهمزة وتضم كالقدوة وزنا ومعنى والافتداء الاتباع .

قصة الأموى ومن اقتدى به

أما الأموى فهو عبد الملك بن مروان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وأما من اقتدى به فهو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد العباسي رحم الله الجميع ، وكان من خبر اقتدائه به أن الرشيد ناظر يوما يحيى بن خالد البرمكي فيمن يعهد إليه بالأمر في ولديه المأمون والأمين فعرف يحيى أن أم جعفر زبيدة زوجة الرشيد لا تريد أن يعهد إلا إلى ولدها فأشار إليه به ، فاستحضر الرشيد الولدين وهما صبيان فأغرى بينهما فأسرع الأمين إلى المأمون فكان المأمون أحلمهما ، ثم إنه أمرهما أن يتصارعا فوثب الأمين وسكن المأمون فقال له الرشيد : مالك لاتقوم يا عبد الله ؟ أخفت ابن الهاشمية ؟ أما إنه لأيد فقال المأمون هو على ما ذكر أمير المؤمنين ولكننى لم أخفه وإنما قبض يدي عنه ماقبض لسانى حين أسمعني فقال له الرشيد : وما الذى قبض يدك ولسانك ؟ قال قول الأموى لبنيه :

انفوا الضغائن بينكم وتواصلوا	عند الأبعاد والحضور الشهود
بصلاح ذات البين طول بقاءكم	ودماركم بتقاطع وتفرّد
فلمثل ريب الدهر ألف بينكم	بتعاطف وتراحيم وتودّد
حتى تلين جلودكم وقلوبكم	لمسود منكم وغير مسود
إن القداح إذا جمع فرامها	بالكسر ذو حنق وبطش أيد
عزّت فلم تكسر وإن هي بُدّدت	فالوهن والتكسير للمتبدّد

فبكى الرشيد رقة لولده ثم التفت إلى الأمين وقال يا محمد ماأنت فاعل إن

صرف الله إليك أمر هذه الأمة ؟ فقال أكون مهديا يا أمير المؤمنين ، فقال
 الرشيد : إن تفعل فأهل لذلك أنت ، ثم أقبل على المأمون فقال يا عبد الله ما أنت .
 صانع إن صرف الله إليك أمر هذه الأمة ؟ فبكى حتى أبكى الرشيد وجلساءه
 وقال أعفني يا أمير المؤمنين من هذا السؤال قال لا بد أن تجيب فقال : إن قدر الله
 ذلك جعلت الحزن شعارا والحزم دثارا واتخذت سيرة أمير المؤمنين مشعرا
 لا تستحل حرماته ولا تبدل كلماته ، فأشار الرشيد إليهما أن انصرفا ثم أنشد بيت
 صخر بن عمرو بن الشريد

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان
 فقال يحى هيا الله لأمر المؤمنين من أمره رشدا . ا . ه .

[هَذَا هُوَ الْمَجْدُ الْأَصِيلُ فَاتَّبِعْ سَبِيلَهُ عَلَى الْجَمِيعِ ثَرْتَقِي]
 [وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ شَاعِرًا فَحَلًّا فَكُنْ مِثْلَ أَبِي الشَّمْقَمَقِ]
 [مَا جِلْتُ فِي الْعَصْرِ لَهُ مِنْ مِثْلِ سَيِّئِ أَبِي فِي مَغْرَبٍ وَمَشْرِقِ]
 مفردات الأبيات ظاهرة لا إشكال فيها

وأما أبو الشمقمق

فهو أبو محمد مروان بن محمد الكوفي الشاعر المشهور بأبي الشمقمق وهو
 مولى مروان بن محمد الحمار آخر خلفاء بني مروان ، وكان فحول عصره من
 الشعراء يتقون هجاءه ويصانعوته وله في ذلك نوادر ، منها أن بشار بن برد كان
 يعطيه سنويا مائتي درهم فأتاه في بعض السنين فقال هات الجزية يا أبا معاذ ، فقال
 ويحك أو جزية هي أيضا ؟ فقال هو ماتسمع فقال بشار : أأنت أفصح مني ؟ قال
 لا ، قال أفأعلم مني بمثالب الناس ؟ قال لا ، قال أفأشعر مني ؟ قال لا ، قال فلم
 أعطيك ؟ قال لئلا أهجوك ، قال إن هجوتني هجوتك فقال أبو الشمقمق أو كذا
 هو ؟ قال نعم فقل ما بذاك ، فقال أبو الشمقمق :
 إني إذا ماشاعر هجائيـة ولجج في القول له لسانـة
 أدخلت إسمه علانيـة بشار يا بشار

وأراد أن يقول يا ابن الزانية فوثب بشار فأمسك فاه وقال أراد والله أن يشتدنى ثم دفع إليه مائتي درهم .

ومن نوادره أنه جاء إلى سلم الحاسر يستسمحه فمنعه فقال اسمع ياسلم ماقلتة فيك :

حدثوني أن سلماً يشتكى جارة أئيرة
فهو لا يحسد شيئاً غير ابر في إست غيرة
وإذا سرك يؤملاً ياخليلى ثل خيرة
فقم ودع راهبك الأصـ لـح يقرع باب ديرة

فضحك منه سلم وأعطاه خمسة دنانير وقال أحب — جعلت فداك — أن تصرف راهبك الأصـلـع عن باب دينار .

وبالجملة فقد كان بذياً تخافه الشعراء لبذاءة لسانه ، فليت شعري لم يغري الناظم من يريد أن يكون شاعراً فحلاً أن يكون مثله ؟ فلا أكثر الله من مثل هذا في الناس وبالله التوفيق .

ذكر والد الناظم

وأما والد الناظم فهو الأديب أبو عبد الله محمد بن محمد بن ونان كان من أدباء دهره والأفذاذ في عصره ذا بديهة وفكاهة ورقة في مزاجه على الرغم من فقد حاسه سمعه فقد كان رحمه الله أصم غير أنه كان يفهم بالطف إشارة مالا يفهمه غيره بصريح العبارة حتى أنه كان يجيب على ما يكتبه أحد على أعضائه في الظلام وعما يرقمه الراقم في الهواء من كلام فهو لذلك كما قال الشاعر :

تشير له بلحظك من بعيد فيفهم طرفه عنك الإشارة

ولقد ذكر ولده أنه لجودة قريحته ، وغزارة مادته ، وحسن بديته ، لقبه أمير المؤمنين الممدوح بهذه القصيدة الآتي ذكره إن شاء الله بأبي الشمقم فقال :

[لَذَاكَ كُنَاهُ بِهِ سَيِّدَنَا السُّلْطَانُ عِزُّ الدِّينِ تَاجُ الْمَفَرِقِ]
[مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الرُّسُولِ خَيْرٌ مَنْ سَادَ بِحُسْنِ خَلْقِهِ وَالْخُلُقِ]
[أَعْنَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ابْنِ الْأَمِيرِ الْمُتَّقِيِّ]

السُّبُّطُ بالكسر ولد الولد ، وفي البيت الأخير نوع من البديع يقال له الاطراد وهو أن يذكر اسم الممدوح ولقبه وكنيته وصفته اللاتقة به واسم من أمكن من أبيه وجده وقبيلته ليزداد الممدوح تعريفا ، وشرط ذلك أن يكون في جملة من غير تكلف ومن شواهد قوله ﷺ : الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

التعريفُ بالسُّلْطَانِ الممدوح بهذه الأرجوزة

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن الشريف بن علي بن محمد ابن علي بن يوسف بن علي الشريف السجلماسي ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي « رضي الله عنهما » بويع له بالخلافة في المغرب الأقصى في صفر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف للهجرة ، كان رحمه الله من الدهاء بمكان وكان له اعتناء كبير بعلماء الشريعة لا يغيبون عن مجلسه إلا في وقت الضرورة يأمرهم بسرد الأحاديث ، وبتحرير المسائل ، وتحصيل المهمات ، وقد بسط مؤلف الأصل ترجمته في كتابه الاستقصاء وأحال عليها هنا وكانت وفاته رحمه الله يوم الأحد الرابع والعشرين من رجب سنة أربع ومائتين وألف بوادي شراط قرب رباط الفتح ودفن بالرباط يوم الاثنين وقبره بها معروف « عليه رحمة الله »

[خَيْرٌ مُلُوكِ الْعَرَبِ مِنْ أَسْرَتِهِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى الْعُمُومِ الْمُطْلَقِ]

أُسْرَةُ الرجل بضم الهمزة رهطه الأدئون من الأسر وهو الشد لأنه يشتد بها أزره ويتقوى والمغرب ثلاثة أقاليم : أدنى وهو تونس والقيروان وسائر بلاد إفريقية أعنى بالمصطلح القديم ، وأوسط ، وهو الجزائر وتلمسان وأعمالهما ، وأقصى ، وهو فاس ومراكش وأعمالهما .

نبذة عن الأشراف السجلماسيين

إن أول من بويع بالخلافة من الأشراف السجلماسيين الحاكمين حالياً بالمغرب هو الشريف ابن علي ، فقد نشأ وجيهاً بسجلماسة شريفاً مطاعاً ثم بويع بها من قبل أهل الحل والعقد بها سنة إحدى وأربعين وألف للهجرة ثم تنازل عن الحكم لأمر ليس هذا محل بسطها وكان له أربعة عشر ولداً فبويع لأفضلهم وهو محمد بن الشريف ابن علي وذلك في حياة والده سنة خمس وأربعين وألف فضبط أمر سجلماسة واستولى على درعة وأعمالها ثم على فاس وأعمالها ثم رجع وغزا عرب المغرب الأوسط وأحواز تلمسان ، وفي سنة تسع وستين وألف توفي والده الشريف بن علي ، فخرج الرشيد بن الشريف بن علي على أخيه محمد بن الشريف وشمر لقتاله ببسيط آنقاد فأصاب الأمير محمد بن الشريف رصاصة في نحره فمات بسببها وذلك يوم الجمعة تاسع محرم سنة خمس وسبعين وألف فاجتمع الأمر للرشيد فاستتب له الأمر وتبع ثوار المغرب فاستأصلهم حتى لم يبق فيه منازع فكان لذلك أول من استتب له الأمر بالمغرب من هذه الأسرة الحاكمة به حتى الآن ومات ثاني يوم النحر سنة اثنتين وثمانين وألف ثم دفن بفاس ، ثم بويع أخوه إسماعيل بن الشريف بن علي وهو يومئذ بمكناسة الزيتون وسنه يوم بويع عشرون سنة ، فنهض بأعباء الخلافة وضبط الأمور ورتبها وأسس ملك بني علي على أثبت الدعائم ، وأرسخ القوائم ، واتخذ مكناسة دار ملكه وامتد ملكه من وادي تافتا شرقاً إلى أطراف السودان غرباً وذلك أتم البربر واتخذ حرساً من العبيد يقال إنه توفي وفي ديوانه نحو مائة وسبعين ألف جندي منها كلهم على متون الخيل ، وقد بنى رحمه الله في أطراف المغرب وعلى تلولة ماينيف على سبعين قصبة وشحنها بالجنود والعُدَدِ وطالت مدته إلى مايقارب الستين عاماً ثم توفي في مكناسة الزيتون يوم السبت السابع والعشرين من رجب سنة تسع وثلاثين ومائه وألف ، ولما توفي السلطان إسماعيل استضعف جند العبيد بنه فصاروا يولون هذا كما يحلو لهم ويعزلونه كما يحلو لهم فبايعوا أولاً ولده أحمد بن إسماعيل المعروف بالذهبي فمرج

أمر المغرب واختلفت أحواله وكثر الهرج واستمر الحال على ذلك نحو السنة فخلعه العبيد وولوا أخاه عبد الملك بن إسماعيل في شعبان سنة أربعين ومائة وألف ثم بعد أشهر يسيرة خلعوه وأعادوا أخاه أحمد الذهبي المخلوع أولاً ثم توفى في شعبان سنة إحدى وأربعين ومائة وألف وكان قد أمر بقتل أخيه عبد الملك شنقا بثلاثة أيام قبل موته ، ثم بويع أخوهما عبد الله بن إسماعيل فكانت أيامه مضطربة وكان رحمه الله حديد الشوكة فأعمل سيفه في العبيد تمالئهم على قتل أخيه عبد الملك فلما أسرف في قتلهم خلعوه سنة سبع وأربعين ومائة وألف وبايعوا أخاه أبا الحسن على بن إسماعيل وذهب عبد الله بن إسماعيل إلى السوس وقدم أبو الحسن من سجلماسة واستقر بمكناسة وكان موصوفاً بالحلم والعدل فاستقر في الحكم نحو من ثلاث سنوات فقدم عبد الله بن إسماعيل من السوس وأعلن بعض العبيد موالاته وخالفهم البعض واضطرب الأمر وعند ذلك فرَّ أبو الحسن إلى عرب الأحلاف فأقام معهم حتى مات بعد مدة طويلة ، فقدم عبد الله بن إسماعيل مكناسة ولم يدخلها بل بقى بقصبة أوى فكران من أعمالها وفسد ما بينه وبين أهل فاس فخلعوه وبايعوا أخاه محمد بن إسماعيل المعروف بابن عُرْيَة بالتصغير فبايعه الناس ورجع عبد الله بن إسماعيل إلى جبال البربر ولكن ابن عريية لم يكن حظه بأوفر من حظ إخوته المخلوعين فخلعه العبيد في صفر سنة إحدى وخمسين ومائة وألف وبايعوا لأخيه المستضيء بن إسماعيل فكانت أيامه أشدَّ اضطراباً من أيام ابن عُرْيَة فأرادوا إلقاء القبض عليه ولكنه فر إلى طنجة ومنها إلى مراكش في ذى القعدة سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف فبايع العبيد لعبد الله بن إسماعيل المقيم بجبال البربر وأرسلوا إليه فقدم مكناسة في رجب سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف فلم يرتب الصدع الذي بينه وبين العبيد فعاودوا خلعه في ربيع الأول سنة أربع وخمسين وبايع العبيد أخاه زين العابدين بن إسماعيل وتوقف عن بيعته الودايا وأهل فاس ثم إن العبيد قلبوا له ظهر المِجَنِّ على عادتهم فخلعوه ولكن شوكة أخيه عبد الله بن إسماعيل قد قويت هذه المرة فقدم من بلاد البربر وجدد الودايا وفاس له البيعة ثم بايعه العبيد واجتمعت الكلمة عليه وأقام بدار الربيع من فاس وجرت بعد هذا

نخطوب بينه وبين أخيه المستضيء واستمر الحال إلى أن توفي عبد الله بن إسماعيل في سابع عشر صفر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف ودفن بغيور الأشراف من فاس الجديد .

ثم إن أهل المغرب أجمعوا بعده على بيعة ولده محمد بن عبد الله وهو الممدوح بهذه القصيدة فكان رحمه الله واسطة عقد هذه الدولة ، جم المناقب ، كثير المجالس ، شهير الذكر ، بعيد الصيت ، جدد دولة آل على وأقام أودها بعد أن أشرفت على الاضمحلال وقد قدمنا تاريخ موته .

ثم بويع من بعده ولده يزيد بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل فكان رحمه الله جواداً شهماً سيداً إلا أن مدته كانت قصيرة فقد توفي في جمادى الثانية سنة ست ومائتين وألف عن إصابة رصاصة في حرب مع أخيه هشام .

ومن هنا افرقت الكلمة بالمغرب فأقام أهل مراكش وحوزتها على طاعة هشام بن محمد وبايع أهل فاس لسليمان بن محمد فاستتب أمره وبطل أمر أخويه هشام ومسلمة ابني محمد ، فكان سليمان رحمه الله من العلم والحلم والعدل والتقوى والدين بالحل الذي لا يُدْرَك والسبق الذي لا يُلْحَق وكانت أيامه أيام أمن وعدل ورخاء وتوفي « رحمه الله » بمراكش ثالث عشر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف وكان « رحمه الله » قد عهد بالأمر لابن أخيه عبد الرحمن ابن هشام بن محمد لما يعهده به من ديانة فعُدل لذلك بالعهد إليه على الرغم من كثرة أولاده ، فنهض عبد الرحمن بن هشام بأعباء الخلافة أي نهوض وطال عمره بها حتى توفي في التاسع والعشرين من محرم سنة ست وسبعين ومائتين وألف وأجمع الناس على بيعة ابنه محمد بن عبد الرحمن بن هشام فسلك مسلك أبيه في العدل والورع والوقوف على أمور مقتضيات الشرع الكريم وكان عالي الهمة حتى مات في مراكش في ثامن عشر رجب سنة تسعين ومائتين وألف ودفن قرب ضريح القاضي عياض ثم أجمع أهل المغرب بعده على بيعة ولده الحسن بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل فقام بالأمر خير قيام

وأصلح من شئون الدولة برا وبحرا واستتب به الأمن في البلاد إلى أن توفي رحمه الله بوادي العبيد بأرض تادلا ليلة الخميس ثاني ذى الحجة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة وألف ونقل إلى رباط الفتح ودفن إلى جانب جده الأعلى محمد بن عبد الله رحم الله الجميع بفضله ، ثم إن أهل المغرب بايعوا بعده لابنه عبد العزيز ابن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل .

قلت : عبد العزيز هذا عزل وبويع بعده أخوه عبد الحفيظ الذي وقع الحماية مع دولة فرنسا على الرغم منه ثم تنازل عن العرش وأخذت البيعة لأخيه يوسف بن الحسن واستقر به الأمر إلى أن توفي سنة ١٩٢٨م ثم أخذت البيعة لولده محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل وهو الذي انقضى زمن الحماية التي وقعها عمه عبد الحفيظ مع الفرنسيين في عهده فحاولوا معه كل المحاولات لينتزعوا توقيعا منه لتجديد الحماية حتى أعجزهم ذلك ، فعمدوا إلى خلعه وبيعة ابن عم له يدعى محمد بن عرفة وذلك سنة ١٩٥٣ للميلاد ونفوا سلطان البلاد الشرعي إلى جزيرة مدغشكر التي عاد منها ظافراً بفضل الله تعالى ثم بفضل إخلاصه لوطنه وإخلاص مواطنيه له حيث إنهم واصلوا القتال والكفاح المسلح حتى أرغمت دولة الاستعمار على إرجاعه لعرشه ، وقد بلغني أن الجنرال الفرنسي المقيم بالمغرب آنذاك لما أخبره بقرار نفيه عن بلاده وأفاده بالاستعداد للسفر بعائلته لما حضر المطار سأل المستعمر عن متاع السلطان فأجابه « رحمه الله » إنا قد أخذنا المهم منه معنا ، فقال المستعمر : لأرى متاعاً معكم ، فقال السلطان : أهم ما عندنا هذه الأنامل التي امتنعت إن تتدنس بتوقيع شيء مما يمس سيادة المغرب . ثم إن الاستعمار الفرنسي أرغم على إرجاعه لعرشه وإعلان استقلال المملكة المغربية الشريفة سنة ١٩٥٦م وإعلان محمد بن يوسف ملكاً على البلاد ومات رحمة الله في فبراير ١٩٦١م إثر عملية جراحية أجريت له في الجيوب الأنفية ثم بويع ولده الحسن بن محمد بن يوسف الذي لا يزال على رأس البلاد المغربية حتى هذا اليوم وبالله التوفيق .

[وَدَوَّحَةُ الْمَجْدِ الَّتِي أَغْصَانُهَا بِهَا الْأَرَامِلُ ذَوُو تَعَلُّقٍ]
[لَهُ مُحَيِّ ضَاءٌ فِي أَوْجِ الدُّجَا سَنَاهُ مِثْلَ الْقَمَرِ الْمُتَسِقِ]
[وَرَاحَةٌ تَعَارُ مِنْ سُيُولِهَا سُيُولٌ وَدِقٌ وَرُكَامٌ مُطْبِقٌ]

الدوحة الشجرة العظيمة والجمع دوح والمراد بها الممدوح يقول إنه أصل
المجد وينبوعه والمحى بصيغة اسم المفعول حر الوجه من التحية لأنه يقصد بها عند
المواجهة ، وضاء بمعنى استنار وقد يجيء رباعيا فيقال أضاء ، وأَوْجُ الدجى
ارتفاعه وصعوده ، والسَّنا مقصوراً الضوء ، والراحة بطن الكف والجمع راح ،
قال جرير :

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالِمِينَ بَطُونٌ رَاحٍ
وَالْوَدْقُ الْمَطَرُ تَسْمِيَةٌ لِلشَّيْءِ بِاسْمِ مَصْدَرِهِ مِنْ وَدَقَ إِذَا قَطَرَ ، قَالَ الشَّاعِرُ :
فَلَا مَزْنَةٌ وَدَقْتُ وَدَقَهَا وَلَا أَرْضٌ أَبْقَلَ أَبْقَالَهَا
وَالرُّكَامُ بِالضَّمِّ السَّحَابُ الْمُتْرَاكِمُ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ، وَالْمَطْبِقُ الْمَغْطَى لَوَجْهِ
الْأَرْضِ .

[فَاقَ الرَّشِيدَ وَابْنَهُ بِحِلْمِهِ وَعِلْمِهِ وَرَأْيَهُ الْمَوْفِقَ]

يقول إن ممدوحه قد زاد يمن رأيه وسداد نظره على رأى الرشيد ونظره وهو
هارون بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن
العباس رضى الله عنهما وابنه المعنى هنا هو عبد الله المأمون بن هارون .

وكان الرشيد يوصف بحسن الرأي ويمن النقية ، ولما ولى الخلافة ودفع خاتمه
إلى يحيى بن خالد البرمكى قال إبراهيم الموصلى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ مَرِيضَةً فَلَمَّا أَتَى هَارُونَ أَشْرَقَ نُورُهَا
بِیْمَنِ أَمِينِ اللَّهِ هَارُونَ ذِي النَّدَى فَهَارُونَ وَآلِهَا وَيَحْيَى وَزَيْرُهَا

وكان هارون يُوصَفُ بحسن الرأي كما يوصف بحسن المحاضرة وجودة

المذاكرة وفيه يقول ابن الخطيب في رزم الحلل .

فعظم الخلافة الرشيدُ وظهر التوفيق والتسديد
وكان بحرا زاخرا في جوده وغرة غراء في وجوده
وأعلم الناس بشعر وخبر يعجب منه الأصمى إن حضر

وأما المأمون فقد كان حليماً كريماً وفيه يقول الحسن بن رعاء :

صفوح على الإجرام حتى كأنه من العفو لم يعرف من الناس مجرماً
وليس يبالي أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يفش بالكره مسلماً

وصفحه عن عمه إبراهيم بن المهدي بعد خروجه عليه وعفوه عنه شاهد
برسوخ قدمه في الحلم رحمه الله ، قلت : وقد ذكرته في نظمي على التاريخ بقولي :

قد كان شهماً أبى الانفاس وكان النجم من بنى العباس
ولم يقل فيه الذى يقول سوى الذى تواتر المنقول
بأنه يقول فى القرآن بخلقه وذا من البهتان

والله أرجو أن يكون رجع عن هذا القول البشيع بعد مناظرة الشيخ
عبد العزيز الكنانى لبشر المريسى ومحمد بن الجهم بين يديه وإقامهما الحجر
بما لا يلقى معه ريب لمن لم يطمس الله بصيرته ، ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ
هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ (١) .

[وَسَادَ كَعْباً وَابْنَ سَعْدَى وَابْنَ جُدَّ عَانَ وَحَاتِمًا يَسْذِلُ الْوَرِقَ]

أمّا كعبٌ فهو كعب بن مامة الإيادى أحد أجواد العرب المشهورين
المضروب بهم المثل ، قال الجاحظ العامة تحكم بأن حاتماً الطائى أجود العرب ولو
قدمته على هرم بن سنان لما اعترض عليها ولكن الذى يحدث به عن حاتم لا يبلغ

(١) آل عمران الآية رقم (٨)

مقدار مارووه عن كعب بن مامة لأن كعبا بذل النفس حتى أعطبه الكرم وبذل
المجهود في الماء فساوى حاتمًا من هذا الوجه وباينه ببذل المهجة .

وقصته مع صاحب الثمر بن قاسط التي كانت فيها نهاية نفسه مشهورة فلا
أعجب منها ولا أغرب ، وأما ابن سَعْدَى : فهو أوس بن حارثة بن لام الطائي
الجواد المشهور ، قال في ثمار القلوب إنما سار المثل بكرم طيء لأن حاتم بن
عبد الله وأوس بن حارثة بن لام منهم ، قال أبو تمام الطائي :

لكل من بنى حواء عُدْرٌ ولا عُدْرٌ لطائي لقيم
أحق الناس بالكرم أمرو لم ينزل يأوى إلى أصل كريم

يروى أن أوساً وحاتمًا وفدا على عمرو بن هند فدعا أوساً وقال له أنت أفضل
أم حاتم ؟ فقال أبيت اللعن لو ملكني حاتم وولدي ولحمتي لوهبنا في غداة
واحدة ، ثم دعا حاتمًا فقال أنت أفضل أم أوس ؟ فقال أبيت اللعن إنما ذكرت
بأوس ولأصغر ولده أفضل مني ، فقال عمرو والله ما أدري أيكما أفضل ومامنكما
إلا سيد كريم .

ومما روى من علو همته أن النعمان بن المنذر وفدت عليه أشراف العرب
فجلس إليهم وعليه حلة مذهب مطوقة بالدر لم ير أحسن منها ثم أذن لهم فدخلوا ،
فلما أخذوا مجالسهم جعلوا يعجبون من حسن الحلة وأوس مطرق غير آخذ
بذلك ، فقال النعمان : يا أوس ما أرى فيمن دخل على إلا من يستحسن هذه الحلة
على نقصان قدرها عندي غيرك ؟ فقال أوس : أسعد الله الملك إنما تستحسن هذه
إذا كانت في يد تاجرها فأما إذا لبسها الملك وتهلل فيها وجهه المشرق فالأبصار
مقصورة عليه دونها ، فاسترجح الملك عقله واستحسن جوابه ، فلما كان وقت
انصرافهم قال لهم النعمان : احضروا غدا كلكم فياني ملبس هذه الحلة سيد
العرب فانصرفوا وكل طامع مهموم ، فتأخر أوس عن الحضور فلامه أصحابه على
تأخره فقال سبحانه الله : إن كنت المراد فسيرسل إليّ وذلك أرفع لشأني وإن كان
المراد غيري لم تأخذني غضاضة في أخذ غيري لها وأنا غائب فلما دخلوا على

النعمان نظر فلم ير فيهم أوساً فاستدعى بعض بطانته وقال انظر ما فعل أوس فجاءه بما فعل وأخبره بما قال لأصحابه فقال له امض إليه وقل له : إن الملك يستبطنك فجاء في الثوب الذي كان عليه أمس وقد كانت وجوه العرب سرت بغيبته خشية أن تُدفع إليه الجُبَّة فلما استدعاه النعمان وحضر رفع مجلسه وقربه ومدَّ يده إليه وقال : أراك لم تغير لباسك في هذا اليوم فخذ هذه الحلة وتجمل بها بين من تجمل من وجوه أصحابك فلبسها وجلس في أقرب مكان من النعمان فحسدته العرب وقالوا : ليس يخفّضه إلا الهجاء وليس له إلا جرول يعنون الخطيئة ، فكلموه في ذلك وقالوا له نساھمك في أموالنا ، فقال كيف أهجو رجلاً حسباً لأينكرُ بيته ، كريماً لا يغيب عطاؤه ، فاضلاً فلا يطعن على رأيه ، شجاعاً لا يصطلي بناره ، ومع هذا فلا أرى شيئاً في بيتي إلا من إفضاله ؟ ثم قال :

كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل لامٍ بظهر الغيب تأتيني فسمع ذلك بشر بن أبي حازم الأسدي من أسد خزيمة فرغب في المال وقال أنا أهجوكم لكم فأعطوه ثلاثمائة من الإبل فهجاه وأفحش القول في أمه سُعدى ، فبعث أوس من أغار على الإبل التي أعطوه والتي كانت عنده قبلها فاكسحوها وأتوه بها وفر بشر بن أبي حازم فطوف أحياء العرب يريد من يجيره فكان جواب كل حي نجيرك من الإنس والجن إلا أوس بن لام فلم يلبث أن أُسِر وأُتي به أوس فدخل أوس على أمه سُعدى وأخبرها بظفره ببشر واستشارها في قتله ، فقالت والله لئن قتلته ليشتن كلامه في الصخر وليس يحو هجاءه عنك إلا مديحه فامتن عليه وخل سبيله فاستصوب رأيها وأحضره وقال ما تراني صانعا بك ؟ قال تقتلني ، قال أنت مستحق لذلك ولكن سُعدى أشارت عليّ بأمر أنا فاعله فرد عليه إبله وزاد عليه مثلها معها وكساه وحمله وقال انصرف إلى أهلِكَ راشداً ، فعندها رفع يديه وطرّفه إلى السماء وقال اللهم اشهد على بشر ، أنه لا يمدح أحداً غير أوس بن حارثة ما مدت له في العمر ، فمدحه بقصائد متعددة منها قوله فيه من قصيده له :

إلى أوس بن حارثة بن لام ليقضى حاجتى فيمن قضاها
فما وطئ الثرى مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها
وأما ابن جُدعان : بضم الجيم وسكون الدال المهملة فهو أبو زهير عبد الله
ابن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى القرشى
ثم التيمى الجواد المشهور المضروب به المثل فى حسن القِرى ، يقال أقرى من
حاسى الذهب ، وإنما لقب حاسى الذهب لأنه كان يشرب فى كأس من ذهب ،
وهو ابن عم أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — يجتمع معه فى عمرو بن كعب
وكان من أشرف قريش فى الجاهلية ، وكان اجتماع حلف الفضول فى داره
وحضره النبى صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين عاماً ، وقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم لقد شهدت حلفاً فى دار ابن جدعان ما أحب أن لى به
حمر النعم ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت ، وهو أول من أطعم بمكة الفالودج
وكان له مناديان بأعلى مكة وأسفلها أحدهما ينادي قائلاً : ألا من أراد اللحم
والشحم فليأت دار ابن جدعان والثانى يقول : ألا من أراد الفالودج فليأت دار
ابن جدعان .

ويقال إنه كان فى ابتداء أمره صعلوكاً فتاكاً لا يزال يجنى على أبيه الجنايات
حتى أثقلت جناياته عاتقه حتى تبرأ منه أبوه فلم يزل حائراً يتمنى الموت حتى رأى
شقاً فى جبل فدخل فيه لعله تكون به حية تنهشه فإذا به ثعبان له عينان تقدان
كالسراجين فحمل عليه الثعبان فأفرج له فانساب عنه الثعبان مستديراً بدارة فيها
بيت ثم خطا خطوة أخرى فصفر الثعبان وأقبل إليه كالسهم فأفرج له فانساب عنه
فوقف يفكر فى أمره فوق فى نفسه أنه مصنوع فتقدم فأمسكه فإذا هو مصوغ من
ذهب وعيناه من ياقوت فكسره واقتلع عينيه ودخل فرأى جثث رجال طوال على
سرير وعند رؤسهم لوح من فضة فيه تاريخهم فإذا هم رجال من ملوك جرهم
ووجد فى البيت كوماً عظاماً من اليواقيت واللؤلؤ والذهب والفضة والزبرجد
فأخذ منه ثم علم الشق بعلامة وأغلق بابه بالحجارة وأرسل إلى أبيه المال الذى

خرج به يسترضيه به ووصل عشيرته كلها فساد وجعل ينفق من ذلك الكثر
ويطعم الناس ويفعل المعروف والله تعالى أعلم بصحة ذلك .

وقد مدحه أمية ابن أبي الصلت بقوله :

أذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الشناء
وعلمك بالأمور وأنت قرم لك الحسب المهذب والهناء
تبارى الريج مكرمة ومجداً إذا ما الكلب أهجره الشتاء
فأرضك كل مكرمة بئتها بنو تيم وأنت لها سماء ..
لخ

هذا وكرم ابن جدعان معروف ومدون في الكتب التي تعني بمثل ذلك
فليرجع إليها من شاء .

وأما حاتم : فهو أبو عدى وقيل أبو سفانة بتشديد الفاء الموحدة حاتم بن
عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدى بن أنحزم الطائي الجواذ
المشهور ، أجود العرب على الإطلاق مضروب به المثل بين الخاصة والعامة وكان
مظفراً إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ، وإذا سئل وهب ، وإذا ضرب بالقدح
فاز ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق ، وكان ورث الجود عن أمه وهي من بني
عمومته عُنْبَةُ بنت عفيف بن عمرو بن امرئ القيس ، يجتمع نسبها بنسبه في امرئ
القيس بن عدى ، يحكى أنها كانت لا تمنع سائلاً فحجر عليها إخوتها دهرأ
ومنعوها مالها خوفاً من إتلافها فلما كان بعد زمن ظنوا أنها ارعوت فأعطوها
صرمة من الإبل فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتياها كل عام فقالت إني قد رأيت
من عض الجوع مالا أمنع معه سائلاً خذى هذه الصرمة وأنشدت :

لعمري لقد عضنى الجوع عضّة فأليت أن لا أمنع الدهر جائعاً
فقولاً لهذا اللائم اليوم أعفى فإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا

وأخبار حاتم بالجود أكثر وأشهر من أن أطيل بها في هذا المختصر وهي موجودة ، ومما قاله الشعراء في حاتم وجوده :

وحاتم طيٌّ إن طوى الموت جسمه فنشر اسمه في الجود عاش مخلداً
وقال أبو الشمقمق يهجو بخيلاً :

لما سألتك شيئاً بدلت رُشداً بعُـيٍّ
من تعلّمت هذا أن لاتجُودَ بشيٍّ
أما مررت بعبدٍ لعبد حاتم طيٍّ
وقال أبو تمام الطائي يفخر بجود طيء :

أنا ابنُ الذين استرضع الجود فيهم وسُمي فيهم وهو كهلٌ ويافعُ
سما بيّ أوسٌ في السّماج وحاتمٌ وزيدُ القنا والأثرمان ونافعُ
لمخ

[وَلَمْ يَدْعُ مَعْنَى لِمَعْنٍ فِي النَّدْيِ وَلَمْ يَكُنْ كَمِثْلِهِ فِي الْخُلُقِ]
ألفاظ البيت واضحة لا إشكال فيها .

ذكر معن بن زائدة الشيباني

هو أبو الوليد معن بن زائدة بن عبد الله بن زائدة بن مطر بن شريك بن الصُّلْتِ واسمه عمرو بن قيس بن شراحيل بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة الشيباني نسبه إلى ربيعة بن نزار ، وهو المضروب به المثل في الجود يقال : حدث عن معن ولا حرج .

كان في دولة بني أمية متنقلاً في الولايات ومنقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقيين فلما انتقلت الخلافة إلى بني العباس وحاصر المنصور ابن هبيرة في مدينة واسط أبلى معن يومئذ بلاءً حسناً مع ابن هبيرة فلما قتل ابن

هيرة اختفى معن بن زائدة حتى كان يوم الهاشمية وهو يوم مشهور ثار فيه جماعة من أهل خراسان على المنصور ، خرج معن متنكراً معتماً مثلثاً وقاتل أمام المنصور قتالاً يبين عن نجدة وبسالة وفرق جمعهم فلما أفرج عن المنصور قال من أنت ويحك ؟ قال أنا طليبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة الشيباني فأمنه المنصور وأكرمه وصار من خاصته .

هذا ، وقد جرى لمعن في زمن اختفائه عجائب نذكر قليلاً منها : قضيته مع الأسود ، وهي أنه لما اشتد عليه طلب المنصور تزيا بزى الأعراب وركب جملاً وخرج من بغداد متوجهاً إلى البادية ليقم فيها فلما خرج من باب حرب تبعه الأسود متقلداً سيفاً حتى إذا غاب عن الحرس أخذ خطام البعير فأناخه وقبض على يد معن ، فقال له وما بك ؟ قال الأسود : أنت طلبة أمير المؤمنين فقال معن : ومن أنا حتى أطلب ؟ قال الأسود : أنت معن بن زائدة فأني والله لأعرف بك منك ، فقال معن : هذا عقد جوهر حملته معي بأضعاف ما جعله المنصور لمن أتاه بي فخذ ولا تكن سبياً في سفك دمي ، قال هاته ، فأخرجه إليه ، فنظر فيه ساعة وقال صدقت في قيمته ولست قابله حتى أسألك عن شيء فإن صدقتني أطلقتك ، قال معن : قل ، قال الأسود : إن الناس قد وصفوك بالجود فأخبرني هل وهبت مالك كله فيما سبق ؟ قال معن : لا ، قال : فنصفه ؟ قال لا ، قال فثلثه ؟ قال لا ، حتى بلغ العشر فاستحيا وقال : أظن أني فعلت هذا ، قال الأسود : ماذاك بعظيم أنا والله راجل ورزقي كل شهر عشرون درهماً وهذا العقد قيمته ألف الدنانير وقد وهبت لك وهبت لك نفسك لجودك المأثور بين الناس ولتعلم أن في هذه الدنيا من هو أجود منك ثم رمى العقد ورمى خطام البعير وانصرف ، فقال معن يا هذا والله لقد فضحتني ولسفك دمي أهون علي مما فعلت بي فخذ العقد إني غني عنه ، فضحك وقال : أردت أن تكذبني في مقالى هذا ؟ والله لا أخذت على معروف ثمناً أبداً ومضى لسبيله ، ويحكى أن معن لما أمن جد في طلب هذا الأسود فلم يظفر به .

وفي نزهة الألباب أن معناً دخل عليه أعرابي فقال :
أتذكر إذ لحافك جلد شاة وإذا نعلاك من جلد البعير ؟
فقال معن أذكر ذلك ولا أنساه ، فقال الأعرابي :
فسبحان الذي أعطاك ملكاً وعلمك الجلوس على السرير
قال معن سبحان الله ذلك من فضل الله ، فقال الأعرابي :
فلا والله ما إن عشت دهرأ على معن أسلم بالأمير
فقال معن أنت بالخيار ، فقال الأعرابي :
فجد لي يا ابن ناقصة بمال فإني قد عزمت على المسير
فقال معن أعطه يا غلام ألف دينار ، فقال الأعرابي :
قليل ما مننت به وإني لأطمع منك بالشئ الكثير
فقال معن يا غلام أعطه ألفاً أخرى ، فقال الأعرابي :
قبلت فقد ملكت الأرض طراً بلا أدب ولا حسب خطير
فقال معن أعطه ألفاً أخرى ، فقال الأعرابي : لله درك والله لقد وضعت هذه
الآبيات أختبر بها حلمك فإذا حلمك لو قسم على أهل الأرض لكفاهم ، فقال
معن يا غلام كم أعطيته ؟ قال ثلاثة آلاف ، فقال أعطه مثلها وزده ألفاً لئلا يظن
أننا لا نفرق بين المدح والهجاء .
ودخل معن يوماً على المنصور فلما نظر إليه قال هيه يامعن تعطي مروان بن
أبي حفصة مائة ألف على قوله :
معن بن زائدة الذي زادت به شرفاً على شرف بنو شيان
فقال كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله في هذه القصيدة :
مازلت يوم الهاشمية معلناً بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاه من وقع كل مهند و سنان
فقال له أحسنت يامعن ، وقال له يوماً يامعن ما أكثر وقوع الناس في
قومك ، فقال يأمر المؤمنين :

إن العرانيين تلقاها محسدة ولا ترى للثام الناس حسداً
قلت : وقرأت في نسخة خطية من أمالي أبي على القالى أن معناً بن زائدة
جاءه شاعر فمنع من الدخول عليه سنة فلاحظ أنه يخرج في رابعة النهار يغتسل في
بركة ببستان له تغذيها قنطرة من خارج البستان فنقش بيتاً في قطعة من الخشب
ورماها في القنطرة وقت وجود معن بالبركة فلما وصلت إليه قرأ ما كتب عليها
فاذا هو :

أيا جود معن ناچ معناً بحاجتي فما لي إلى معن سواك رسول
فخرج وجلس في مجلسه وليس وقت جلوس وقال على بناقش البيت ،
فتفرقوا يطلبون ناقش البيت فأتوه به فقال رسولك قد بلغ ، ما حملك على
ما فعلت . قال منذ سنة وأنا أحاول الدخول عليك ومنعني من الانصراف الثقة
بحصول مطلوبي ، فأقسم معن أن لا يتخذ حاجباً بعدها وأعطاه ألف درهم
وجلس أربعين يوماً كلما نظر إلى الخشبة يسأل عنه فإذا حضر أعطاه ألف درهم
فحسده بعض الناس وقال لو اطلع أمير المؤمنين على ما أنفق معن من بيت المال
عليك عزله واسترده منك فشرد الرجل ، فلما كان الحادى والأربعون سأل عنه
 فلم يوجد ، فقال سبحانه الله لقد ظن بنا غير الذى أردنا به والله لو مكث عمره
لأعطيته ألف درهم كلما نظرت هذا البيت ؛ « والله أعلم » .

وقد ولى معن بن زائدة سجستان في آخر عمره وفي سنة إحدى وخمسين
ومائة كان له صناع يعملون له شغلاً فاندس فيهم قوم من الخوارج فقتلوه
بسجستان بمدينة بست منها وهو يحتجم فتبعهم ابن أخيه يزيد بن مزيد بن زائدة
فقتلهم عن آخرهم ، ولما قتل معن كثرت المراثى فيه ، فمن ذلك قول الحسين بن
مطير الأسدى :

ألمأ إلى معني وقولا لقبره
فيا قبر معني كيف وارىت جوده
ويا قبر معني أنت أول حفرة
بلى قد وسعت الجود والجود ميت
فتى عيش في معروفة بعد موته
ولما مضى معني مضى الجود وانقضى
سقتك الغواذى مربعاً ثم مربعا
وقد كان منه البحر والبر مترعا
من الأرض حلت للسماحة مضجعا
ولو كان حياً ضقت حتى تصدعا
كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
وأصبح عرين المكارم أجدعا

ويحكى أن مروان بن أبي حفصة دخل يوماً على جعفر بن يحيى البرمكي
فقال له ويحك أنشدني من مرثيتك في معني بن زائدة فقال بل أنشدك من مدحي
فيك فقال جعفر بل أنشدني من مرثيتك في معني فأنشده :

مضي لسبيله معني وأبقى
هو الذي كانت مَعْدُ
وعطلت الثغور لفقد معني
وأظلمت العراق وأورثتها
كأن الشمس يوم أصيب معني
أصاب الموت حين أصاب معني
وكان الناس كلهم لمعني
ولم يك طالب المعروف ينوي
مكارم لن تبيد ولن تنالا
تهد من العدو به الجبالا
وقد يروى به الأسل النبالا
مصيئتها المجللة اختلالا
من الإظلام ملبسة جلالا
من الأحياء أكرمهم فعالا
إلى أن زار حفرته غيالا
إلى غير ابن زائدة ارتجالاً

البحر

وهي قصيدة طويلة فلما فرغ من إنشادها وجعفر كلما سمع منها يكي ، قال
له جعفر هل أثابك على هذه المراثية أحد من أولاده ؟ قال لا ، قال : لو كان معني
حياً ثم سمعها منك فما هو تصورك أنه يشيك عليها ؟ قال أصلح الله الوزير
أربعمائة دينار قال جعفر ما أظن معني يرضى بذلك فقد أمرنا لك بالضعف عن
معني وأمرنا لك بمثل ذلك من قبلنا فخذ من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن
تنصرف إلى رحلك .

[مُذْ كَانَ طِفْلاً وَالسَّمَاخُ دَابَّةً وَغَيْرَ مَاخِذِ الثَّنَا لَمْ يَعْشِقِ]
[نَشَأَ فِي حِجْرِ الْخِلَافَةِ وَقَدْ شَبَّ فَتًى بغيرَهَا لَمْ يَغْلِقِ]
[فَبَايَعَتْهُ النَّاسُ طُرّاً دَفْعَةً لَمْ يَكُ فِيهَا أَحَدٌ بِالْأُسْبِقِ]
[وَأَعْطِيَتْ قَوْسُ الْعَلَا مَنْ قَدْ بَرَى أَعْوَادَهَا رِعَايَةً لِلْأَلِيْقِ]
[فَصَارَ فَيْءُ الْعَدْلِ فِي زَمَانِهِ مُنْتَشِراً مِثْلَ انْتِشَارِ الشَّرِقِ]

الطفل بكسر الطاء الولد الصغير من الإنسان والدواب وقد يكون بلفظ واحد للذكر والأنثى والجمع والمفرد ، قال تعالى : ﴿ أَوِ الْطِفْلَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ .

وقول الناظم : وغير ماخذ الثنا لم يعشق ، أخذه من قول أبي الطيب :
بصيرٌ بأخذ الحمد من كل موضع ولو خبائثه بين أنبيائها الأسد

[وَشَادَ رُكْنَ الدِّينِ بِالسَّيْفِ وَقَدْ حَاَزَ بِنَقْوَاهُ رِضَى الْمُؤَفَّقِ]
[وَقَدْ رَقَى فِي مَلِكِهِ مَعَارِجاً لَمْ يَكُ غَيْرُهُ إِلَيْهَا يَرْتَقِي]
[وَرَدَّ أَرْوَاحَ الْمَكَارِمِ إِلَى أَجْسَادِهَا بَعْدَ ذَهَابِ الرَّمَقِ]
[وَالسَّعْدُ قَدْ أَلْقَى عَصَى تَسْيَارِهِ بِقَصْرِهِ وَخَصَّهُ بِمَعْشَقِ]

فقول الناظم : ورد أرواح المكارم إلى أجسادها البيت ، مأخوذ من قول القائل :

سألت الندى والمجد حيان أنما وهل عشتما من بعد آل محمد
فقالا نعم متنا جميعاً وضّمنا ضريحاً وأحياناً ديبسُ بن مزيد

[يَا مَلِكَا أَلْوِيَّةُ النَّصْرِ عَلَى نَظِيرِهِ فِي غَرْبِنَا لَمْ تَحْفَقِ]
[طَابَ الْمَدِيحُ فِيكُمْ وَازْدَانِ لِي وَجَاشَ صَدْرِي بِالْفَرِيدِ الْمُونِقِ]
[لَوْلَاكَ كُنْتُ لِلْقَرِيضِ تَارِكاً لِعَدَمِ الْبَاعِثِ وَالْمُشَوِّقِ]
[تَرَكْتُ الْغَزَالَ ظِلَّهُ وَوَاصِلِ لِلرَّاءِ وَابْنِ تَوَلَّى لِلْمَلَقِ]

ومعنى قوله طالب المديح فيكم البيت معناه قد سهل عليّ مدحكم ووجدت فيه نشاطي وراحتي وتيسر لي فيه من حر الكلام وبديع النظام ما لم يكن يتيسر لي من قبل وهذا من أبلغ المدح والتنويه بقدر الممدوح لأن فيه تعريضاً بكثرة ووضوح مآثره .

وقد قيل للفرزدق : قد أحسن الكميت في الهاشميات ، قال وجد آجراً وجصاً فبنى ، يعنى أن كثرة مُدَحِّهِمْ يسرت عليه مدحهم .

وفى هذا المعنى قال آخر : جود آل المهلب تركهم أهدافاً للمديح ، وقال أبو الطيب :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه وإن لم أشأ تمل على فأكتب
وقال نصيب بن الأصغر :

مالقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء

وقول الناظم : ترك الغزال ظله ، يعنى به المثل المشهور ، قال الميداني : الظل هاهنا الكناس الذى يستظل به فى شدة الحر فيأتيه الصائد فيثيره فلا يعود إليه ، يضرب به المثل لمن نَفَرَ مِنْ شَيْءٍ فتركه تركاً لا يعود إليه ، ويضرب فى هجر الرجل صاحبه أو جِرْفَتَهُ ، قال أبو حيان النحوى يمدح الإمام الشافعى رحمه الله :

ألا إن علم النحو قد باد أهله فما إن ترى فى الحى من بعدهم حياً
سأتركه ترك الغزال لظله فأتبعه هجرأ وأوسع نأيا
وأسمو إلى الفقه المبارك إنَّه ليرضيك فى الأخرى ويعليك فى الدنيا

والملق المديح الذى معناه أن تعطى باللسان ما ليس بالقلب .

ذكر ابن تولب وتركه المديح والهجاء

هو التمر بن تولب العُكلى أحد المخضرمين من الشعراء فهو شاعر مشهور مقل

مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام فأسلم وحسن إسلامه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس لجودة شعره وحسنه ، وقال أبو عبيدة : كان النمر بن تولب شاعر الرباب في الجاهلية ولم يمدح أحداً ولا هجاه وأدرك الإسلام وهو كبير ، وقال محمد بن سلام كان النمر بن تولب جواداً لا يكاد يمسك شيئاً وكان فصيحاً وهو الذي يقول :

. تفضيبن على امرئ في ماله وعلى كرائم صلب مالك فاغضب
وإذا تُصبتك خصاصة فارجُ الغنى وإلى الذي يعطى الرغائب فارغب
وأخبار النمر بن تولب كثيرة ذكرها الأصفهاني في الأغاني وابن عبد البر فليقف من شاء الوقوف عليها فيهما وبالله التوفيق .

ذكر واصل بن عطاء

هو أبو حذيفة واصل بن عطاء مولى بنى ضبة وقيل مولى بن مخزوم وهو المعروف بالغزال شيخ المعتزلة ورأسهم ، قال ابن خلكان : كان أحد الأئمة البلغاء المتكلمين في علم الكلام وغيره ، ولد سنة ثمانين من الهجرة بالمدينة المنورة وانتقل إلى البصرة .

ذكر السمعاني في كتاب الأنساب أن واصلًا كان يجلس إلى الحسن البصري « رحمه الله » فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر ، وقالت الجماعة إنهم مؤمنون وإن فسقوا بالتكفير بالكبائر ، خرج واصل بن عطاء على الفريقين وقال إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر منزلة بين منزلتين فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزله وجلس إليه عمرو بن عبيد فقبل لهما ولأتباعهما معتزلة .

وكان واصل يلثغ بالراء فيجعلها غيناً فكان لبلاغته يخلص كلامه من الراء ولا يُفطن لذلك لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه عليه ، ولذلك يقول فيه

شاعر المعتزلة أبو الطروق الصبي يمدحه :

عليّمْ بإبدال الحروف وقامع لكل خطيب يقلب الحق باطله

ومما يحكى عنه وقد ذكر بشّار بن برد وكان يهجوّه فقال : أما لهذا الأعمى
المكتنى بأبى معاذ من يقتله ؟ أما والله لو أن الغيلة خلّقت من أخلاق العالية لبعثت
إليه من يبعج بطنه في مضجعه ثم لا يكون لا سدوسياً ولا عُقبلياً ، تأمل :

فقد قال : هذا الأعمى ، ولم يقل الضرير ، وقال المكتنى بأبى معاذ ولم يقل
بشار بن برد ، وقال من أخلاق العالية ولم يقل المغيرة ولا المنصورية وقال لبعثت
ولم يقل لأرسلت ، وقال على مضجعه ولم يقل على فراشه وقال يبعج ولم يقل
يقفر .

وقد كان واصل يضرب به المثل في إسقاط حرف الراء من كلامه ، وقد
ذكر ذلك الشعراء في أشعارهم ، قال أحدهم :

ولما رأيت الشيب راءً بعارضي تيقنت أن الوصل لى منك واصل
وقال آخر :

أجعلت وصلى الراء لم تنطق به قَطَّعتني حتى كأنك واصل
وتوفى واصل بن عطاء سنة إحدى وثمانين ومائة « والله أعلم » .

[وَكُنْتُ فِي تَرْكِي لَهُ كَابِنٌ أَبِي]	[رَبِيعَةُ النَّاذِرِ عِتَقَ الْهُبُوقِ]
[وَمُذْ بَكَ الرَّحْمَنُ مَنْ لَمْ يَزَلْ]	[فَكَّرِي فِي بَحْرِ الثَّنَا ذَا غَرَقِ]
[لَا زِلْتُ بَذْراً فِي بُرُوجِ الشَّعْرِ تَدْ]	[سَخُّ بِنُورِكَ ظَلَامَ الْغَسَقِ]
[وَلَا بَرَحْتُ بِالْأَمَانِي ظَافِراً]	[وَمُذْ رَكَأَ لِمَا ثَنَّا مِنْ أُنْقِ]
[بِسُورَةِ الْفَتْحِ وَطَةَ وَالضُّحَى]	[وَآيَةِ الْكُرْسِيِّ وَآيِ الْفَلَقِ]
[إِلَيْكُمَا أَرْجُوزَةٌ حُسَّائَةٌ]	[لِمِثْلِهَا ذُو أَذْيٍ لَمْ يَسْبِقِ]
[كَانَتْهَا أَسْلَاكٌ دُرٌّ وَيَوَا]	[قَيْثٌ تُضِي كَالْبَارِقِ الْمُؤْتَلِقِ]

[أَعَزُّ مِنْ بَيْضِ الْأَثْوَقِ وَمَنْ أَلْ حَقَّقَا وَمِنْ فَحْلِ عَقُوقِ أُبْلَقِ]

والهتُّ كَقَنْفُذِ الوصيف من الغلمان ، وأما ابن أبي ربيعة فقد تقدمت ترجمته وقد قدمنا فيها أنه تنسك في آخر عمره وترك ما كان عليه من الشعر والغزل وذكروا أنه صار لذلك إذا قال بيتاً من الشعر كفر عنه بعثق عبد .

ذكر أبو الفرج الأصفهاني نقلاً عن الزبير بن بكار أن ابن أبي ربيعة رأى رجلاً يوماً يكلم امرأة في الطواف فعاب عليه ذلك ، فقال إنها ابنة عمي ، قال ذلك أشنع لأمرك ، فقال إني خطبتها عند أبيها فامتنع إلا بأربعمائة دينار وأنا غير مطيق لذلك وشكا إليه من حبها وكلفه بها أمراً عظيماً فسار عمر معه إلى عمه فكلمه فقال هو مملق وليس عنده ما يصلح به أمره فقال له عمر وكم الذي تريده منه ؟ فقال أربعمائة دينار ، فقال عمر هي عليّ فزوجه منها ففعل ذلك ، وكان عمر حين أسنّ حلف أن لا يقول بيت شعر إلا أعتق رقبة فانصرف إلى منزله يحدث نفسه فكلمته جارية له فلم يرد عليها جواباً فقالت له إن لك لأمرأ وأراك تريد أن تقول شعراً ، فقال :

تقول وليدتي لما رأته	طربت وكنت قد أقصرت حيناً
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً	وهاج لك الهوى داء دفيناً
وكنت زعمت أنك ذو عزاء	إذا ما شئت فارقت القريناً
بعيشك هل أتاك لها رسول	فشاقك أم لقيت لها خديناً
فقلت شكا إليّ أخ محب	كبعض زماننا إذ تعلمينا
فقص على ما يلقى بهند	فذكر بعض ما كنا نسينا
وذو الشوق القديم وإن تعزى	مشوق حين يلقى العاشقينا
وكم من خلة أعرضت عنها	لغير قلبي وكنت بها ضنيناً
أردت بعادها فصدت عنها	وإن جُنَّ الفؤادُ بها جنونا

ثم دعا تسعة من رقيقه فأعتقهم لكل بيت واحد ، « والله تعالى أعلم » .

وقوله حُسَّانة بوزن رمانة صفة من الحسن وهي أبلغ من حسنة .

ذكر العنقاء وبيض الأنق والأبلى العقوق

أما العنقاء ، فقد قال فى القاموس : العنقاء الداهية ، وطائر معروف الاسم مجهول الجسم أو هو طائر يعد فى طيرانه عظيم .

وقال الميدانى فى مجمع الأمثال : قال الخليل سميت عنقاء لأنه كان فى عنقها بياض كالطوق وقيل بل لطول عنقها ، قال ابن الكلبي : كان لأهل الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان وكان بأرضهم جبل يقال له دُمَخْ مصعده فى السماء ميل وكانت تتابه طائفة كأعظم ما يكون لها عنق طويل من أحسن الطير ، فيها من كل لون وكانت تقع منتصبه فكانت تكون على ذلك الجبل تنقض على الطير فتأكله . فجاءت ذات يوم وأعوزها الطير فانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغرباً لأنها تغرب كل ما أخذته ثم إنها انقضت على جارية فضمتها إلى جناحين لها صغيرين فطارت بها فشكوا ذلك إلى نبيهم فقال اللهم خذها واقطع نسلها وسلط عليها آفة فأصابها صاعقة فاحترقت فضربتها العرب مثلاً فى أشعارها .

قال عنترة بن الأخرس الطائي يرثى خالد بن يزيد :

لقد حلقت بالجود فتخاء كاسر كفتخاء دُمَخْ حلقت بالجزور

والحاصل أنه مثل تضربه العرب للأمر العجيب النادر وقوعه ، وكل ما جاء فى العنقاء من أخبار فهو أشبه بالهذيان ، وقولهم أعز من العنقاء يريدون أنها تسمع ولا ترى ، وكان بعضهم يتمثل بقول القائل :

وإذا السعادة لاحظتك عيونها ثم فالتخاوف كلهن أمان
فاصطد بها العنقاء فهى حباله واقتد بها الجوزاء فهى عنان

وأما بَيضُ الأنوق : على وزن صبور قال الدميرى هى الرخمة أو طائر أسود

أصلع أصفر المنقار وعزة بيضها هو أنه لا يظفر به لأن أوكارها في رعوس الجبال ،
قال الأخطل :

من الغانيات الحور مطلب سرها كبيض الأنوق المستكنة في الوكر
وأما الأبلق العقوق : قال الميداني : يقولون أعزُّ من الأبلق العقوق يضربون
به المثل لما يعز وجوده لأن العقوق في الإناث ولا تكون في الذكور يقال أعقت
الفرس فهي عقوق إذا حملت ، ولا يقال مُعِقَّ والأبلق لا يحمل لأنه وصف
للذكر .

قالوا : وأصل المثل لخالد بن مالك النهشلي قاله للنعمان بن المنذر وكان قد
أسر ناساً من بنى مازن بن عمرو بن تميم فقال من يتكفل بهؤلاء ؟ فقال خالد أنا
فقال النعمان : وبما أحد نوى ؟ فقال خالد : نعم وإن كان الأبلق العقوق ،
فذهبت مثلاً ، وكانت العرب تسمى الوفاء الأبلق العقوق لعزة وجوده .

ويحكى أن رجلاً قال لمعاوية : افرض لي ، قال . نعم ، قال ولولدي ، قال
لا ، قال ولعشيرتي فتمثل معاوية بهذا البيت :

طلب الأبلق العقوق فلما لم يجده أراد بيض الأنوق

[مَارَوْضَةٌ فَيَنَائَةٌ غَنَاءٌ قَدْ جَادَتْ لَهَا السُّحْبُ بِمَاءٍ غَدَقِ]
[فَابْتَسَمَتْ أَغْصَانُهَا عَنْ أبيض وَأَحْمَرٍ وَأَصْفَرٍ وَأَزْرَقِ]
[يَوْمًا بِأَبْهَى لِلْعُيُونِ مَنَظَرًا مِنْهَا وَلَا كَلَفَظَهَا الْمُرَوِّقِ]
[مَالِجَرِيرٍ وَجَمِيلٍ مِثْلُهَا فِي غَزَلٍ وَفِي نَسَبٍ مُونِقِ]

ذكر جرير وجميل

أما جرير : فهو أبو حَرْزَةَ جرير بن عطية بن الخطَفَى واسمه حذيفة بن بدر
ابن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم

التميمى ثم اليربوعى الشاعر المشهور كان من فحول شعراء الإسلام وكان بينه وبين الفرزدق مهاجاة ، وأجمع علماء الشعر أن جريراً والفرزدق والأخطل مقدمون على من لم يدرك الجاهلية من شعراء الإسلام على أن الأخطل دون الاثنين والخلاف في الفرزدق وجرير أيهما أشعر ولكل واحد منهما من يقدمه على الآخر .

ويحكى أن جريراً هاجي ثمانين شاعراً فغلبهم وفضحهم ولم يثبت له إلا الفرزدق ، وقال محمد بن سلام : رأيت أعرابياً من بني أسد أعجبني ظرفه وروايته فقلت له أيهما عندك أشعر جرير أم الفرزدق ؟ فقال بيوت الشعر أربعة : مدح وهجاء وفخر ونسيب وفي كلها غلب جرير ، قال في الفخر قوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا
وفي المديح قوله :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟
وفي الهجاء قوله :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا
وفي النسيب قوله :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لا يدين قتلنا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا
قال محمد بن سلام وبيت النسيب عندي قوله :

فلما التقى الحيان ألقى العصى ومات الهوى لما أصيبت مقاتلة
والغريب فى أمر جرير والفرزدق أن الأخير كان مشهوراً بالنساء ومع ذلك ليس له بيت واحد فى النسيب وأن الأول كان عفيفاً لم يعشق قط ومع ذلك فهو أغزل الناس شعراً وقد شهد له الفرزدق بذلك والحق ما شهدت به الأعداء ، فقد قال فيه : قاتله الله فما أحسن ناحيته وأشرد قافيته والله لو تركوه لأبكى العجوز

على شبابها والشابة على أحبابها ولكنهم هُروه فوجدوه عند الهراش نباحاً وعند
الجراء قارحاً ولقد قال بيتاً لأن أكون قلته أحب إلي مما طلعت عليه الشمس :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

ومات جرير باليمامة عن نيف وثمانين سنة وذلك سنة عشر ومائة للهجرة .

وأما جَمِيلٌ : فهو أبو عمرو جميل بن عبد الله بن مَعْمَرٍ بن صُبَّاح بضم
الصاد بن ظبيان بن حُنٍّ بضم الحاء المهملة وتشديد النون بن ربيعة بن حرام بن
ضُنَّة بتشديد النون بن عبد بن كبير بن عذرة بن سعد العذري الشاعر المشهور
صاحب بئينة العذرية وهو أحد عشاق العرب ، وهو ليس جميل بن معمر الجمحي
الصحابي فإن ذلك ابن عبد الله بن مَعْمَرٍ والصحابي ابن معمر من بني جمح
والعاشق من بني عذرة ، وكان من خبره أنه علق ببئينة وهو غلام فلما كبر خطبها
فرده أبوها فقال الشعر فيها وكان عفيفاً ديناً كما ذكر ابن عساكر . ومعلوم أن بني
عذرة اشتهروا بالعشق حتى ضرب بهم المثل في ذلك وأشعاره كثيرة مشهورة مثبتة
في ديوانه ومنها قوله « رحمه الله » .

وإني لأَرْضَى مِنْ بُيِّنَةٍ بِالَّذِي لَوْ ابْصَرَهُ الْوَاشِي لَقَرْتُ بَلَابِلُهُ
بِلَا وَبِأَلَا أَسْتَطِيعُ وَبِالْمُنَى وَبِالْأَمَلِ الْمَرْجُو قَدْ خَابَ آمَلُهُ
وَبِالنَّظَرَةِ الْعَجَلَى وَبِالْحَوْلِ تَنْقُضِي أَوَاخِرُهُ لَا نَلْتَقِي وَأَوَائِلُهُ

وتوفي جميل سنة إحدى وثمانين ، ولما بلغت وفاته بُيِّنَةُ صَعِقَتْ ثُمَّ أَغْشِيَتْ عَلَيْهَا
سَاعَةً ثُمَّ قَامَتْ وَهِيَ تَقُول :

وإنَّ سُلُوِي عَنْ جَمِيلٍ لَسَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ مَا حَائِثٌ وَلَا حَانَ جِيئُهَا
سَوَاءٌ عَلَيْنَا يَا جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ إِذَا مِتَّ بِأَسَاءِ الْحَيَاةِ وَلِيئُهَا

[فَلَوْ رَأَاهَا الْأَصْنَمِيُّ خَطَّهَا كَيْ يَسْتَفِيدَ بِسَوَادِ الْحَدَقِ]
[أَوْ فَتَحَ الْفَتْحُ عَلَيْهَا طَرْفَهُ سَامَ قَلَائِدِهِ بِالْثَمَرِ]

ذكر الفتح وقلائده

هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي الأديب المشهور صاحب التأليف منها كتابه « قلائد العقيان » جمع فيه من « شعر شعراء » المغرب طائفة كبيرة وتكلم على ترجمة كل شاعر جاء بشعره بالطف عبارة وأحسن إشارة ، قال أبو الخطاب ابن دحية في كتابه المطرب في أشعار أهل المغرب : إني لقيت جماعة من أصحابه وحدثوني عنه وعن تصانيفه وعجائبه ، وكان خليع العذار في دنياه وكان كلامه في تأليفه كالسحر الحلال والماء الزلال ، قتل ذبيحاً في مسكنه بفندق بمراكش صدر سنة تسع وعشرين وخمسائة وكان قتله بأمر أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين ، وهو أخو أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألف له الفتح قلائد العقيان وقد ذكره في خطبة الكتاب ، كذا في ابن خلكان :

[أَوْ وَصَلْتُ لِلْمُوصِلِيِّ فِيمَا مَضَى عِنْدَ الْغِنَا بِغَيْرِهَا لَمْ يَنْطِقْ]

ذكر الموصلی

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ماهان بن بهمن بن نسل التيمى ولأب الأرجاني أصلاً المعروف بابن النديم الموصلی ، كان من ندماء الخلفاء من بنى العباس وله الظرف المشهور والخلاعة اللذان تفرد بهما .

وإسحاق هذا ذكر الأصفهاني أنه كان من أهل العلم « والله تعالى أعلم » برواية الأصفهاني .

وإسحاق الموصلی هو الذي صحح أجناس الغناء وطرائقه وميزه تمييزاً لم يسبق إليه وكانت ولادة إسحاق الموصلی سنة مائة وخمسين للهجرة وكانت وفاته في رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين للهجرة .

نبذة عن الغناء

اعلم أن العرب قبل الإسلام لم يكونوا يغنون غناء بديع الصنعة ولا مطرباً ، ذكر أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني أن غناء العرب كان جارياً مجرى الإنشاد إلا أنه يقع بتطريب وترجيع يسير ورفع للصوت .

وفي المستطرف أن غناء العرب كان على ثلاثة أوجه : النَّصْبُ والسَّناذُ والهَزَجُ ، فأما النَّصْبُ فغناء الفتيان والركبان ، وأما السَّناذُ فالثقيل الترجيع الكثير النغمات ، وأما الهزج فالحفيف كله وهو الذي يستفز الوقور ويهيج الحليم ، قال في الأصل : والظاهر أن هذا كان غناءهم بعد الإسلام أما قبل الإسلام وعلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين فلم يكن في غنائهم كثرة نغمات ولا ما يَسْتَفِزُّ الوقور ، بل كان جارياً مجرى الإنشاد كما قال أبو الفرج وهو أدري بهذا الشأن من غيره اهـ .

ولما وقعت الفتوحات الإسلامية واستولى المسلمون على ملك فارس وسبوا أبناءهم وورثوا حضارتهم سمعوا غناء عبيدهم وإمائهم منهم بمكة والمدينة وغيرهما من الأمصار فعشقه لأنه كان ألد من غنائهم فحذوا حذوه ولحنوا عليه أشعارهم محاكين له فقط من غير إتيان به على وجهة الفارسي لأن العجم كانوا يغنون غناء هندسياً والعرب يغنون غناء طبيعياً إلا أنه جاء بعد المحاكاة لغناء العجم ألد وأطرب من غناء العجم .

وأول من غنى هذا الغناء العربي المحدث بالمدينة طوَيْسُ الْمُخَنَّثُ ، ذلك أن عمر — رضى الله عنه — جعل لسبي الفرس يومين يستريحون فيهما من الشهر فكان طويس يغشاهم حتى فهم طرائفهم وغنى غناء يشاكل غناءهم .

طريقة : طويس هذا ولد يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفطم يوم توفي أبو بكر الصديق وختن يوم توفي عمر بن الخطاب وبنى بأهله يوم قتل عثمان ابن عفان وولد له يوم قتل على — رضى الله عنه — ، ولذا قيل فيه أشأم من

طويس . وأول من غنّى بمكة سعيد بن مسجح مولى بنى جمح أو هو مولى لبنى مخزوم وذلك أنه مر بالفرس بينون المسجد الحرام أيام ابن الزبير فسمع غناءهم بالفارسية فلحن عليه شعر العرب ، وذكر أبو الفرج أنه رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم . واعلم أن ألحان العرب كانوا يوقعونها في أكثر أحوالهم على ثمانية ألحان :

الثقيل الأول وخفيفه ، والثقيل الثاني وخفيفه ، والرمل وخفيفه ، والهزج وخفيفه .

قلت : وعلى شية هذه الأضراب كان الطرب الحالى بموريتانيا فإنه مبنى عندهم على ثمانية أضراب يسمونها بلهجتهم الدارجة كالتالى :

١ — كَرَّ بفتح الكاف وسكون الراء ، وهو ضربان :

أ — لَكَحَالْ بفتح اللام وسكون الكاف وفتح الحاء الممدودة بعدها لام ساكنة .

ب — لَبَيَّاطْ — بفتح اللام وبعدها باء ساكنة فياء مفتوحة ممدودة فطاء وهو تصحيف البياض بلهجتهم ، والأول عبارة عن الثقيل الأول والثاني عبارة عن خفيفه ويعبر الموريتانيون بهذا الضرب عن طور الشباب الجنوني المتدفع فى الطرب من غير تفكير فى شىء ما .

٢ — وَيُسَمَّى بلهجتهم الدارجة فَاقُو ، بفاء ممدودة بعدها قاف مضمومة ممدودة ، وهو ضربان :

أ — لَكَحَالْ ، ويسمى أيضاً عَرَّائى السُرُوزْ بعين مفتوحة فراء مشددة ممدود فياء ساكنة فسين ساكنة فراء مضمومة ممدود فراء ساكنة ، ومعناه عندهم أنه موجب لقتل الفرسان لما يبعث فيهم من التحمس حتى يحمل أحدهم نفسه على الموت .

ب — لَبَيَّاطْ ، ويدعى أيضاً بِالتَّحْرَارْ : والأول عبارة عن الثقيل الثاني والثاني عن خفيفه ويعبر الموريتانيون بهذا الضرب عن طور استواء المرء وبلوغه أشده واندفاعه

يعمل لمستقبله الدنيوى والأخروى ، لذلك فإنه هو المناسب عندهم إنشاده فى الحروب وأثناء الأعمال الشاقة لما تحمل نغماته به على الاندفاع .

٣ — ويسمى بلهجتهم الدارجة سَنِيْمَه ، بسين مفتوحة فنون مضغومة فى الياء الممدودة بعدها وبعدها-ميم مفتوحة فهاء غير منطوقة فى دارجتهم ، وهو ضربان أيضاً :

أ — لَكْحَال ، والثانى — لبياظ ، وهناك قسم ثالث فى هذا الضرب يدعونه الزَّرَاق بزأى تنطق متفشية غير فصيحة ، ولا يستطيع ضرب العود فيه إلا الفنان الماهر لأنه مزدوج بين الضربين من نفس النوع متولد بينهما ، وإيضاح ذلك أن ما يسمى لكحال ينبغى له شد الأوتار والتركيز فيها على ضرب القصار وعكس ذلك ما يدعى لبياظ فإنه ينبغى له إعطاء الأوتار نَفْساً والتركيز فيها على الطوال .

وما يسمى بالزراق يكون الضرب والتلحين فيه مزيجاً بين هذا وهذا ، وذلك ما يعطيه نوع صعوبة فنية ، وهذا الضرب الثالث فى مقابل الرمل وخفيفه ويعبر الموريتانيون بهذا الضرب الثالث الذى يدعى سنييمه عن طور الكهولة واشتياق المرء وحنينه إلى أطوار فتوته فهو لذلك ينمى نفسه . والضرب فى هذا النوع والتغريد فيه خطر كل الخطورة على الموريتاني المغترب فهو مدعاة لشوقه لوطنه وذويه .

٤ — لَبْتِيْت ، بلام مفتوحة فباء ساكنة فتاء مفتوحة فياء ساكنة فتاء ساكن وهو طبعاً بالدارجة الموريتانية ، وهو ضربان أيضاً ، لكحال ولبياظ ، وفى كل واحد منهما جوانب وضروب ومسميات يطول استقصاؤها وهو عبارة عن الهزج وخفيفه ولست بالمحل الذى يخولنى التفصيل فيها والدخول فى ذلك ، وكذلك كل الأضراب السابقة ويعبر الموريتانيون بهذا الضرب عن انتهاء حياة المرء وبكاء ذويه عليه ولذلك فإن أكثر ما تنشد فيه المراثى .

وعلى كل حال فإن الفن الموريتاني بالغ أوجه يتذوقه من أعطى معرفة منه فإنه

يتجاوب بطبعه بكل سهولة مع الرنات والنغمات ، وحيث تختل زنة أو نغمة واحدة منها يرى لها حساً مؤلماً في نفسه ونفوراً في طبعه ، والفنان الموريتاني يستطيع أن يجعل أوتاره تخال تنطق تجاوباً معه بما يردده من نغمات ، ألا تسمع إلى قول شيخنا العلامة المرحوم أمير المؤمنين في اللغة العربية وأدبها على الرغم من اشتهاؤه بالعلوم الشرعية ، الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني ثم اليعقوبي في قصيدته التي وَدَعَ فيها الشعر وإنشاء وإنشاده ، فقد حدثني عليه « رحمه الله » أنه أنشأها وهو ابن خمس وعشرين سنة ، قال رحمه الله :

أنقذت من داء الهوى بعلاج شياً يزين مفارقي كالتاج
قد صد بي حلم الأكابر عن لمى شفة الفتاة الطفلة المغناج
ماء الشبية زارع في صدرها رمانتى روض كحق العاج
إلى أن قال ، وهو محل الشاهد :

أو ذات عود أنطقت أوتارها بلحون قول للقلوب شواجي
وتخال رنات المثاني أحرفاً قد رددت في الخلق من مهتاج
وكانها قد لقنت راناتها متحيزات حريمها الهياج
وقال ابن عمنا وخالنا المرحوم الشيخ محمد البيضاوى بن أمانة الله الجكني ثم اليوسفي ، قال في هذا القبيل :

تذيني نقط الأوتار من عود غالية الغيد من بيض ومن سود
إن حركت في جناب العود أصبُعها يجري من النفس مجرى الماء في العود
أو غرَّدت فعقول القوم ذاهلة كأنما شربوا من بنت عنقود

وقال ابن عمنا محمد الأمين بن ختار بن سيدى محمد بن بولبات الجكني مخاطباً فناناً يدعى ولد الزين .

ولد الزين زدت في البيت اشتهى نغمات وكنّ فيه عذاباً

ردد البيت إن في البيت بُرءاً وسقاماً ورحمة وعذاباً
إلى غير ذلك مما يتبين به بوضوح تذوق الموريتانيين لفنهم وتجاوبهم معه ،
وقد يطول المقام لو استرسلنا في جلله .

ولا تخفى عليك المناسبة بين هذا الفن الموريتاني وبين الفن العربي القديم
حيث إن الفن العربي ثمانية أضرب من ضرب أربعة في اثنين والثقل الأول والثقل
الثاني والرمل ، والهزج ، ويشئ كل واحد منهما بخفيفه والفن الموريتاني ثمانية
أضرب أيضاً من ضرب أربعة في اثنين ، وهي كر ، وفاقو ، وسنييمه والتبيت ،
وكل واحد منهما أكحاله وإياظه .

على أن هذا الفن الموريتاني على الرغم من مهارة أهله فيه فإنه مقصور على
آتين فقط .

هذا وأرجو المساعدة في عدم تمكني من إعطاء فكرة تظهر العجب العجائب
من الفن الموريتاني لأنني لست من أهل هذا الفن ولا يمكنني وضعي في المجتمع
الموريتاني من معرفة ذلك لأن الطائفة التي أنتمي إليها وهي طلبة العلم ممنوعة من
الإلام بشئ من ذلك شرعاً واجتماعياً وبالله تعالى التوفيق .

[أو ابن بسام رآها لتدا	رك الذخيرة بها عن ملق]
[ولا أديب من قرى أندلس	جرت بها أقلامه في مهرق]
[حصنتها بسورة الضحى إذا	هوى من المتحل المشتري]
[فالحمد لله الذي صيرها	إثم عني منصف موق]
[والحمد لله الذي جعلها	قدى بعين الحاسد الحفلق]
[ثم الصلاة والسلام مائت	ننت أم مهدي بروض مورق]
[على النبي وآله وصحبه	وتابعهم من مضى ومن بقي]

والحفلق كعملس هو الضعيف الأحمق .

وليكن هذا آخر ما نكتبه من هذا المختصر المبارك جعله الله خالصاً لوجهه
الكريم وسبباً يُتوصَّل به إلى جنة النعيم ، نرجوه سبحانه وتعالى أن لا يؤاخذنا
بذنوبنا وأن يكفر عنا سيئاتنا وأن يختم لنا بالسعادة إنه سميع مجيب وآخر دعوانا أن
الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وأصحابه ومن
تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وكان الفراغ منه يوم السبت الثامن والعشرين من
ربيع الثاني سنة سبع وتسعين وثلاثمائة وألف بمكة المكرمة زادها الله شرفاً والحمد
لله رب العالمين .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٣
ذكر الحداء وما قيل فيه	٧
ذكر القطا وهدايته	١٤
اسماء الشجر	١٧
نادرة في حكاية عن غرابية	٣١
لطيفة عن ذكر السلّقى	٣٤
ذكر الكسعى وندامته	٣٦
ذكر الفرزدق وندامة	٣٨
ذكر حنين وخفيه	٤١
ذكر ! ظالم وظلمه	٤٢
ذكر الأحنف والمنقرى وحكما	٤٩
سبب وزارة محمد بن عبد الملك الزيات للمعتصم	٥٣
ذكر جلق	٥٤
الأبلة	٥٥
ذكر ربيعة بن مكدّم حامى الطعينة	٥٧
ذكر نخلتى حلوان	٦٧
ذكر عمرو وصمصامته	٧٢
ذكر ابن أبي صفرة وابن الازرق	٧٤
ذكر لاحق وداحس	٨٠
حرب داحس والغبراء	٨١
ذكر نار الجباحب	٨٥
قصة قصير والزباء	٨٧
ذكر كليب وجساس	٩١
حرب البسوس	٩٤

٩٧ ذكر الابلق والخورنق
٩٩ ذكر نسب العرب
١٠١ الكلام على أن جميع العرب الموجودة من إسماعيل عليه السلام ، ودليل ذلك
١٠٢ ذكر نبذة عن ملوك اليمن
١٠٧ ذكر ابن خلدون
١٠٩ ذكر أبي الربيع سليمان الكلاعي
١١٣ لطيفة : في الكلام على اشياء تختلف اسمائها باختلاف اوصافها
١١٥ التعريف بابن الونان
١١٩ اختلاف العلماء في رفع الانساب
١٢٠ تتمه في الكلام على مدح الناظم نفسه
١٢٢ ذكر خاص الأسد وما قيل فيه
١٢٤ أول من قال البلاء موكل بالمنطق
١٢٨ ذكر سهم النيري
١٢٩ ذكر الحيرة وما قيل فيها
١٢٩ ذكر المتلمس وصحيفته
١٣٤ ذكر عرقوب ووعدته المكذوب
١٣٥ ذكر السموأل ووفائه
١٣٨ ذكر جار أبي داود
١٣٨ ذكر ابن شور
١٤٠ ذكر الهدهد والزرقاء وبصريهما
١٤٢ ذكر غفلة الواسطي والسهب فيها
١٤٣
١٤٥ كان من أمره
١٤٨ ذكر الصب والعقرب وما قيل فيها
١٤٩ ذكر غراب نوح وفند وبطنهما
١٥٠ ذكر طسم وجديس ومهلكهما

- ١٥٤ ذكر بيهس وفرسته
- ١٥٦ ذكر ابن قيس ووليته
- ١٥٨ لطيفة بمناسبة أخذ الإنسان بجريرة غيره
- ١٥٩ القول في الشطرنج والنرد وما يتعلق بها
- ١٦٥ ذكر أهل سبأ وخراب سدهم
- ١٧١ لطيفة : كان سيف الدولة الخ
- ١٧٣ ذكر حاجب وقوسه
- ١٧٥ ذكر جوف حمار
- ١٧٨ ذكر أبي غبشان وصفقته
- ١٧٩ ذكر أشعب
- ١٨٢ ذكر وafd المحرق
- ١٨٨ ذكر همام وما اتفق له مع بناته
- ١٩٠ ذكر المبرد أن لبيد بن ربيعة هبت عليه ريح بالكوفة الخ
- ١٩٢ ذكر الطالقاني
- ١٩٤ ذكر الحصيب
- ١٩٧ أول من قال العود أحمر
- ٢٠١ أول من قال غلٌ بدا مطلقها
- ٢٠٢ ذكر المختار بن أبي عبيد
- ٢٠٥ ذكر عرار وفاصحته
- ٢٠٦ ذكر الأشدق وفصاحته
- ٢٠٩ تنبيه : من الفروض الإسلامية الأمر بالمعروف
- ٢١١ ذكر العباس رضي الله عنه
- ٢١٣ ذكر أبي عروة وشبيب
- ٢١٦ ذكر وصية البكري لأخيه
- ٢١٨ ذكر رماة الحدق
- ٢٢٠ ذكر ضايى وابنه

٢٢٢	ذكر صاعد وما لقيه من حاسدية
٢٢٦	ذكر خالد بن يزيد وفخره بالعبير والنفير
٢٢٩	ذكر ابن أبي ربيعة ومجنه
٢٣٣	وقعة مؤتة واستشهاد جعفر رضي الله عنه
٢٣٥	ذكر من غزا أرض العدو بالخييل البلق
٢٣٧	ذكر يوسف بن عبد المؤمن بن علي وجوابه
٢٤١	ذكر الخنساء وبكائها
٢٤٥	ذكر خندف
٢٤٧	وأما خرنق
٢٤٨	وأما فارعة
٢٥١	ذكر بكاء متم والسبب فيه
٢٥٤	حجام سابط
٢٥٥	خطأ أبي حنيفة في خمسة أشياء علمه أياها حجام
٢٥٦	قوم موسى والمثل السائر فيهم
٢٥٧	ذكر الليث بن سعد أو شهب بن عبد العزيز
٢٦٠	ذكر البخاري والبيهقي
٢٦٥	لطيفة في سبب اعتناء كل من الكسائي وسيبويه بالنحو
٢٦٧	ذكر النطق والمذلق
٢٧٠	ذكر حسان بن ثابت رضي الله عنه
٢٧٢	ذكر ابن الأهمم والزبرقان وما جرى بينهما
٢٧٥	ذكر ع قتيلة ورثائها لقتلها
٢٧٧	ذكر كعب بن زهير رضي الله عنه
٢٨١	النايفة الجعدي رضي الله عنه
٢٨٢	ذكر بني أنف الناقة
٢٨٦	هرم بن سنان
٢٨٨	ذكر الحلق

- ٢٩٠ الربيع بن زياد وسبب انحطاطه
- ٢٩٣ ذكر بني العجلان وحط الهجاء منهم
- ٢٩٤ ذكر بني غير وحط الهجاء منهم
- ٢٩٦ جمرات العرب ثلاثة
- ٢٩٧ المعلقات وما قيل فيها
- ٢٩٩ مسائل ابن الأزرق
- ٣٠٠ الكلام على فضل الكتابة والشعر
- ٣٠٢ ذكر الأصمعي
- ٣٠٤ قصة الأموي ومن اقتدى به
- ٣٠٥ أبو الشقمق وذكره
- ٣٠٦ ذكر والد الناظم
- ٣٠٧ التعريف بالسلطان المدوح بهذه الأرجوزة
- ٣٠٨ ذكر الأشراف السجلماسيين
- ٣١٣ ذكر كعب بن مامة وابن سعدي
- ٣١٦ ابن جدعان
- ٣١٧ حاتم الطائي
- ٣١٨ معن بن زائدة الشيباني
- ٣٢٤ ذكر ابن تولب وتركه المديح والهجاء
- ٣٢٥ ذكر واصل بن عطاء
- ٣٢٨ العنقاء وبيض الأيتق
- ٣٢٩ ذكر جرير وجميل
- ٣٣٢ الفتح بن خاقان والموصلي
- ٣٣٣ نبذة عن الغناء

